Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر



ISSN: 2090 - 0449

أول دورية عربية رقمية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

رقمية الموطن
عربية الهوية
عالمية الأداء

Kan Historical Periodical

السنة الثامنة عشرة
العدد السابع والستون





مارس ٢٠٢٥ رمضان ١٤٤٦
https://kan.journals.ekb.eg



دورية كان التاريخية.- س١٧، ع٦٧ (مارس ٢٠٢٥/ رمضان ١٤٤٦)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 18, no. 67 [Mar. 2025]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٥ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2024.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



ISSN: 2090 – 0449 Online

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البيليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg

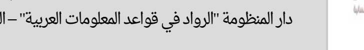


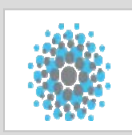
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

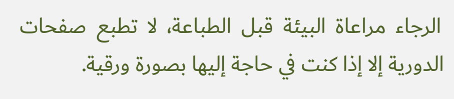
رخصة التشارك الإبداعي

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.





حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المُحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

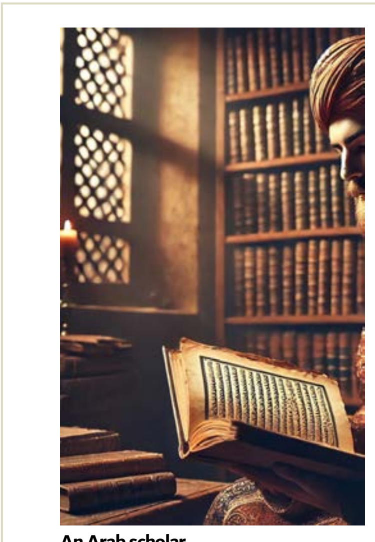
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



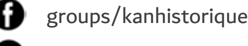
An Arab scholar
Source: AI

المراسلات

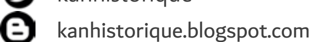
توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

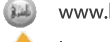

historicalkan


groups/kanhistorique

kanhistorique


kanhistorique.blogspot.com


goodreads.com/kanhistorique


www.kan.nashiri.net


https://kan.journals.ekb.eg



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

COPE

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

دَّورية كان التَّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان اَلْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشفة وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَورِيةُ كَان التَّارِيْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المُقيمّون والمُحكّمون

	الاسم	الجامعة	الدولة
أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَّسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقا)	سوريا
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية
  https://www.facebook.com/historicalkan
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرةً إلى رئيس التحرير:
  https://kan.journals.ekb.eg
  mr.ashraf.salih@gmail.com


مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ


كُتَّاب الْعَدَدِ



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الحياة البلدية لمدن موريطانيا الطنجية
مظهر من مظاهر الرومنة



د. هشام ابورك
باحث في التاريخ القديم والأركيولوجيا
وزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة
المملكة المغربية

مُلَخّصْ

لم تكن الحياة البلدية (la vie munipale) بمدن موريطانيا الطنجية سوى آلية من آليات سياسة الرومنة، فبعد إرساء الآلية الأولى المتمثلة في الرومنة القانونية –إحداث وضعيات قانونية جديدة لم تكن معروفة بالمجال المذكور: مستوطنات، بلديات ومدن أجنبية–، عمدت روما إلى نقل تجربتها البلدية التي ظهرت خلال العهد الجمهوري بالأراضي الإيطالية إلى المجال المغربي القديم انطلاقا من نهاية العهد الجمهوري وطيلة القرون الثلاثة الأولى للميلاد. ولتحقيق هذا الهدف ارتكزت السلطات الرومانية على نظام بلدي مركزي، وقوانين بلدية متنوعة، ونخبة محلية ضاغطة تشكلت من مختلف العائلات المترومنة، ومناصب بلدية متنوعة ومستحدثة، وغيرها من الركائز الأساسية التي ساعدت على تحقيق الرومنة البلدية، بعبارة أدق انصهار الساكنة المحلية للمدن في منظومة الحياة الرومانية بكل تجلياتها. وقد تبين أن الآثار الرومانية واضحة على مناحي الحياة البلدية المختلفة لمدن موريطانيا الطنجية. وقد اتخذت هذه التأثيرات، التي هي في حقيقتها رومنة واضحة، أبعادًا سياسية واقتصادية، واجتماعية، ودينية، وثقافية. فرغم استمرار اللغتين البونية والبونية الجديدة في التداول على المستوى الشعبي فيما يبدو بهذه المدن، إلا أن اللغة اللاتينية وجدت مكانًا لها ضمن فئات عريضة من المجتمعات المحلية للمدن، وهو الأمر الذي سهل عملية الإسراع في مسلسل الرومنة في الميادين المختلفة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٨	مايو	٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر:	١٠	يونيو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

موريطانيا الطنجية؛ الإمبراطورية الرومانية؛ الحياة البلدية؛ سياسة الرومنة.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.288011.1130 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام ابورك. "الحياة البلدية لمدن موريطانيا الطنجية: مظهر من مظاهر الرومنة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٤ – ٢٤.

Corresponding author: ibourkhicham9@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

لم تكتف السلطات الرومانية بالرومنة القانونية لمدن موريطانيا الطنجية، بمعنى تحويلها إلى مستوطنات وبلديات، بل إنها استكملت سياسة الرومنة الشاملة لساكنة هذه المدن من خلال رومنة الحياة اليومية أو ما يمكن تسميته برومنة الحياة البلدية لهذه المدن. لقد استنفرت روما مجالات هذه الحياة –سياسة، إدارة، اقتصاد، اجتماع، ثقافة، دين. لتحقيق اندماج أفضل وتثاقف مستدام لساكنة مغربية قديمة كانت بالأمس القريب تتبنى الإرث البوني منهجا لها.

أولاً: الرومنة السياسية والإدارية

مهدت روما لرومنتها السياسية والإدارية للمجال الموري بسلسلة من الإجراءات السياسية والسيادية، كان أولها فرض نظام الحماية على الممالك المورية كمرحلة أساسية نحو الهيمنة الشاملة للمجال المذكور، صاحَبها تغلغل روماني واضح على مستوى العملة المحلية التي عرفت تأثيرًا لاتينيًا جليًا. تلا هذه العملية إعادة تنظيم المجال الجغرافي، حيث بات القسم الغربي من موريطانيا[١] يعرف باسم موريطانيا الطنجية، بعدما كان بالأمس القريب يسمى موريطانيا الغربية. وانتهت باستجلاب النموذج المديني الروماني، أي الوضعيات القانونية المعروفة بإيطاليا والحديث هنا عن المستوطنات والبلديات[٢]، وإسقاطه على المدن الموريطانية التي كانت تتبع غالبيتها نظام الحكم البوني على ما يبدو.

ويعتبر النظام البلدي (le système municipal) أعمق تحول عرفته المدن الموريطانية خلال التغلغل الروماني على الإطلاق، وهو في حقيقته مسلسل رومنة سياسية وإدارية جد معقد وطويل الأمد. وقد تدخلت فيه العديد من الاعتبارات الداخلية والخارجية، وكذلك المحددات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية والثقافية. لم يعهده الموريون[٣] الذين ألفوا النموذج البوني[٤] المتجذر، رغم التشابه الحاصل على مستوى المناصب كما هو الشأن بالنسبة لمنصب الشوفيط. ويبدو أن إرساء النظام البلدي (la municipalisation) بالمجال المغربي القديم قد تزامن وخيار الرومنة الشاملة للمجال المذكور. ومن الملاحظ أن هذه الرومنة لم تكن بنفس الحدة التي شهدتها أقاليم أخرى مجاورة مثل البروقنصلية مثلا، إلا أنها تركت بصماتها على المشهد السياسي والإداري حتى بعد الانسحاب الروماني من موريطانيا الطنجية. ودون شك فإن الرغبة كانت جامحة لدى الرومان خلال بداية العهد الإمبراطوري الأعلى لمسح آثار وبقايا التأثيرات البونية (puniques) والبونية الجديدة (néopuniques).

وإذا كان فيفريي (P.A. Février) قد ركز في إحدى مقالاته على توسع الظاهرة العمرانية بشمال إفريقيا عمومًا واعتبارها العلامة الأكثر وضوحا لسياسة الرومنة[٥]، فإننا نعتبر سياسة إرساء النظام البلدي بموريطانيا الطنجية بوجه خاص مظهرًا سياسيًا وإداريًا مهمًا لسياسة الرومنة التي انتهجتها السلطات الرومانية بالمنطقة. وتحدث الباحث كاسكو (Gascou) في هذا الإطار عن الدور الكبير للأهالي الأكثر ترومنا في التنظيم البلدي للموريطانيتين[٦]. وتُعَدّ المدن التي تتمتع بوضعيات قانونية متنوعة، أي المستوطنات ذات القانون الإيطالي والروماني واللاتيني والبلديات الرومانية واللاتينية، من أهم تجليات النظام البلدي الروماني الذي نتحدث عنه في هذه الورقة. ناهيك عن التنظيم السياسي والإداري الذي تمتعت به هذه المدن، والتراتبية الوظيفية — المناصب البلدية- التي أسست لها من أعلى منصب بلدي، أي الدومفير، إلى أدنى موظف قد تعرفه.

لقد جاءت هذه النماذج لتحل محل النماذج ذات المؤسسات البونية، وحسب العديد من الباحثين فإن ولاية أفريقية كانت بونية أكثر منها رومانية خلال القرن الأول للميلاد، وتحولت انطلاقًا من القرن الثالث للميلاد رومانية أكثر منها بونية. والدليل على ذلك ما ورد في الوثائق الإبيغرافية المختلفة التي أكدت وجود مدن شمال إفريقية عمومًا ومغربية (خصوصا وليلي)، حافظت على المؤسسات البونية خاصة منصب الشوفيط. لقد استمرت النقائش باللغة البونية الجديدة خلال القرن الثاني للميلاد، وتواصلت عبادة الإله بعل حمون (Baal Hamoun)الذي شبه بساتورن (Saturne) في الانتشار كذلك بنفس المجال[٧].

وفي السياق ذاته يمكن الحديث عن الكوريات (curies) باعتبارها المؤسسات الأولى في مسلسل الرومنة السياسية والمؤسساتية. فقد كانت آلية أولية لاندماج الأجانب (peregrinus) داخل الحياة البلدية، راهنت عليها روما بشكل كبير في هذا الإطار، وأحاطتها بكثير من العناية والاهتمام، إذ ظهرت بشكل خاص في قانون بلدية إيرني اللاتينية (Municipium Flavium Irnitanum) بالبيتيكا. ولقد اعتبرت هذه المؤسسات البلدية شكلا جديدا من أشكال التمثيل السياسي على المستوى المحلي، كما عملت روما على نقلها ونشرها بالمجال الموريطاني(٨). وظهر الأمر جليًا من خلال المناصب البلدية المستحدثة، وعلى رأسها منصب حاكم المدينة أو الدومفير (Duumvir) الذي عوض الشوفيط (Suffète)(٩). فبعدما كان المنصب الأخير وراثيا قبل مجيء الرومان، كما توضح ذلك نقيشة عبارة عن نصب تذكاري عثر عليه بوليلي يظهر بجلاء أن عائلة هذا الشوفيط مارست سلطتها على الساكنة المحلية منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد(١٠)، أصبح انتخابيًا خلال حكم الرومان. كذلك تدل هذه النقيشة على وجود الشوفيط كمؤسسة بونية بهذه المدينة.

عرفت المناصب البلدية أيضًا تنوعًا كبيرًا فرضته مجالات الحياة اليومية بالمدن من جهة، وتوسع المجال الروماني من جهة ثانية. وأصبح الحديث عن الاختصاصات والمهام المحددة داخل المدن بعدما كان الأمر مقتصرًا على تلك المهمة فقط. لقد فرضت السلطات الرومانية، على المستوى الإداري بمجال موريطانيا الغربية واقعين إداريين جديدين، بعدما كانت المدن المستقلة والقبائل الحرة هي السائدة، وهما المدينة والإقليم اللذان تمت فيهما إعادة صياغة النظم الإدارية وأساليب التدبير المحلي. ونسجت بينهما علاقات وروابط متعددة، تراوحت بين التبعية تارة والتكامل تارة أخرى.

ثانيًا: الرومنة الاقتصادية

يتحدث الكثير من الباحثين الأوربيين عما أسموه الرومنة الاقتصادية لمجال شمال إفريقيا الروماني، وضمنه مجال موريطانيا الطنجية، وهكذا نجد تفرعات لهذه الرومنة مثل الرومنة الفلاحية والرومنة المالية والرومنة الصناعية وغيرها من المجالات الاقتصادية الحيوية التي احتلت لأجلها روما هذا المجال الممتد والغني في نفس الآن.

ويُعَدّ انتشار الضيعات (Villae) بالحواضر والقرى مظهرًا أساسيًا من مظاهر الرومنة الفلاحية بموريطانيا الطنجية. وهنا يمكن التمييز بين نوعين من الضيعات: ضيعات حضرية (villae urbanae) هي عبارة عن إقامات شيدتها النخبة الرومانية والأثرياء على غرار المنازل والإقامات الحضرية بالمدن(١١). وقد عرفت هذه الضيعات أوج انتشار لها حسب البعض خلال الفترة الممتدة من وفاة الإمبراطور تيبير (Tibère=14-37)، وإلى غاية مجيء الأسرة الفلافية (les Flaviens=69-96)(١٢)، ويبدو أن هذا النوع من الضيعات استمر خلال العهد الإمبراطوري الأسفل (Bas-Empire) بالنظر إلى ارتباطه الوثيق بالحياة البلدية للمدن. أما النوع الثاني فهو عبارة عن ضيعات قروية (Latifunda) تم تأسيسها من قبل ملاكين كبار على الأراضي العمومية (ager publicus)، واستغلت من طرف يد عاملة فلاحية، واعتمدت أساسًا على حقول الزيتون والكروم(١٣).

ويرى الباحث لوفو (Leveau) أن حضور هذا النوع الثاني من الضيعات يدل على وجود تغلغل لعدة أشكال رومانية لتطوير وتأهيل الفضاء القروي، فهي توضح اعتماد التقنيات الزراعية من قبل النخب الأهلية، وهو ما يتوافق مع الرومنة الاقتصادية(١٤). ولا ننسى ارتباطها بنمط استغلال زراعي جديد (Colonat) عملت روما على تثبيته بشمال إفريقيا عموما. وذهبت الباحثة حمدون (Hamdoune) أبعد من هذا عندما اعتبرت هذه الضيعات فضاء آخر للسلطة والحكم(١٥). انتشرت هذه الضيعات بربوع شمال إفريقيا الروماني، ففي الجارة موريطانيا القيصرية أبانت الحفريات التي قام بها الباحث لوفو (Leveau) بالعاصمة قيصرية، على أن "الفيلات" الأولى بالإقليم تعود لفترة حكم أوغست (Auguste=27av.-14ap)، ويقدم فيلا نادور (Nador) كنموذج في هذا الإطار(١٦). وتحدث الباحث أوجونيو (Hugoniot) عن امتلاك النخبة البلدية المحلية بالمدينة المذكورة لفيلات وضيعات داخل المجال الترابي

للمدينة[١٧]. ولم تُستثن موريطانيا الطنجية من هذه الضيعات، رغم غياب تأكيدات إبيغرافية، بالنظر إلى خصوبة الأرض وانتشار مساحات واسعة لأشجار الزيتون ودوالي العنب وبشكل خاص بالمنطقة الشمالية.

وهو ما أكدته الأبحاث الأثرية في مناطق عديدة بهذا الإقليم كما يوضح ذلك الجدول التالي:

جدول نماذج ضيعات موريطانيا الطنجية

المدينة	الموقع الأثري	اسم الضيعة	نوعها	الفترة التاريخية	المصدر
وليلي	بين وليلي ودار بلحمري	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM[18], II, 1957, p. 212.
	"باب تيسرا"	"باب تيسرا"	قروية	قبل القرن الرابع للميلاد.	BAM, V, 1964, p. 298.
سيدي قاسم	واد ردم	باب تيزرا	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 372.
بناصا	سهل الغرب	؟؟؟	حضرية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 374.
	عين الدالية	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 378.
ليكسوس	سي حاسين "الخميس"	؟؟؟	قروية	القرن الرابع	BAM, VI, 1966, p. 398.
	"بلاد جنان غازي"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 399.
	"عين موشيطا"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 399.
	"ملكية عبد القادر شابو"	؟؟؟	قروية	فترة أوغست ؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 402.
	"عين بودرعة"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 406.
	"كورات التليتة"	"كورات التليتة"	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 406.
	"إكنون"	"إكنون"	قروية	فترة أوغست أو القرنين II أو III	BAM, VI, 1966, p. 410.
	"بلاد السومة"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 420.
تنكي	" ضيعة دوبوا"	؟؟؟	قروية	القرن الرابع للميلاد.	BAM, V, 1964, p. 264.
ملاحظة: جل هذه الضيعات سجلت وجود بقايا آثار بنايات بها مما يوحي بوجود فيلات **(villae)**.					

تقدم لنا مدينة وليلي نموذجًا لإحدى الضيعات الواقعة بضواحي المدينة داخل إحدى الضيعات المهمة على ما يبدو، يتعلق الأمر بالفيلا القروية الرومانية المسماة "باب تيسرا" (Bab Tisra)، والتي أخليت على ما يبدو خلال القرن الرابع للميلاد، هذا ما تؤكده على الأقل اللقى الأثرية التي تم العثور عليها بعين المكان والتي تعود للفترة المذكورة. تتكون هذه الفيلا، من خلال تصميمها، من عدة مرافق وظيفية كمعصرة الزيتون والمطحنة والمخازن وأجزاء أخرى لم تحدد طبيعتها، والتي تبدو أنها مرتبطة بالأنشطة الزراعية للمنطقة. بالإضافة إلى مكان إقامة مالكها. إذ لا يمكن الحديث عن الضيعات الفلاحية بالقرى دون الحديث عن هذه الفيلات.

صورة تصميم
فيلا باب تيسرا القروية الرومانية بوليلي
نقلاً عن: Luquet, A. (1964). B.A.M., T. V, p. 299

وفي إطار الرومنة الفلاحية دائمًا، تتحدث إحدى الباحثات عن التقويم الفلاحي لجوليان (Julien) الذي يسمى كذلك بالتقويم الشمسي، والذي سعى من خلاله الرومان إلى التفريق بين مختلف مواسم السنة الفلاحية من حرث وغرس وحصاد، وتنظيمها[١٩]. ويتحدث الباحث كامبس (Camps) عن اعتماد سكان الريف لهذا التقويم ولفترات طويلة، حيث وظفوه خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد[٢٠].

كما يمكن الحديث عن الرومنة الصناعية، حيث شملت على سبيل المثال المعاصر وصناعة الأمفورات بالإقليم. فقد أكدت التنقيبات وجود أمفورات من نوع (Beltran IIB) بمدينة بناصا وعموم موريطانيا الطنجية، وذلك انطلاقًا من النصف الثاني من القرن الأول للميلاد وطيلة القرن الثاني منه حسب العديد من الباحثين[٢١].

ونالت الرومنة المالية حظًا مهمًا ضمن سياسة الرومنة الشاملة التي تبنتها روما بإقليم موريطانيا الطنجية، وظهرت الإرهاصات الأولى لها خلال القرن الأول قبل الميلاد من خلال إدخال اللغة اللاتينية وتضمينها القطع النقدية التي سكتها مدن موريطانيا الغربية. ويتحدث الباحث ألكسندروبولوس (Alexandropolous) عن أهم مراحل سياسة الرومنة النقدية، حيث بدأت المرحلة الأولى من سقوط قرطاج إلى غاية سنة ٤٠م، وتميزت بمحاولة الإدماج التدريجي للفضاء الشمال إفريقي داخل منظومة تهيمن فيها العملة الرومانية (سك العملة المحلية للمدن كان قائما). وامتدت المرحلة الثانية من عهد الإمبراطور كلود (Claude=41-54)، واتسمت بتزويد المدن المختلفة بالقطع النقدية الرومانية المتنوعة وذلك إلى حدود الأباطرة الأنطونيين الأوائل، مع ملاحظة أساسية تمثلت في توقف المدن عن ضرب نقودها المحلية بما في ذلك مدن موريطانيا الطنجية. أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فقد وصلت فيها الرومنة النقدية ذروتها مع الإمبراطور أنطونان التقي (Antonin le Pieux=138-161)، وأصبحت معها العملة بشمال إفريقيا عموما مترومنة بشكل كامل تقريبا[٢٢].

ويظهر أن توقف المدن عن ضرب نقودها المحلية خلال فترة احتلال إقليم موريطانيا الطنجية كان لحظة مفصلية، بعد اختراق مهم للغة اللاتينية إبان فترة حكم يوبا الثاني، مما يوحي بخضوع هذه المدن بشكل كامل للسلطة الرومانية من جهة، ورغبة ساسة روما في طمس

معالم الهوية المحلية وطي صفحة الماضي البوني (le passé punique).

كما ينبغي الإشارة إلى الدور الكبير الذي اضطلع به التجار ورجال الأعمال الإيطاليون (Negociatores) في سياسة الرومنة الاقتصادية. فقد أسسوا، حسب البعض، جمعيات داخل مدن الأقاليم البعيدة التي وصلوا إليها[٢٣]، والراجح أنهم ربطوا علاقات مهمة مع النخبة المحلية للمدن. ويمكن الوقوف عند الدور المبكر لهؤلاء بمدن موريطانيا الغربية من خلال قطع الأمفورات (Amphores) التي تؤرخ لفترة الجمهورية الرومانية[٢٤] والتي تم العثور عليها بمختلف مدن المجال المذكور[٢٥].

ثالثًا: الرومنة الدينية

عولت روما كثيرًا على الجانب الديني أو ما يمكن تسميته الرومنة الدينية لمجال موريطانيا الطنجية، فقد أسست لنظام ديني جديد لم يعهده شعب موريطانيا، وأحدثت هيئات كهنوتية جديدة في الوقت الذي كانت تعرف فيه شعوب المنطقة العبادة الوثنية المحلية أو الموروثة عن الحضارة البونية. وجعلت محور هذا النظام عبادة الأباطرة، بالإضافة إلى إحداث مناصب دينية بلدية لأول مرة بهذا المجال، يتعلق الأمر بمناصب الفلامين (Flamine) البلدي والإقليمي والأوغسطال (Augustale) والسيفيرا (Sevirat) والأوغور (Augure)، والتي خدمت بشكل كبير سياسة الرومنة.

من المؤكد أن مجال موريطانيا عرف تقديسًا وتبجيلاً للملوك المور خلال الفترات السابقة للوجود الروماني، لكن هذه العبادة لم تكن منظمة ومُمَأسَسة بشكل رسمي كما سيظهر عليه الأمر لاحقًا مع السلطات الرومانية. فقد اعتمدت روما على هذه العبادة باعتبارها حجر الزاوية في نظامها البلدي، وارتكزت على المؤسسات البلدية المحلية للمدن بشكل أساسي لإرسائها وضمان استمراريتها. ويبدو أن روما طبقت القاعدة الشهيرة: "كلما كانت الأقاليم أقل رومنة كلما تم إرساء عبادة الأباطرة باكرا"[٢٦]. ويكاد يجمع أغلب الباحثين على أن عبادة الأباطرة بمختلف مراكز ومدن شمال إفريقيا الروماني تعتبر أداة مهمة من أدوات سياسة الرومنة الدينية والعامة[٢٧]، ولم يقتصر الأمر على المدن ذات القانون الروماني كالمستوطنات والبلديات، بل تعداه ليشمل المدن الأجنبية على حد سواء[٢٨]، وهو أمر طبيعي على اعتبار أن السلطة الحاكمة الرومانية كان سعيها دائمًا وراء هذه الحواضر بهدف إدماجها وإدخالها ضمن فلك ومنظومة الإمبراطورية.

وسخرت روما لهذه العبادة مناصب دينية مستحدثة ولها وزنها داخل المدن والإقليم بشكل عام. ويعتبر منصب الفلامين البلدي والإقليمي أهم هذه المناصب على الإطلاق، وعرف هذا المنصب حضورا قويا بالكوريات باعتبارها نواة الحياة البلدية بالمدن، حيث قام مُتَقَلِّدُوه من الكهنة بالسهر على الاحتفالات والشعائر الدينية المقامة على شرف الأباطرة في المناسبات الدينية وغير الدينية. هذا بالإضافة إلى مناصب جديدة أيضا لكنها أقل شأنا من الفلامين، مثل منصب الأوغسطال والسيفيرا والأوغور، والتي يمكن اعتبارها مناصب تكميلية ومساعدة للمنصب سالف الذكر.

وإلى جانب البعد البشري المذكور سلفا، أضافت روما بعدا مكانيا لم يكن موجودًا سابقًا بمجال موريطانيا الطنجية وهو فضاء المعابد، وعلى رأسها الكابيتول (Capitolium)[٢٩]، هذه المعالم الدينية الهامة والأساسية في الحياة البلدية للمدن، والتي اعتبرت رمزا ملموسا لتطور وتغلغل سياسة الرومنة[٣٠]. كما ظهرت في جل مدن موريطانيا الطنجية، مثل معابد بناصا وسلا ووليلي التي تؤرخ لبداية القرن الثاني للميلاد[٣١].

ينضاف إلى ذلك، ظهور آلهة عمومية رومانية بمختلف المدن، كانت تقدم لها القرابين والإهداءات الرسمية وغير الرسمية، وهو ما لم يألفه الموريون في الماضي. وجاء الثالوث الكابيتولي على رأس هذه الآلهة، بمعنى: يوبيتر (Iupiter) ويونو (Iuno) ومنيرفا (Minerva)، والتي انتشرت جنبا إلى جنب مع عبادة الأباطرة. دون أن ننسى الآلهة التجريدية من قبيل الربات كونكورديا (Concordia) وفيكتوريا (Victoria) وديكيبلينا (Disciplina) التي ارتبطت بعبادة الأباطرة والعبادة العمومية بمدن إقليم موريطانيا الطنجية.

رابعًا: الرومنة الاجتماعية والثقافية

لم تسلم الحياة الثقافية والاجتماعية لسكان مدن موريطانيا الطنجية من التأثيرات الرومانية، ولعل أبرز تأثير يمكن تَلَمُّسه في هذا الباب هو منح المواطنة للسكان الأجانب (perégrins). فبعد أن كانت الساكنة المحلية تتمتع تلقائيا بالمواطنة الأهلية -المحلية-، جاءت روما لتضفي عليها طابع الغربة في البداية قبل أن تمنحها المواطنة الرومانية، مما شكل تحولا جذريا في الهوية المورية. ظهرت النتائج الآنية لهذا التحول على مستوى الأسماء، حيث أصبح كل مواطن روماني "طنجي" يحمل الاسم الثلاثي (tria nomina)[٣٢]، بعدما كانوا يحملون الاسم الأحادي متبوعا بلقب معين. واختفت الأسماء الليبية والبونية لصالح الأسماء اللاتينية والرومانية[٣٣]، وهو ما تظهره بجلاء مختلف النقائش اللاتينية الخاصة بالإقليم.

كما عرفت البنية الاجتماعية المورية تغييرات جمة، فقد ظهرت عائلات جديدة مترومنة حملت مشعل الرومنة المحلية وقامت بالدور الروماني في إدماج غير المترومنين. اعتبرها الباحث ألبيرتيني (Albertini) وكلاء نشيطين للرومنة[٣٤]. وتضاعف دورها بشكل تدريجي، ففي مدينة وليلي كانت العائلات الكبرى تعد على رؤوس الأصابع خلال السنوات الأولى للاحتلال، تمثلت في الكايكيليين (Caecilii) والفاليريين (Valerii) والفابيين (Fabii)، لكنها سرعان ما عرفت تزايدا ملحوظا في السنوات اللاحقة.

وطفت إلى السطح نخبة محلية - يمكن تسميتها النخبة البلدية- انبثقت عن هذه العائلات، مكنتها روما من المواطنة وامتيازاتها المتعددة، وامتلكت شيئا فشيئا سلطة المال والقرار داخل المدن لتنخرط بدورها في سياسة الرومنة. لقد شكلت هذه النخبة النموذج الذي استهوى الساكنة الأجنبية بالمدن، والتي لم تتوان في اقتفاء أثرها واتباع مسار ترومنها. ظهرت مع هذه النخبة ظاهرة اجتماعية جديدة ارتبطت بالحياة اليومية داخل المدن، إنها ظاهرة الوهب والمنح والعطاء (Evergétisme). لم تقتصر على الجانب الاقتصادي وحسب، بل شملت أيضًا الجانب الاجتماعي وكان لها دور كبير في الحياة العامة للمدينة. ويمكن اعتبارها مظهرا آخر من مظاهر سياسة الرومنة داخل المدن. بل إن أحد الباحثين اعتبر هذه التبرعات التي أنفقتها النخبة عاملاً مهمًا في سياسة الرومنة الحضرية للمدن الأجنبية[٣٥].

كما عرف المجال الثقافي بموريطانيا الطنجية العديد من التغيرات، شكل انتشار اللغة اللاتينية أهم معالمها الكبرى. فقد كانت هذه اللغة القناة الرسمية لتحقيق هدف الرومنة الذي سطرته روما منذ المراحل الأولى لغزو شمال إفريقيا عموما. وقد اعتمدت في نشر اللغة اللاتينية على مبدإ التدرج، حيث بدأت بالفئات الأكثر ارتباطا بروما — وجهاء المدن والقبائل والموظفين البلديين...- وعن طريق هذه الفئات وبفعل الاحتكاك اليومي مع باقي مكونات المجتمع، تمكنت روما من تمرير نشر لغتها، وفرض مقومات ثقافتها على عموم الساكنة. وقد ساهمت النقائش اللاتينية بدور فعال في هذا الصدد، على اعتبار أنها مرآة تعكس ثقافة المستعمر ووكلائه داخل المدن، وقد أرخت أولى هذه النقائش لفترة حكم الإمبراطور كلود، مما يجعلنا نعتقد بتركيز الساسة الرومانيين على الرومنة اللغوية والثقافية كبداية لمسلسل الرومنة العامة داخل إقليم موريطانيا الطنجية. ولا يجب أن نغفل كون اللاتينية كانت لغة الإدارة والمراسلات الرسمية. وفي السياق ذاته يعتبر الباحث لورو (Le Roux) أن إرساء النظام البلدي بالمدن يدخل ضمن استراتيجية تهدف إلى الإدماج الثقافي والاجتماعي للساكنة[٣٦].

ويتحدث بعض الباحثين عن دور المدارس والمسارح في مسلسل الرومنة الثقافية للمدن[٣٧]. وإذا كانت المعطيات النصية والأثرية والنقائشية بخصوص المدارس منعدمة بإقليم موريطانيا الطنجية، فإن المسارح في المقابل أكدتها الأبحاث الأركيولوجية في بعض المدن مثل ليكسوس، مما يوحي بدورها في رومنة الساكنة المحلية التي لم تعهدها من قبل. وظهر ما يعرف ببرنامج المدن الخاص بالاحتفالات والألعاب التي تقام بمسارح المدن على شرف الآلهة والأباطرة[٣٨]. وأصبح سكان مدن الإقليم يستفيدون من خدمات توفرها لهم الهيئات البلدية بموجب القوانين البلدية ذات الصلة، وذلك بعد

تشييد المرافق العمومية اللازمة من فوروم وكوري والمحكمة، والسوق، والحمامات، والمسارح.

خامسًا: الرومنة العسكرية

يُعَدّ الجهاز العسكري الروماني أداة مزدوجة لرومنة الأقاليم المحتلة، حيث تركت مختلف عناصر الكتائب والألوية التي رابطت بمدن هذه الأقاليم بصماتها على الساكنة المحلية غير المترومنة، وبالتالي أثرت فيها بشكل مباشر أو غير مباشر، من خلال اللغة والهندام والعادات والتقاليد المختلفة التي جلبتها معها هذه العناصر التي تحمل في غالبيتها المواطنة الرومانية. ومن جهة ثانية، فقد اسْتُقْطِبت وجُندت عناصر جديدة ومُنِحت المواطنة في أعقاب الخدمة العسكرية التي شكلت أداة فعالة لسياسة الرومنة[٣٩]. وارتبطت الرتب العسكرية والتدرج في مراتبها على ما يبدو أشد الارتباط بسياسة الرومنة، وفي هذا الصدد يرى بعض الباحثين أن ولوج النخبة الإقليمية لهيئة الفرسان رهين بدرجة رومنة هذه الأقاليم[٤٠]. ويعتقد أحد الباحثين أن الأقاليم التي أمدت الجيش الروماني بأكبر عدد من الفرسان هي الأقاليم الأكثر ترومنا، ويقدم إقليمي إسبانيا (Hispania) وغاليا النربونية (Gaule Narbonnaise) باعتبارهما إقليمين يحتلان الصدارة ضمن الأقاليم الغربية على مستوى أعداد الفرسان التي تتحدر منهوا[٤١]أدرجت السلطات الرومانية باحتلالها للمجال الموريطاني مفهوما جديدا على شعوب المنطقة، يتعلق الأمر بمفهوم الحدود. سواء ارتبط الأمر بحدود المستوطنات والبلديات، أو بحدود الإقليم. فقد عملت روما في الحالة الأولى على تغيير التنظيم الترابي والمجالي للمدن المحتلة من خلال عمليات المسح العقاري (Cadastration) وترسيم الحدود (Centuriation)، مما جعل الباحث لاسير (Lassère) يعتبر الأمر نوعا من أنواع الرومنة[٤٢]. وذهبت الباحثة حمدون إلى وجود تطور في سياسة الرومنة من خلال الدور الكبير الذي قامت به المستوطنات والبلديات أمام غياب توسع الحدود الجغرافية للرقعة المسيطر عليها من قبل روما خلال القرون الثلاثة الأولى[٤٣]. أما في الحالة الثانية فقد أنشأت روما ما يعرف بالليمس (limes) -حدود الإقليم-، وهي حدود لم تألفها شعوب المنطقة المذكورة، واعتبر الباحث أوزينا (Euzennat) أنها مرتبطة بمدى تطور وتقدم سياسة الرومنة[٤٤].

وظهرت من جهة أخرى بعض العادات العسكرية-البلدية، إن صح هذا التعبير، والتي أفصحت عنها الإبيغرافيا. وتتجلى في قيمة الوسام العمومي الذي كان يمنح للفرسان والقادة العسكريين خلال مزاولتهم لمهامهم داخل المدن أو خارجها[٤٥]، والراجح أن تكون المجالس البلدية المحلية أشرفت على منح هذا الوسام. لكن السمة البارزة فيما يتعلق بسياسة الرومنة العسكرية بموريطانيا الطنجية تتجلى في الدبلومات العسكرية. هذه الشهادات التي عرفت مدينتا وليلي وبناصا العدد الأكبر منها على مستوى الإقليم المذكور. كما أن هذه الدبلومات شكلت نسبة مهمة من النقائش، مما يدفعنا للاعتقاد بأنها كانت وسيلة أساسية لمنح المواطنة الرومانية للأجانب. وهو ما جعل الباحث توفنو (Thouvenot) يعتقد أنها تأكيد جديد لدور الجيش في مسلسل رومنة الإقليم[٤٦].

ومن خلال قراءة متأنية في مختلف دبلومات مدن موريطانيا الطنجية، والتي تؤرخ للفترة الزمنية الممتدة من الربع الأخير للقرن الأول للميلاد إلى أواخر القرن الثاني للميلاد، يتبين أن بنيتها الداخلية وديباجتها العامة وردت على الشكل التالي:

الافتتاحية الإمبراطورية: تتضمن اسم وألقاب الإمبراطور المانح للدبلوم.

المستفيدون: بمعنى الجنود المنضوون تحت لواء الجيش والمنتمون لمختلف التشكيلات العسكرية المرابطة بالإقليم، مع إبراز قائدهم وعدد سنوات خدمتهم بالجيش.

عبارة منح المواطنة: "منحت المواطنة" بتاريخ كذا، وفترة حكم الإمبراطور الروماني.

الفارس: كان لابد من تضمين الدبلوم اسم الفارس.

عبارة التحقيق: تعتبر العبارة الشهيرة في جميع الدبلومات تقريبًا: "نسخة محققة طبق أصل اللوحة النحاسية أو البرونزية المثبتة بروما بالكابيتوليوم (Capitolium) في أقصى اليسار للجهة التي توجد بها الوثائق العمومية.

الشهود: دائمًا ما كان يتم تذييل هذه الدبلومات بأسماء الشهود الذين حضروا هذا التشريف.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الدبلومات العسكرية، رغم كونها قاعدة بيانات مهمة للمجند لكونها تضم مساره المهني، إلا أنها شكلت وثيقة جديدة على المجندين من الفئات الأجنبية الذين لم يتعودوا على مثل هذه الوثائق، مما جعلها علامة مادية على مسلسل ترومن هذه الفئات.

خَاتِمَةٌ

تبدو إذن الآثار الرومانية واضحة على مناحي الحياة البلدية المختلفة لمدن موريطانيا الطنجية[٤٧]. وقد اتخذت هذه التأثيرات، التي هي في حقيقتها رومنة واضحة، أبعادًا سياسية واقتصادية، واجتماعية، ودينية، وثقافية. فرغم استمرار اللغتين البونية والبونية الجديدة في التداول على المستوى الشعبي فيما يبدو بهذه المدن، إلا أن اللغة اللاتينية وجدت مكانًا لها ضمن فئات عريضة من المجتمعات المحلية للمدن، وهو الأمر الذي سهل عملية الإسراع في مسلسل الرومنة في الميادين المختلفة كما رأينا بين ثنايا المقال الحالي.

الإحالات المرجعية:

(١) يُقصد بموريطانيا المملكة القديمة التي تقع شمال غرب القارة الإفريقية، والمجال الجغرافي للمغرب والجزائر حاليًا، والتي قُسِّمت إبان الاحتلال الروماني، وبالضبط خلال نهاية النصف الأول من القرن الأول للميلاد إلى إقليمين منفصلين: موريطانيا الطنجية وعاصمته مدينة تنكي، وموريطانيا القيصرية وعاصمته قيصرية.

(٢) حول الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية، انظر: ابورك، هشام. (٢٠٢٣). **الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية**، دار قرطبة للطبع والنشر، الدار البيضاء.

(٣) الموريون: الشعوب التي قطنت المغرب القديم.

(٤) يقصد به الحضارة القرطاجية التي امتدت من ٨١٤ ق.م. تاريخ تأسيس المدينة من قبل الفينيقيين، إلى ١٤٦ ق.م. تاريخ انهيارها أمام المد الروماني.

(5) Février, P.-A. (1996). Le fait urbain dans le Maghreb du IIIe siècle. Les signes d'une crise ?. In : La Méditerranée de Paul-Albert Février [recueil d'articles], Rome, (col. E.F.R., 225) p. 814.

(6) Gascou, J. (1982). La politique municipale de Rome en Afrique du Nord, I- De la mort d'Auguste au début du IIIe siècle, *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt*, II, 10-2, p. 158.

(7) Lepelley, C. (2005). Deux ruptures dans l'histoire de l'Afrique romaine : les Flaviens et les Vandales, *Pallas*, N. 68, p. 54.

(٨) Thébert, Y. (1978). Romanisation et déromanisation en Afrique : histoire décolonisée ou histoire inversée?. *Annales. Economies, sociétés, civilisations*. 33e année, N. 1, p. 69.

(٩) قاضيان تمتعا بالسلط السياسية والإدارية والقضائية والتنفيذية، كانا على رأس المدن البونية قبل مجيء الرومان كمدينة وليلي.

(١٠) Jodin, A. (1987). Volubilis, regia Iubae, Contribution à l'étude des civilisations du Maroc antique préclaudien, Paris, pp.210-211.

(11) Leveau, P. (1983). La ville antique et l'organisation de l'espace rural : villa, ville, village, *Annales*, *Economies*, *sociétés*, *civilisations*, 38e année, N. 4, p. 921.

(١٢) Homo, L. (1899). Le domaine impérial à Rome. Ses origines et son développement du Ier au IVe siècle, *Mélanges d'archéologie et d'histoire*, T.19, p. 117.

(١٣) Lamboley, J.-L. (1995). Lexique d'histoire et de civilisation romaine, Paris, Ellipses, p. 223.

(14) Homo, L., ibid. p. 932.

(15) Hamdoune, C. (2012). Le paysage du pouvoir dans les tribus de Césarienne d'après Ammien Marcellin, [L'*Africa Romana*, *Atti del XIX Convegno di studio*, Sassari 16-19 dicembre (2010)], Sassari, p. 947.

(16) Leveau, P. ibid., p. 923.

(17) Hugoniot, C. (2005). Peut-on écrire que les spectacles furent un facteur de romanisation en Afrique du Nord ?, *Pallas*, N. 68, p. 951.

(18) Bulletin d'Archéologie Marocaine

النشرة الأثرية المغربية.

(19) Boudouhou, N. (2004). La population de la région du piémont rifain entre le Loukkos et le Sebou (Maroc) de la période romaine à la période islamique. [*L'Africa Rom*ana, *Atti del XV Convegno di studio*, Tozeur, 11-15 diecembre (2002)], Sassari, pp. 617-618.

(20) Camps, G. (1984). Rex gentium Maurorum et Romanorum, Recherches sur les royaumes de Maurétanie des VIe et VIIe siècles, *Antiquités Africaines*, T. 20, p. 215.

(21) Arharbi, R. Lenoir, E. & alii. (2006). Recherches sur le quartier méridional de Banasa, [*L'Africa Rom*ana, *Atti del XVI convegno di studio*, Rabat, 15-19 dicembre, (2004)], Sassari, pp. 2142-2156. XVI, p. 2146.

(22) Alexandropoulos, J. (2005). Monnaie et romanisation en Afrique antique I er siècle av. J.-C. - II e siècle ap. J.-C., *Pallas*, T. 68, p. 203.

(23) Tran, N. (2014). Les hommes d'affaires romaines et l'expansion de l'Empire (70 av. J.-C-73 ap. J.-C.), *Pallas*, T. 96, p. 116.

(٢٤) الفترة التي تمتد من ٥٠٩ قبل الميلاد إلى ٢٧ للميلاد، وتشير أيضًا إلى نظام الحكم الذي ساد روما القديمة بعد نظام الملكية وقبل النظام الإمبراطوري، والذي كان أوليغارشيا من خلال سيطرة الأقلية الثرية على السلطات التشريعية والتنفيذية.

(25) Majdoub, M. (1996). La Maurétanie et ses relations commerciales avec le monde romain jusqu'au Ier s. av. J.-C., [*L'Africa Romana, Atti del XI Convegno di studio*, Cartagine 15-18 dicembre (1994)], Sassari, p. 297.

(26) Etienne, R. (1974). Le culte impérial dans la Péninsule Ibérique d'Auguste à Dioclétien, éd. De Boccard, Paris, p. 143.

(27) Clavel-Lévêque, M. & Lévêque, P. (1984). Villes et structures urbaines dans l'Occident romain, Seconde édition, Besançon, (Col. I.S.T.A., 288), p. 312.

(28) Kotula, T. & Michalak, M. (1976). Les Africains et la domination de Rome, *Dialogues d'Histoire Ancienne*, Vol. 2, p. 342.

(٢٩) سمي كذلك حسب إزيدور لأنه رأس (caput) المدينة ورأس ديانتها:
Isidore, Ety., XV, II, 31.

(30) Thébert, Y. (1973). La romanisation d'une cité indigène d'Afrique : Bulla Regia, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, (Antiquité)*, T. 85, p. 255.

(31) Brouquier-Reddé, V., ElKhayari, A., & Ichkhakh, A. (2006). Lixus, de l'époque phénicienne à la période médiévale : le quartier dit "des temples", [*L'Africa Romana. Atti del XVI convegno di studio*, Rabat, 15-19 dicembre, (2004)], Sassari, p. 1898.

(٣٢) على سبيل المثال ماركوس فاليريوس سيفيروس (Marcus Valerius Severus) أول حاكم لمدينة وليلي بعد أن تحولت إلى بلدية.

(٣٣) من الألقاب اللاتينية التي شاعت بمدن موريطانيا الطنجية، نجد:
Adlectus, Aelius, Afrinus, Albinianus, Amatia, Anicelliana, Antonianus, Anullus, Apollinaris, Ausonius, Balbus, Bubulcus, Caecilianus, Caius, Caligatus, Calvus, Capito, Cassianus, Catellus, Celsinus, Celsus, Cerialis, Clemens, Cogitatus, Commuinis, Concordius, Compitarius, Cornelianus, Crispus, Dativus, Domitianus, Donatus, Euventius, Emilianus, Fabianus, Faustus, Felicissimus, Felicitas, Felicisumus, Feliclus, Felix, Festus Flaccus, Flavinus, Florinus, Fortunatus, Fronto, Fauscinus, Gaetulus, Gallus, Gellianus, Gemellus, Germanillus, Germanus, Gracilis, Honoratus, Ianuarius, Ingenvus, Italus, Julianus, Julius, Junior, Iustus, Lacaetanus, Latro, Licinianus, Lucanus, Lucianus, Lucifer, Lucius, Lucillus, Lupercillus, Macedus, Manlianus, Manlius, Marcellinus, Marcius, Marcus, Marinus, Martialis, Masculus, Maternus, Matrona, Maturus, Maurus, Maximinus, Maximus, Mircellianus, Modestus, Nerva, Nonnus, Passer, Paterculus, Paternus, Paulinus, Peregrinus, Polionillus, Pmopeianus, Porcelus, Praefectus, Primitivius, Primus, Priscus, Proculinus, Primigenius, Pudens, Quadriatianus, Restutus, Rogatianus, Rogatus, Romanius, Rufus, Rusticillus, Sabinianus, Sabinus, Sallustianus, Sassius, Saturninus, Secundus, Senatus, Seneca, Senior, Servatus, Severus, Sixtinus, Silvanus, Suavillus, Suavis, Suetus, Summus, Ttirius, Tatius, Titullus, Titianus, Tuscus, Valerius, Valerianus, Varus, Venerinus, Vicarius, Victor, Victorinus, Vitalis, Ursulicus, Urbanu.

(34) Albertini, E. (1955). L'Afrique romaine, mise à jour par Louis Leschi, Alger, p. 41.

(35) Hugoniot, C. (2000). Rome en Afrique de la chute de Carthage aux débuts de la conquête arabe, Champs-Flammarion, Paris, p. 123.

(36) Le Roux, P. (1991). Le juge et le citoyen dans le municipe d'Irni, *Cahiers du Centre G. Glotz,* Vol. 2, p. 123.

(37) Feugère, M. & alii. (1998). Signes de la romanisation, *Revue archéologique de Narbonnaise*, T. 31, pp. 299-353., p. 327 ; Hugoniot, C. Peut-on écrire.., ibid., p. 257 ; Clavel-Lévêque, M. & Lévêque, P. Villes et structures.., ibid., p. 273.

(38) A.E., 1986, 333.

(39) Albertini, E. ibid., p. 47.

(40) Clavel-Lévêque, M., & Lévêque, P. ibid., p. 227.

(41) De Laet Sigfried, J. (1941). La composition de l'ordre équestre sous Auguste et Tibère, *Revue Belge de Philologie et d'Histoire*, T. 20, p. 521.

(42) Lassère, J.-M. (1977). Vbique Populus. Peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 av. J.-C.- 235 ap. J.-C.), Paris, Ed. C.N.R.S., p. 73.

(43) Hamdoune, C. (1995). Frontières théoriques et réalité administrative : le cas de la Maurétanie tingitane. In : Frontières terrestres, frontières célestes dans l'Antiquité, Paris, p. 257.

(44) Euzennat, M. (1990). La frontière romaine d'Afrique, *Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et et Belles-Lettre*, 134e année, N. 2, p. 565.

(45) IAM2, 424/425/427.

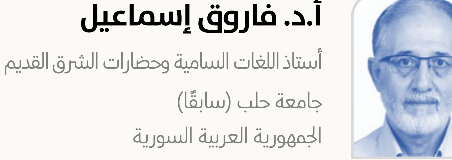
(٤٦) Thouvenot, R. (1942). Troisième diplôme militaire trouvé à Banasa (Maroc), *Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et et Belles-Lettre*, 86e année, N. 4-6, p. 179.

(٤٧) لمزيد من الإيضاح حول طبيعة هذه الحياة البلدية بمدن موريطانيا الطنجية انظر دراستنا: ابورك، هشام. (٢٠٢٤). جوانب من الحياة البلدية بمدن موريطانيا الطنجية، دار القلم للطبع والنشر والتوزيع، الرباط.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

تاريخ مدينة "جزر" الكنعانية
في ضوء النصوص الأكّدية



أ.د. فاروق إسماعيل
أستاذ اللغات السامية وحضارات الشرق القديم
جامعة حلب (سابقًا)
الجمهورية العربية السورية

مُلَخّص

كانت مدينة جزر (شمال غربي القدس، قرب الرملة) واحدة من أبرز المدن الكنعانية الكثيرة، التي تتمتع بحكم مستقل، خلال عصر العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م)، وتخضع للمملكة المصرية المتحالفة مع مملكة ميتاني في الجزيرة السورية، ويواجهان معًا أطماع المملكة الحثية في بلاد الأناضول، وسعيها للسيطرة على مناطق بلاد الشام عامة. تتضمن النصوص الأكّدية المكتشفة في تل العمارنة، جنوبي مصر، مادة وفيرة عن المدينة، تبين ولاءها لمصر، واستنجادها المتكرر بها لمساعدتها في ضبط الأوضاع، وحمايتها من هجمات البدو المتنقلين في بلاد كنعان عامة، ولكنها لم تلق استجابة. أما النصوص القليلة المكتشفة في الموقع نفسه فلا تقدم معلومات واضحة عن تاريخ المدينة، سوى أنها كانت خاضعة لسيطرة المملكة الآشورية في القرن السابع ق.م. ثمة اهتمام متميز بالتنقيب في الموقع، حيث تعمل بعثة أمريكية–إسرائيلية مشتركة منذ ٢٠٠٦، وفق مناهج علمية حديثة، مختلفة عن التنقيبات السابقة المتكررة، وتثمر جهودها عن مكتشفات ستحسن معارفنا عن تاريخ المدينة والمنطقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٣ يونيو ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٣ أغسطس ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الكنعانيون: النصوص الأكّدية؛ مدينة جزر؛ عصر العمارنة؛ التاريخ القديم

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.413969 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاروق إسماعيل, "تاريخ مدينة جزر الكنعانية في ضوء النصوص الأكّدية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة -العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ٢٥ – ٣٩.

Corresponding author: faroukism hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

ورد أقدم ذكر لتسمية كينَخْني ki-na-aḫ-ni(m) في نصوص ماري (تل الحريري، قرب البوكمال في سوريا) التي تعود إلى القرن الثامن عشر ق.م،[١] وكانت تُطلق على مناطق ساحل بلاد الشام، كما يتضح تماماً من سياق ذكرها فيما بعد ضمن نصوص من ألالاخ (تل عطشانه، جنوب شرقي أنطاكية في تركيا)، أهمها نص السيرة الذاتية للملك إدريمي في القرن الخامس عشر ق.م.[٢] ثم تكرر ذكر الاسم بهذه الصيغة في نصوص أكّدية من: نوزي، العمارنة، أوجاريت، إيمار، آشور، وكذلك في نصوص مصرية وحثية. ومنها اشتُقّت الصيغة "كنعان" الواردة في نصوص أوجاريتية من القرن الثالث عشر ق.م،[٣] وفي كتاب "العهد القديم" للإشارة إلى السكان القدماء في فلسطين،[٤] وفي نقش بوني من الحفرة (قرب قسنطينة في الجزائر) يعود إلى الفترة بين القرن ٣-١ ق.م.[٥]

كان الكنعانيون يقيمون في مدن عديدة تشكل معظمها كيانًا سياسيًا مستقلاً، في صيغة نظام الحكم القائم على "دولة المدينة"؛ كما كانت الحال لدى السومريين، وفي زمنٍ تالٍ في بلاد الاغريق. ولذلك فإن البحث في تاريخهم يتطلّب دراسة تاريخ تلك المدن أو الممالك الصغيرة وعلاقاتها البينية والخارجية، وهذا ما حصل في العديد من البحوث العربية.[٦] ومنها مدينة جزر (٢٥ كم شمال غربي القدس، قرب الرملة) التي لم تكن مركز كيان كبير، ولكن يبدو أنها كانت تؤدي دورًا سياسيًا متميزًا، وتتمتع بموقع استراتيجي مهم بين القدس ويافا.

يندرج موضوع البحث ضمن إطار التاريخ السياسي لمناطق بلاد كنعان، اعتمادًا على النصوص المدونة باللغة الأكّدية، وبالكتابة المسمارية. ويسعى إلى توضيح دور مدينة جزر في الأحداث الحاصلة في المنطقة؛ ولا سيما خلال عصر العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م). ويتمتع البحث في هذا الموضوع بأهمية خاصة تنبع من أنه يقدم إضافة إلى المشهد السياسي الذي يصور ممالك بلاد كنعان، ولم يكتب فيه بالعربية من قبل، ولم نجد عنه في البحوث الأجنبية، غير بحث واحد منشور في سنة ١٩٦٦، وهو ذو طابع عام، لا يفصل في الأحداث التاريخية المتصلة بالمدينة.[٧] وهناك بحوث أجنبية أخرى اهتمت بالجانب اللغوي والأسلوب الكتابي لمجموعة النصوص المتعلقة بالمدينة؛ وأهمها أعمال الباحث الاسباني جوان-بابلو فيتا.[٨]

ينطلق البحث من إشكالاتٍ عديدة تشكل موضع تساؤلات، يمكن اختصارها بالآتية: من هم حاكم مملكة جزر؟ كيف كانت علاقاتهم بالممالك الكنعانية الأخرى؟ كيف كانت علاقاتهم بالمملكة المصرية التي كانت تبسط نفوذها على المنطقة؟ وما نتائج ذلك وتأثيراتها؟ وهو يهدف إلى التفصيل في حقيقة ما كان يحدث، بجزئياته الدقيقة، ويربط بينها لبيان الصلة بالسياق العام للأحداث التاريخية السابقة واللاحقة. وسيكون ضمن ثلاثة محاور تعتمد على المتوافر من الشواهد النصية، ويسلك منهج استقراء النصوص، وتحليلها، واستنتاج المعلومات التاريخية منها.

أولاً: مدينة جزر في ضوء نصوص مراسلات العمارنة

مراسلات العمارنة هي وثائق محررة باللغة الأكّدية،[٩] والكتابة المسمارية، اكتُشفت في تل العمارنة (جنوبي مدينة المنيا المصرية بنحو ٥٠ كم) الذي يضم آثار مدينة آختِ آتون التي أمر ببنائها الملك أمنحتب الرابع/أخناتون (١٣٥٢-١٣٣٦ ق.م)، واتخذها مركزًا للحكم بدلاً من طيبة (الأقصر، في الجنوب). تعود النصوص إلى القرن الرابع عشر ق.م (بين نحو ١٣٦٠-١٣٣٦ ق.م)، وتتضمن رسائل ملوك كبرى ممالك الشرق القديم (ميتاني، خَتّي، بابل) وملوك آشور وأرزاوا وألاشيا، وملوك أو حكام المدن في بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن) إلى ملوك مصر من الأسرة الثامنة عشرة (أمنحتب الثالث، أمنحتب الرابع، توت عنخ آمون).

إنها تصور طبيعة علاقات مصر مع هذه الكيانات السياسية الكبرى والصغرى، وجوانب من العلاقات البينية لتلك الكيانات، والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فيها. ولذلك فهي تعد مصدرًا أساسيًا للبحث في تاريخ الشرق القديم عامة؛ خلال مرحلة من

القرن الرابع عشر ق.م. وتجدر الإشارة إلى الكشف عن تسعة نصوص في تل كامد اللوز (شرقي بلدة جب جنين، نحو ٥٠ كم جنوب شرقي بيروت، ذات صلة وثيقة بمراسلات العمارنة، محفوظة في المتحف الوطني ببيروت. ويمكن تأريخها بالسنوات الأخيرة من عصر العمارنة، أو بعد ذلك مباشرة، كما يتضح من أسماء الحكام المذكورين فيها.[١٠] وكذلك إلى وجود نحو ثمانين نصًا مشابهًا اكتُشف في مواقع فلسطينية عديدة، أبرزها نصوص تل تعنّك، مِجدّو، آفق، ومن بينها أربعة من موقع جزر.[١١]

إن أقدم المصادر الكتابية التي تُذكر مدينة جزر هي قائمة جغرافية بأسماء المدن تعود إلى عهد الملك المصري تحتمس الثالث (١٤٥٨–١٤٢٤ ق.م).[١٢] أما أقدم ذكر لها، ولأخبارها في المصادر الأكدّية فيرد في مراسلات العمارنة، وذلك ضمن أربع وعشرين رسالة؛ خمس عشرة منها مرسلة من حكامها إلى الملك المصري أمنحتب الرابع (العمارنة 297- 267-271, 292-295, 300, 272, 378)، وواحدة من الملك المصري إلى ملكي–لي/ لو أقدم حكامها المعروفين (العمارنة 369)، كما ترد أخبار متفرقة عنها وعن ملكها ملكي–لي في ثماني رسائل أخرى (العمارنة 249, 250, 253, 254, 273, 287, 289, 290).

١/١-رسائل الحاكم ملكي-لي

تُعدّ رسائل حاكمها ملكي–لي الأقدم بينها، وهي قصيرة ومتطابقة في مقدماتها. يبين للملك في الرسالة الأولى أنه ينفذ توجيهاته التي وصلت إليه، وأن الأوضاع في مدينته بخير، يقول:

u$_3$ lu-u$_2$ yi-i-de$_9$ LUGAL EN-ia DINGIR-ia (d)UTU-ia i-nu-ma ša-lim a-šar LUGAL EN-ia ša it-ti$_7$-ia

"وليت الملك، سيدي، إلهي، شمسي يعلم أن مكان الملك، الذي يتبع لي، بخير" (العمارنة ٢٦٧: ١٥–٢٠)

وفي الرسالة الثانية يكرر تأكيد حسن الأوضاع في مدينته، ويذكر الخبر التالي:

[u$_3$ a-nu-um-ma] uš-ši-ir]-⸢ti⸣ [i-na qa]-⸢at⸣ (m)ḫa-⸢ya⸣⸢46⸣ MUNUS ar-⸢di⸣.[MEŠ] u$_3$ 5 LU2.MEŠ TUR u$_3$ 5 LU2.MEŠ a-ši-ru-ma a-na LUGAL EN-ia

"أرسلتُ بيد خايا ستًا وأربعين امرأة....، وخمسة غلمان، وخمسة أسرى إلى الملك، سيدي" (العمارنة ٢٦٨: ١٥–٢١)

يتكرر الاسم خايا في نصوص عديدة، وفي سياقات مختلفة توحي بأنه كان هناك أكثر من شخص مهم بهذا الاسم، ولذلك ميّز ألبرايت Albright ثلاثة أشخاص بهذا الاسم، يرد ذكرهم في المراسلات، هم:[١٣]

١– المذكور في (العمارنة: ١١، ٢٦٨) وهو رسول الملك أمنحتب الرابع. وهو المقصود في هذه الرسالة.

٢– المذكور في (العمارنة: ١٠١، ١١٢، ٢٨٩) الذي شارك في أعمال عسكرية مع رب هدّا ملك جُبْلا، وفي مدينة خزّة.

٣– المذكور في (العمارنة ١٦٦) الذي تسلم رسالة ودية من عزيرو ملك أمورو، وعاصمتها صُمُر (تل الكزل، قرب صافيتا في الساحل السوري).

ويرد الاسم اختصارًا لاسم رسول آخر للملك أمنحتب الرابع، هو خامَشّي، في عدد من الرسائل (العمارنة11, 71, 255, 268).

ولا يتضح في النصوص موطن الأسرى المذكورين، ولكن شكوى حاكم أوروسليم (القدس) لدى الملك المصري، وحديثه عن تحالف يقوده حاكم جزر ضده، ويحتل مدنًا تابعة له، كما جاء في رسالة العمارنة ٢٨٧، يمكن أن يكون مرتبطًا بذلك.

أما الرسالة الثالثة فتشير إلى حاجة الحاكم إلى أمرين جديدين؛ قوات عسكرية ودواء، يقول فيها:

u$_3$ yu-uš-⸢ši-ra⸣ LUGAL be-li ERIN$_2$.MEŠ pi$_2$-⸢ṭa$_2$-ta⸣ a-na IR$_3$.MEŠ-šu ⸢u$_3$⸣ yu-uš-ši-ra LUGAL be-li ⸢ŠIM!⸣.ZAR.MEŠ :(GE$_{23}$) mu-⸢ur⸣-ra ⸢a-na⸣ ri-pu-u$_2$-ti

"ليت الملك، سيدي، يرسل القوات المحاربة إلى خدمه. وليت الملك، سيدي، يرسل (كمية من) نبات المُرّ لأجل التداوي" (العمارنة ٢٦٩: ١١–١٧)

ونبات المر (في الأكّدية، كما في العربية *Murr(um)*)[١٤] كان معروفًا في مصر، يستخدم في

التحنيط وفي معالجة أمراض معينة، استُحضر من بلاد الصومال أيام الملكة حتشبسوت (١٤٧٩–١٤٥٨ ق.م).[١٥]

ويشتكي ملكي–لي في رسالته التالية من أفعال المندوب الملكي يَنْخَمُ، ويعرض مشكلة قائمة بينهما، يقول:

yi-de LUGAL be-li ip-ši ša yi-pu-šu-ni
10) mia-an-ḫa-mu / iš-tu a-ṣi$_2$-ia / ⸢iš⸣-tu mu-ḫi LUGAL EN-ia / [i]-nu-ma yu-ba-[u$_2$?] / ⸢3?⸣ li-im ⸢KU$_3$⸣.BABBAR.⸢MEŠ⸣
15) iš-tu qa-ti-⸢ia⸣ /u$_3$ yi-iq-bu /a-na ia-ši id-na-⸢mi?⸣ /DAM-ka u$_3$ / DUMU.MEŠ-ka u$_3$ lu-u$_2$
20) ZAG! ma-ḫa-ṣa u$_3$ lu-u$_2$1 / yi-de LUGAL /ip-ša an-na-am /u$_3$ lu-u$_2$ yu-uš-ši;ra / LUGAL be-li
25) gišGIGIR.MEŠ u$_3$ lu-u$_2$ /yi-il$_3$-te-qe$_2$-ni /⸢a⸣-na mu-ḫi-šu la-a /aḫ-la-aq2

"ليت الملك، سيدي، يعلم بالأفعال التي يفعلها يَنْخَمُ بي، منذ عودتي من عند الملك، سيدي. ها هو يريد ألفي (ثقل) من الفضة من يديّ، ويقول لي: أعطني زوجتك وأبناءك، ودعهم يكونوا رهائن (كفالةً). وليت الملك يعلم بهذه الأفعال. وليت الملك، سيدي، يرسل عربات فتأخذني إليه، وإلا فسوف أُهلك" (العمارنة ٢٧٠: ٩–٢٩)

يُذكر يَنْخُم في الرسائل كثيرًا. ارتبط ذكره ببلاد يريموتا (مناطق الجزء الجنوبي من الساحل اللبناني)، التي اشتُهرت بوفرة الحبوب فيها (EA 83, 85, 86, 116)، وتشير الرسائل إلى أنه كان يقود قوات لها دور مؤثر، ويُطلب منه التدخّل العسكري مرارًا، أو للتحكيم في مشكلات خلافية (EA 105)، وكان يمتلك السلطة والقدرة على وضع حدّ للمتمردين أو المخربين (EA 215)، أو منع السفر إلى الملك في مصر، كما يتضح في رسالة عزيرو التي أرسلها رغبة في فتح صفحة جديدة من العلاقات مع مصر، و"الدخول في خدمة الملك، الشمس"، والتأكيد على ولاء بلاد أمورو لها (EA 171). ويبدو أنه كان يزور الملك المصري بين حينٍ وآخر (EA 127, 132, 283). وكان يَنْخَمُ موضع ثقة لدى الملك؛ لذلك كثيرًا ما كان الحكام يرجون الملك أن يسأله ويتحقق منه من صحة الأمر (EA 127: 23-25;131: 62; 132: 29-30; 271: 22-27).[١٦]

واشتُهر في بلاد كنعان باتصافه بالحكمة، وبمحبة الناس له؛ كما يصف رِب–هَدّا حاكم جُبْلا (جُبيل، شمالي بيروت)، يقول للملك المصري:

ša$_2$-ni-tam li-it-ri-iṣ a-na pa-ni be-⸢li⸣-[ia]
u$_3$ lu-wa-ši-ra mia-an-ḫa-mai-
na lu$_2$MAŠKIM$_2$-ši mia-an-ḫa-ma mu-ṣa-li-
il$_3$ LUGAL be-li-ia i-še$_{20}$-me$_2$ iš-
tu uzuKA LU$_2$.MEŠ-tu$_4$ LU$_2$ em-qu$_2$ šu-ut
u$_3$ gab$_2$-bi LU$_2$.MEŠ i-ra-ʾa$_4$-mu-šu

"ليته يكون مصيبًا في نظر سيدي؛ فيرسل يَنْخَمُ ليكون المندوب الملكي الحاكم فيها، (أقصد) يَنْخَمُ حامل مظلّة الملك، سيدي. لقد سمعت من أفواه الناس أنه رجل حكيم، وجميع الناس يحبّونه" (EA 106: 35-40).

واللافت للانتباه أن الرسائل لا تشير إلى مقر أو مدينة محددة له؛ كما هي الحال لدى المندوبين الملكيين الآخرين، بل نلحظ أنه كان يتحرك في نطاق جغرافي واسع، شمل: أمورو، جُبْلا، بلاد يَريموتا، بيخيلي، قِلتو، جزر، أُوروسليم.[١٧]

أما طلب يَنْخُم من حاكم جزر دفع كمية ضخمة من الفضة، وتسليم زوجته وأبنائه ليكون رهائن عنده فنرى أنهما أمران مرتبطان بالحرب بين جزر وأوروسليم، وأن دفع المال عقاب له على عدم الالتزام باتفاق أو توجيهات للمندوب بوقف الاعتداءات، وأن مسألة الرهائن من ضمن أسرة الحاكم إجراء احترازي يضمن التزامه، ويشير ذلك كله على اشتداد الصراع بينهما.

وفي رسالته الأخيرة يتحدث في موضوع جديد، ألا وهو اشتداد حرب الجماعات التي عُرفت بتسمية خبيرو "العفيرين" في النصوص الأكدية بـ Ḫapīr(um) عليه، وقد عُرفت باحتراف أعمال الشغب والنهب والارتزاق في عموم مناطق بلاد كنعان، وقبل ذلك في مناطق متفرقة من بلاد الرافدين، ولم يكن لها موطن معين أو أصل عرقي موحد، بل كانت فئة اجتماعية خارجة على النظام والقانون.[١٨] كما يعود للتلميح إلى عدم رضاه عن موقف المندوب الملكي يَنْخُم، بقوله:

⸢yi-ša-al⸣⸢LUGAL be-li⸣⸢(m)ia-an⸣-ḫa-ma ⸢IR$_3$⸣-šu⸢a-na⸣ ša yu-⸢pa⸣-šu i-na ⸢KUR⸣-šu

"ليت الملك، سيدي يسأل يَنْخَمُ خادمهَ عمّا يُفعل في بلاده" (العمارنة ٢٧١ : ٢٣-٢٧)

لقد كان معظم حكام بلاد كنعان يعانون بين فترة وأخرى من الهجمات المفاجئة لجماعة العفيرين، يواجهونها أحيانًا، ويهادنونها أحيانًا اتقاء لشرورها، ويستميلونها للوقوف معها. ولذلك فإن محاولة تحديد مواقفها من حكام المدن الكنعانية في ضوء المراسلات لا يوصل إلى نتائج ثابتة. ففي هذه الرسالة يشتكي ملكي-لي من حربها عليه، ونقرأ في رسالة خصمه عبدي-خِبا حاكم أوروسليم إلى أمنحتب الرابع أنه يتهمه بالتعاون مع العفيرين، يقول:

[a]-mur ip-ša an-ni-u$_2$ ip-ši mmil-ki-⸢DINGIR⸣u$_3$ ip ši DUMU.MEŠ la-ab-a-ya ša na-ad-nu KUR LUGALri <a-na> lu$_2$-mešḫa-bi-ri

"انظر! هذا الفعل هو فعل ملكي لي وفعل أبناء لبآيو، وهم الذين أعطوا بلاد الملك إلى العفيرين" (العمارنة ٢٨٧ : ٢٩-٣١)

يتضح من الشواهد النصية أن أبرز أحداث عهده كانت الآتية:

١- حربه على مدينة أوروسليم المجاورة، كما يتضح من شكوى حاكم أوروسليم (القدس) لدى الملك المصري من تحالف يقوده حاكم جزر ضده، ويحتل مدنًا تابعة له.

٢- حربه على مدينة جيتي بدلّا (تل الصافي، وسط المسافة بين القدس وعسقلان)، كما يتضح من شكوى بعل-قراد حاكم جيتي بدلّا من أعمال ملكي-لي وحليفه لبآيا حاكم شكم (تل بلاطه، قرب نابلس) (العمارنة ٢٤٩)، بل ومن ابني لبآيا بعد موته، إذ يتابعان أعمال أبيهما التخريبية، وملكي-لي متحالف معهما؛ كما كان مع أبيهما. جاء في إحدى رسائله:

la⸣-a yi-nam-mu-šu lu$_2$DUMU ši-ip-⸢ri⸣ [ša] mmil-ki-li$_3$ iš-⸢tu$_4$ mu⸣ ḫi 2 DUMU la-ab-a-⸢ya⸣ u$_4$-ma ⸢an⸣-nu-um a ⸢na ḫal⸣-li$_2$-iq KUR LUGAL EN-ia yu-ba-aʾ$_2$-u$_2$ m⸢mil-ki-li$_3$⸣ u$_3$ i-ia-nu-um pa-nu-ta$_5$ ša-⸢nu⸣-ta$_5$ a-na ia-ši LUGALra EN-ia i-ru-du u$_3$ a-wa-at yi-qa-bu ⸢LUGAL⸣ru EN-ia iš-te$_9$-mu

"إن رسول مِلكي لي لا يتحرك من عند ابني لبآيا. اليوم، ها هو مِلكي لي يحاول تخريب بلاد الملك، سيدي. أما أنا فليست لدي أية نيّة أخرى غير أن أخدم الملك، سيدي. وأصغي إلى الكلام الذي يقوله الملك، سيدي" (العمارنة ٢٥٠ : ٥٣-٦٠)

٣-انقلاب حليفه لبآيا عليه، فقد دخل مدينة جزر بشكل مفاجىء، ثم كتب إلى الملك المصري ليطمئنه ويطلب منه المغفرة على عمله الذي لا يعده هو ذنبًا، يقول:

a]-⸢na-ku⸣ IR$_3$ LUGAL-ri [ki-ma a]-⸢bi-[a-mur ia⸣ u$_3$ [a]-⸢bi a-bi⸣-ia IR$_3$ du⸢ša LUGAL-ri⸣ iš-tu⸢pa-na-nu-um⸣ u$_3$ ⸢la⸣-[a] ⸢ar-na-ku⸣⸢u$_3$ la-a ḫa⸣-ṭa$_2$-ku ⸢an-nu-u$_2$ ar⸣-nu-ia ⸢u$_3$ an⸣-nu-u$_2$ ⸢ḫi⸣-ṭu$_2$-ia i-⸢nu⸣-ma er?-ru-ba-⸢ti⸣ i?-na uru gaz-ri(ki) um-ma a-⸢na-ku⸣-mi yi-in$_4$-ni-nu-nu-mi LUGAL-ru u$_3$ a-nu-ma i$_{15}$-na-an-na ia-nu pa-ni ša-⸢nu⸣-ta$_5$ iš-tu ur-ru-ud LUGAL-ri ⸢u$_3$⸣ mi-⸢im⸣-ma ša ⸢yi⸣-iq-ta-bu ⸢LUGAL-ru iš-te⸣-mu ⸢li⸣-ip-⸢qi$_2$⸣-id-ni-mi$_3$ ⸢LUGAL⸣-ru i na ⸢ŠU⸣ LU$_2$MAŠKIM$_2$-⸢ia⸣ [a-na] na-ṣa-ri ⸢URU⸣ [LUGAL]

"انظر! أنا خادم الملك، مثل أبي وجدّي خادمي الملك منذ القديم. وأنا لست مجرمًا متمردًا، ولست مذنبًا. ها هو جرمي، وها هو ذنبي: عندما دخلتُ إلى مدينة جزر، هكذا قلتُ (لنفسي): (لا شك في) أن الملك سيغفر لنا. وها أنا ذا، الآن، ليست لديّ نيّة أخرى غير خدمة الملك. وأي شيء يأمر به الملك سأصغي إليه. ليت الملك يعهد أمري إلى يد المندوب الملكي لديّ، بغية حماية مدينة الملك" (العمارنة ٢٥٣ : ١١- ٣٣)

ويكرر لبآيا تأكيد صدق نواياه إزاء الملك المصري، والتزامه بالولاء والوفاء بالجزية، وإقراره بدخول مدينة جزر، بصيغ مماثلة لما جاء في الرسالة السابقة، وينفي الاتهامات الموجهة إليه، يقول:

a-nu-ma yi-ka-lu ka-ar-ṣi$_2$-ia2 ḫa-ba-lu-ma u$_3$ la-a yu-sa$_3$-an-ni qu$_2$ LUGAL-ru EN-ia ar-ni-ia ša-ni-tam i$_{15}$-ba-aš-ši ar-ni-ia i-nu-ma er-ru-ba-ti a-na uru gaz-ri u$_3$ aq-ta-bu pu-ḫe$_2$-ri-iš-mi yi-il-te-qu$_2$ LUGAL-ru mim-mi-ia u$_3$ mim-mi$_3$ (m)mil-ki-li$_3$ a-ia-ka-am i$_{15}$-de ep-še-et-šu ša (m)mil-ki-li UGU-ia

"ها هو يفتري عليّ ظلمًا، والملك، سيدي، لا يتحقّق من حقيقة جرمي. أمرُ آخر، جرمي يكون (التالي): عندما دخلتُ إلى مدينة جزر، قلتُ: الملك يأخذ كل شيء لي، جميعه. ولكن أين أشياء مِلكي لي، (لماذا لا

يأخذها)؟[١٩] أنا أعلم بأفعال مِلكي لي ضدي" (العمارنة ٢٥٤: ١٦–٢٩)

تلمح الجمل الأخيرة إلى أن دخوله المدينة كان بحثًا عن أشياء بدأ حليفه يخفيها عنه، وبذلك ينقض تحالفهما، فاستنكر ودخل. وربما كان دخوله احتلالاً، لذا راح يطلب من الملك المصري أن يوفد إليه مندوبه الملكي للتنسيق معًا؟

٢/١-رسائل الحاكم أدّا-دانو/ بعل شبطو

أرسل أدّا–دانو[٢٠] خمس رسائل إلى الملك المصري أمنحتب الرابع (العمارنة ٢٩٢–٢٩٥).

يؤكد له في الأولى (العمارنة ٢٩٣) ولاءه وتقيده بتوجيهاته، ويبين له أن ما سمعه، من شخص يصفه بعدو الملك، ليس صحيحًا، فهو ما يزال يبني المدينة التي سوف تأوي القوات المحاربة المصرية القادمة إلى المنطقة.

ويؤكد له في الثانية (العمارنة ٢٩٢) ولاءه المطلق بأسلوب تشبيهي طريف، يقول:

u$_3$ ti$_7$-na-mu-šu SIG$_4$-⸢tu⸣ iš-tu šu-pal tap-pa-
⸢te⸣-ši u$_3$ a-na-ku la-a i-na-mu-šu iš-tu šu-
pal 2 GIR$_3$.⸢MEŠ⸣ LUGAL EN-ia ⸢iš⸣-te-me$_2$

"وقد تتحرك آجرّةٌ من أسفل مثيلتها (الموضوعة فوقها)، وأنا لا أتحرك من أسفل قدمي الملك، سيدي" (العمارنة ٢٩٢: ١٣–١٧)

ثم يعلمه بحرب دائرة عليه من جهة المناطق الجبلية، وبأنه بنى مدينة (مستوطنة) لاستقبال القوات المحاربة المصرية وإسكانهم فيها، ولكن مايا المندوب الملكي المقيم في لاكيشا (تل الدوير، بين عسقلان والخليل)[٢١] أخذها منه، وعيّن فيها مندوبًا عنه. فكلّف رياناب المندوب الملكي في جزر[٢٢] بإعادة المدينة إليه. ينتقل بعد ذلك إلى موضوع آخر، هو الشكوى من أعمال الخطف التي يقوم بها بيا ابن (السيدة) كولاتي بين أبناء مدينته، فيقول:

ma-ni UD.KAM*.MEŠ-ti yi-šal-la-⸢lu-ši⸣
u$_3$ in$_4$-ne$_2$-ep-ša-⸢at⸣ [ki-ma]⸢ri⸣-qi$_2$ ḫu-bu-
⸢li⸣⸢a⸣-na ša-šu ⸢iš-tu⸣⸢ḪUR.SAG⸣⸢ip⸣-pa-ṭa$_2$-
ru LU$_2$.MEŠ i-na 30 KU$_3$.BABBAR.MEŠ u$_3$ iš-
tu mpe$_2$-e-ia i
na 1 ME KU$_3$.BABBAR.MEŠ u$_3$ li-ma-ad a-wa-
te.MEŠ IR$_3$-ka an-nu-ti

"كم يومٍ ظلّ ينهبها حتى جعلها تصير مثل قِدْرٍ مرهونٍ له؛ فالناس يُفتدون في الجبل مقابل ثلاثين (ثقلاً) من الفضة، أما من (بين يديّ) بيا فمقابل مئة" (العمارنة ٢٩٢: ٤٤–٥٢)

يبدو أن بيا، الذي يُعرّف بالنسب إلى أمه في رسالة أخرى أيضًا (العمارنة ٢٩٤)، كان يقود جماعات تخطف الناس، ثم تطالب بفديةٍ لإطلاق سراحها. وقد كثرت أعماله هذه، بحيث أنه جعل المدينة بمنزلة قِدرٍ خاص به، يأخذ منه المال.

ويؤكد في الرسالة الثالثة (العمارنة ٢٩٤) أنه يهتم بتوجيهات المندوب الملكي لديه، وهما متفاهمان. ثم يعود مرة أخرى للحديث عن تجاوزات بيا ابن (السيدة) كولاتي التي بلغت حد الخطر عليه، قائلاً:

LU$_2$.MEŠ-ia ⸢ša uš⸣-ši-ir-ti a-na ur-ra-di i-
na uruia-pu u$_3$ a-na na-ṣa-ri E$_2$-ti :(GE$_{23}$) šu-
nu-tiLUGAL EN-ia u$_3$ al-lu-u$_2$ il$_5$-qe$_2$-šu-nu
mpi$_2$-i-ia DUMU gu-la-ti u$_3$ yi-il$_5$-ma-
ad LUGAL EN-ia a-wa-at IR$_3$-šu an-nu-ta$_5$
šum-ma ⸢ki⸣-ia-am yi-iq-bu LUGAL EN-ia a-
na ia-ši iz-zi-ib-mi URU.KI-ka iš-tu pa-
ni mpi$_2$-i-ia u$_3$ lu-u$_2$ iz-zi-ba u$_3$ ⸢il$_5$⸣-la-
ka u$_3$ lu-u$_2$ ⸢ur⸣-ra-da LUGAL EN-ia
UD.⸢KAM⸣-ma mu-ša a-di ⸢da⸣-ri-ia-ta

"رجالي الذين أرسلتُهم للخدمة في مدينة يافو،[٢٣] ولحماية بيت الملك، سيدي، ها قد أخذهم بيا بن كولاتي. وليت الملك، سيدي يعلم بكلمات خادمه هذه: إن يقل الملك، سيدي لي مثل هذا: اترك مدينتك (هاربًا) من وجه بيا، فإنني سوف أغادر حقًا، وآتي، وأخدم الملك، سيدي نهارًا وليلاً، إلى الأبد" (العمارنة ٢٩٤: ١٨–٣٥)

وتتحدث الرسالة الرابعة عن تعرض مدينته لهجمات قوات من مدن عديدة، اختفت أسماؤها في النص لتهشم مواضع ذكرها، ماعدا صيدونا (صيدا، في جنوبي لبنان)، ويتمنى أن يقدم الملك الدعم العسكري له، ويعلمه بنيته القدوم إلى مصر، يقول:

[e]-⸢pi$_2$-iš ḪUL?.GAL$_2$? a-na⸣ tap-pi$_2$-[ia] u$_3$ li-
il$_3$-ma ad m⸢LUGAL⸣ ru ki-[ti-ia] ⸢u$_3$⸣ li-di-in$_4$-
mi$_3$ m⸢LUGAL⸣ru EN-[ia] 50 LU$_2$.MEŠ qa-
du 1 lu$_2$ IGI.KAR$_2$ EN.[NUN] a-na na-ṣa-
ri URU.KI :(GAM) ti-e-ti x u$_3$ a-nu-um-

ma ḫar-ra-ni-ia u$_2$-⸢še⸣-[er-ti?] u$_3$ pa-nu-ia a-na i-re-bi a-na ur-ru-ud mLUGAL-ri EN-ia

"مورس الشرّ بحقّ شريكي. وليت الملك يعلم بوفائي له، وليت الملك، سيدي يقدّم خمسين رجلاً مع قائد الحامية لحماية المدينة / التجهيزات، لأجل الملك. وها أنا ذا أجهّز قافلتي، وهدفي هو الدخول (إلى بلاد مصر) لخدمة الملك، سيدي" (العمارنة، الوجه الخلفي ٢٩٥: ٣- 10)

أما الرسالة الأخيرة (العمارنة ٢٧٢) فلم تكن صلتها بالحاكم أدّا-دانو واضحة في البداية، ثم تبين أنها مرسلة له، بعد التحليل المخبري للطين الذي شُكّل الرّقيم منه، وإعادة تدقيق قراءة النص في المتحف البريطاني.(٢٤) يتحدث فيها عن معاناة البلاد من هجمات جماعات العفيرين، يقول:

[yi]-⸢de LUGAL⸣ be-li [i]-⸢nu-ma⸣ ga-am-ru [lu$_2$-meš]⸢ḫa⸣-za-nu-te [ša-a] i-na ma-ḫa-⸢zi⸣ [u$_3$] ⸢pa⸣-aṭ-ra-at [ka]-⸢li KUR LUGAL⸣ ⸢EN-ia⸣ i-na [lu$_2$]-mešSA.GAZ

"ليت الملك، سيدي، يعلم أن حكام المدن الحصينة التابعة لسيدي قد استنفدوا (قواهم)، وأن كل بلاد الملك، سيدي قد انفصلت؛ بسبب العفيرين. (العمارنة ٢٧٢: ١٠-١٧)

يتضح مما سبق أن جزر كانت مركزًا لمندوب ملكي خاص، هو رياناب، وأن أبرز أحداث عهدأدّا-دانو كانت الآتية:

١- بناء مستوطنة (يسميها مدينة) مَنْخاتي لإيواء قوات محاربة مصرية ستأتي إلى المنطقة. وهي لا تُذكر في نصوص أخرى، ويرجح أن تكون غربي القدس.

٢- مواجهة حرب عليه من جهة المناطق الجبلية وغيرها، حتى صيدونا البعيدة.

٣- معاناته من أعمال خطف كان يقوم بها بيا ابن (السيدة) كولاتي بين سكان مدينته، ثم المطالبة بفديةٍ لتحريرهم.

٤- معاناة المنطقة من هجمات جماعات العفيرين.

وعلى الرغم من وفائه التام للملك المصري، والاستنجاد به مرارًا، إلّا أنه لم يلق استجابة، وظل يأمل قوات تدعمه.

٣/١-رسائل الحاكم يَبْخي

يَبْخي هو مرسل أربع رسائل إلى الملك المصري أمنحتب الرابع (العمارنة ٢٩٧-٣٠٠). تعكس رسالته الأولى أن الأوضاع في بلاده غير مستقرة، ويترقب مساعدة مصرية لمواجهة هجمات البدو السوتيين،(٢٥) يقول:

ša-ni-tam u$_3$ in$_4$-ne$_2$-ep-ša-ti$_7$ ki-ma ri-qi$_2$ URUDU (GE$_{23}$) si$_2$-ri ḫu-bu-ul-li ⸢iš⸣-tu qa-at ⸢lu$_2$⸣-meškur⸢su⸣-te.MEŠ u$_3$ a-nu-ma iš-te-me$_2$ sa ri ša LUGAL DUG$_3$.GA-ta u$_3$ it-ta-ṣa-at a-na ia-ši u$_3$ pa-ši-iḫ lib$_3$-bi-ia ma-gal

"أمرٌ آخر، لقد صرتُ مثل قدرٍ نحاسي (مهشّم) بسبب اعتداءات السوتيين. وها أنا ذا أسمع (عن) أنفاس الملك العذبة، وقد هبّت نحوي، وقلبي مطمئنّ جدًا" (العمارنة٢٩٧: ١١-٢١)

وفي رسالته الثانية يعلمه بأن أخيه الصغير تمرّد عليه، وراح يتعاون مع العفيرين ضده. ويطلب منه أن يكتب إلى المندوب الملكي ليتدخل في الأمر.

⸢li⸣-il-ma-ad ⸢LUGAL⸣ EN-ia i-nu-ma lu$_2$ ŠEŠ-ia TUR.⸢TUR⸣ na-ka-ar ⸢iš-tu⸣ ia-ši u i-ru-ub a-na urumu-⸢uḫ⸣-ḫa-⸢zi⸣ ⸢u⸣ na-⸢da⸣-an 2 qa-<ti>-šu a-na lu$_2$⸢SA.GAZ⸣ki ⸢u⸣ a-nu-⸢ma⸣ [i]-⸢na⸣-an-na nu-kur$_3$-⸢tu$_4$ UGU⸣-ia u mi-lik a-na KUR-ka ⸢li⸣-iš-⸢pu⸣-ra EN-ia a-na lu$_2$⸢ra⸣-bi-ṣi$_2$-šu UGU ⸢ip⸣-<ši> ⸢an-nu⸣-u$_2$

"ليت الملك، سيدي يعلم أنّ أخي الصغير صار معاديًا لي، وقد دخل إلى مدينة مُخَزّي، وأعطى يديه إلى العفيرين. ها هي ثمّة عداوة ضدي، فاهتمّ ببلادك. ليت سيدي يكتب إلى مندوبه عن هذا الأمر" (العمارنة ٢٩٨: ٢٠-٣٣)

لا تذكر مدينة مُخَزّي في نصوص أخرى، ويفترض وقوعها بالقرب من جزر، ولعلها تل أبو سلطان أو تل ماحوز جانب وادي روبين في فلسطين.(٢٦)

ويركز في الرسالة على مخاوفه تجاه خطر جماعات العفيرين المتزايدة، ويأمل أن يهتم الملك بالأمر، يقول:

a-nu-⸢ma⸣ da-an-nu lu$_2$SA.GAZ.MEŠ UGU-nu u uš-ši-ra :(GE$_{22}$) qa-at šu LUGAL ⸢EN⸣-ia3 ⸢it⸣-ti-ia u lu u$_2$ yi-it-ra-⸢ni? LUGAL!⸣ EN-⸢ia⸣

iš-tu qa-at lu$_2$ SA.GAZ.MEŠ la-a tu-ga-me-ru-nu lu$_2$SA.GAZ.MEŠ-tu$_4$

"ها هم العفيرون صاروا أقوياء إزاءنا، فليت الملك، سيدي يمدّ يده نحوي، وليت [الملك]، سيدي يسحبني من يد العفيرين، وإلاّ فإن العفيرين سيقضون علينا" (العمارنة ٢٩٩ : ١٧-٢٦)

أما الرابعة فتتضمن طلبه المساعدة الاقتصادية من مصر، لأن المواد الغذائية نفدت من بلاده. جاء فيها:

li-de-mi LUGAL⸣⸢EN-ia⸣ a-⸢na IR$_3$-šu⸣⸢TI.LA ḫal-qa iš-tu⸣ ⸢KUR-ia⸣ u a-<nu>-ma ia-nu ⸢mi-im-ma a-na ia-ši⸣

"ليت الملك، سيدي، يعلم عن خادمه أنّ المواد الغذائية نفدت من بلادي، وها أنا ذا لا أملك شيئًا" (العمارنة ٣٠٠: ١٠-١٤)

ويؤكد في رسالته الأخيرة ولاءه ووفاءه والتزامه التام بأوامر الملك المصري، بأسلوب الاستفهام التعجبي والاستنكاري. يقول:

u gab$_2$-bi mi$_3$-im-mi$_3$ ša ša-par$_2$ LUGAL EN-ia ⸢a⸣-na ia-ši gab$_2$-ba ⸢lu⸣-u$_2$ ep-pu-šu-mi$_3$ [u] ⸢ma-an⸣-nu-mi$_3$ a-⸢na⸣-ku UR.GI$_7$ [u ma]-an-nu ⸢E$_2$⸣-ia ⸢u ma-an⸣-nu ⸢URU.KI⸣-ia [u] ⸢ma⸣-an-nu ⸢gab$_2$-bi⸣ mi-im-mi$_3$ ša ⸢i-ba⸣-aš-ši a-na ia-ši u a-wa-te.MEŠ LUGAL EN-ia dUTU ⸢iš⸣-tu AN sa-mi$_3$-iu$_2$-⸢ul⸣ el$_2$-te$_9$-ne$_2$-em-me

"وكل شيء كتب الملك، سيدي، إلي، سأفعله كلّه. من أنا؟ أ كلبٌ! ومن هي أسرتي؟! ومن......؟! وما هو كلّ شيء موجود لديّ؟! حتى لا أصغي إلى كلمات الملك، سيدي، الشمس (المشرقة) من السماء دائمًا" (العمارنة ٣٧٨: ١٤-٢٦)

ويمكن تلخيص أبرز أحداث عهده المذكورة كالآتي:

١- معاناته من هجمات البدو السوتيين والعفيرين على مدينته ومناطق حكمه.

٢- تمرد أخيه الصغير عليه، بالتعاون مع العفيرين، وليست هناك معلومات أكثر تفصيلاً.

٣- مرور البلاد بأزمة اقتصادية.

٤/١-رسالة من الملك المصري إلى حاكم جزر

أرسل حكام المدن في بلاد كنعان عشرات الرسائل إلى ملوك مصر؛ إلّا أنهم لم يرسلوا إليهم سوى خمس رسائل؛ اثنتان يرجح أنهما من أمنحتب الثالث؛ إحداهما هذه الرسالة، والثانية إلى حاكم مدينة أميّا (أميون، جنوبي طرابلس اللبنانية) (العمارنة ٩٩)، وثلاث رسائل من أمنحتب الرابع إلى عزيرو ملك مملكة أمورو (العمارنة ١٦٢)، وإلى حاكم أكشابا (تل كيسان في سهل عكا) (العمارنة ٣٦٧)، وإلى حاكم أشقلونا (تل أو مدينة عسقلان) (العمارنة ٣٧٠). وهو أمر لافت للانتباه، يمكن تفسيره بأحد الاحتمالين:

- لم يكن الملك يأمر بكتابة رسائل باسمه شخصيًا، بل يملي توجيهاته شفهيًا على موظفين خاصين في البلاط الملكي، فيأمرون الكتبة بتحريرها، وإرسالها مع رُسُل ينقلونها إلى المندوبين الملكيين وحكام المدن. ومما يشير إلى ذلك أن الحكام ذكروا في العشرات من رسائلهم أنهم استلموا رسالة الملك، وأصغوا إليها باهتمام، إضافة إلى اكتشاف رسائل مشابهة لرسائل العمارنة في عدد كبير من المدن الفلسطينية؛ كما أشرنا في مطلع هذا البحث.

- يحتمل أن تكون الرسائل المكتوبة المرسلة من مصر قليلة، بسبب الاعتماد على الرسائل الشفهية التي كان ينقلها الرُّسُل والمترجمون؛ نظرًا لصعوبة التدوين، إذ لم تكن الكتابة المسمارية واللغات الأكدية والحورية والحثية شائعة في مصر.(٢٧)

أما تفسير سبب وجود الرسالة في مصر، وهي مرسلة منها فهو أن التقليد الشائع في المراسلات والوثائق الرسمية التي يشترك فيها طرفان؛ كالمعاهدات أيضًا، كان يقتضي أن يُحرر النص على نسختين، تُرسل واحدة ويُحتفظ بالثانية. ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك في عواصم ممالك أخرى، مثل خَتّوشا وأوجاريت وغيرهما. كما يوجد احتمال آخر، هو أن يكون قسم من الرسائل كتب، ولم يرسل، لسبب ما.(٢٨) أو أنها أرسلت ولم تصل، لسبب ما، أو أن النسخة المرسلة وصلت ولم تُكتشف بعد.

نقرأ في هذه الرسالة موضوعًا آخر مختلفًا عن موضوعات الرسائل السابقة كلها، فالملك المصري يرسل

إلى يَبْخي كمية من المواد النفيسة مع موظف عسكري مهم، ويطلب منه نساء جميلات يكنّ ساقيات لديه فيما بعد، يقول:

a-nu-um-ma um-te-še-ra-ak-ku mḫa-an-ia lu$_2$<UGULA> TUR$_3$ ERIN$_2$.MEŠ pi$_2$-ṭa$_2$-ti qa-du mi-im-ma a-na la-qe$_2$-e munus DE$_2$:(GAM) ša-qi$_2$-tu$_4$ SIG$_5$

"ها أنا ذا أرسل إليك خاني وكيلَ إصطبل القوات المحاربة،[29] مع كل شيء (يلزم) لاقتناء ساقيات جميلات..." (العمارنة ٣٦٩: ٤-٨)

u$_3$ uš-ši-ra munusDE$_2$.MEŠ SIG$_5$ da-an-ni-iš ša za-pu-ur-ti i-ia-nu i-na lib$_3$-bi-šu-nu u$_3$ li-iq-ba-ak-ku ⸢LUGAL EN⸣-ka ši-ia-tu$_4$ ⸢ba⸣-an-⸢tu$_4$⸣ KA ši-pir$_6$-ti
iš-pu-ru-ka u$_3$ lu-u$_2$ ti-⸢i⸣-de i-nu-ma ša-lim LUGAL ⸢ki-ma⸣ dUTU ERIN$_2$.MEŠ-šu ⸢gišGIGIR⸣.MEŠ-šu ANŠE.KUR.RA.MEŠ-⸢šu⸣ ma-gal šul-mu a-nu-um-ma yi-⸢ta⸣-din da-ma-nu KUR i-li-ti KUR šap-li-ti ṣi-it dUTU e-re-eb dUTU i-na šu-pa-al 2 GIR$_3$ LUGAL

"وأرسلْ ساقيات جميلات جدًا، لا يكون في داخلهنّ علّة، ليقول لك الملكُ سيدك: هنّ جميلات، وبحسب الطلب الذي أرسله إليك.

ولتعلم أن الملك بخير، كالشمس. وأن قواته، عرباته، أحصنته بخير جدًا. ها هو الإله آمون قد وضع البلاد العليا، البلاد السفلى، مشرق الشمس، مغرب الشمس، تحت قدمي الملك" (العمارنة ٣٦٩: 15-٣٢)

إن اسم الملك المصري المرسل غير مذكور في الرسالة، ولكن ثمة قرائن تشير إلى أنه أمنحتب الثالث،[30] هي الآتية:

- إسناد قوة حكم الملك، واتساع نطاقه إلى الإله آمون إله المملكة في عهده، وليس آتون الذي أعلن أمنحتب الرابع الدعوة إلى عبادته في عاصمته القديمة طيبة (القصر)، ثم إعلانه إلهًا رسميًا للبلاد في عاصمته الجديدة أخت آتون (تل العمارنة).
- كانت ظاهرة طلب نساء من بلدان أخرى؛ ولا سيما من بلاد الشام (آسيويات) شائعة في عهد أمنحتب الثالث، ولم تكن في عهد الرابع.

وكان أمنحتب الثالث مغرمًا بالنساء غير المصريات، فقد تزوج الأميرة الميتانية كِلو خِبا ابنة خاله الميتاني شترنا الثاني، وكذلك أخت الملك البابلي كدشمان إنليل الأول، كما سعى إلى الزواج من ابنته، ومن ابنة ملك بلاد أرزاوا. وأُرسلت له تادو خِبا ابنة الملك الميتاني تشرتا للزواج، ولكن الموت أدركه فعزّى أبوها الملكة تي، وقدّم ابنته هدية للملك الجديد. وتأتي هذه الزيجات في سياق المصاهرات السياسية الدبلوماسية لتوثيق العلاقات، ولكنها تعكس في الوقت ذاته أحد ملامح شخصيته.[31]

وتظهر رغبته في نساء من بلاد كنعان في الرسالة المرسلة إلى حاكم مدينة أميّا، التي يرجح أنها منه أيضًا؛ حيث يطلب منه إرسال ابنته له، ومعها الخدم والهدايا، يقول:

šu-ši-ir DUMU.MUNUS-ka ⸢a⸣-na LUGAL EN-ka u$_3$ šu-ši-<ir> IGI.DU$_8$.ḪI.A
⸢20⸣ IR$_3$.MEŠ SIG$_5$-ti$_3$⸢KU$_3$⸣.BABBAR gišGIGIR.MEŠ ANŠE.KUR.RA.ḪI.A SIG$_5$-ti$_3$ u$_3$ li-iq-ba$_2$-ku LUGAL EN-ka ši-ia-tu$_3$ ⸢ba-an-tu$_3$⸣ ša ta$_2$-ad-din-šu IGI.DU$_8$ a-na LUGAL EGIR DUMU.MUNUS-ka

"جهّز ابنتك للملك، سيدك، وجهّز الهدايا. (لتكن) عشرين خادمًا ممتازًا، فضةً، عربات، أحصنة ممتازة. ليقول لك الملكُ، سيّدك: هذه (أشياء) جميلة؛ ما تقدمه من هدايا إلى الملك، بصحبة ابنتك" (العمارنة ٩٩: ١٠-٢٠)

ويمكن أن نستخلص مما سبق أن حاكم جزر ملكي-لي عاصر الملكين المصريين أمنحتب الثالث والرابع، وأنه حكم فترة أطول من الحاكمين التاليين له في المدينة.

ثانيًا: نصوص مسمارية من جزر

يُعدّ موقع تل جزر من أكثر المواقع الفلسطينية التي لقيت الاهتمام بالتنقيب فيها، فقد عمل فيه كليرمون-جنّو Charles Clermont-Ganneau الذي كان يعمل مترجمًا في القنصلية الفرنسية في القدس سنة ١٨٧١، تلاه الإيرلندي روبرت مكاليستر Robert Macalister مدير جمعية استكشاف فلسطين بين ١٩٠٢-١٩٠٧، ثم الفرنسي ريموند فايل Raymond Weill ١٩١٣-١٩١٤، ١٩٢٣-١٩٢٤، ثم البريطاني آلان رو Alan

Rowe ١٩٣٤، ورئيس الأركان الإسرائيلي ييجال يادين Yigael Yadin ١٩٥٧، وبعثة جامعة هارفارد الأمريكية ١٩٦٤–١٩٧٦، وجامعة أريزونا الأمريكية ١٩٨٤– ١٩٩٠، وأخيرًا بعثة أمريكية–إسرائيلية مشتركة منذ ٢٠٠٦، بإدارة ستيفن أورتيس Steven Ortiz.[٣٢]

كشفت هذه الأعمال عن شواهد معمارية وقطع أثرية كثيرة، من بينها أربعة نصوص باللغة الأكّدية تمثل جزءًا من تاريخ المدينة، رغم فقرها بالمعلومات التاريخية. وهي غير منشورة بالعربية بعد، ولذلك رأينا أنه من المناسب التعريف بها، وترجمتها، وعرضها بحسب تواريخها.

١/٢-نص إداري قانوني

عُثر على النص سنة ١٩٦٥، وهو مدوّن على غلاف رقيم، ومهشم في بدايات السطور كلها، وفي مواضع أخرى. أرّخه ناشر النص بالقرن السابع عشر أو السادس عشر ق.م؛ اعتمادًا على تشابه نمط الكتابة مع كتابة نصوص ألالاخ (الطبقة السابعة)، ورأى آخرون أنه يعود إلى زمن تال، قبل تاريخ مراسلات العمارنة؛ أي أواسط الألف الثاني ق.م، وهو رأي مقبول أكثر.[٣٣]

1. . . . . x-[ir]-[ḫu]-[um?]-[ma]-[x?] [x] = en? mah?
2. . . . .]-[u?]-na
3. . . . . t]i-il-la DUMU.GAL.BA.[UG6]
4. . . . . eḫ-l]um-ma-an-ti DUMU ab-[x]-[x?] [x] = di
5. . . . . e]ḫ-lum-ma-an-ti
6. . . . .]-im
7. . . . .]-[x]-ki
8. eḫ-lum-ma-a]n-ti LU.UGULA.SIPAD

1. . . . .]-[ka?]-[
2. . . . .]a-na LUGAL
3. . . . . l]e-e
4. . . . . [x]-[y]

يصعب ترجمة النص بسبب حالته. ما يمكن فهمه منه هو أنه يتحدث عن ابن كبير (السطر ٣)، وقد قدّر الناشر رمزًا سومريًا بعد BA، فيكون المعنى "ميت"، وإن لم تكن هناك حاجة للتقدير، يفيد الرمز وحده معنى "أعطى، وزّع". كما يذكر النص مراقب أغنام اسمه: -eḫ lum-ma-an-ti (السطور ٤، ٥، ٨)، ويشير إلى ملكٍ (الوجه الخلفي، السطر ٢).

٢/٢-رسالة

عُثر على النص سنة ١٩٠٨–١٩٠٩، وهو مهشم في بدايات السطور ونهاياتها. وقد أرّخه ناشره بالعصر البابلي الحديث (٦٢٦–٥٣٩ ق.م).[٣٤] نعتقد أن النص يعود إلى عصر العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م)، اعتمادًا على التشابه في الأسلوب التعبيري.

1. . . . . . . mat . . . . . .
2. . . . . . . aš-sum mi-ni-im . . .
3. . . . . . . [a-n]a ma-aḫ-ri-ia . . .
4. . . . . . . [l]a mi-nim ma . . . .
5. . . . . . . ka . . . mu(?) nam-r(u)
6. . . . . . . lib-ba-ka i-na (alu)
7. . . . . . . aḫa-ka li-ba[l-liṭ] . . . .
8. . . . . . . [i-n]a (alu) Ki-id-di-im[mi] . . .
9. . . . . . . am (amelu) Iṣ-ṣi-ir tar . . .
10. . . . . . [ina al]u Ia-ap-pu(?)-u . . .
11. . . . . . i-na-di-in . . . . .
12. . . . . . 7 alpe
13. . . . . . [i]t alpu . . . .

وترجمته:

..... بلاد .... ما السبب .... إليّ .....

..... ماذا .... نور ..... قلبك في (مدينة) .....

ليحيي أخاك .... في (مدينة) كيديمّي ....

(المدعو) إصِّر .... في مدينة يافو ....

يعطي ..... سبعة ثيران ..... ثور .....

لا ترد مدينة كيديمّي المذكورة في السطر الثامن في نصوص أخرى، ويفترض أن تكون قريبة من جزر،[٣٥] أما يافو فهي يافا الحديثة، وقد جاء ذكرها في أربع رسائل من العمارنة (العمارنة ١٣٨، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٦٥).[٣٦]

٣/٢-عقد بيع أملاك عقارية

عُثر على النص سنة ١٩٠٤، وهو مهشم في بعض المواضع.[٣٧] يعود إلى العصر الآشوري الحديث (سنة ٦٥١ ق.م)؛ اعتمادًا على التاريخ المذكور في آخره، حيث يذكر سنة الحاكم الفخري الذي كان يتم اختياره سنويًا من بين الأعيان (ليمو)، وهو أسلوب معروف في التأريخ لدى الآشوريين.

1. na$_4$ KIŠIB $^{(d.m)}$ŠU$_2$.SU.A [ ]
2. na$_4$ KIŠIB $^{(m\ )}$AD.SU.A [ ]
3. PAP 2 LU$_2$.MEŠ EN E$_2$.MEŠ A.ŠA$_3$.[MEŠ]
4. E$_2$ $^{(m)}$Lu-PAP.MEŠ a-di gi-i-[mir-te-šu$_2$]
5. LU$_2$$^{(\ )}UKU_3$.MEŠ $^{(m)}$Tu-ri-$^{(\ d)}$A-a 2 SAL.MEŠ-šu$_2$ DUMU-šu$_2$
6. 3 LU$_2$ x x x x x [ ].MEŠ
7. 2 GIŠ [ ]-ga
8. [ ]-a-a
9. [ ]-ia-qar

الجانب الخلفي

1. [kas-pu?] [ ]
2. u2-ta-ra x x x [ ]
3. la i-laq-qe ṣi-bit be-e[n-n]u
4. a-na 1 ME u4-me sa-ar-tu2 a-na kal u4-me
5. ITI SIG4 DU.17.KAM lim-mu ša EGIR
6. (m)Aš-šur-BAD3.PAP LU2 EN.NAM URU Bar-ḫal-zi
7. IGI (m)Zak-ki-I IGI (m)ITI.AB-a-a
8. IGI EN.A.AŠ IGI (d.m)ŠU2.PAP-ir U[RU]
9. IGI (m)Ḫar-u2-a-ṣi LU2 ḫa-za-nu [ ]
10. IGI (m)Bur-ra-pi-i ( )LU2 DAM.[GAR3]
11. IGI (m)NUMUN.GIN DUMU (d)ITI AB-[a-a]
12. IGI (m)DUG3-ta-DIN IGI (m)Si-'i-[ ]
13. IGI (m)Man-nu-ki-LIM2.AN IGI [ ]
14. IGI (m)NUMUN-u2-tu

وترجمته:

١- ختم مردوك-إريبا بن .....

٢- ختم أبي-إريبا بن .....

٣- المجموع: اثنان، هما الرجلان مالكا البيوت (و) الحقول.

٤- تكون مُلك (للمشتري) لو-أخّو بتمامها.

(طبعة ختمي البائعين)

٥- (مقابل) الناس (الخدم): توري-أيا، زوجتاه، ابنه.

٦-٩- ثلاثة من رجال ..... شيئان خشبيان (؟) ....

١-٤- (فضة/الثمن؟ ....) سوف يعيد (في حال نقض العقد، ورفع دعوى)، ولكنه لن يستلم. ضمانة (عدم ظهور الإصابة) بمرض الصرع (سارية) حتى مئة يوم، (أما ضمانة عدم ارتكاب) جنحة فهي دائمة.

٥-٦- (تم تحرير العقد في) شهر سيوَنّي، اليوم السابع عشر، سنة الحاكم الفخري (ليمو) الذي يلي آشور-دورا-أُصُر، حاكم مدينة بَر-خَلّزي.

٧-١٤- أمام (اثني عشر شاهدًا)

إن بناء نص العقد نموذجي يتوافق مع الصيغة الشائعة في بلاد آشور آنذاك، حيث كانت تتألف من: اسم البائع، مادة البيع، اسم المشتري، الثمن الذي سيدفعه، التاريخ، الشهود.

الحاكم الفخري الآشوري (ليمو) المذكور معروف في جداول خاصة بأسمائهم، والراجح أن سبب التأريخ باسمه رغم انتهاء سنته يعود إلى عدم معرفة اسم الجديد بعد؛ بسبب البعد عن البلاد (آشور)، أما مدينته بَر-خَلّزي/خَلّسي فقد كانت في الشمال أو الشمال الغربي من العاصمة الآشورية نينوى.[٣٨]

معظم أسماء الأشخاص المذكورين أكّدية (آشورية وبابلية). أحدهم (خَرو آصي، السطر ٩) يوصف بأنه حاكم مدينة، موضع اسمها مهشم، وهو اسم قد يكون معدلاً عن أصل مصري، بمعنى "عين الإله حورس".[٣٩] وهناك شخص آخر يوصف بالتاجر (السطر ١٠).

يعكس النص استقرار الآشوريين في جزر، وممارسة المعاملات التجارية. وربما يكون هذا العقد والعقد التالي جزءًا من أرشيف إداري رسمي في الموقع، يعود إلى فترة السيادة الآشورية. فالمصادر الأثرية والكتابية تشير إلى الوجود الآشوري في فلسطين خلال القرنين العاشر والتاسع ق.م، ثم تضاءل بعد ذلك. (انظر الشكل ١)

وكشفت التنقيبات الحديثة في جزر عن شواهد كثيرة، كما أعادت تقييم مكتشفات قديمة من تنقيبات روبرت مكاليستر Robert Macalister بين ١٩٠٢-١٩٠٧، وهي تبين أن جزر صارت مركزًا إداريًا آشوريًا.[٤٠] وهذان العقدان يؤكدان أن ذلك استمر حتى أواسط القرن السابع ق.م.

تعرضت جزر للدمار خلال هجوم جيش تجلت بليزر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م) عليها سنة ٧٣٤ ق.م،[٤١] وفقدت أهميتها، وبدأت مدينة عقرون في الجنوب (تل مِقْنه، جنوب غربي القدس) تحلّ مكانها.

٤/٢-عقد بيع

عُثر على النص سنة ١٩٠٥، وهو مهشم في بعض المواضع. يعود إلى سنة ٦٤٩ ق.م؛ اعتمادًا على تاريخ سنة الحاكم الفخري الآشوري (ليمو) المذكور.(٤٢)

1. NA_4 KIŠIB (m)Na-tan-ja-u
2. EN A.$ŠA_3$ SI-a-ni

___

___

3. E_2 x [B]AN_2 A.$ŠA_3$ SUḪUR (m)Si-ni-i
4. [ ] SUḪUR (m)Si-ni-i

الجانب الخلفي

1. IGI (m)x IGI [ ]
2. IGI (m)GID_2.SIG SUKKAL.GIŠ
3. IGI (m)NUMUN.GIN
4. IGI (m)U.GUR.20.PAP
5. ITI ZIZ_2 UD.4.KAM

1. lim-mu (m)PAP.AN-a-a
2. LU_2.GAR.KUR Gar-ga-mis

وترجمته:

ختم نَتان-ياو، صاحب الحقل المعروض للبيع

(طبعة الختم)

سيكون مُلكًا، هو بمسافة ... بان طولاً، هو الحقل المجاور لحقل سيني.

.... المجاور لحقل سيني.

الجانب الخلفي:

أمام (خمسة شهود، أسماؤهم بابلية وآشورية)

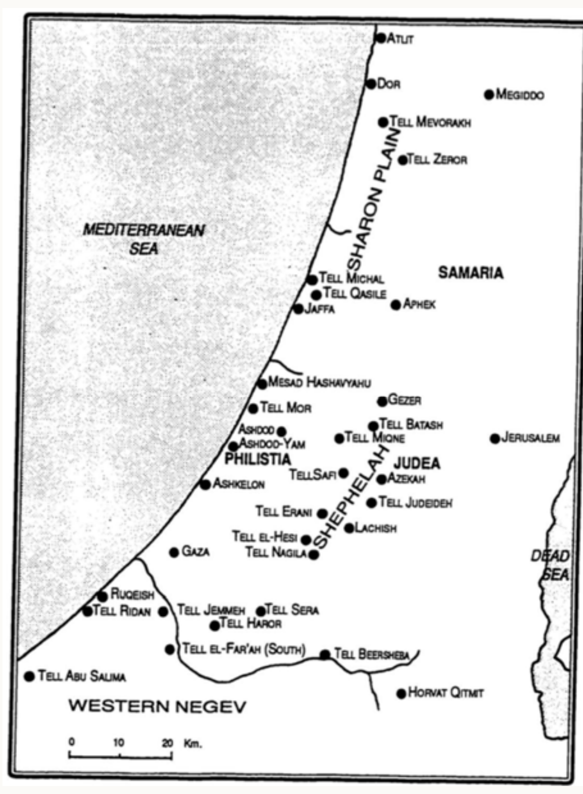
(تم تحرير العقد في) شهر شبّاطو، اليوم الرابع، سنة الحاكم الفخري (ليمو) أخي إيلايا، حاكم مقاطعة كركميش.

كانت كركميش (جرابلس، عند دخول نهر الفرات إلى سوريا) مدينة معروفة منذ القرن الرابع والعشرين ق.م، إذ يرد ذكرها في وثائق إبلا (تل مرديخ، جنوب غربي حلب)، وتميزت وازدهرت في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م، كما يتضح من أخبارها الكثيرة ضمن نصوص ماري، واستمرت أهميتها، وجعلها الملك الحثي شوبيلوليوما الأول في القرن الرابع عشر ق.م بمنزلة العاصمة الثانية لمراقبة الأوضاع في سوريا. صارت في الألف الأول ق.م مركز مقاطعة خاضعة للنفوذ الآشوري حتى انهيار مملكتهم سنة ٦١٢ ق.م.(٤٣)

خاتِمَةٌ

تشير النصوص الكتابية إلى أن مدينة جزر برزت خلال عصر العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م)، حيث كانت مركز حكم مستقل ضمن مجموعة من المراكز المماثلة في بلاد كنعان. وتذكر مراسلات العمارنة أسماء ثلاثة من حكامها، وتتضمن رسالة من الملك المصري أمنحتب الثالث إلى حاكمها ملكي-لي، وخمس عشرة رسالة من الحكام الثلاثة (ملكي-لي، أدّا-دانو/ بعل شبطو، يَبْخي) إلى أمنحتب الرابع. وهي تؤكد الولاء لمصر، وتركز على طلب المساعدة منها لوقف اعتداءات البدو العفيرين والسوتيين، وتعكس خلافات وصراعات داخلية بين المدن الكنعانية.

أما النصوص المكتشفة في جزر نفسها فلا تقدم معلومات تاريخية، ولكن وجود العقدين التجاريين المصوغين بالأسلوب الآشوري المحض يشير إلى استيطان بشري آشوري فيها، وكانت لهم معاملاتهم التجارية التي تتطلب التوثيق، وتشير إلى ذلك مكتشفات أثرية مادية من العصر الحديدي. أشرنا إلى أن أعمال التنقيب الأثري في الموقع مستمرة، وهي تتم منذ سنة ٢٠٠٦ وفق مناهج علمية دقيقة، وتترافق مع إعادة النظر في منشورات المنقبين الأوائل في الموقع، وتصحيح كثير من الأخطاء فيها، ولا شك أن ذلك سيسهم مستقبلاً في توضح المشهد التاريخي القديم للمدينة والمنطقة أكثر.



الشكل (١)

Allen, Mitchell Jack (1997) Contested Peripheries, Philistia in the Neo-Assyrian World-System. Dissertation, Uni. f California, Los Angeles, 218.

مراجع البحث:

(1) Dossin, G. (1973) Une mention de Cananéens dans une lettre de Mari. Syria 50, 278-279.

(2) Dietrich, M. - Loretz, O. (1981) Die Inschrift der Statue des Königs Idrimi von Alalah. Ugarit-Forschungen 13, 201–268 (18, 19); Wiseman, D. J. (1953) The Alalakh Tablets. The British Institute of Archaeology at Ankara, London, Nr. 48, 5; 181, 9.

(3) del Olmo Lete, G. – Sanmartin, J. (2003) A Dictionary of the Ugaritic Language in the Alphabetic Tradition. Translated by Wilfred G. E. Watson, HSO 67, Brill, Leiden, Boston. 449.

(4) Brown, Francis et al. (Ed.) (1907) A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament. Houghton Mifflin Company, Boston and New York, 488.

(5) Donner, H. - W. Röllig (2002) Kanaanäische und aramäische Inschriften. Band 1, 5. Edition, Otto Harrassowitz, Wiesbaden. Nr. 116: 3.

(٦) حميدان، شيراز (١٩٩٨) مدينة بيروت في مراسلات العمارنة. دراسة تحليلية تاريخية. رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية.

- إسماعيل، فاروق (٢٠٠٢-٢٠٠٣) أخبار دمشق وبلاد أُب في مراسلات العمارنة. الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ٤٥/٤٦، ٦٧-٨١.

- إسماعيل، فاروق (٢٠٠٥) أخبار القدس في مراسلات العمارنة. مجلة المعرفة، العدد ٥٠٥، ٤١ – ٥٤.

- إسماعيل، فاروق (٢٠٠٨) أخبار أوغاريت في مراسلات العمارنة. مجلة دراسات تاريخية، العدد ١٠١/٢٠١، ٥٧-٦٨.

- محمد، جهان عزت (٢٠٠٩) مملكة أمورّو في النصوص الأكّدية. رسالة ماجستير، جامعة حلب.

- فارس، عبد الغني غالي (٢٠٠٩) جبيل في رسائل العمارنة. مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد ٧، ١٤٥-١٧٧.

(7) Ross, James F. (1966) Gezer in the Tell el-Amarna Letters. Bulletin 8, Museum Haaretz, 62-70.

(8) Vita, J.-P. (2000) Das Gezer-Corpus von El-Amarna: Umfang und Schreiber, Zeitschrift für Assyriologie 90, 70-77; Ibid (2010) Scribes and Dialects in Late Bronze Age Canaan. In: L. Kogan et al. (Eds.), Proceedings of the 53e Rencontre Assyriologique Internationale. Vol. 1, Part 2: Language in the Ancient Near East, Eisenbrauns, Winona Lake, 863-894. Ibid (2015) Canaanite Scribes in the Amarna Letters. Alter Orient und Altes Testament, Band 406, Ugarit-Verlag, Münster.

(٩) بينها ثلاثة بغير الأكّدية؛ اثنتان باللغة الحثية (العمارنة ٣١، ٣٢)، وواحدة بلغة ميتاني الحورية (العمارنة ٢٤)؛ راجع: إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية "وثائق مسمارية من القرن ١٤ ق.م"، دار إنانا، دمشق.

(10) Arnaud, D. (1991) Une lettre de Kamid el-Loz. Semitica 40, 7–16.

Arnaud, D. (2003) Remarques sur une lettre de Kamid el-Loz / Kumidi de l'époque dite d'El Amarna. Studi Miceni ed Egeo-Anatolici 45, 125–127.

Edzard, D. O. (1969) Les tablettes cunéiformes de Kāmid el-Lōz. in: Edzard, D. O.- Hachmann, R.- Mansfeld, G. (Ed.) Rapport préliminaire sur les fouilles au Tell de Kāmid el Lōz de 1966 á 1968. Bull. Mus. Beyrouth 22, 49-91.

Edzard, D. O. (1970) Die Tontafeln von Kamid el-Loz, in: Edzard, D. O. et al. (Ed.) Kamid el-Loz — Kumidi. Schriftdokumente aus Kāmid el-Lōz. Saarbrücker Beiträge zur Altertumskunde 7), Bonn: Rudolf Habelt 55–62.

Edzard, D. O. (1976) Ein Brief den "Großen" von Kumidi aus Kāmid el-Loz. ZA 66, 62-67.

Edzard, D. O. (1980) Ein Neues Tontafelfragment (Nr. 7) aus Kāmid el-Loz. ZA 70, 52-54.

Huehnergard, J. (1996) A Byblos Letter, Probably from Kāmid el-Lōz. in: Zeitschrift für Assyriologie 86, 1, 97-113.

Na'aman, Nadav (2005) On Two Tablets from Kamid el-Loz. ANES 42, 312-317.

Wilhelm, G. (1973) Ein Brief der Amarna Zeit aus Kāmid el-Loz (KL 72:600). ZA 63, 69-75.

(11) van der Toorn, K. (2000) Cuneiform Documents from Syria-Palestine Texts, Scribes, and Schools. Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins, Bd. 116, pp. 97-113.

Horowitz, W. - T. Oshima - S. Sanders (2002) A Bibliographical List of Cuneiform Inscriptions from Canaan, Palestine/Philistia, and the Land of Israel. Journal of the American Oriental Society, Vol. 122, No. 4, pp. 753-766 https://www.jstor.org/stable/3217614

Van Wyk, Koot (2019) Corpus of Cuneiform Tablets from Palestine. Louishester Publication, vol. 60.

(12) Helck, W. – W, Westendorf (Ed.) (1977) Lexikon der Ägyptologie, band II, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 595.

(١٣) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية، ٢٧٦.

14 von Soden, W. (1959-1981) Akkadisches Handwörterbuch. Otto Harrassowitz, Wiesbaden. 676.

(١٥) كمال، حسن (١٩٩٨) الطب المصري القديم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، القاهرة، ١٧٦.

(١٦) إسماعيل، فاروق (٢٠٢٣) مندوبو الملك المصري في بلاد كنعان خلال عصر العمارنة. دورية كان التاريخية، المجلد ١٦، العدد ٦١، ٢١.

(١٧) المرجع نفسه ٢١.

(18) Loretz, L. (1984) Habiru-Hebräer. Eine sozio-linguistische Studie über die Herkunft des Gentiliziums (c)ibrî vom Appellativum habiru. Walter de Gruyter, Berlin.

(١٩) هكذا فسرنا الجملة بالاستفهام عن السبب، راجع: إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية، ٥٤٣. ولكن يمكن إعادة النظر فيها وجعلها استفهامًا عن مكان إخفائها (أين يخفيها؟)، وليس السبب.

(٢٠) كتب الاسم بالصيغة الرمزية السومرية DINGIR IM.DI.KUD، وقد يكون معادله أكديًا (أدّا-دانو)، أو ساميًا غربيًا (بعل/هدّا شبطو).

(٢١) إسماعيل، فاروق (٢٠٢٣) مندوبو الملك المصري في بلاد كنعان. ٢٠.

(٢٢) المرجع نفسه، ٢٠.

(٢٣) هي مدينة يافا الحالية، جاء ذكرها ضمن الرسائل (العمارنة ١٣٨، ٢٩٦، ٣٦٥) أيضًا.

(24) Vita, J.-P. (2010) Scribes and Dialects in Late Bronze Age Canaan. 871; Goren, Y. et al. (2004) Inscribed in Clay. Provenance Study of the Amarna Tablets and Other Ancient Near Eastern Texts. Tel Aviv. 273.

(٢٥) كان السوتيون (سوتو) مجموعات بدوية متنقلة في أطراف بادية الشام الشمالية ووادي الفرات الأوسط منذ العصر البابلي القديم، ويشكلون خطرًا على القوافل التجارية والحركة البشرية، لممارستها النهب والسرقة. للاستزادة؛ راجع:

Ziegler, N. - H. Reculeau (2014) The Sutean Nomads in the Mari Period. In: Bonacossi, D. M. (Ed.) Settlement Dynamics and Human-Landscape Interaction in the Dry Steppes of Syria. Harrassowitz Verlag, Wiesbaden, 209-226.

26 Belmonte Martin J. A. (2001) Die Orts- und Gewässernamen der Texte aus Syrien im 2.Jt. v. Chr., RGTC 12/2, Dr. Ludwig Reichert Verlag, Wiesbaden. 197.

(٢٧) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية. ١٦.

(٢٨) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية. ١٦.

(٢٩) لا يرد هذا اللقب في رسائل أخرى. ويرد ذكر هذا الموظف في رسائل كثيرة من عهد أمنحتب الرابع، وكذلك في رسالتين إلى أمنحتب الثالث (العمارنة ٢١، ٤٧)، ويوصف في الأولى بـ "ترجمان الملك"، مما يشير إلى أنه تولى مهام عديدة.

(٣٠) تجدر الإشارة إلى أننا لم ندقق الأمر، وأخطأنا في نسب الرسالة إلى أمنحتب الثالث سابقًا. راجع: إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية. ٦٤٨.

(٣١) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية. ٣٢.

(32) Ortiz, M. ß S. Wolff (2012) Guarding the Border to Jerusalem: The Iron Age City of Gezer. Near Eastern Archaeology 75:1, 4-19.

(33) Shaffer, Aaron (1970) Appendix B: Fragment of an inscribed envelope. In: Dever, W. G. et al. (Eds.) Gezer I: Preliminary Report of the 1964-66 Seasons. Keter Publishing Company, Jerusalem, 111-113; Horowitz, W. et al. (2002) A Bibliographical List of Cuneiform Inscriptions from Canaan, Palestine/Philistia, and the Land of Israel. Journal of Ancient Oriental Studies 122.4, 756: Van Wyk, Koot (2019) Corpus of Cuneiform Tablets from Palestine. 42-46.

(34) Macalister, R. A. Stewart (1912) The Excavation of Gezer. 1902-1905, 1907-1909. Vol. 1, John Murray, London, 30; Van Wyk, Koot (2019) Corpus of Cuneiform Tablets from Palestine. 31-32.

(35) Belmonte Martin J. A. (2001) Die Orts- und Gewässernamen der Texte aus Syrien im 2.Jt. v. Chr., 162.

(٣٦) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) مراسلات العمارنة الدولية.

(37) Macalister, R. A. Stewart (1912) The Excavation of Gezer. 22-31; Becking, B. (1981-1982) The two Neo Assyrian documents from Gezer in their historical context, JEOL 27, 80-86; Van Wyk, Koot (2019) Corpus of Cuneiform Tablets from Palestine. 25-29.

(38) Becking, B. (1981-1982) The two Neo Assyrian documents from Gezer in their historical context. 83.

(39) Becking, B. (1981-1982) The two Neo Assyrian documents from Gezer in their historical context. 84.

(40) Reich, Ronny – Baruch Brandl (1985) Gezer under Assyrian Rule. Palestine Exploration Quarterly, 48, 51.

(٤١) ثمة ذكر للاسم Gazru على كسرة صغيرة من نصب حجري ضخم من عهده، مكتشف في كلخو (نمرود، جنوب شرقي الموصل)، عليه مشاهد تصور انتصاراته، من بينها احتلاله المدينة الفلسطينية، وكذلك نص كتابي طويل يوثقها كتابيًا، ولكنه اسم جزر وحيد معزول، لا يُعرف السياق الذي ورد فيه. راجع:

Tadmor, Hayim (1994) The Inscriptions of Tiglath-Pileser III. Publications of the Israel Academy of Sciences and Humanities, Jerusalem, 210.

(42) Macalister, R. A. Stewart (1912) The Excavation of Gezer. 22-31; Becking, B. (1981-1982) The two Neo Assyrian documents from Gezer in their historical context, JEOL 27, 86-89; Van Wyk, Koot (2019) Corpus of Cuneiform Tablets from Palestine. 29-31.

(43) Hawkins, J. D. (1976-1980) Kakamiš. Reallexikon der Assyriologie, Band 5, Walter de Gruyter, Berlin, New York, 426-446.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

رباط أَكُوْز
مؤسسة دينية عتيقة في المغرب الأقصى



أ.د. أحمد الوارث
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي
الجديدة - المملكة المغربية

مُلَخّص

تأسس رباط أَكُّوز في بلاد رجراجة، على الضفة اليمنى لمجرى نهر تانسيفت، غير بعيد عن مصبه. يرجع ظهوره إلى بدايات انتشار الإسلام بالمغرب، ولعله كان في البدء مسجدًا، ثم صار رباطًا، ومركزًا استراتيجيًا في الحرب التي دارت في دكالة الكبرى بين البرغواطيين الخوارج ورجراجة الذين أخذوا بالمذهب المالكي، ثم انخرط، أهل الرباط، كما انخرطت رباطات رجراجية أخرى، في التجربة الوحدوية التي بدأها المرابطون في المغرب. من ثمة، ازدهر علميًا وصوفيًا وبشريًا، مستفيدًا من الرواج التجاري لميناء أَكُّوز وارتباطه بمراكش العاصمة. وخلال الكشوفات الجغرافية، سقط الرباط، كما الميناء، في قبضة الغزو البرتغالي، فتزعم أهله حركة الجهاد، التي تعززت بوصول الأشراف السعديين إلى المنطقة. وانتهى النزال بانسحاب البرتغاليين، لكنهم بنوا قلعة بالاسم نفسه هي التي عرفت بعد رحيلهم ب: الصويرة القديمة أو الصويرية، بينما صار الرباط الأصلي عبارة عن أطلال تحتاج إلى من ينفض عنها غبار النسيان.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٩	يوليو	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	أغسطس	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

دكالة؛ رجراجة؛ الفتوحات الإسلامية؛ المذهب المالكي؛ أكوز؛ الغزو البرتغالي؛ الدولة السعدية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.414892 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد الوارث، "رباط أَكّوز: مؤسسة دينية عتيقة في المغرب الأقصى".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ٤٠ – ٦٣.

Corresponding author: aelouarith142@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يُعَدّ رباط أَكُّوز من المؤسسات الدينية العتيقة في بلاد المغرب الأقصى، بحكم ظهوره في بدايات انتشار الإسلام بالبلاد. وهو "إحدى الرباطات... القديمة"[١] في قبيلة رجراجة[٢] المعدودة من القبائل البربرية الست التي أثثت المجال البشري لدكالة الكبرى[٣]، ومحله جنوب مدينة أسفي قرب مصب (Oued Tensift) نهر تانسيفت بالمحيط الأطلسي في ما يسمى اليوم بـ: الشياظمة[٤]. لم يبق من الرباط، اليوم، غير أسوار مخربة، كأن المكان لم يغن بالأمس، لكن استنطاق تاريخ هذه البقايا يشهد على أن ثمة كانت حياة منذ ما قبل الإسلام، قبل أن يصير الموقع مركزًا أساسيًا لنشر الدين المحمدي، ثم رباطا في خط المواجهة بين رجراجة وبرغواطة، ثم بين رجراجة والغزو البرتغالي إبان الكشوفات الجغرافية الأوربية، قبل أن تستغل فرنسا ما تبقى منه في المجال برمته إبان المرحلة الإمبريالية.

أولاً: ظهور رباط أَكُّوز

أَكُّوز[٥] أو كُوز[٦]، هذا هو الرسم الأصلي للموقع الذي ينسب إليه الرباط، بالكاف المعقودة أو المثلثة، باعتبار الجذر الأمازيغي للكلمة. كما تكتب بصور أخرى مختلفة؛ هكذا: أَجَوّز [٧]، أُوجوز[٨]، جوز، قوز[٩]؛ بالجيم أو القاف، عوضا عن الحرف المذكور لأنه غير وارد في لغة الضاد[١٠].

ذكر بعضهم: "أن اسم أَكُّوز يعني الرباط، فإذا قيل: رباط أَكُّوز، كأنما قيل: رباط الرباط"[١١]. بينما رأى بعضهم الآخر أن أَكُّوز تعني "المرقب والمحرس"، مستحضرًا، في تأويله، المنارات والمراصد والنواظير التي كانت منتشرة على الساحل، وآخذا في الاعتبار، دون شك، أن أَكُّوز واقعة في مكان عالٍ مشرف على مصب وادي تانسيفت[١٢]. لذلك، عقّب باحث آخر على الرأيين معا بقول جامع بينهما، مفاده أن المعنيين المقترحين معا لكلمة أَكُّوز ينطبقان على الموقع الذي نحن بصدده؛ فهو رباط من الربط، وكذلك مرقب حسب وضعيته الطبوغرافية[١٣].

أشار أبو عبيد البكري (ت.٤٨٧هـ/ ١٠٦٨م) إلى أَكُّوز في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فسماه: "رباط قوز"، وحدد موقعه على ساحل أغمات[١٤]، ثم حدد مقاييس المراحل الفاصلة بينه وبين موقع أغمات، فقال: "والطريق من مدينة أغمات إلى رباط قوز [كما يلي]: من وريكة إلى نفيس خمسة وثلاثون ميلاً، ومن نفيس إلى شفشاون [شيشاوة] ثلاثون ميلاً، ومنها إلى مرامر ثلاثون ميلاً، ومنها إلى رباط قوز خمسة وعشرون ميلاً، وذلك عشرون ومائة ميل"[١٥]، في المجموع.

وإذا كان الشريف الإدريسي (ت.٥٥٩هـ/١١٦٤م)، الذي عاش بعد أبي عبيد البكري، لم يشر إلى ثغر أَكُّوز أو رباطها في وصفه لساحل هذه الجهة، رغم أنه ذكر نهر تانسيفت[١٦] ورجراجة وغيرها من النواحي المجاورة[١٧]، فإن صاحب الاستبصار(ت. ١١٩١م) كان أكثر معرفة بالمجال، فسَمَّى الساحلَ الذي يصب فيه نهر تانسيفت ب: "ساحل رباط جوز"[١٨]، وكتب في محل آخر من كتابه ما يفيد أن الموقع نفسه "مرسى جوز هرشانة من بلد رجراجة، وهو آخر مراسي سواحل المغرب"[١٩]. أما ابن سعيد المغربي (ت. ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) فسمى أَكُّوز: "فرضة أغمات"، كما أن أسفي فرضة مراكش، وحدد المسافة الفاصلة بين هاتين الفرضتين البحريتين في حديثه عن مصب تانسيفت، قائلاً: "هناك فرضة أغمات وبينها وبين فرضة مراكش المشهورة الآن، مدينة أسفي، ٨٢ ميلاً"[٢٠]. تفيد هذه المعلومات الجغرافية أن رباط أَكُّوز تأسس في المكان الذي يُنسب إليه في بلاد رجراجة، فوق ربوة مرتفعة نسبيا (٥٠م) على الضفة اليمنى لمجرى نهر تانسيفت، قبل الوصول إلى مصبه في البحر ببضعة كلمترات، لا تتعدى العشرة[٢١].

من الناحية التاريخية، وردت الإشارة إلى هذا الرباط في أخبار قبيلة رجراجة من جهة، وفي سيرة عقبة بن نافع الفهري (ت٦٣هـ/٦٨٣م)، الفاتح العربي الأول في تاريخ الفتوحات الإسلامية بالمغرب، من جهة أخرى. هكذا، نقل الرواة أنه لما قدم عقبة بن نافع أيام الأمويين الأوائل لفتح بلاد المغرب"... ووصل إلى بلاد رجراجة، وجدهم مسلمين موحدين يعبدون الله تعالى مجتهدين في الدين، فبنى لهم مسجدا بساحة حرِبلة يسمى بأَكُّوز، فاجتمعت عليه قبائل، فقال لهم: من يعمر هذا المسجد؟

فقال له رجل يسمى رثان: أنا أعمره وأسكن عليه، فتناسلت منه رثانة منها. [هذا] ما حكاه عنهم أبو الوليد [ابن رشد الحفيد (ت.٥٩٥ هـ/ ١١٩٨م)] على ما نقله عن بعض العلماء المتأخرين مثل أبي بكر بن العربي [المعافري (ت.٥٤٣هـ/1148م)] وغيره..."(٢٢).

يؤكد هذا الخبر على أن رباط أَكْوْز من الرباطات القديمة جدا في المنطقة(٢٣)، ولعله، كان في البدء مسجدا، كما يبدو من النص السابق، ومن إنشاء الفاتح العربي الشهير عقبة بن نافع الفهري(٢٤)، على غرار مسجد رباط شاكر، وغيره من المساجد التي أنشأها ابن نافع في شتى النواحي التي فتحها في المغرب. يفهم، أيضًا، من إشارة أبي عبيد البكري، المتوفى عام ٤٨٧هـ/ ١٠٨٤م، أن هذا الرباط غدا في زمانه من الرُّبُط العامرة بالصالحين(٢٥). ويستفاد من كلام ابن الزيات التادلي، المتوفى عام ٢٧- ٦٢٨ه/١٢٢٩م، أن أَكْوْز كانت في زمانه قرية(٢٦)، وأن هذه القرية نفسها كانت هي قاعدة رجراجة في عهده، زمن الدولة الموحدية، وأنها كانت تضم مسجدا جامعا، تؤدى به صلاة الجمعة، وذلك منذ القرن السادس الهجري /١٢م(٢٧)، مما يعني أن عددا مهما من السكان كان يقطن في قرية رباط أَكْوْز. ندرج في هذا الإطار، على سبيل المقارنة، أن مدينة أسفي، خلال عهد المرابطين، لم تكن تقام بها صلاة الجمعة، على الرغم من انتعاش العمارة بها(٢٨). من ثمة، ولأهمية أَكْوْز، دون شك، حمل أحد أبواب أسفي التي بنى الموحدون سورها اسم: باب أَكْوْز(٢٩).

ساعد على عمارة موقع أَكْوْز ورباطه ارتباطها روحيا بقبيلة رجراجة، من جهة، وارتباطها تجاريا بمدينة أغمات عاصمة الحوز قبل ظهور العاصمة مراكش، من جهة ثانية، فضلا عن الرواج التجاري الذي وفره ميناء أَكْوْز، في هذا الإبان بالذات؛ ففي شأن الارتباط بأغمات أورد صاحب الاستبصار نصا يفيد بالمرام قال فيه: " بأغمات وريكة يسكن الأعيان، وبها ينزل التجار على القديم، لأنها كانت دار التجهز للصحراء، وبها نهر جريه من القبلة إلى الجوف، يشق المدينة بعضه، وعليه أرحاء وحوله بساتين، وبينه وبين البحر مسيرة أربعة أيام، وأقرب المراسي إليه مرسى جوز هرثانة، وهو آخر مراسي سواحل المغرب مما يقرب من البحر المحيط"(٣٠).

أما عن انفتاح الميناء على البحر وتجار العالم القديم فكتب أبو عبيد البكري ما يلي: "وساحل أغمات رباط قوز على البحر المحيط، وفيه تنزل السفن من جميع البلاد"(٣١).

هذا عن النشاط التجاري لأَكْوْز في البر والبحر، أما الارتباط بقبيلة رجراجة فيفسره تسمية رباط أَكْوْز برباط رثانة التي تعد من أهم أفخاذها، و"من الصالحين في بلاد رجراجة"، حسب تعبير ابن عبدالحليم في كتابه الأنساب، ثم نسبة مرسى أَكْوْز نفسه إلى رثانة، كما في قول صاحب الاستبصار: "مرسى جوز هرثانة من بلد رجراجة"(٣٢). وقد مر بنا في النص السابق أن أول رجال هذا الرباط، أو بالأحرى "مسجد عقبة " قبل ظهور الرباط، يسمى رثان، الذي تنتسب إليه رثانة أو هرثانة من رجراجة، حتى صار الجمع بينهما، هكذا: أَكْوْز رثانة (Kouz Retnana) أو أجوز هرثـــــــانة (Djouz Hertnana) في الأدبيات العربية والأجنية واردًا(٣٣).

في الشأن المتعلق برجراجة، أيضًا، يشار إلى اسم: يَعْلَى بن مُصْلين (بميم ساكنة عليها شد وصاد تنطق زايا مفخمة ساكنة) الرجراجي، الذي اشتهر في تاريخ المنطقة بأنه الذي بنى الرباط المنسوب إلى شاكر الرجراجي خلال القرن الرابع الهجري/١٠م، ويشار إلى اسمه، أيضًا، في سياق الحديث عن رباط أَكْوْز الرثاني نفسه بحكم وجود دار تسمى "دار يعلى" أو "رباط يعلى" غير بعيد عن موقع أَكْوْز نفسه(٣٤).

وقف باحث معاصر على بقايا هذه الدار، وأشار إليها في سياق حديثه عن شخصية يعلى بن مصلين الرجراجي، فقال: "ولعل يعلى المذكور هذا هو الذي تنسب إليه دار يعلى. وخرائبها الكثيرة لا تزال في تل مشرف على مصب وادي تانسيفت جنوب أسفي"(٣٥). واهتم باحث آخر بعده، يشتغل بالآثار الإسلامية بهذه "الدار"؛ دار يعلى بن مصلين الرجراجي، فقال: "تحمل، حسب ساكنة المنطقة، اسم دار يعلى أو رباط يعلى. وتذكر الرواية الشفوية أن الموقع كان معاصرًا لأَكْوْز(٣٦)، وهو يوجد على بعد حوالي كلم شرق موقع مصب وادي تانسيفت. وتظهر بالموقع آثار سور قديم مبنى بالحجارة على طريقة أَكْوْز، يصل سمكه إلى حوالي ٠,٩٥ متر.

ويمتد الموقع على مساحة حوالي ٥٠٠ متر مربع، ويتوفر بداخله على بعض بنايات التخزين، منها ما يشبه الخزان المائي المبني بالحجارة "[٣٧]. وقد وقفنا على ما تبقى من دار يعلى، وهي عبارة عن خرائب، بعضها يحيل على الخزان المائي، كما يبدو من خلال الصور في ملاحق الدراسة.

بقيت الإشارة، هنا، إلى أن يعلى بن مصلين الرجراجي كان واحدا من رجال رباط أَكُوْز القدامى الذين زاروا مدينة القيروان، وتحلقوا بين يدي أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، صاحب الرسالة، مثله في ذلك مثل وجاج بن زلو اللمطي[٣٨] شيخ عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية. يفسر ذلك اعتناء ابن مصلين بإنتاج شيخه ابن أبي زيد القيرواني، بدليل وجود كتاب في الخزانة العلمية في المسجد الأعظم بمدينة تازة من صنف الأحكام، منسوب إلى: يعلى بن مصلين، عنوانه: اختصار من كتاب الفصول في أجوبة فقهاء القيروان في مسائل أهل الجبال الذين لا وازع لهم ولا سلطان لابن أبي زيد القيرواني.[٣٩] تضيف بعض الدراسات أن يعلى بن مصلين الرجراجي استفاد في القيروان من الفن المعماري السائد هناك، وجسد التأثير القيرواني في رباط شاكر[٤٠]، حين "... بناه" في حدود القرن الرابع الهجري/١٠م.[٤١]

ثانيًا: رباط أَكُوْز والحرب على برغواطة

كان الفتح الإسلامي للمغرب بقيادة عربية، وبتوجيه من السلطة الحاكمة في المشرق. ورغم المجهودات المبذولة ظل إسلام المغاربة نسبيا، لذلك انطلقت حركة التنقل بين المغرب والمشرق بهدف إتمام مجهود الفاتحين الأوائل، تزعمها مغاربة من أصول بربرية، ومشارقة من أصول عربية. غير أن السياسة المتعسفة التي نهجها الولاة المحسوبون على الدولة الأُموية في المشرق إزاء السكان في بلاد المغرب، أفرزت ردود فعل محلية، برز منها ما يسمى في التاريخ المغربي بثورة البربر، التي استهدفت الاستقلال السياسي عن الحكم العربي في المشرق. اشتعلت الثورة حوالي عام١٢٢هـ/٧٤٠م، بقيادة الزعيم ميسرة المطغري، وتُوجت بنشوء إمارات مستقلة، لعل أشهرها الإمارة البرغواطية، بزعامة صالح بن طريف سنة ١٢٥هـ/٤٢-٧٤٣م[٤٢].

نستحضر الإمارة البرغواطية، التي قامت في المجال المعروف باسم تامسنا، المجاور لدكالة التي تنتشر قبيلة رجراجة في جنوبها، نستحضرها، في حديثنا عن رباط أَكُوْز، لأن أخباره واردة في تاريخ تلك الإمارة بشكل مكثف. علما أن بعض الإخباريين يَرَوْنَ أن نفوذ البرغواطيين كان يشمل، زيادة على تامسنا، منطقة دكالة في حدودها القديمة[٤٣]، وأنه تعدى وادي تانسيفت، حيث تقع أَكُوْز، إلى حاحا وسوس الأقصى حتى بلغ ماسة[٤٤] جنوبا، في فترات متقطعة[٤٥] على الأقل، منذ صدر القرن الثاني للهجرة/٨م، وأنه على الرغم من تراجع هذا النفوذ، استمر تهديد البرغواطيين لكل تلك المناطق حتى أواسط القرن الخامس الهجري/١١م[٤٦]. فضلاً عن مسألة المجال، احتدم الجدال حول المذهب البرغواطي، فبعضهم رأى أن الحركة البرغواطية استندت في توحيد عصبيتها وبناء إمارتها على مذهب غير رسمي، على غرار الإمارات البربرية الأخرى، زمنئذ، التي قامت على أساس المذهب الشيعي أو المذهب الخارجي بالخصوص[٤٧]. لكن البعض خالف هذا القول، معتبرا المذهب البرغواطي تحريفا لتعاليم الدين الإسلامي[٤٨]، ومحاولة مبتذلة لتجاوز العقيدة الإسلامية[٤٩]. بل لقد طوَّح آخرون بالمذهب البرغواطي خارج الإسلام[٥٠]، واعتبروه امتدادا للوثنية المحلية القديمة[٥١].

رغم أهمية هذه الآراء كلها، فإنها تبقى مجرد اجتهادات، بحكم غياب التراث البرغواطي الأصلي، المعماري منه أو الْمُدَوَّن، وبحكم الاستناد على آراء الخصوم في الحكم على مذهب البرغواطيين في تدبير شؤون الدين والدنيا في مجال نفوذ إمارتهم. إنما الأكيد أن المذهب البرغواطي كان مخالفًا لمذاهب الإمارات المعاصرة في المغرب، بدليل تصدي تلك الإمارات للحركة البرغواطية[٥٢]، ثم انخراط مَنْ له في الإجهاز على البرغواطيين مصلحة في الحرب ضدهم، ومنهم أهل الرُّبُط في المنطقة، حتى لقد اعتبر بعض الباحثين أن العنصر الأساسي الذي كان له أثر أقوى من غيره في

الظهور المبكر للرُّبُط في دكالة يرتبط بالمسألة البرغواطية (٥٣).

بالفعل، تفيد الأخبار الواردة في شأن الحرب على برغواطة أن قضيتهم شغلت أهل الربط بشكل كبير ومستمر. وتشكلت جراء ذلك مراكز عديدة، بعضها قريب من تامسنا، وبعضها بعيد، وكلها كانت تهدف إلى محاصرة النفوذ البرغواطي ومقاومته.

تعتبر أغمات المشار إليها سابقا من المراكز الرئيسة في هذه الحرب. وكان روادها تلامذة شيخ المالكية في بلاد المغرب، أبي محمد بن أبي زيد القيرواني. قال أبو علي صالح بن أبي صالح عبدالحليم، في حديثه عن المساجد التي بنيت في منطقة أغمات، بعد مسجد الفيل، بأنها: "... المساجد التي بناها تلامذة أبي محمد [بن أبي زيدالقيرواني] لأنهم جعلهم الله سببا لإطفاء فتنة برغواطة الذين قاموا بالمغرب نحو ثلاثمائة سنة، لأن أول قيامهم في حدود خمسين ومائة من الهجرة إلى قريب من أربعمائة. فلما وصل تلامذة أبي محمد أخذوا يقتلون كفار برغواطة، وذلك لأنهم أشاروا إلى أبي محمد في ذلك، فقال لهم: إن كانت لكم بهم مقدرة فجاهدوهم، وقدموا منكم أكثركم قبيلة، ثم قال: أيكم أكثركم قبيلة؟ فقالوا: داود بن إيملُل الصنهاجي، ثم يليه يحيى بن ويدفا الصادي من بلاد هسكورة، ثم يعلى بن مصلين الرجراجي، فكانت تلامذته من المصامدة الثلاثة المذكورين مع تونارت بن تيدا الرجراجي والولي بن يرزيكَن المرامري ووجاج بن زلو اللمطي وعبدالله بن أبي تاليل الصودي ويزركن بن علي الصودي ومحمد بن طاووس الهزميري الرجراجي وآخرين من أهل أغمات وغيرهم ممن لم تعرف أسماؤهم، فقدَّموا داود بن يملول [الصنهاجي] حتى قتل [في حرب برغواطة]، ثم يحيى بن ويدفا [الهسكوري] حتى قتل، ثم ابنه حتى مات، فقدّموا يعلى بن مصلين، وهو الذي بنى مسجد شاكر..."(٥٤).

في هذا الشأن، أيضًا، ذكر ابن الزيات في ترجمة الفقيه لقمان السايُوي "... أنه أمَّ الناس بجامع وطاس بأغمات وريكة، نحوا من أربعين عاما أو خمسين ما سها قطّ في صلاة من تلك الصلوات إلا يوما واحدا، صلى صلاة الظهر، فلما سلم سجد سجدتي السهو، فتعجب الناس منه، وسألوه عن ذلك، فقال لهم: اشتغل خاطري في الصلاة بقتل أخي فلذلك سجدت. فجاءهم خبر قتل أخيه بعد أيام وأنه قتل بدكالة"(٥٥). وفي تعليق المحقق على ذكر جامع وطاس في التشوف، نقل الخبر الذي أورده ابن عبد الحليم في كتابه القبلة، ونصه: "أن المسجد الأقدم بأغمات وريكة [كان يسمى] مسجد الفيل في وسط المدينة، ثم يلي ذلك المساجد التي بَنَتْها تلامذةُ أبي محمد...[بن أبي زيد القيرواني]"(٥٦)، وأضاف: "ولعل مسجد وطَّاس أحد تلك المساجد، وهو وطاس بن يحيى"(٥٧).

يعني هذا أن تلامذة أبي محمد بن أبي زيد القيرواني اجتمعوا في أغمات، وقاموا بتنسيق الجهود العلمية والحربية، قبل أن يتوزعوا على رباطات المنطقة لنشر المذهب السني ممثلا في المذهب المالكي، اشتهر منهم وجاج بن زلو اللمطي، في رباط نفيس، قبل أن يرحل إلى أكَلو غرب مدينة تزنيت، منبت الدولة المرابطية المالكية مذهبا. ورجال رجراجة، وفي مقدمتهم يعلى بن مصلين(٥٨).

وكان ابن الزيات قد ذكر يعلى هذا، وأشار إلى أنه هو الذي "بنى رباط شاكر، وكان يقاتل كفار برغواطة"(٥٩). وأضاف الحسن اليوسي أنه "غزاهم مرات، وأن طبله هو الباقي هنالك إلى الآن"(٦٠). وقد تقدم أن: "يعلى بن مُصْلين...، هو ثالث ثلاثة انتدبهم شيخهم... بأغمات لقتال برغواطة، فقُتِل الأول، [فقدموا آخر] ... حتى قتل، فقدموا يعلى بن مصلين هذا، وهو رجراجي، وهو الذي بنى مسجد رباط شاكر..."(٦١). وعلى خط رباط شاكر في اتجاه أغمات كذلك، قام رباط رجراجي آخر مشهور باسم: إيِميطَرْ من بلد رجراجة، من أشهر رجالاته أبو محمد خميس بن أبي زرج الرجراجي الأسود(٦٢). واحتمل بعض الباحثين أن يكون موقع هذا الرباط "... بين رجراجة وموطن برغواطة"(٦٣). يعني هذا أن أغمات كانت بمثابة القاعدة الخلفية في الحرب على برغواطة، بينما كانت رباطات رجراجة هي الثغور المتقدمة.

في الشأن نفسه، أشاد أبو بكر بن العربي بدور رجراجة عموما ورتنانة خصوصا في حرب برغواطة. فقد نُقِلَ عنه قوله إن: "أول من أدخل في الإسلام المصامدة وعلَّمَهم علم الدين وعلم الشريعة رجراجة، بعد

أن كانوا في ظلمات الجهل، فأسلم مَنْ لم يسلم، وتعلم مَنْ لم يكن عالما، ودخلوا بهم في دين الله، واجتمعوا معهم، وتناصروا على كفار برغواطة ومن معهم، وجاهدوا وتحاربوا وتقاتلوا إلى أن دخل من أراد الله به خيرا منهم في الإسلام، بعد أن وقع بينهم قتال وحروب يطول شرحها إلى أن نصر الله تعالى رجراجة، ومن معهم ببركة النبي صلى الله عليه وسلم"[٦٤].

حين نقول رثانة نستحضر ولابد رباط أكُوْز، لأنهم أهله ومستوطنو ما جاوره من المواقع على ضفتي مصب نهر تانسيفت. ولفظة أكُوْز نفسها لها معنى وثيق الصلة بالمرابطة لغة، كما تقدم. والمتفق عليه أن رباط أكُوْز كان عمارة للصالحين من رجراجة، منذ تأسيسه، كما تقدم، أيضًا[٦٥]. وأكد الباحثون على الوظيفة الحربية لرباط أكُوْز إزاء برغواطة بأمرين، أولهما: تزامن نشاط الرباط مع وجود برغواطة، وثانيهما: كون وظيفة الحرب على برغواطة كانت من بين المشاغل الرئيسة للرباطات المجاورة لها من الجنوب والشمال[٦٦].

فضلاً عن ذلك، كان رباط أكُوْز مرتبطًا بشكل وثيق برباط أغمات الذي تزعَّم الحرب على برغواطة، ومرتبطا في الوقت نفسه بأغمات التاجرة بحكم وقوع المحرس في مرفإ يعد منفذها البحري على ساحل المحيط، وباعتبار أن أكُوْز هي مرفأ أغمات. من ثمة، إن الدور المزدوج لأكُوْز: الميناء والرباط، يجد تفسيره في ثنائية "أغمات" و "رجراجة"، اللتين تتكاملان في نهاية المطاف، باعتبار أن حكام أغمات كانوا ضالعين في تجهيز وتحفيز الرجراجيين على حرب برغواطة.

إلى ذلك، كان بعض الباحثين قد تساءل حول ما إذا كان وجود رباط أكُوْز قريبا من المرسى له علاقة بالجهاد إزاء الأخطار الخارجية؟[٦٧]. وظهر رأي يستحق الانتباه، يرد ما اعتبره مزاعم، نشأت قياسا على ما جرى في المنطقة الشمالية، وتحديدًا هجمات النورماند على أصيلا. ورأى أن الباحثين تناسوا أن البرغواطيين كانت لهم قوة بحرية، لها علاقة بوجود مراس عديدة على ساحل تامسنا، أهمها فضالة وأنفا، مضيفا احتمالا آخر، يعتبر في نظره قويا، وهو وجود الإمارة البرغواطية البحرية في الشمال (سبتة وطنجة)، وهي إمارة سكوط البرغواطي؛ فهذه، يضيف الرد نفسه، كانت قوة بحرية نافست القوى البحرية للدويلات الإيطالية والإيبيرية، وكادت أن تقضي على الوجود المرابطي في بدايته لولا تحالف يوسف بن تاشفين مع بني عباد بإشبيلية، في معركة بحرية شهيرة. وتساءل أخيرا: ألا يمكن أن تكون تلك الرباطات الساحلية، ومنها رباط أكُوْز، قد قامت لمواجهة البرغواطيين، سواء برغواطة الشمال أم برغواطة تامسنا، ولمواجهة أي غزو بحري كيفما كان مصدره؟[٦٨].

يؤكد هذا كله على أن نشوء رباط أكُوْز كانت له صلة قوية بالحرب على برغواطة، كما أن صلة يعلى بن مصلين برباطيْ شاكر وأكُوْز، دون شك، تعود إلى الفترة التي تزعم فيها هذا الرجل الحرب على برغواطة في تلك الناحية، بإيعاز من رجال أغمات[٦٩]. وقد تقدم الحديث عن الصلة القوية بين أكُوْز وأغمات، كما تقدم بنا أن يعلى بنى دارا له غير بعيد عن أكُوْز، مما يؤكد صلته القوية برباطها، بل يمكن أن نستغل هذا المعطى إلى أبعد الحدود لنتساءل عمّ إذا كان يعلى بن مصلين قد أقبر جثمانه برباط أكُوْز نفسه؟

ثالثًا: مصير رباط أكُوْز

الأكيد أن رباط أكُوْز انخرط، كما انخرطت رباطات رجراجة، في التجربة الوحدوية للمرابطين، إن لم نقل إنهم كانوا من الممهدين لها في المنطقة. لكن، رغم ذلك، تأثر الرباط بانسحاب برغواطة نفسها من حوض تانسيفت ودكالة، ومن ثمة من الطريق المؤدي إليها من الحوز، من أغمات أو مراكش[٧٠]، مما أدى إلى تحول التجار نحو ميناء أسفي، عبر بحيرة زيما (بادية الشماعية الحالية)، وأثر كثيرا على الرواج التجاري في ميناء أكُوْز والطريق المؤدية إليه، خصوصًا وأن أجواء مرسى أسفي كانت ملائمة للسفن، مقارنة بمرسى أكُوْز التي لم تكن تتيح الفرص للإبحار منه سوى في فترات محددة[٧١]. وقد أشار أبو عبيد البكري إلى ذلك في قول متمم لما تقدم، نصه: "وساحل أغمات رباط قوز على البحر المحيط، وفيه تنزل السفن من جميع البلاد، ولا تخرج منه السفن صادرة إلا في زمان الأمطار وتكدر الهواء واغبرار الجو، فحينئذ تصدق لهم الرياح البرية، فإن تمادى ذلك لهم سلموا، وإن أصحى الجو وصفا

الهواء هبت لهم الرياح البحرية من الغرب فيهيج عليهم البحر وقذفهم في البراري فقلّما يسلمون"[٧٢].

من ثمة، صار ميناء أسفي، بعد انحصار نفوذ البرغواطيين، منذ أيام حكم المرابطين ثم الموحدين بعدهم، ميناء مفضلا، بينما تراجع النشاط التجاري في أَكُوْز[٧٣]. هكذا يجب أن نفهم مآل الميناء بهذه القرية، أفضل من القول بأن وجودها بعيدا عن المصب بحوالي عشرة كملترات نتج عنه نفران السفن منها، وأن هذا ما يفسر سكوت الشريف الإدريسي عن وصفها[٧٤]، بلى. فالميناء كان موجودًا في المكان نفسه زمن الرواج التجاري.

تخلى ميناء أَكُوْز عن رواجه التجاري لصالح أسفي، منذ أيام المرابطين، كما فقد رباطها حيويته لمّا لم يعد هناك جدوى للحرب على البرغواطيين الذين تم تقزيمهم فانحصر نفوذهم في سهوب تامسنا[٧٥]. إلى ذلك، لاشك أن العلاقة بين صوفية رباط أَكُوْز وحلفائهم المرابطين، قد أصابها ما أصابها بسبب أزمة إحراق إحياء علوم الدين، دون أن نستطيع الإدلاء بالتفاصيل في هذا الشأن. لكن المؤكد أن النشاط الصوفي لرباط أَكُوْز نفسه تعرض للحصار، وذلك أيام الدولة الموحدية التي خلفت دولة المرابطين في حكم المغرب، على غرار ما حصل بالنسبة للرباطات الأخرى بشكل عام، بسبب التضييق الذي طال علم التصوف سواء أكان باستقطاب رموزه للاشتغال في المؤسسات الرسمية أم بمنعهم من تسخير علمهم ضد السلطة الحاكمة واختياراتها المذهبية خصوصًا، أما مَنْ لم يقبل بالدخول في هذه اللعبة فصار مهمشا، سيما من الناحية الفكرية[٧٦].

لدينا المثل على ذلك من أَكُوْز نفسها في شخص أبي إبراهيم اسماعيل بن وجماتن الرجراجي، نزيل أدار[٧٧]، المتوفى سنة ٥٩٥هـ/٩٩-١١٩٨م، وهو حفيد "الصحابي الرجراجي" عبد الله أدناس[٧٨]. فابن الزيات يخبرنا أنه "صلى الجمعة بقرية أجوز من بلد رجراجة، فتكلم بكلام سمعه العامل [الموحدي] فسجنه، وأقام في السجن ثلاثة أيام" [٧٩]. كما سُجن مرات أخر بسبب مواقفه المعارضة للدولة الحاكمة[٨٠]، وفي الأخير رحل للحجاز، "وأقام بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد أن حج، نحو عشرين سنة بين الروضة والمنبر"[٨١].

هل نجد في تراجع ميناء أَكُوْز تجاريا والتضييق علي رجال رباطها صوفيا علامات بداية اختفاء رباط أَكُوْز؟

هذا ما روجت له الكتابات في الموضوع [٨٢]، واستند بعضها على إهمال لسان الدين ابن الخطيب (ت.٧٧٦ هـ/١٣٧٤م) لأَكُوْز[٨٣]، في رحلته التي زار فيها المنطقة في منتصف القرن الثامن الهجري/ ١٤م، رغم أنه ذكر غيرها من المواقع المجاورة، مثل أسفي، فضلاً عن تيط وأزمور [٨٤]. لكن مصادر أخرى لم تهمل أَكُوْز ولا رجالها. أكثرهم ذكرا، بعد يعلى بن مصلين الرجراجي في القرن الخامس الهجري/١١م، وأبي إبراهيم إسماعيل بن وجماتن الرجراجي في القرن السادس الهجري/١٢م، هو أبو زيد أُو إلياس الرجراجي الرثاني الشوشاوي، دفين شوشاوة، وهو من أهل القرن الثامن الهجري/١٤م[٨٥]، وهو من حفدة "صحابي رجراجي"، يسمى عيسى بوخابية دفين الولجة على ضفة وادي تانسيفت[٨٦]، صحيح أن أبا زيد توفي ودفن بشوشاوة، لكن والده إلياس بن إبراهيم[٨٧]، وهو من أهل القرن السابع الهجري/١٣م، كان مُقيمًا برباط أَكُوْز، وضريحه بالرباط ذاتـــــــه[٨٨]، مما يعني أن رباط أَكُوْز ظل عامرًا إلى هذا العهد.

الأهم في سيرة أبي زيد أُو إلياس الرجراجي هو طريقته الصوفية، التي حددتها المصادر في الشاذلية [٨٩]. لقد ذكرت هذه المصادر أن أبا زيد أُوإلياس" أقام بحرم الله عشرين سنة، وأخذ طريق التصوف، عن أبي الفضل الهندي عن الشيخ عنوس البدوي، عن أبي العباس القرافي، عن أبي عبد الله المغربي، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي"[٩٠]. وفي ملاحق الدراسة سند يوضح موقع أبي زيد أو إلياس في السلسلة الشاذلية، بدءًا بالشيخ محمد بن سليمان الجزولي وانتهاء بأبي الحسن الشاذلي.

يفهم، أيضًا، من سيرة أبي زيد أُو إلياس الرجراجي نفسه أنه ساهم في نشر الشاذلية بالمنطقة[٩١]، وذلك قبل ظهور الشيخ أبي حفص عمر بن موسى بن محمد الرجراجي الذي يعد أقدم راو للصلاة المشيشية بسند متصل عن صاحبها، كما أثبت ذلك في خاتمة كتابه: هداية من تولى غير الرب المولى، الذي ألفه سنة ٨١٩هـ/١٦-١٤١٧م [٩٢]. كما كان أبو زيد أُو إلياس من

علماء الطريقة الشاذلية المساهمين في توضيح تعاليمها، حيث تنسب إليه تآليف صوفية، منها كتاب (الرسالة)[٩٣]، التي توحي بعنوانها الجامع أنها تعليمية.

أول هذا الكتاب: "الحمد لله الذي فتح بصائر أوليائه للنظر في ملكوته، وشرح صدورهم لاستخراج دقائق نعمته لما نور قلوبهم بأنوار معرفته، ليتوصلوا بذلك إلى خالص شكره، فيستوجبوا به محبته ورضاه، ويجري عليهم ذكره وثناه، فيسلموا به من سخطه وعقابه لما فهموا أمره وخطابه. أحمده حمدا معترفا بنعمته معتذرا عن قلة شكره...الخ" [٩٤]. أما الكتاب نفسه فهو عبارة عن رسالتين: الأولى في المعرفة، والثانية في ذكر المقامات وكيفية السلوك بها، وهي في نحو سبع كراريس، من القالب الرباعي[٩٥]. وفي الرسالة الأولى فصول."... الفصل الأول منها في الآيات والأحاديث. والفصل الثاني في الكلام في ابتداء خلق بني آدم وما أنعم الله به وأطواره ؛ العدم ثم الوجود، والتصوير والأعضاء والنعم المتصلة والمنفصلة وأضدادها، وأطال وأطاب. والفصل الثالث في ذكر ما أنعم به على بني آدم في السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار. وفيه بتر نحو خمس ورقات، وفي هذا البتر تم الفصل، والموجود بعد ا لبتر في الخوف من الله والبكاء من خشيته. وبه تمت الرسالة الأولى" [٩٦].

ومما جاء فيها: "ولما كان الشكر لله تعالى من أعظم أسباب ما يتوصل به العبد إلى معرفة الله تعالى ورضائه، لكثرة ما أثنى الله عليه، وعلى الشاكرين والمتفكرين في كتابه، سألني بعض إخواني في الله في جمع هذه الرسالة في معرفة بعض نعم الله تعالى على ابن آدم في بدنه ودينه، وأرض الله وسمائه، وبره وبحره، إذ كان الشكر واجبا على العباد في كتاب الله تعالى، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم في آيات شتى، وأحاديث كثيرة فأجبته إلى ذلك، بعدما استخرت الله تعالى، والتجأت إليه أن يلهمني إلى الصواب في رده الجواب، ويسمح عن الزلل في الخطاب...الخ. فأورد الآيات والأحاديث الدالة على التفكر والاعتبار. ثم قال: وهذا أول قدم في المعرفة والتفكر، وهو أن تنظر إلى الأشياء بأن الله خالقها وهو مشاهدة الأفعال ثم بعد ذلك ترقى إلى مشاهدة الصفة، لأن العارفين على مقامين؛ مشاهدة منعم ومشاهدة نعمة ولا يصل العبد إلى مشاهدة المنعم إلا بعد معرفته ولا يصل إلى معرفته إلا بالتفكر فيه، ولا يصل إلى التفكر فيه إلا بنفي الغفلة والخواطر المذمومة عن قلبه، قال أبو سليمان الداراني: "لا أخرج من منزلي فلا يقع بصري على شيء غلا ولي فيه عبرة ولله فيه نعمة. أما عبرة تفكره فيه كيف خلقه الله تعالى كما أراد وصوره كيف شاء وأما نعمة الله عليه فيه فحيث هداه على نظر يخالف نظر أهل الغفلة لأن الغافل لا يرى من السماء إلا خضرتها، ومن النجوم إلا شعاعها، ومن القمر إلا زيادتها ونقصانها، ومن الأرض إلا سهلها ووعرها، ومن المياه إلا زرقته، ومن الأشجار إلا أصولها وأغصانها، ومن البحر إلا اضطرابه، فذلك غافل عن مصور هذه الأشياء ومسكنها ومحركها. ونظر أهل البصائر والتفكر والاعتبار ليس من نظر أهل الغفلة في شيء، كم بين من قال الله فيهم ﴿وَتَرَاهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[*]... الخ. ثم استرسل في كلام بديع كله جواهر ودرر"[٩٧].

و"الرسالة الثانية في ذكر المقامات وكيفية السلوك؛ الفصل الأول في فرائض التوبة، والفصل الثاني في رفض الدنيا والزهد فيها. وحقق أن الزهد هو خلو القلب منها لا رفضها بالكلية. بل الدنيا أمانة بيد العبد ينتظر بها أمر مولاه. والثالث في الذكر، والرابع في المحاسبة، والخامس في المراقبة، والسادس في التوكل، والسابع في الرضا، والثامن في الأخوة وشروطها، وبه تمّ الكتاب[٩٨]. ثم قال في الثانية وأعلم يا أخي أن هذا الطريق قد اندرس وانقرض أهله، ولم يبق منهم إلا قليل ممن يتكلم في حواشيه، وأطرافه على نصفين، منهم من يتكلم فيه محبة له ورغبة إلى الله تعالى أن يجعله من المحبين له ولأهله، فهؤلاء قليل في زماننا، وصنف آخر يتكلمون في حواشيه تفاخرا وتطاولا وادعوا أن يظن الناس أنه من أهله فيتسم بسيماهم ويتحلى بحليتهم، وليس عنده من طريقهم غير هذا، فالله تعالى لا ينظر الصور"[٩٩].

وفي تعليق الفقيه الكانوني على هذا الكتاب، قال: "وهو في مائة وسبعة وعشرين صحيفة من القالب الصغير... وهو كتاب بديع في موضوعه يدل على معرفة مؤلفه وتضلعه من علوم الشريعة والحقيقة"[١٠٠].

يسمح لنا ما سبق بالقول، دون تردد: إن "أقطاب أَكُوْز" كان دورهم محوريا، سواء أكان على مستوى السند أم الفكر الصوفي الشاذليين، أم على مستوى توسيع دائرة نفوذ الطريقة الشاذلية في المغرب.

في السياق نفسه، كان أبو زيد أُولياس الرجراجي وراء ظهور اسمين كبيرين في رحاب أَكُوْز يعدان من أقطاب الطائفة الرجراجية في عهدهما. أولهما تلميذه أبو عثمان سعيد الرثاني الرجراجي، وثانيهما ابنه الشيخ الصوفي الشهير سيدي حسين مول الباب(١٠١). تكمن أهمية هذه الإشارة في كون ابنه هذا هو صاحب الضريح في دوار يحمل اليوم اسم زاوية سيدي حسين في مجال قبيلة رثانة نفسها، لكن على الضفة اليسرى لوادي تانسيفت غير بعيد عن مصب النهر(١٠٢).

يهمنا هنا بخاصة ما ترويه بعض الأخبار عن حسين مول الباب بن أبي زيد أو إلياس "... أنه كان أحد المرابطين المريدين برباط أَكُوْز الشهير، الذي لا يفصله عن زاويته إلا المسافة المائية المتمثلة في عرض النهر"(١٠٣). بل اعتبره باحث رجراجي معاصر من رجال رباط أَكُوْز الكبار في زمانه(١٠٤).

لذا يخطر على البال سؤال كبير هو: هل كان سيدي حسين بن أبي زيد أولياس، المشهور باسم سيدي حسين مول الباب، هو الذي أخلى رباط أَكُوْز على الضفة اليمنى وقطع الوادي فأسس زاويته حيث يوجد ضريحه اليوم؟

رابعًا: احتلال القرية والرباط وظهور حصن أَكُوْز الجنوبي

تغيرت أشكال المرابطة في أَكُوْز، وقل نشاطها التجاري، لكنها لم تفقد أهميتها كموقع استرتيجي، فانتبه إليها البحارة البرتغاليون أثناء رحلاتهم البحرية إبان الكشوفات الجغرافية، ودخلوا في علاقات تجارية مع أهل البلدة، كما يدل على ذلك نص الاتفاقية التي أمضاها "مسلمو أَكُوْز والحصون [الثلاثة]... مع قبطان "مدينة أسفي البرتغالي، نونو فرنانديز دو أتايد (Nuno Fernandes ATAID de)(١٠٥)، ثم أغراهم الموقع فنزلوا به(١٠٦).

أدلى باحث معاصر، اسمه محمد ابن عزوز حكيم، بتفاصيل تفيد أن الملك البرتغالي، مانويل الأول (Dom Manoel)، وبحكم نجاح التجربة الأولى في تأسيس حصن فونتي (Santa Cruz)، والتجربة الثانية في تأسيس القلعة الملكية في موكَـــادور (Le Castelo real de Mogador)، عمل على تكرار العملية، فكلف مؤسس القلعة الأخيرة دييكو أثامبوخا (Diego de Azambuja) بتأسيس حصن كوز (Goz) على الضفة اليمنى لوادي تانسيفت سنة ٩١٣هـ/1508م(٠) وهو المعروف ب: حصن قوز الجنوبي(١٠٧)، الذي تسميه بعض الكتابات: "حصن وادي تانسيفت"(١٠٨).ولعله الحصن الذي أشار إليه دييكو دي طوريس الذي وصفه بقوله: "حصن صغير مجاور لنهر أَكُوْز يحتله المسحيون"(١٠٩). تتطابق هذه الأخبار مع الإشارات الواردة في بعض الوثائق البرتغالية بخصوص وجود حصنين في قرية أَكُوْز(١١٠)؛ فيكون الأول هو "حصن أَكُوْز" البرتغالي(١١١)، والثاني هو الموقع القديم لقرية أَكُوْز برباطها، الذي وقّع بعض سكانه على اتفاقية الخضوع لملك البرتغال سنة ١٥١٠م(١١٢).

وكان الحسن الوزان قد أتى في وصفه للمنطقة، مطلع القرن السادس عشر للميلاد، على ذكر أَكُوْز، ولو بشكل عرضي في سياق حديثه عن تاكَوليت معتبرا "سكان هذه المدينة [الأخيرة] أغنى من سكان تدنست، لأن مدينتهم مجاورة لمرسى على البحر المحيط يسمى كوز (أَكُوْز)"(١١٣)/ (Goz)(١١٤). علما أن الوزان يقصد في حديثه عن كوز (Goz) موقع رباط قوز (Ribat k'ouz) عند البكري (١١٥). معناه أن أَكُوْز (Kouz) لم تفقد أهميتها في بداية القرن ١٦م(١١٦)، بقدر ما استعادت رواجها التجاري بوصول البحارة البرتغاليين إلى المنطقة. وإذا كان الحسن الوزان تجاهل الموقع، فإن إشارته العارضة نفسها تعبر عن ذلك الرواج الذي ظهرت آثاره الإيجابية ماديا على سكان الجوار. ومما لاشك فيه أن وجود الآبار(١١٧) والأمراس(١١٨) بالقرب من أَكُوْز، زاد من اهتمام البرتغاليين بالموقع. بذلك، صارت قرية أَكُوْز خاضعة للتاج البرتغالي، يؤدي أهلها الضرائب(١١٩)، وكانت بالغة القيمة (١٢٠). كما صار الموقع يكتسي بالنسبة إليهم أهمية قصوى من الناحية الاستراتيجية، خصوصا بعد استقرار الأشراف السعديين بالشياظمة (١٥١٣م)، إذ أصبح البرتغاليون يتوخون، أيضًا، من التحكم في أَكُوْز

مراقبة الشياظمة نفسها، وعرقلة مخططات السعديين الرامية إلى تجاوز نهر تانسيفت في اتجاه الشمال للاتصال بقبائل عبدة التي كانت أنذاك أهم حلفائهم بدكالة الكبرى. لتحقيق هذا الهدف أرسل قبطان أسفي البرتغالي خمسين فارسا للإقامة في أكْوْز (سنة ١٥١٥م)(١٢١).

رغم التحصين، مال ميزان القوى لصالح الأشراف السعديين. ظهر ذلك في مقتل قبطان أسفي في ماي سنة ١٥١٦م، واغتيال يحيى أوتعفوفت، الدعامة الأساسية للسيادة البرتغالية في المنطقة كلها سنة ١٥١٨م، مما أثر سلبا على استمرار الوجود البرتغالي في أكْوْز(١٢٢). خصوصا بعد ما أخلى السكان المغاربة ديارهم(١٢٣) فيها خلال السنة ذاتها، موازاة مع تمدد نفوذ الأشراف السعديين، وأخذهم المبادرة في النزال مع البرتغاليين في المنطقة ذاتها، حيث "... هاجموا قرية أكْوْز"، ووصلوا سنة ١٥١٨م نفسها إلى أبواب أسفي(١٢٤).

أخلى السكان المحليون قرية أكْوْز، إذن، ثم غادرها البرتغاليون. وكان لهذا الرحيل تأثير سلبي على الموقع وبناءاته، هذه المرة، حتى لقد صعب على الرحالة، في المراحل اللاحقة، تحديد مكانه، وهكذا اختلط الأمر على الإسباني كربخال مارمول (Carvajal MARMOL)، وهو أقرب من تحدث عن أكْوْز بعد الجلاء البرتغالي. قال صاحب أفريقيا، هذا: "أكْوْز مدينة أخرى خربة على ضفاف نهر يحمل اسمها(١٢٥)، ويصب في البحر على بعد فرسخين (Deux lieues) من أسفي، حيث مازالت تشاهد أطلال قصر كان يسمى أكْوْز، إقليمها شاسع جدًا وخصيب يقطنه بربر أولاد الشياظمة" (١٢٦).

بعد فترة وجيزة حدد رحالة آخر موقعها بعيدا(١٢٧). كذلك حصل في الخرائط التي أنجزها الأوربيون في القرنين اللاحقين بوضعِها في غير موقعها أو باسم مختلف مثل GUS، بل اختفت نهائيا من بعض تلك الخرائط، وكتب عنها بعضهم ما يشبه تنهيدات الحسرة من قبيل: كم كانت هذه الناحية، في القرن ١٧م غير معروفة، بعد أن كانت في القرن السابق محط أنظار العالم الحديث(١٢٨). لذا حين عاد الدارسون للبحث في تاريخ رباط أكْوْز وجدوا صعوبة في تحديد موقعه، علما أن الوثائق المغربية الرسمية ظلت تحتفظ في وصفها للموقع بنعت: المرسى(١٢٩).

كان الباحث بيير دي سنيفال (Pierre de CENIVAL)، المتوفى عام١٩٣٧م، أول من أشار إلى آثار الموقع الذي كان به رباط أكْوْز، حسب ما أخبر به باحث أجنبي آخر، هو برنار روزنبرجي (Bernard ROSENBERGER) الذي أنجز دراسة، نشرت سنة ١٩٦٧م بمجلة هسبيريس تامودا (Hespéris – Tamuda) (١٣٠)، تعد معطياتها، إلى اليوم، مرجعا في الموضوع( ) بشهادة عز الدين كرا، أحد المتخصصين المعاصرين في الدراسات الأثرية بالمغرب(١٣١).

"... خلف روزنبرجي لهذا الموقع وصفا دقيقا، ووضع له رفعا هندسيا"(١٣٢)، على ضوء ما توفر من خرائط وتقارير الرحالة وأعمال الباحثين الأوربيين، فانتهى إلى أن رباط أكْوْز (Ribat de Kouz) كان محله دوار أكْوْز، مرجحا إياه باعتبار أن وجود المرسى في هذا الموقع، رغم ضعف تحصينات الرباط، يوفر للتجار موقعا آمنا، على غرار ما قيل عن رباط مولاي بوسلهام شمال المغرب(١٣٣).

لاحظ عز الدين كرا من خلال التحريات التي قام بها في هذا الموقع ابتداء من سنة ١٩٩٩م، احتفاظه بمعظم المعطيات التي تحدث عنها برنار روزنبرجي، على الرغم من الأنشطة الفلاحية التي تقام على أرضه(١٣٤). وكتب "... أن الموقع الذي احتضن الرباط بنى على مرتفع يطل على مصب وادي تانسيفت، وهو محصن طبيعيا من جهتي الغرب والجنوب، حيث يشرف مباشرة على منحدر عميق من الجهتين الجنوبية والغربية. أما من الشمال فيظهر أنه كان يتوفر على خندق حفر في الأرض الكلسية التي بني عليها الموقع. وتبقى الجهة الشرقية هي الأقل تحصينا حيث الأرض منبسطة إلى حدود (دوار أكْوْز) الحالي. ويتبين من خلال زيارتنا للموقع أن مجاله كان منقسما إلى جزئين: جزء في الجهة الجنوبية الغربية، وهو أصغر مساحة يشبه ما يسمى ب: التحصين الصغير(Le réduit)؛ تحصينه متين، وهو يمتد على مساحة حوالي ١٣١٦متر مربع في شكل مستطيل، يحيط به سور مبني بالحجارة الكلسية القليلة التهذيب، وهي متراصة في صفوف متوازية وملصقة بخليط غني بالجير. ويبلغ سمك الحائط في أقصى قياساته 1,30

متر. ويضم هذا المجال بداخله ركامًا كبيرًا من الأحجار التي تدل على بناءات مهدمة، بالإضافة إلى بعض آثار الأسوار ومطمورتين. ولا يحتوي سطحه على بقايا خزفية يمكن ذكرها. أما المجال الثاني، الأكثر اتساعًا، فلا يعدو أن يكون امتدادا للأول في اتجاهي الشمال والشرق، وذلك بمسافة حوالي ٦٦متر في اتجاه الشمال و٥٠مترا في اتجاه الشرق، حيث آثار الأسوار بالكاد على السطح. تذكر الرواية الشفوية أنها كانت تحمل في جزئها العلوي سورا من التراب، أي: التابية، ولا تظهر بهذا المجال إلا آثار مطمورة، إضافة إلى تربة فلاحية يغلب عليها اللون الأبيض من جراء كثافة نسبة الجير بها"[١٣٥].

وفي تعليقه على ملاحظة روزنبيرجي كون الموقع لا يتوفر على قوة للصمود أمام الحصار، لعدم وجود بنيات لتخزين المياه، فضلا عن سهولة اقتحام أسواره من جهة الشرق[١٣٦]، يرى عز الدين كرا: "أن المستوى السطحي الظاهر للموقع لا يعكس بالضرورة كل بنيات التخزين التي يتوفر عليها، خاصةً وأنه مرت أكثر من خمسة قرون على اندثار آخر مستوى استيطان به، وهذا ما يمكن لحفريات أثرية أن تؤكده. أما بخصوص ضعف تحصين الموقع من الجهة الشرقية، [يضيف عز الدين كرا] فنعتقد أن هذه الجهة كانت تضم الباب الرئيسي للموقع الذي ربما كانت تحصنه أبراج متينة على عادة الحصون المغربية. غير أننا في الوقت الراهن لا يمكننا تأكيد ذلك"[١٣٧].

وقفنا بدورنا على رباط أَكّوْز أو بالأحرى ما تبقى منه يوم ٤ أبريل ٢٠١٨م، ولاحظنا أن معالمه ما انفكت تزداد تآكلاً وطموسًا، كما يبدو في الصورتين المواليتن:

خامسًا: قلعة أَكّوْز: الحصن البرتغالي الشمالي أو الصويرية

حين أخلى البرتغاليون حصن أَكّوْز الجنوبي على وادي تانسيفت، ومحاولة منهم الحفاظ على نفوذهم في المنطقة، تحمسوا لتشييد حصن جديد بإشراف حاكم أسفي، النبيل البرتغالي نونيو ماسكرينهاش (Nunio Mascarenhas)[١٣٨]. اختاروا له مكانا بين أسفي شمالا ومصب نهر تانسيفت جنوبا، انتهوا من أشغال إنشائه سنة ٩٢٥ه/١٥١٩م[١٣٩]، أوبداية السنة الموالية[١٤٠]. وهذا هو حصن: أَكّوْز الشمالي[١٤١]، وسماه البرتغاليون: "قصبة أَكّوْز"، وينسب إلى مؤسسه فيسمى: "قلعة ماسكارينهاش"[١٤٢]. كما عرف ب: قصر أَكّوْز (Castelo d'Aguz)[١٤٣].

يقع هذا الحصن جنوب أسفي بحوالي ٣٠كلم[١٤٤]، على شاطئ البحر، بل إن بنايته مغروزة أساساتها في جزء من كتلة صخرية تمتد داخل البحر[١٤٥]. وقد بنيت في الحصن سنة ١٥٢٠م كنيسة، عين فيها ملك البرتغال مصليا[١٤٦] تابعا لأسقف كاتدرائية أسفي (L'Evéché de Safi)[١٤٧].

غير أن الحصن سرعان ما أصبح بدوره عرضة لهجمات المغاربة الذين ضربوا حصارا حوله وحرموا حاميته من مياه العيون التي كانت تعتمد عليها في الشرب، فضلا عن صعوبة التزود بما يكفيها من الأقوات والعتاد والأموال[١٤٨]. أمام هذا الوضع اضطر حلفاء البرتغاليين، مثل أبرهام بن زميرو (Abraham ben Zamiro)، التوسط لدى الشريف السعدي، حيث عرض عليه، لوقف تقدمه، انسحاب البرتغاليين من حصن أَكّوْز مقابل انسحابه من تالمست، لكن دون نجاح، علما من الأمير السعدي أن الملك البرتغالي جواو الثالث (Joao III) لا يريد ولا يستطيع الاحتفاظ بحصن مكلف. وبالفعل، فضل البرتغاليون خيار الانسحاب من الحصن[١٤٩]؛ فغادروه في حدود سنة ٩٣١ه/١٥٢٥م[١٥٠]؛ التاريخ الذي يوافق، تقريبا، إتمام البرتغاليين أشغال بناء قصر البحر بأسفي[١٥١].

بعد هذا الرحيل، تغير اسم الموقع أيضًا، وصار معروفًا بـ: الصويرة[١٥٢]، أو (SU'ERA) السويرة، على لسان الناس، نسبة، كما يقول أحد الباحثين، إلى مايحيط بها من أسوار، على عادة أهل المنطقة الذين يسمون كل ما يحاط بأسوار[١٥٣] بذلك الاسم، ثم حملت اسم: الصويرة القديمة[١٥٤]، تمييزا لها، دون شك، عن مدينة الصويرة التي بنيت أيام السلطان سيدي محمد بن عبدالله العلوي (ت. ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م) على الساحل نفسه.

لعل أقدم من ذكر الصويرة القديمة هو الدبلوماسي الفرنسي زمن لويس الرابع عشر، لويس شينيي(Louis CHENIER) بمناسبة مهامه في المغرب التي انتهت عام

١٧٨٧م[١٥٥]، وبعده جاكسون (J.G.JACKSON) سنة ١٨٠٩م، ثم أوغيست بوميي (Auguste MEAUMIER) سنة ١٨٦٨م[١٥٦]. وفي بداية القرن العشرين زار إدمون دوتي (Edmond DOUTTE) المتوفى عام ١٩٢٦م، الموقع، وترك وصفا لمعالمه كالتالي:"الصويرة القديمة... تشكل بناء متقدما عن أسفي، بناؤها يحمل طابعا أوربيا صرفا... وقد بني هذا الحصن بشكل يسهل عملية تزويده بالإمدادات عبر البحر، حيث جاء متقدما فوق الصخور إلى حد لاتتوقف الأمواج عن الالتطام به... والصويرة القديمة توجد حاليًا محاطة بالكثبان الرملية، وهي متصحرة جزئيا. حيطان الحصن مبنية بحجارة حسنة الوضع مغطاة من الأسفل بأحدور (un glacis) مائل قليلا، على كل من الزاوية الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من سورها المستطيل. هناك برجان ربما كان يحملان مدافع. بوابة البرج التي كانت موجودة جهة الشرق، توجد الآن مهدمة، فوقها داخل بناية الحائط هناك عوارض خشبية من العرعار بقيت محفوظة رغم تقلبات الجو. البناية كلها من الحجر المنحوت (la pierre taillée)، تلك الموجود بالأحدور وبالزوايا، تبرز عناية خاصة بنحتها. والرواية الشفوية تتحدث عن كونها استقدمت من البرتغال، وهذا ليس مستحيلا، بل يمكن ترجيحه. أما فيما يخص زوايا البناية فهي تضم تثبيتات من الرصاص... " [١٥٧].

ذكره، أيضًا، الفقيه محمد العبدي الكانوني تحت عنوان معبر: "الصويرة التي على وادي تانسيفت"، وقال عنها: "موقعها جنوب أسفي على مصب وادي تانسيفت من العدوة الشمالية، تبعد عن آسفي ب ٣٨ كيلومتر، وهي إحدى المراكز البرتغالية وسورها لا يزال محفوظًا خاليًا من السكان"[١٥٨]. كما تعرض له روزنبيرجي، والدارسون اللاحقون[١٥٩]، آخرهم ابراهيم كريدية الذي عنون كتابه باسم: الصويرية...[١٦٠]. علما أن قصبة الصويرية صارت معدودة ضمن المآثر التاريخية المصنفة بأسفي وأحوازها، منذ أيام الحماية الفرنسية، وذلك بمقتضى ظهير مؤرخ في ٢٣ فبراير ١٩٤٣م [١٦١].

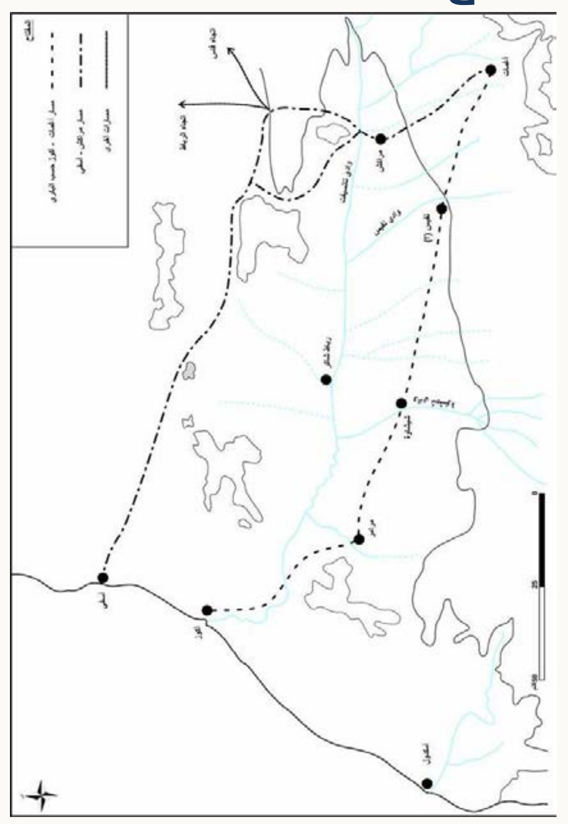
بعد الاستقلال، في السبعينيات من القرن العشرين، شهدت القلعة البرتغالية في الصويرة القديمة عملية ترميم، أفضت إلى تغيير ملامحها الأصلية[١٦٢]، حيث أعطت للباب تقويسا على النمط المعروف في العمارة الإسلامية، مع وضع رمزي الهلال والنجمة عليه[١٦٣]. في وقت تراجعت أهمية الموقع، وصار كأنه لم يغن بالأمس، عبارة عن قرية تكاد تكون خالية، يحفظ فيها الصيادون لوازم الصيد التقليدي، ومصطاف من دون تجهيزات. لا تعرف إلا باسم: الصويرية، بعيدًا بحوالي تسع كلمترات، عن موقع رباط أَكّوْز، أو بالأحرى، عن المركز المحاذي له، والمسمى: خميس أولاد الحاج، على الطريق المعبدة في اتجاه اسفي.

في سنة ١٩٩٢م، انطلقت الأشغال لإحداث قطب سكني وسياحي بالصويرية[١٦٤]، ثم ارتفعت وتيرة التجهيزات ابتداء من عام ٢٠٠٠م، فتم تأهيل الميناء وتحول إلى قرية نموذجية لصيادي القوارب [١٦٥].

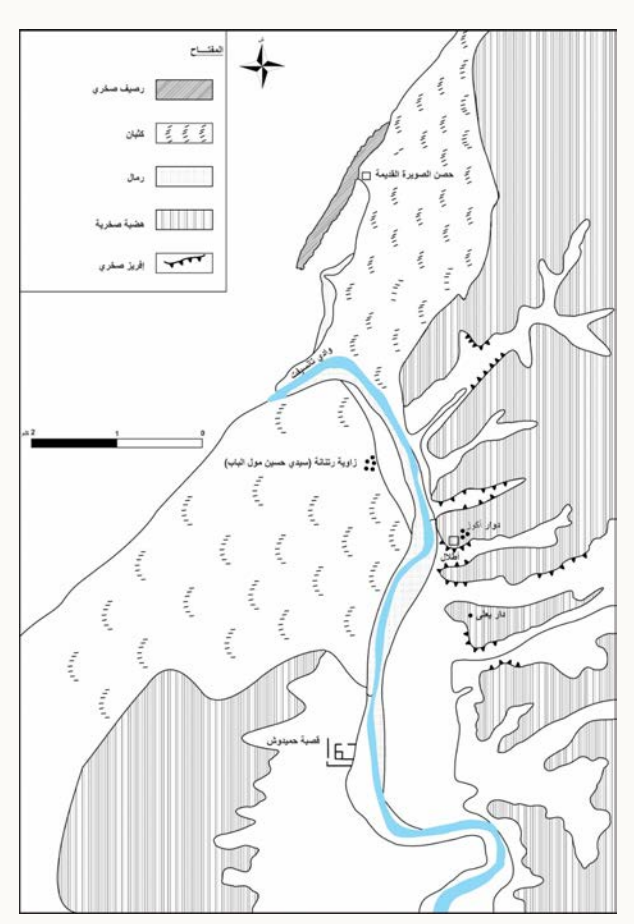
خَاتِمَةٌ

أخيرًا، إن رباط أَكُوْز من الربط القديمة التي ارتبط ظهورها بالحرب على برغواطة، ونشر المذهب المالكي في المغرب، واشتهر أمره كثيرا حين تولى القيادة على تلك الجبهة يعلى بن مصلين الرجراجي، صاحب الدار بالقرب من الرباط نفسه. وقد ارتبط رباط أَكُوْز روحيًا برجراجة وتجاريًا بأغمات، لكن انتهاء الحرب على الجبهة البرغواطية، و تحول الطريق التجاري إلى أسفي، أسهم في ضعف النشاط التجاري بميناء أَكُوْز، وفي تراجع حيوية الرباط نفسه. لكنه لم يختف، حتى صار مستعمرة برتغالية. البرتغاليون وإن كانوا انسحبوا من موقع رباط أَكُوْز فقد بنوا حصنًا آخر غير بعيد عنه صمموا على تسميته بالاسم نفسه: قلعة أَكُوْز. لكن سرعان ما انفصل اسم أَكُوْز عن القلعة البرتغالية بعد أن حملت اسم الصويرة ثم الصويرية، بينما صار الرباط الأصلي في موقع أَكُوْز عبارة عن أطلال تحتاج إلى من ينفض عنها غبار النسيان.

الملاحق



خريطة رقم (١)
مسار أغمات – أَكُوْز



خريطة رقم (٢)
موقع أَكُوْز على مصب نهر تانسيفت



صورة رقم (١)

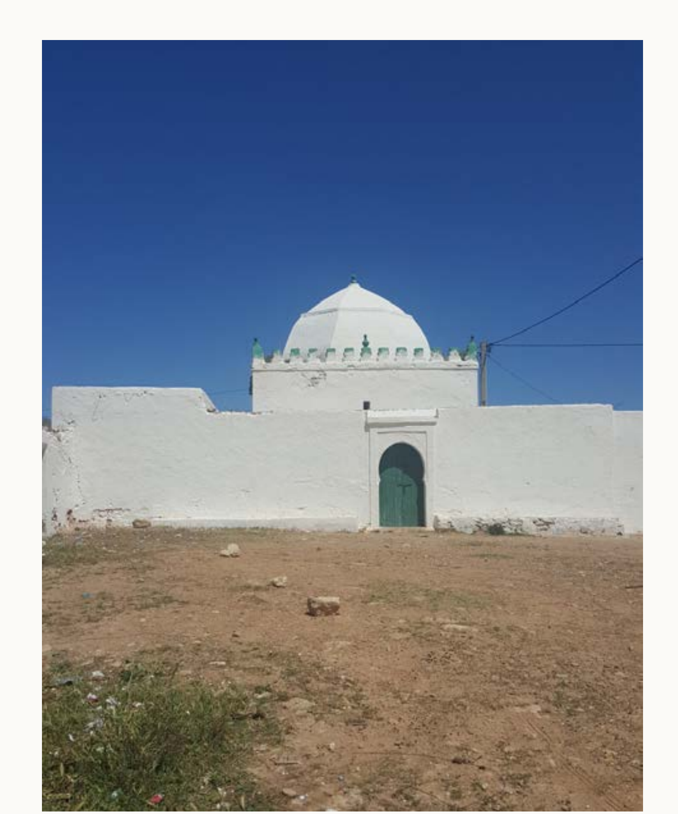
منظر عام لموقع رباط أَكُوْز في قمة الربوة (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)


صورة رقم (٢)
منظر عام لما تبقى من دار يعلَى (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)


صورة رقم (٤)
آثار خزان صخري بموقع دار يعلى
(بتاريخ ٢ أبريل ٢٠١٨ م)

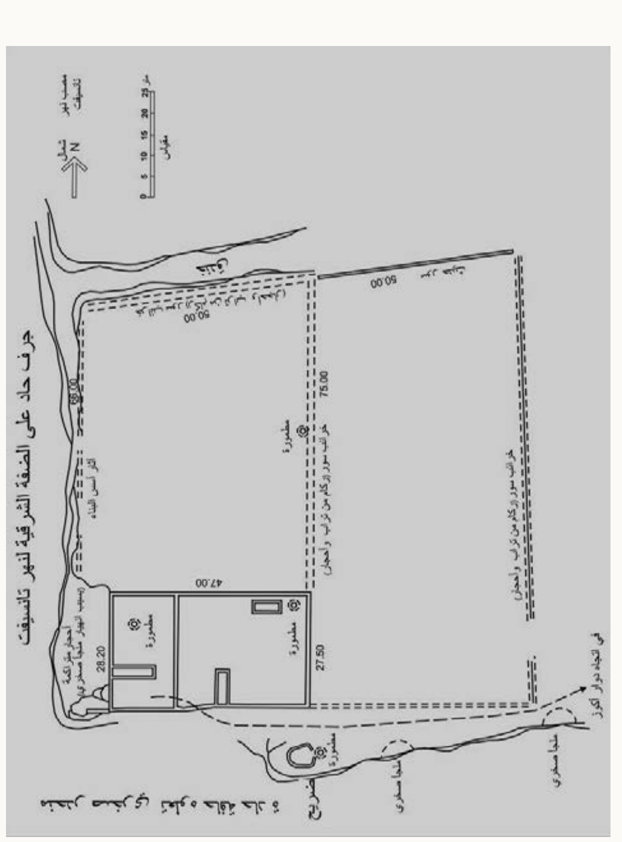

صورة رقم (٣)
بعض خرائب دار يعلى (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)


صورة رقم (٥)
مأخوذة من دار يعلى، يظهر فيها موقع رباط أَكُوْز (يمينا) وضريح سيدي حسين مول الباب (يسارا)، يفصل بينهما مجرى نهر تانسيفت (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)



صورة رقم (٦)

ضريح سيدي حسين مول الباب (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)



تصميم هندسي رقم (١)

من إنجاز برنار روزنبرجي لرباط أَكُوْز (تعريب الباحث)



صورة رقم (٧)

جانب من سور رباط أَكُوْز؛ في الجهة المشرفة على مجرى نهر تانسيفت (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)



صورة رقم (٨)

منظر لتراكم الأحجار داخل موقع رباط أَكُوْز (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)



صورة رقم (٩)

قلعة أَكُوْز البرتغالية المسماة: الصويرة القديمة (إبان الحماية الفرنسية)



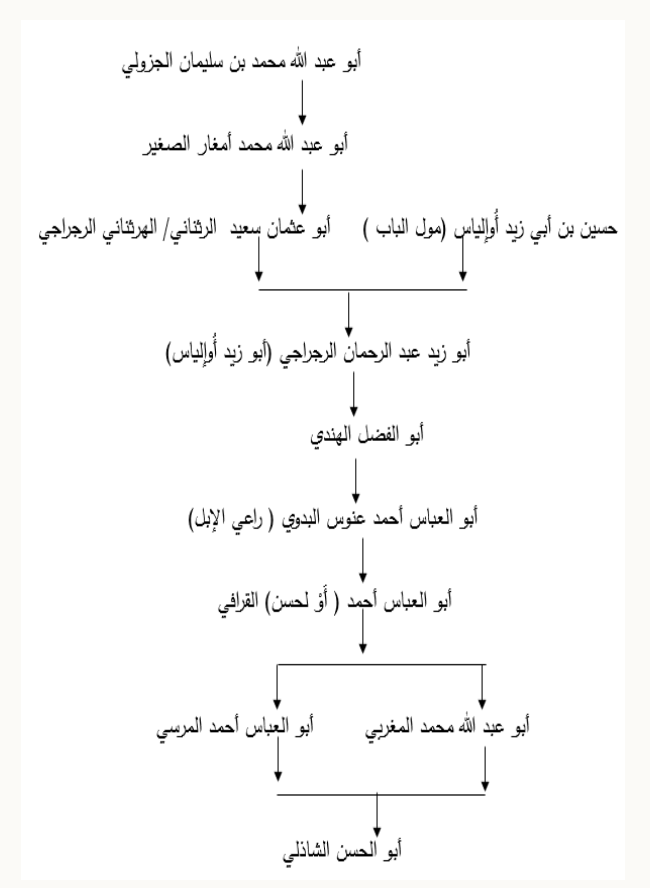
صورة رقم (١٠)

قلعة أكْوْز البرتغالية المسماة: الصويرة القديمة، بعد الترميم (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)



صورة رقم (١١)

مركز خميس أولاد الحاج (عند قدم رباط أكْوْز) على حافة الطريق القادمة من الصويرة (بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٨م)



سند رقم (١)

يوضح موقع أبي زيد أو إلياس في السلسلة الشاذلية، بدءًا بالشيخ محمد بن سليمان الجزولي وانتهاء بأبي الحسن الشاذلي

الإحالات المرجعية:

(١) محمد بن أحمد العبدي الكانوني، **آسفي وما إليه قديمًا وحديثًا**، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٣هـ، ص٥٢.

(٢) رجراجة (بجيم مصرية) أو ركَراكَة (بكاف معقودة) أصلها إيراكَراكَنْ ومفردها أرْكَراكَ، وهو من فعل أرْك الذي معناه بارك، ومنه تارَّاكْتْ وهو موكب التبريك، وأكَراكَ هو المتبرك به (راجع: يوسف ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٨٦، الهامش ١٣). والركَراكَ في البلاد حيث يوجد رباط أكُوْز، معناه: العصا؛ وكان الفقراء يحملونها في سياحتهم. ولعل لهذه التسمية علاقة بما يذكر لهم من السابقة في الإسلام، فضلاً عن الفضل والصلاح. راجع: الحسين أسكان، **"رجراجة رائدة الرباطات بالمغرب الوسيط"**، ضمن: **تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**، دفاتر دكالة- عبدة رقم ١، مطبعة دار النشر المغربية الدار البيضاء، نشر مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، ٢٠٠٠م، ص٢١٤. كان موطن رجراجة في العصر الوسيط ممتدًا على مجال واسع بين دكالة الحالية وحاحا، ومعظمها جنوبي وادي تانسيفت، يحدها البحر المحيط غربًا، وتدخل فيها شيشاوة، وجزء على الأقل من متوكَة الحالية التي مركزها بوابض (مقدمة تحقيق التشوف، ص٢٤). وقد تقلص اليوم موطن رجراجة إلى جبل الحديد حول أقرمود (المصدر نفسه، ص٨٦، الهامش ١٣)، على بعد حوالي ٥٠ كلم شمال موكَـادور المعروفة اليوم بالصويرة.

(٣) راجع: أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل٢٨ غشت١٤٨١- أكتوبر ١٥٤١)**، مطبعة دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص١٢٥.

(٤) أحمد بوشرب، "أكُوْز"، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، مجلد٣، ص٦٣٨.

(٥) التشوف... مصدر سابق، ص٣٥٥، الهامش ١٠١.

(٦) راجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٤م، ج.١، ص.١٠١. أحمد التوفيق، "حول معنى اسم أسفي"، ضمن: أسفي دراسات تاريخية وحضارية، أعمال الملتقى العلمي الأول لمدينة أسفي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، منشورات المجلس البلدي لمدينة أسفي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٩م، ص٧٢.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٥٥. وراجع: عبد الله بن محمد بن البشير المقدم الرجراجي السعيدي البطريطشي، **السيف المسلول فيمن أنكر على الرجراجيين صحبة الرسول**، تقديم محمد بن عبد الله بن محمد الرجراجي السعيدي، مطبوعات معهد الشعبي الإسلامي، مدينة الصويرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٨٩.

(٨) التشوف... مصدر سابق، ص ٣٥٥، الهامش ١٠١.

(٩) أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص١٥٣، ١٥٤.

(١٠) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة بين النص التاريخي والدراسة الميدانية-مساهمة في وضع خريطة أثرية للمنطقة**، أطروحة السلك الثالث، المعهد الوطني علوم الآثار والتراث، الرباط، مرقونة، ٢٠٠٠م، ص٤٤.

(١١) راجع: أحمد التوفيق، حول معنى اسم أسفي... مرجع سابق، ص٧٢.

(١٢) راجع: المرجع نفسه.

(١٣) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص ٨٧.

(١٤) أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**... مصدر سابق، ص١٥٣، ١٥٤.

(١٥) المصدر نفسه، ص١٥٤. وراجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، **الإعلام**... مصدر سابق، ج.١، ص ١٠١.

- Bernard ROSENBERGER, »Note sur Kouz, un ancien port à l'embouchure de l'Oued Tensift», Hespéris –Tamuda, vol. VIII, fasc. Unique, 1976, p.46-49.

(١٦) محمد بن محمد بن عبد الله الجمودي المعروف بالشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٢٣٦.

(١٧) المصدر نفسه، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤١.

تحدث الشريف الإدريسي، أيضًا، عن موانئ دكالة وما والاها، فقال: "...ومن أنفا إلى مرسى مازيغن [مدينة الجديدة حاليا] خمسة وستون ميلا روسية، ومن مازيغن إلى البيضاء، [وهو] جون...ثلاثون ميلا، ومن البيضاء إلى مرسى الغيط خمسون ميلا، وهو جون ثان، ومن الغيط إلى أسفي خمسون ميلا، ومن أسفي إلى طرف جبل الحديد ستون ميلا، ومن طرف جبل الحديد إلى الغيط التي في الجون خمسون ميلا. وكذلك من طرف مازيغن إلى أسفي روسية خمسة وثمانون ميلا وتقويرا مائة وثلاثون ميلا. ومرسى أسفي كان، فيما سلف، آخر مرسى تصل إليه المراكب، فأما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجار. وأسفي عليه عمارات وبشر كثير من البرابر المسمين رجراجة وزودة وأخلاط من البرابر، والمراكب تحمل منه أوساقها في وقت السفر وسكون حركة البحر المظلم... ومن مرسى أسفي إلى مرسى ماست في طرف الجون مائة وخمسون ميلا. ومرسى الغيط مرسى حسن، مكن من بعض الرياح، والمراكب تصل إليه، فتخرج منه الحنطة والشعير، ويتصل به، من قبائل البربر، دكالة. وأرض دكالة كلها منازل وقرى ومناهل ومياهها قليلة. وتتصل دكالة إلى مرسى ماست إلى تارودانت السوس...". المصدر نفسه، ص ٢٤٠-٢٤١.

(١٨) قال المؤرخ المجهول في حديثه عن وادي تانسيفت: "منبعه من بلد دمنات، يصب فيه وادي وريكة ووادي نفيس وأودية كثيرة، ومصبه في ساحل رباط جوز". **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، طبعة الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص٢٠٩

(١٩) المصدر نفسه، ص٢٠٧. الغريب أن محقق الاستبصار في تعليقه على اسم جوز كتب ما يلي: البكري «يتكلم عن رباط قذر» (ص٢٠٧، الهامش٣). لاحظ كيف قرأ كلمة (قوز)، وكيف تحولت إلى (قذر).

(٢٠) [علي بن موسى] ابن سعيد [الأندلسي] المغربي، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، مطبعة كريماديس، نشر معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٨م، ص٥٨.

(٢١) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص. ٩٠.
أحمد بوشرب، "أكُوْز"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨.

(٢٢) أبو الفضل عبد الكبير بن سعيد، **العيون المرضية في ذكر بعض مناقب الطائفة الرجراجية**، دراسة عبد الكريم كريم، مطابع الأطلس، ش.م-الرباط، ١٩٨٧م، ص ٢٠-٢١. وراجع: عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، السيف المسلول... مرجع سابق، ص٤٨.

(٢٣) محمد بن أحمد العبدي الكانوني، آسفي وما إليه قديمًا وحديثًا... مصدر سابق، ص٥٣.

(٢٤) راجع أيضًا: محمد السعيدي الرجراجي، "رباط شاكر.. الدور العلمي والروحي"، ضمن كتاب: **منطقة أحمر معالمها وأعلامها: رصيد من الإشعاع الروحي والعلمي**، منشورات المجلس العلمي المحلي لإقليم اليوسفية، ٢٠١٢م، ص٩٣.

(٢٥) **المغرب في ذكر أفريقية والمغرب**... مصدر سابق، ص١٥٣، ١٥٤.

(٢٦) التشوف... مصدر سابق، ص٣٥٥.

(٢٧) اشتهرت أَكُوْز بكونها مقر العامل، وبها يجبي الخراج. وكان بها: مسجد جامع وسجن. راجع: المصدر نفسه، ص٣٥٥، ومقدمة المحقق، ص٢٤. محمد رابطة الدين، **"رباط أكُوْز"**، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، مجلد١٣، ص ٤٢٥١. ولذلك قال عنها باحث معاصر: "أكُوْز عاصمة رجراجة على عهد الموحدين". أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص٩٠.

(٢٨) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٤٤.

(٢٩) راجع: أبو القاسم الشبري، **دكالة وإيالتها**، جهة دكالة – عبدة: **تاريخ وآثار**، طباعة بسمة برينت، الجديدة، منشورات جمعية دكالة، الجديدة، ٢٠١٢م، ص ٨٢.

(٣٠) مؤرخ مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**... مصدر سابق، ص٢٠٧.

(٣١) **المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب**... مصدر سابق، ص١٥٣-١٥٤. وراجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام... مصدر سابق، ج١، ص ١٠٠-١٠١.

(٣٢) راجع: عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق ص٩١-٩٢.

(33) **Sources inédites** de l'histoire du Maroc, **Première série, Dynastie saadienne, Portugal** I, p.199 note2.
- Bernard ROSENBERGER , Note sur Kouz…art. cit. p.30

(٣٤)عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٥٧-٥٨، ٩٠.

(٣٥) أحمد التوفيق، **من رباط شاكر إلى رباط أسفي**... مرجع سابق، ص٤٩. وراجع: عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٥٧-٥٨، ٩٠.

(٣٦) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٩٠.

(٣٧) المرجع نفسه. وراجع: نفسه: ص٨٣.

(٣٨) أبو علي صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم، **كتاب القبلة**، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، رقم ٩٨٥ق، ضمن مجموع، ص١٦. وراجع: المهدي بن محمد السعيدي، **"حركة الإصلاح المالكي بالمغرب ودور وكاك بن زلو اللمطي خلالها"**، مجلة التاريخ العربي، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، العدد٤٩، صيف ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٢٥٢.

(٣٩) تحت رقم ٢/٣٩٢، وهي في ١٥٣صفحة، منسوخة عام ٨٨٩هـ. راجع أيضًا: عبد الرحيم العلمي، **فهرس مخطوطات الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج١، ص ٣١١.

(٤٠) راجع: محمد المنوني، «**ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب والمشرق**"، مجلة المناهل، العدد ٦، السنة الثالثة، رجب ١٣٩٦هـ/يوليو١٩٧٦م، ص٢٤١. عبد العزيز بنعبد الله، "الزاوية المغربية كمنتدى للفكر والإشعاع العلمي (٣)"، مجلة دعوة الحق، العدد ٢٤٥، جمادى الأولى ١٤٠٥هـ / فبراير١٩٨٥ م، ص ٢٣.

(٤١) يوسف ابن الزيات التادلي، **التشوف**... مصدر سابق، ص٥٢. وراجع: محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال في تراجم الرجال**، تحقيق علال ركوك، الرحالي الرضواني، محمد الظريف، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، أسفي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٢، ص ٩٦.

(٤٢) راجع عن برغواطة: محمد العبدي الكانوني، **علائق أسفي ومنطقتها بملوك المغرب**، تحقيق علال ركوك، الرحالي الرضواني، محمد الظريف، مطبعة ربانيت، الرباط، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، أسفي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١٦-١٩.

(٤٣) قال الفقيه الكانوني، استنادًا إلى ماروٍاه السابقون: «كانت مواطن برغواطة من المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر من سلا وأنفا وأزمور وأسفي، وعاصمتهم الدار البيضاء حاليًا؛ قال صاحب ألفية الزهور: إن طريفا بناها، كما بنى مدينة طريف بالعدوة «(**علائق أسفي ومنطقتها بملوك المغرب**... مصدر سابق، ص١٩).

ونقل الكانوني نفسه، عن مؤرخ العدوتين، أبي عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي، في شأن برغواطة: "أن عمارة ذلك الثغر، يعني أسفي، كانت معروفة من عهد الفتح الإسلامي. ولما طرأت الطائفة الضالة البرغواطية على النواحي الحوزية، وكان رئيسها صالح بن طريف، اليهودي الأصل، كان من الفَساد الذي طرأ على المغرب على أيديهم أنْ خربوا ثلاثمائة مدينة من مدنه، من جملتها ثغر أسفي، وذلك في المائة الثالثة من الهجرة»(آسفي وما إليه، ص78). وأضاف، في محل آخر، ما يفهم منه أن برغواطة تجاوزوا أسفي نفسها، نصه: "وخربت البلاد حتى أنه كان بين شالة وماسة ٣٠٠ مدينة فأكثر كان نصيبها التخريب والتدمير»(المصدر نفسه، ص١٣٦).

(٤٤) محند أيت الحاج، "حاحة"، **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مجلد ١٠، ص ٣٢٦٥.

(٤٥) انطلاقًا من كلام البكري، نجد أن الحدود الجنوبية لهذه الإمارة كانت تلامس مصب أم الربيع أي مدينة أزمور. لكن ابن خلدون يوسع هذا النطاق ليجعل «مواطن برغواطة من المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر من سلا وأنفا وأزمور وأسفي» (راجع: علائق أسفي ومنطقتها بملوك المغرب، ص ١٩). وهذا الاختلاف في تحديد مجال برغواطة يفيد التغيير الذي كان يطرأ على خريطة الإمارة البرغواطية. ومن ثمة، فالأرجح أن كلام ابن خلدون يعني فترة أو فترات معينة، وليس وضعًا سياسيًا قارًا.

(46) Bernard ROSENBERGER , Note sur Kouz…art. cit. p.45-46.

وراجع: محمد المازوني، **آل أمغار في تيط وتامصلوحت**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

الرباط، مرقونة، ١٩٨٧،٨٦م، ص٤٢. إبراهيم حركات، **"برغواطة"، معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٤١١هـ/١٩٩١م، مجلد ٤، ص ١١٦٧. محمد حجاج الطويل، **"مدخل لتاريخ تامسنا والشاوية"**، ضمن: الشاوية -التاريخ والمجال، سلسلة دفاتر الشاوية، منشورات لجنة الشاوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء بنمسيك، ١٩٩٧ م، ص٤٥-٤٦

(٤٧) اعتبره محمود إسماعيل مذهبًا خارجيًا صفريًا (**مغربيات**، دراسات جديدة، المحمدية، ١٩٧٧م، ص ٤٩-٥٣). بينما ربط عبد الله العروي بين مذهبهم وما سماه بالايديولوجية الشيعية (A.LAROUI, L'histoire du Maghreb, Maspero, Paris, 1976, tome1,p.98). ورأى باحثون آخرون أنه من الصعوبة الحسم في أصول المذهب البرغواطي، وأن المصادر القديمة فيها شيء من التحامل عليه، حيث اعتبرت البرغواطيين كفارا وزنادقة ومجوسا، "... [بينما] الآثار الإسلامية أكثر وضوحا فيها من غيرها، وأن البرغواطيين تأثروا بالفكر الشيعي، وخاصة في مسألة ضرورة وجود الإمام وعودته والتقية، وكذلك أخذوا الكثير من فكر الخوارج (راجع مثلاً: محمد الطالبي وإبراهيم العبيدي، **البرغواطيون في المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩م، وخاصة ص ٥٨، ٦٦). ورأى باحث آخر أن تكفير برغواطة "مجرد خرافة نسجتها أقلام المؤرخين السنيين وكتاب البلاطات" (أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص ١٢٥).

(٤٨) راجع: محمد العبدي الكانوني، **علائق أسفي**... مصدر سابق، ص١٦-١٩.

(٤٩) المصدر نفسه.

سار بعض الباحثين في هذا المسار، وعدَّدَ بعضهم تجاوزات البرغواطيين للإسلام، من قبيل: أن القرآن البرغواطي يشمل ثمانين سورة منسوبة إلى الأنبياء، وكثيرا من صلواتهم تتم دون سجود. أما الوضوء فهو أشمل: غسل الرجلين من الركبتين، غسل السرة والخاصرتين، كما أن صلاتهم تتم من دون آذان ولا إقامة، وصومهم لشهر رجب بدل شهر رمضان (محمد المازوني، آل أمغار في تيط وتامصلوحت، ص٤٤-٤٥). ورجَّحَ الباحث نفسه «أن تكون هذه العقيدة غطاء لحركة سياسية داخلية، شعارها المروق السياسي والعقائدي وأسلوبها التجاوز: [أي تجاوز أركان الإسلام] ... الذي حمله الفاتحون [العرب]... وقد اتخذ أسلوب التجاوز هذا من الإسلام منطلقًا له: فالصلاة والوضوء والصيام... كلها أركان إسلامية، لكن جوهرها شوه واكتسى مظهرًا احتقاريًا، وهنا يكمن عنصر التجاوز العقائدي» (المرجع نفسه، ص٤٥).

وراجع مختلف الآراء عن برغواطة عند: أحمد الخاطب، **التيارات الفكرية في المغرب والأندلس خلال العصر المرابطي**، رسالة لنيل الدكتوراة، شعبة التاريخ، وحدة التكوين والبحث: العالم المتوسطي في العصر الوسيط، قضايا ومناهج، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مرقونة، ١٤٢٤-١٤٢٥هـ/٢٠٠٣-٢٠٠٤م، ص ٢٢٩-٢٤١.

(٥٠) وصفهم ابن الزيات بـ «كفار برغواطة» (التشوف، ص٥٢). وكذلك المجهول صاحب الاستبصار، الذي قال عنهم: "برغواطة، الكفار المرتدون عن ديانة الإسلام» (مصدر سابق ص٢٠٩)

(٥١) قال عبد الرحمن ابن زيدان: «كانت هذه الفرقة على غير الإسلام وفيهم من تنبأ كذبا وزورا...» (**إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الطبعة الثانية، طبعت بمطبعة «إيديال»، سنة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج١، ص٦٣).

(٥٢) من أدارسة وأمويي الأندلس في فترة العامريين، والفاطميين العبيديين، وبني يفرن الزناتيين، والمرابطين، والموحدين. راجع: محمد الكانوني، **علائق أسفي**.... مصدر سابق، ص ١١، ١٣، ١٨-١٩،٢٣. وبالنظر إلى عنف النزال، واستمراره بين المرابطين وبرغواطة، اعتقد بعض المؤرخين أن خلفاء عبد الله بن ياسين تمكنوا من استئصال شأفتهم. لكن الإمارة البرغواطية لم تنته إلا في أيام عبد المومن بن علي، خليفة المهدي بن تومرت، على رأس الدولة الموحدية. راجع: إبراهيم حركات، «**برغواطة**»، معلمة المغرب، مجلد ٤، ص١١٦٨.محمد المازوني، **آل أمغار في تيط وتامصلوحت**... مرجع سابق، ص ٢٠.

(٥٣) محمد المازوني، آل **أمغار في تيط وتامصلوحت**... مرجع سابق، ص ٤١، ٤٢، ٤٥.

(٥٤) أبو علي صالح بن أبي صالح عبد الحليم، **كتاب القبلة**... مصدر سابق، ص١٦. وراجع: ـ محمد المنوني، **"ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس"**، مجلة المناهل، تصدرها وزارة الثقافة بالرباط، العدد٦، رجب ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٢٣٤-٢٣٥. المهدي بن محمد السعيدي، **حركة الإصلاح المالكي بالمغرب ودور وكاك بن زلو اللمطي**... مقالة سابقة، ص٢٥٣. والواضح أن ابن عبد الحليم يتحدث عن تلامذة أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، وليس تلامذة أبي محمد عبد الله بن تسييت نزيل أغمات، كما ذهب إلى ذلك أحمد التوفيق ومن نقل عنه. راجع: يوسف ابن الزيات التادلي، التشوف... مصدر سابق، ص٨٩، الهامش ٢٤، وص١١٤، الهامش٩٧. محمد الطوكي، **"دور الرحلة ومساهمة عباد ونساك رباط أكَلو في قيام دولة المرابطين ونشر الثقافة الإسلامية في الجنوب المغربي"**، مجلة جامعة ابن يوسف، تصدرها جمعية إحياء جامعة ابن يوسف بمراكش، العددان الثامن والتاسع، ٢٠١٠م، ص٣٩٥، الهامش ١٨. فهذا الخلط ناتج عن سوء فهمٍ لما ورد عند ابن عبد الحليم في كتابه القبلة، حيث إنه "... ذكرهم بصفة طلبة أبي محمد، فظن محقق التشوف أن المقصود هو أبو محمد بن تسييت، بينما يشير صاحب كتاب القبلة إلى أن المقصود هو أبو محمد بن أبي زيد القيرواني صاحب كتاب النوادر. قال: وإلى تلك الجهة بنى تلاميذ أبي محمد مساجدهم، لأنهم حملوا عن أبي محمد ما ذكر في النوادر. ثم رجع عنه إلى ما ذكره في كتاب مجمع الأصول، إلى أن قال: وذكر أبو الطيب عبد المنعم أن ابن أبي زيد رجع عما ذكره في النوادر... ". راجع: المهدي بن محمد السعيدي، حركة الإصلاح المالكي بالمغرب ودور وكاك بن زلو اللمطي... مقالة سابقة، ص٢٥٢.

(٥٥) **يوسف ابن الزيات التادلي، التشوف**... مصدر سابق، ص١١٤.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٥٧) نفسه، ص١١٤، الهامش٩٧.

(٥٨) المهدي بن محمد السعيدي، **حركة الإصلاح المالكي بالمغرب ودور وكاك بن زلو اللمطي**... مقالة سابقة، ص٢٥٣.

(٥٩) يوسف ابن الزيات التادلي، **التشوف**... مصدر سابق، ص٥٢.

(٦٠) الحسن اليوسي، **المحاضرات**... مصدر سابق، ص ٤٥.

وراجع: محمد الكانوني، **علائق أسفي**... مصدر سابق، ص١٨. محمد السعيدي الرجراجي، **رجراجة وتاريخ المغرب**، مطبعة ربا نيت، الرباط، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص ١٦.

(٦١) أبو علي صالح بن أبي صالح عبد الحليم، **كتاب القبلة**... مصدر سابق، ص١٦. وراجع: يوسف ابن الزيات التادلي، **التشوف**... مصدر سابق، ص٥٢، الهامش٣٦.

(٦٢) يوسف ابن الزيات التادلي، **التشوف**... مصدر سابق، ص ١١٣.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ١١٣، الهامش٩٣.

(٦٤) عبد الكبير بن سعيد، **العيون المرضية**... مصدر سابق، ص ٢١. وراجع: عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، السيف المسلول... مرجع سابق، ٨٠.

(٦٥) راجع تفاصيل هذه المعلومات عند: عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق ص٨٧-٨٨. وراجع: المصطفى حمزة، **الحاج محمد التهامي الحمري الأوبيري، عالم موسوعي من بلاد أحمر**، مطبعة IMBH، أسفي، ٢٠٠٩م، ص١٤.

(66) Bernard ROSENBERGER , Note sur Kouz... art.cit., p.43-46

محمد رابطة الدين، **"رباط أَكُّوْز"**، معلمة المغرب، مجلد ١٣، ص ٤٢٥١.

(67), p.46 - Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz…art. cit.

(٦٨) محمد حجاج الطويل، **منطقة عبدة وأحمر خلال العصر الوسيط: المجال والإنسان، ضمن: تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**، دفاتر دكالة عبدة رقم ١، مطبعة دار النشر المغربية، نشر مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ص ٨٨-٨٩.

(٦٩) بالنظر إلى موقعه المكشوف والمفتقر إلى أبسط شروط التحصين والدفاع، المفروض توفرها في رباطات الجهاد، فإن الدارسين له، أمثال الفرنسي مارسي، ينفون عن هذا الرباط دوره في الحرب المباشرة على برغواطة، ومن ثمة، انحصر دوره في دعم وتموين المقاتلين، على غرار رباطات شبيهة مثل ماسة وأصيلا وأسفي، فضلا عن كونه مركزا للتعبد والتعليم. راجع: إبراهيم كريدية، الصويرية والمواقع الأثرية القريبة منها، تصدر ضمن سلسلة: تعرف على أثار مدينة أسفي وجهتها، عن: جمعية أسفي للبحث في التراث الديني والتاريخي والفني، أسفي، طبعة ٢٠١٢م، ص١٤-١٥.

(٧٠) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص ٣٠١.

(71) Bernard ROSENBERGER , Note sur Kouz... art.cit., p.52-54..

(٧٢) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب... مصدر سابق، ص١٥٣-١٥٤. وراجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، الإعلام.. مصدر سابق، ج١، ص ١٠٠-١٠١._محمد بن أحمد العبدي الكانوني، آسفي وما إليه... مصدر سابق، ص٥٢-٥٣.

(73) Bernard ROSENBERGER , Note sur Kouz... art.cit., p.52-54..

(٧٤) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص٩٠. أحمد بوشرب، **"أَكُّوْز"**، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨.

(٧٥) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق ص٩١-٩٢

(٧٦) راجع مثلاً: محمد الشريف، **مقدمة المستفاد**... مرجع سابق، ص٧٥، الهامش٥٥.

(٧٧) أدّار في بلد متوكة اليوم، بعد تجاوز بوابض بحوالي أربعة أميال بالنسبة للقادم من جهة مراكش. راجع: يوسف ابن الزيات التادلي، **التشوف**... مصدر سابق، ص ٣٤٣، الهامش٥٩.

(٧٨) عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، **السيف المسلول**... مرجع سابق، ص ١٦٠.

(٧٩) راجع: يوسف ابن الزيات التادلي، **التشوف**... مصدر سابق، ص ٣٥٥.

(٨٠) راجع: المصدر نفسه، ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٨١) راجع: نفسه، ص ٣٥٠. محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج١، ص ٨١.

(٨٢) أخذ باحث معاصر بفكرة اختفاء رباط أَكُّوْز، وحاول تعليلها، فتساءل: "هل اختفاء نعت الرباط مؤشر على ما تدل عليه من نشاط صوفي، لا نعرف أصلا شيئا عن طبيعته ومحتواه؟ هل تحول النشاط إلى مواقع صوفية أخرى بالمجال كرباط شاكر الذي أصبح القوم يسيحون "في طلب الصالحين" به؟ [ثم أجاب]: يبدو أن التساؤلين معا يكمل بعضهما الآخر، فبخصوص الأول منهما لعل مما يدعم طرحه كون أَكُّوْز شكلت الإطار الجغرافي لخبرين فقط من أصل ثلاثة عشر خبرا ضمنها ابن الزيات مناقب أبي إبراهيم الركراكي السالف الذكر، وهو "من أهل أدار من بلد ركراكة، وبه مات عام خمسة وتسعين وخمسمائة"، مما يفيد أن الرجل لم يكن مستقرا فيها بصفة دائمة، وما عدا هذا الصوفي فلا ذكر لأسماء متصوفة آخرين، كانوا ينتمون إليها أو زاروها أو استقروا فيها. وليس في إشارات ابن الزيات ما يوحي بوجود نشاط صوفي بارز فيها، ولعل واقع الأمر كان كذلك، فصاحب التشوف الذي سلك في نهجه سبل التحري وشهد له بذلك النقاد، كانت ظروف عمله ميسرة لتتبع واستقصاء أخبار هذا الموقع، وتجعله في مكان المعاينة المباشرة لأحوال التصوف به لكونه كان قاضيا للموحدين بركراكة، ويستفاد من التشوف أن قاعدة ركراكة في عصر التادلي كانت هي أَكُّوْز. أما مسألة تحول النشاط إلى مواقع أخرى فيبدو أمرا واردا، ومن البديهي في هذا الجانب بالذات أن يطرح تزامن اختفاء صفة رباط أَكُّوْز وظهور رباطي تاسماطت وأوجدام إمكانية وجود علاقة بينهما...". محمد رابطة الدين، مراكش زمن حكم الموحدين: جوانب من تاريخ المجال والإنسان، المطبعة والوراقة الوطنية، نشر مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، ٢٠١٦م. ج٢، ص١٣٥-١٣٧.

(٨٣) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص١٠٣. عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٨٨.

(٨٤) **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي: محمد كمال شبانة، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ١٦٠-١٦٤.

(٨٥) محمد السعيدي الرجراجي، **رجراجة وتاريخ المغرب**... مرجع سابق، ص٧٦. وراجع: محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج٢، ص٢٢. عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، **السيف المسلول**... مرجع سابق، ص٢٥٥. أبو زيد عبد الرحمان أو إلياس الرجراجي "الفقيه الجليل المتورع"، هكذا وصفه الحفيد الماجري، في المنهاج الواضح. رحل إلى الحجاز فأدى الفريضة، وجاور بحرم الله عشرين سنة، وتسنم في الولاية مقاما عليا، وانتهى مقامه إلى القطبانية. ووقع في سلسلة الطريقة الجزولية التي كانت مجتهدة

عند الفقراء في القرن العاشر[للهجرة/١٦م]، كما في الدوحة، أن الشيخ أبا عبد الله أمغار الصغير، شيخ القطب الجزولي، أخذ الطريق عن الشيخ سعيد الهرثناتي، عن الشيخ عبد الرحمن الرجراجي. ونقل عن السابقين بأنه أخذ طريق القوم عن الشيخ أبي الفضل الهندي، عن الشيخ عنوس البدوي، عن أبي العباس القرافي، عن أبي عبد الله المغربي، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي. ومن فوائده: إنكاره شراب الرب وهو المدعو الصامت؛ قال في المنهاج الواضح: "وممن توقف فيه حتى أنكره في عصرنا الفقيه الجليل المتورع أبو زيد عبد الرحمان بن إلياس الركراكي. وقال ما أظن إباحة الفقيه أبي عبد الله محمد بن ياسين لهذا الرب إلا من زلة العالم التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم". راجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٧م، ج.٨، ص٩٨-١٠٠.

محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج.٢، ص ٢٠-٢١. عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، **السيف المسلول**... مصدر سابق، ص٢٥٥. نقل عبد الله السعيدي الرجراجي معلومات عن بعض السابقين تؤرخ وفاة أبي زيد أُو إلياس ب: ٢٤١ه (السيف المسلول، ص٨٣، ٨٧). وهذا رقم بعيد جدا، لأن الذي قدر هذا الحساب اعتبره حفيدا مباشرا لجده الأعلى عيسى بوخابية (المصدر نفسه، ص ٨٧)، بينما الصواب أنه: حسين بن عبد الرحمن أبي زيد بن إلياس بن إبراهيم بن رشيد بن مصراف بن ياسين بن عبد الحكيم بن زيد بن على بن عيسى بوخابية (محمد السعيدي الرجراجي، رجراجة وتاريخ المغرب، ص٧٤-٧٥). يؤكد ذلك، إذا كان الأمر يحتاج إلى تأكيد، أنه عاش بعد الفقيه أبي عبد الله محمد بن ياسين نزيل ساحل رجراجة، علما أن هذا الأخير كان على قيد الحياة عام ٦١٧هـ (عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، السيف المسلول... مرجع سابق، ص ٢٢٠-٢٢١). في هذا الشأن، أرخ أحمد ابن القاضي لوفاة رجل يحمل الاسم نفسه بعام ٧١٨هـ /١٣١٨م (لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، ضمن ألف سنة من الوفيات، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص١٧٦). نقل الفقيه الكانوني هذه المعلومة وعلق على هذا التاريخ بقوله: "ولست أدري هو أو غيره، لكنه من أهل هذا العصر" (جواهر الكمال، ج.٢، ص٢٢)، يعني من عصر أبي زيد أُو إلياس.

(٨٦) عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، **السيف المسلول**... مرجع سابق، ص٧٦، ٨٣. وراجع: إبراهيم الوافي، **المدارس العتيقة بإقليم الصويرة**... مرجع سابق، ص٢٨٥. محمد السعيدي الرجراجي، "**زوايا رجراجة وإسهاماتها: زوايا إقليم آسفي**"، ضمن: **نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة عبر تاريخ المغرب**، مجلة أمل، العدد ١٩ - ٢٠، السنة ٧/ ٢٠٠٠، ص ١٥٠-١٥١. اشتهر هذا "الصحابي" الرجراجي في زمَنه بكونه رئيس رجراجة في الحروب والحافظ لسجلاتهم، ويسمى بوخابية لأنه كان يصبغ ثياب المجاهدين (محمد السعيدي الرجراجي، **رجراجة وتاريخ المغرب**، ص73). وعرف، في هذا الصدد بالذات، بأنه كان يقوم بصبغ ملابس المجاهدين في خابية كل يوم بلون مغاير عن لون اليوم الذي سبقه، وذلك بغية تضليل جيش العدو وإيهامه بكثرة عدد المجاهدين الرجراجيين. في الشأن نفسه، ذكرت الأخبار المتصلة بالموضوع أنه كان لكل واحد من رجال رجراجة السبعة مهمة خاصة يتكلف بها؛ فعيسى بوخابية كان يصبغ ثياب المجاهدين،كما تقدَّم، وكان سعيد السابق يمثل دور القاضي، أما واسمين فكان هو رئيسهم، بينما كان أبو بكر أشماس صاحب رأي ومشورة، ويعلى بن واطل كان يضرب الطبل إيذانا بالحرب، في حين أنيطت بعبد الله أدناس وصالح بن أبي بكر مهام منسجمة وسن الشباب لأنهما أصغر السبعة سنا. راجع: محمد السعيدي الرجراجي، رباط شاكر... مرجع سابق، ص ٥٨).

(٨٧) محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج.٢، ص ٢٠.

(٨٨) جاء في السيف المسلول لعبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي: "مات سيدي إلياس... الرجراجي... فأخلف الله من بعده ابنه عبد الرحمن أبا زيد بن إلياس المشهور ضريحه بشوشاوة الرثناني المذكور، فأخذ في القطبانية أربعين سنة فتنسلت (كذا) منه رثنانة أيت أبي زيد الرثناني المذكور، فمنهم من مات رحمه الله علينا وعليه وبقي منهم من بقي يتنسلون معمرين في بلدتهم المعروفة لهم برباط أجوز بفناء وادي حربلة، ثم مات سيدي عبد الرحمن أبو زيد بن إلياس الرثناني المذكور... فأخلف الله من بعده ابنه احسين بن عبد الرحمن بن ابي زيد الرثناني المذكور ثم مات سيدي عبد الرحمن أبو زيدبن إلياس الرثناني المذكور... فأخلف الله من بعده ابنه احسين بن عبد الرحمن بن ابي زيد الرثناني المذكور نفع الله... فتنسلت منه رثنانة أيت احسين بن عبد الرحمن بن أبي زيد المذكور فمات منهم من مات رحمه الله علينا وعليه وبقي منهم من بقي يتنسلون معمرين في بلدتهم المعروفة لهم برباط اجوز...." (مصدر سابق، ص ٨٣-٨٤. وراجع: محمد السعيدي الرجراجي، **زوايا رجراجة وإسهاماتها**... مقالة سابقة، ص ١٥١).

(٨٩) راجع: محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج.٢، ص.٢٠-٢١. عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، **السيف المسلول**... مصدر سابق، ص٢٥٥. وراجع المصادر المعتمدة لديهما.

(٩٠) راجعك محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧م، ص ٣-٤. عبد السلام بن الطيب القادري، **المقصد الأحمد التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد**، طبعة حجرية بفاس، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م، ص ١٠٥-١٠٦. عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، **السيف المسلول**... مرجع سابق ص 255.

(٩١) راجع: محمد السعيدي الرجراجي، **زوايا رجراجة وإسهاماتها**... مقالة سابقة، ص١٥٢.

(٩٢) عبد الصمد العشاب، **مولاي عبد السلام بن مشيش- القطب الرباني**، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء/ مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث المتخصصة، وجدة،١٤٣٣ه/٢٠١٢م، ص٩٧.

(٩٣) راجع: محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج.٢، ص ٢١.

(٩٤) المصدر نفسه.

(٩٥) نفسه. وراجع: العباس بن إبراهيم [المراكشي]، **الإعلام**... مصدر سابق، ج.٨، ص. ١٠٠-١٠١.

(٩٦) محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج.٢، ص ٢٢.

(*) سورة الأعراف، الآية ١٩٨.

(٩٧) محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج.٢، ص ٢١-٢٢.

(٩٨) المصدر نفسه، ج.٢، ص ٢٢

(٩٩) العباس بن إبراهيم [المراكشي]، **الإعلام**... مصدر سابق، ج.٨، ص.١٠٠-١٠١.

(١٠٠) محمد العبدي الكانوني، **جواهر الكمال**... مصدر سابق، ج.٢، ص٢٢.

(١٠١) عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، السيف المسلول... مرجع سابق، ص٧٦، ٨٧.

(١٠٢) ويجمع سكان زاوية سيدي حسين، في تفسيرهم لنعت: مول الباب، أنه مرتبط بموقع الزاوية المطل على مصب النهر، والصويرة القديمة (محمد السعيدي الرجراجي، رجراجة وتاريخ المغرب مرجع سابق، ص٧٤)، بينما يرى بعض المهتمين أن (الباب) المرتبطة باسمه لها معنى صوفي (mystique)

- Bernard ROSENBERGER , « Note sur Kouz, un ancien port à l'embouchure de l'Oued Tensift », Hespéris – Tamuda, vol. VIII, fasc. Unique, 1976, p.36 note34.

كانت زاوية سيدي حسين مول الباب، قبل أن تغمرها رمال الوادي، عبارة عن قبة ضريح فقط، وكانت أصغر حجما من القبة الحالية؛ إذ بعد أن تهدم الضريح، وغمرت الرمال الموقع، قبل الحماية بوقت طويل، تم تجديد الضريح، وبنيت مرافق أخرى، خاصة الغرف التي تستغل من قبل الطلبة الوافدين أو لإيواء ضيوف الدور الرجراجي الربيعي، وقد بنيت الغرف من التراب المدكوك والجير على غرار القبة.

(١٠٣) محمد السعيدي الرجراجي، **رجراجة وتاريخ المغرب**... مرجع سابق، ص٧٥.

(١٠٤) المرجع نفسه، ص٧٥.

(١٠٥) راجع نص الاتفاقية عند: أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي... مرجع سابق، ص ٤٩٨.

(106)Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz... art.cit., p.31-32,55-56

عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٨٨.

في مقابل تزايد اهتمام البرتغاليين بأكُوْز، أولى حاكم مراكش، الناصر الهنتاتي، اهتماما مماثلا بها ؛ تجلى ذلك من خلال زحفه المتوالي في اتجاه رجراجة، حيث خاض معارك عدة ؛ الأولى في منطقة كونتي في يوليوز ١٥١٢م، والثانية بالقرب من جبل بني ماجر صيف السنة نفسها أمام يحيى أوتعفوفت، انهزم فيهما معا، لكنه عاود الكرة على أكُوْز في ١٢ شتنبر ١٥١٢م، دون طائل، مما كان يعني تنحية الهنتاتيين من الشياظمة (رجراجة) ودكالة، علما أن أوتعفوفت هزم الأشراف السعديين سنة ١٥١٣م حين دخولهم إلى الشياظمة قادمين من سوس، واستعاد منهم تادنيست في نهاية فبراير ١٥١٤م، وهي التي كان قد اتخذها الأشراف مقرا لهم، حيث التقى به الحسن الوزان في الحوز وهو يجمع الضرائب، فحاول إقناعه بالابتعاد عن البرتغاليين (راجع: أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي ... مرجع سابق، ص ٢١٨، ٢٣١).

(١٠٧) محمد ابن عزوز حكيم، **المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**، مطابع الشويخ، تطاون، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج.١، ص.١٩٠. راجع أيضًا: أحمد بوشرب، "أكُوْز"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨.

(١٠٨) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٨٣.

(١٠٩) **تاريخ الشرفاء**، ترجمه إلى العربية محمد حجي و محمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ١٩٨٨م، ص ٣٠.

(١١٠) عن تعدد الحصون قرب قرية أكُوْز: راجع نص الاتفاقية عند: أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص ٤٩٨.

(١١١) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص.٩٠. وراجع المرجع نفسه: ص٨٣.

(١١٢) نفسه، ٩٠-٩١. لا يمكننا، أيضًا، تجاهل تساؤل هذا الباحث الإركيولوجي عمّا إذا كان أحد الحصنين هو دار يعلى بن مصلين الرجراجي، فيكون هو موقع الرباط نفسه، كما تقدّم (ص.٩٠).

(١١٣) **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٣م، ج.١، ص.١٠٠.

(١١٤) هكذا وردت عند الوزان في كتابه الأصلي: راجع:

Emilien RENOU, Description géographique de l'empire de Maroc, suivie d'itinéraires et renseignements sur le pays de sous et autres parties méridionales du Maroc, Recueillies par Adrien Berbrugger, Librairie Royale. Paris, 1846, p.199

(115) Emilien RENOU, Description géographique de l'empire de Maro... op.cit., p.200 note 1

(١١٦) راجع: أحمد بوشرب، "**أكُوْز**"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨.

(١١٧) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي** ... مرجع سابق، ص٨١.

(١١٨) المرجع نفسه، ص١٠٨-١٠٩.

(119) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz... art.cit., p.30,56.

أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي** ... مرجع سابق، ص٢٣، ٢٦٦، ٤٩٨.

(١٢٠) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٨٨.

(١٢١) أحمد بوشرب، "أكُوْز"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨.

(١٢٢) راجع: المرجع نفسه.

(123)Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz... art.cit., p.32

(١٢٤) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي** ... مرجع سابق، ص ٢٣٥. هذا ما يعتبره محمد ابن عزوز حكيم تمكن المغاربة من استرجاع قرية أكُوْز، التي كان البرتغاليون، حسب رأيه، أسسوا بها حصنا، يسميه: حصن قوز الجنوبي. -**المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**... مرجع سابق، ج.١، ص٢٠٢.

(١٢٥) واضح أن نهر تانسيفت يحمل، في هذا المكان، اسم نهر أكُوْز. غير أن تقدير وجوده من قبل مارمول بعيدا عنه بفرسخين؛ أي ما يعادل ١١كلم، مجانب للصواب على اعتبار أن مصب تانسيفت يبعد عن أسفي بحوالي ٣٢كلم. راجع:

Emilien RENOU, Description géographique de l'empire de Maroc…op.cit., p. 199.

(١٢٦) كربخال مارمول، أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ٥٨-١٤٠٩هـ/٨٨-١٩٨٩م، ج.٢، ص٩٩. ورد النص الفرنسي هكذا:

-Kouz est une «Ville ruinée sur le bord de la rivière... où se voyent encore les ruines d'un chasteau qui se nommoit aussi Aguz »

-Luis DE MARNOL, L'Afrique de... dans la traduction de N. Perrot sieur d'Ablancourt, Paris, 1667. t. n. p. no.

- Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz... art.cit., p.33.

وفيه: "Ville ruinée"، مما يعني أن ما عناه مترجم كتاب أفريقيا لمارمول بال(قصر) هو (الحصن).

(١٢٧) قال رحالة برتغالي مجهول (Anonyme portugais)، زار المنطقة أيام المنصور السعدي المتوفى عام ١٦٠٣م: "من أسفي إلى حاحا: تتوغل داخل البحر رأس تسمى: (Cabo do Canavaeal)، وتقع على الشاطئ جنوب أسفي على بعد مرحلتين منها. وعلى بعد مرحلتين من الرأس المذكور وأربع مراحل من أسفي على طول الشاطئ، توجد في البحر، غير بعيد عن البر، جزيرة صغيرة تسمى رأس كوز [le Cabo da Gus]...". - وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور، نقله عن الفرنسية: محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ١٩٩٥م، ص ٣٤-٣٥. في تعليقه على هذا الخبر، كتب باحث مهتم: "ذكر هذا الموقع المجهول البرتغالي، غير أنه تحدث عن رأس كوز (Cap de Gouz)، وجعله على بعد أربعة فراسخ من أسفي، وقال بأنه يسمى أحيانا سانتاكروز (عز الدين كرا، المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة، ص٤٤)، ثم علق قائلا: «يظهر أن الكاتب وقع هنا في خلط بين موقع أَكُوْز ورأس غير (Cap de Guer)، الذي يوجد على مقربة من أكادير"(المرجع نفسه، ص ٥٠)

(١٢٨) راجع تفاصيل مهمة في هذا الشأن عند:

Emilien RENOU, Description géographique de l'empire de Maroc…op.cit.,p. 200-201.

(١٢٩) على غرار ما ورد في ظهير خص به السلطان العلوي المولى إسماعيل أهل زاوية رتنانة بتاريخ: عاشر رجب عام ثمانية عشر ومائة وألف. راجع نص الظهير عند: عبد الله بن محمد بن البشير الرجراجي، **السيف المسلول**... مرجع سابق، ص٧٦. راجع أيضًا: محمد السعيدي الرجراجي، **رجراجة وتاريخ المغرب**... مرجع سابق،ص٧٥-٧٦.

(130) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz…art. cit., pp.23-66.

(١٣١) راجع: عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٨٩-٩٢.

(١٣٢) راجع: المرجع نفسه، ص٨٩.

(133)Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz… art.cit.,p.35-40, 50.

(١٣٤) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٨٩.

(١٣٥) المرجع نفسه، ص٨٩-٩٠.

(136) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz… art.cit., pp.50, 56-57.

(١٣٧) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٩٠.

(١٣٨) المرجع نفسه، ص٨٣.

(١٣٩) محمد ابن عزوز حكيم، **المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**... مرجع سابق، ج١، ص٢٢٤.

(١٤٠) أحمد بوشرب، "**أَكُوْز**"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨.

(١٤١) محمد ابن عزوز حكيم، **المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**... مرجع سابق، ج١، ص٢٢٤.

(١٤٢) إبراهيم كريدية، **الصويرية والمواقع الأثرية القريبة منها**... مرجع سابق، ص٢٩.

(١٤٣) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**... مرجع سابق، ص٢٣٥-٢٣٦.

(١٤٤) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٨٣.

(١٤٥) كتب عز الدين كرا في حديثه عن المعطيات الأثرية للحصن وصفا طويلا ودقيقا، أخذنا منه الوصف الخارجي، وهو كما يلي: "بناية الحصن مربعة الشكل، حيث يبلغ طول أضلاعه من الداخل ٣١ مترا، ويحتوي على برجين أثريين أحدهما في الشمال الغربي والثاني في الجنوبي الشرقي. ويشرف هذا الأخير على باب البرج الذي فتح طوليا (كذا)، وأدت عملية ترميم حديثة إلى تغيير ملامحه الأصلية. تعلو أسوار البرج فتحات للمدفعية (des canonnières)، وبين كل اثنين منهما توجد فتحة مستقيمة عمودية يصل طولها إلى حوالي 0,6متر، محاطة بأحجار منقوشة كبيرة الحجم استعملت للقذف بالسهام والبنادق الصغيرة... إن الدراسة الاستراتيجية لهذا الموقع كانت محكمة، وتمت فيها مراعاة جانب الاختصار في البناء، حيث عوض أن يتوفر الحصن على أربعة أبراج، واحد في كل ركن من أركانه، اعتمد فقط على برجين دائريين متقابلين رأسيا. وتم تعويض البرجين الآخرين بقاذفتين صغيرتين (des échauguettes). كما أن قربه الشديد من مياه البحر، التي غالبا ما تغمر جنباته، يسهل له عملية الإمداد أثناء أوقات الحصار". عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية**... مرجع سابق، ص ٨٣-٨٥.

(146) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz… art.cit., p.32.

راجع: عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٤٦. أبو القاسم الشبري، **دكالة وإيالتها**، جهة دكالة – عبدة... مرجع سابق، ص ٨٢

(147) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz… art.cit., p.32.

(148) Ibid., p. 33.

وراجع: أحمد بوشرب، "**أَكُوْز**"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨-٦٣٩.

(149) Ibid., p.32-33

(150) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz… art.cit., p. 33

وراجع: أحمد بوشرب، **دكالة**... مرجع سابق، ص٣٨٩. أحمد بوشرب، "**أَكُوْز**"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨-٦٣٩.

(١٥١) راجع: أبو القاسم الشبري، **دكالة وإيالتها**... مرجع سابق، ص ٨٢

(١٥٢) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٤٥

(١٥٣) كتب ابراهيم كريدية في هذا الشأن، ما يلي: "من المرجح جدًا أنها حملت اسم "الصويرة» أو "السويرة"، نسبة إلى ما كان يحيط بها من أسوار، ويزيد من إثبات ذلك ما أقره الإخباري محمد الصديقي في مؤلفه: "إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة"، حين أشار إلى أن "الموثقين القدماء"، من أهل مدينة الصويرة الحالية، وغيرهم من العلماء وأرباب الأقلام والأفاقين الأقدمين"، كانوا يكتبون اسم الصويرة بالسين، أي "السويرة"، ثم يضيف أن اسم مدينة الصويرة التي بناها سيدي محمد بن عبد الله، نقل عن اسم قصبة مغرقة

في القدم، كانت توجد ببلاد حاحا، وهي من تأسيس ملوك حاحا قبل الإسلام»وأن هذا الاسم وهو المهم عندنا، نقل أيضًا "من اسم الصويرة التي توجد على وادي تنسيفت"، وذلك – وهذا هو بيت القصيد- في إشارة منه لقصبة أَكُوْز القديمة، وتبعا لإفادات الصديقي، فإن اسم ووصف "السويرة" كانا يطلقان في لغة العرب من سكان حاحا والشياظمة، على كل مكان مسور، أي محاط ومحصن بسور، وهذا ما يؤكده دوتي بعد زيارته للمنطقة من أن الصويرة تعني الحصن (Forteresse)". - إبراهيم كريدية، **الصويرية والمواقع الأثرية القريبة منها**... مرجع سابق، ص ١٤-١٥.

(١٥٤) راجع:

Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz... art.cit., p. p.55 ,56

عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٤٥، ٨٣. أحمد بوشرب، "**أَكُوْز**"، معلمة المغرب، مجلد ٣، ص٦٣٨. إبراهيم كريدية، **الصويرية والمواقع الأثرية القريبة منها**... مرجع سابق، ١١.

(155) كتب كتابًا عنوانه:

Recherche historique sur les Maures et histoire de l'Empire de Maroc,1787

(156) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz... art.cit., p.34

عز الدين كرا، المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة... مرجع سابق، ص ٣١،٣٢، ٤٥، ٤٦، ٨٣.

(157) En tribu, Librairie Paul Guethner, Paris, 1914, pp.373 - 375.

وراجع النص مترجمًا عند: عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية بمنطقة عبدة**... مرجع سابق، ص٤٦. وعلق إبراهيم كريدية على ما كتبه دوتي، قائلا: "هذا الحصن يقع على شاطئ البحر، بل إن أساسيات بنائه تنغرز في جزء من كتلة صخرية تمتد داخل البحر... يتخذ شكل مستطيل... وهو في الحقيقة بطول يصل إلى أربعين مترا، وبعرض يصل إلى خمسة وعشرين مترا، مما يجعل مساحته تمتد إلى ١٠٠٠متر مربع أو في مساحة كيلومتر مربع، ولكن دوتي في حديثه عن هذه القصبة البرتغالية يزيد من طول أبعادها، حسبما نستشفه من تقديره لمساحتها بأكثر من ألف ومائتي متر مربع".- إبراهيم كريدية، **الصويرية والمواقع الأثرية القريبة منها**... مرجع سابق، ص ٢٩-٣١.

(١٥٨) آسفي وما إليه قديمًا وحديثًا... مصدر سابق، ص٥٢.

(159) Bernard ROSENBERGER, Note sur Kouz... art.cit., p.55,56.

أحمد بوشرب، "**أَكُوْز**"، معلمة المغرب، مجلد٣، ص٦٣٨.

(١٦٠) إبراهيم كريدية، **الصويرية والمواقع الأثرية القريبة منها**... مرجع سابق، عنوان الغلاف.

(١٦١)المرجع نفسه، ص٣٩. كما تم، زمن الحماية الفرنسية، تجديد بناءات المرسى لاستقبال سفن صيد سمك السردين، وتم تشييد مصنع لتصبير سمك السردين، سنة ١٩٥٠م، لاتزال بعض أنقاضه بادية، مما أدى يومئذ إلى فك العزلة عن سكان الصويرة القديمة، وتزويدهم ببعض التجهيزات، مثل الطرق والماء. (نفسه، ص ٢٤)

(١٦٢) عز الدين كرا، **المواقع الأثرية الإسلامية**... مرجع سابق، ص ٨٣-٨٥.

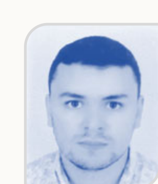
(١٦٣) المرجع نفسه، ص ٨٣، ٨٦.

(١٦٤) راجع: أبو القاسم الشبري، **دكالة وإيالتها**، جهة دكالة – عبدة... مرجع سابق، ص ٨٣

(١٦٥) بفضل منحة "الوكالة اليابانية للتعاون الدولي"، مما ساهم في توفير عدة تجهيزات بميناء الصويرية، منها تشييد حاجز لحماية الميناء مع رصيف لرسو زوارق الصيد وكذا إنشاء سوق للسمك وغرفة باردة (Chambre Froide) ومصنع للثلج (Fabrique de glace) ومحطة وقود وورشة ميكانيك و ٢٦ محلا للصيادين ومرافق إدارية وصحية وخزانات الصرف الصحي، وقد استفاد من هذه التجهيزات حوالي ١٠٠٠ صياد و ٢٠٠ زروق صيد وعدد من الأنشطة والخدمات المرتبطة بقطاع الصيد البحري (إبراهيم كريدية، الصويرية والمواقع الأثرية القريبة منها... مرجع سابق ٢٤-٢٦). ثم انطلقت بها، سنة ٢٠٠٨م، أشغال إعادة هيكلتها، في اطار مشروع٢٠٠٧-٢٠١٢ لتنمية المراكز الصاعدة ورد الاعتبار لمآثرها التاريخية.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

من المصادر العربية لتاريخ الماء بحواضر الغرب الإسلامي
حاضرة مكناس بالمغرب الأقصى أنموذجًا



د. السهلي محمد

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دكتوراه في التاريخ الحديث

مكناس – المملكة المغربية

مُلَخَّص

إذا كانت عملية كتابة التاريخ تقوم على وجود المصادر وتشترط على الباحث أن يتأكد من توفر المصادر وتحري صحتها نسبة ومضمونا وامتلاك القدرة على استثمارها، فإن البحث في تاريخ الماء يفرض تنويع المصادر والانفتاح على حقول معرفية مختلفة كالفقه والقانون والتاريخ والجغرافيا لإنتاج المعرفة التاريخية. على أن حضور الماء في المصادر والمصنفات يختلف اختلافا بيّنا حسب اتجاهاتها ونوعيتها والغرض من تأليفها؛ فذكر الماء في الحوليات التاريخية ورد في سياق تفسير بعض الوقائع الحربية والأحداث السياسية كما ورد ذكره ارتباطًا بالمنجزات العمرانية للسلاطين، أما المصادر الجغرافية والرحلات فقد ذكر الماء فيها في إطار وصف المجال الطبيعي، فكان الماء بذلك معيارًا ومقياسًا للتفاضل بين المدن والحواضر، وبخصوص المصنفات الفقهية والنوازلية، فقد ورد الماء فيها كمصدر للخلاف والتوتر بين المجموعات البشرية حول ملكيته وقوانين استغلاله وتوزيعه، ثم كتب المناقب والتصوف التي ورد الماء فيها مقترنًا بالكرامة والولاية والصلاح، وأخيرًا كتب الخراج التي اقترن الماء فيها بالأرض لما له من أهمية في تحديد نوع الجباية الواجبة على مالكها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٩	يوليو	٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر:	٣١	أغسطس	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الماء؛ الغرب الإسلامي؛ المصادر؛ تاريخ المياه؛ مكناس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.308311.1154 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

السهلي محمد. "من المصادر العربية لتاريخ الماء بحواضر الغرب الإسلامي: حاضرة مكناس بالمغرب الأقصى أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ٦٤ – ٧٣.

Corresponding author: mohamedsh20689gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

في سياق دراسة تاريخية غنية ومتنوعة، يتصدر موضوع "المصادر العربية لتاريخ الماء بحواضر الغرب الإسلامي" اهتمام الباحثين في مجال التاريخ والإثنوجرافيا، الذي يعتبر أحد العناصر الأساسية في حياة الإنسان، وخصوصًا في المناطق التي تتسم بالمناخات الجافة أو شبه الجافة، مثل الغرب الإسلامي. ومن بين الحواضر التي تلعب فيها المياه دورًا محوريًا في تطورها واستمراريتها، تبرز مدينة مكناس في المغرب الأقصى كنموذج بارز يستحق الدراسة المتأنية. تعتبر مدينة مكناس، التي تأسست في القرن العاشر الميلادي، واحدة من أبرز الحواضر الإسلامية التي شهدت تطورًا ملحوظًا في إدارة موارد المياه، مما انعكس على نموها العمراني والاقتصادي والثقافي. تُعَدُّ المصادر العربية، بما في ذلك النصوص التاريخية والجغرافية والأدبية، مصدرًا غنيًا لفهم كيفية تعامل سكان مكناس مع المياه، وإدارة هذه المورد الحيوي.

تستعرض هذه الدراسة كيفية توثيق العرب لممارسات إدارة المياه في مكناس، بداية من التقنيات المستخدمة في الري إلى استراتيجيات التخزين والتوزيع. كما ستسلط الضوء على كيفية تأثير هذه الممارسات على النسيج الاجتماعي والاقتصادي للمدينة، بما في ذلك دور المياه في تشكيل الأنماط العمرانية والتجارية. من خلال استكشاف تلك مصادر وتفسيرها في سياق تاريخ مكناس، ستحاول الدراسة تسليط الضوء على الأبعاد المتعددة لإدارة المياه في واحدة من أبرز حواضر الغرب الإسلامي، وتقديم رؤى قيمة حول كيفية تفاعل البشر مع هذا المورد الحيوي من حيث التوثيق في ظل التحديات المناخية والجغرافية.

أولاً: الوثائق

إذا كانت عملية كتابة التاريخ "تقوم على وجود المصادر وتشترط على الباحث أن يتأكد من توفر المصادر وتحري صحتها نسبة ومضمونا وامتلاك القدرة على استثمارها"[1]، فإن البحث في تاريخ الماء يفرض تنويع المصادر والانفتاح على حقول معرفية مختلفة كالفقه والقانون والتاريخ والجغرافيا لإنتاج المعرفة التاريخية.

على أن حضور الماء في المصادر والمصنفات يختلف اختلافا بيّنا حسب اتجاهاتها ونوعيتها والغرض من تأليفها؛ فذكر الماء في الحوليات التاريخية ورد في سياق تفسير بعض الوقائع الحربية والأحداث السياسية كما ورد ذكره ارتباطا بالمنجزات العمرانية للسلاطين، أما المصادر الجغرافية والرحلات فقد ذكر الماء فيها في إطار وصف المجال الطبيعي فكان الماء بذلك معيارًا ومقياسًا للتفاضل بين المدن والحواضر، وبخصوص المصنفات الفقهية والنوازلية فقد ورد الماء فيها كمصدر للخلاف والتوتر بين المجموعات البشرية حول ملكيته وقوانين استغلاله وتوزيعه، ثم كتب المناقب والتصوف التي ورد الماء فيها مقترنا بالكرامة والولاية والصلاح، وأخيرًا كتب الخراج التي اقترن الماء فيها بالأرض لما له من أهمية في تحديد نوع الجباية الواجبة على مالكها.

يطرح هذا التنوع في المصادر عدة صعوبات تتمحور حول إشكالية الربط بين ما ورد في كتب الفقه والنوازل والجغرافية والرحلات والمناقب والخراج بالواقع التاريخي؛ فاختلاف منظور تلك المصنفات لملكية الماء وأساليب استغلاله وتضارب وجهات نظر مؤلفيها حول وضعيته القانونية وتباينها يزيد من المشكل إبهاما وغموضا، ويعزى ذلك إلى الظروف التاريخية والموضوعية لكل عصر من العصور التي ألفت فيها تلك الكتب والمصنفات وإلى بواعثها الثقافية والأيديولوجية، وتبقى عملية لمّ الإشارات المصدرية على اختلافها والمقارنة بينها هي السبيل الوحيد للخروج بخلاصات يمكن الاستفادة منها في التعرف على الواقع التاريخي.

وتماشيًا مع ذلك فإن البحث في تاريخ الماء بمدينة مكناس يفرض الاهتمام بأنواع مختلفة من المعلومات التاريخية ذات الصلة بما هو اقتصادي للكشف عن مجالات استعمال الماء داخل المدينة وخارجها ولمناقشة إشكالية الماء والأرض، وبما هو عمراني لتتبع تطور الظاهرة العمرانية وما واكبها من تحولات على مستوى المنشآت المائية، وبما هو سياسي للكشف عن دور الماء في الصراعات والأحداث التي كانت تنشب بين المدينة وباديتها، وأخيرًا بما هو فقهي لمناقشة الوضعية القانونية للماء، على أنه ليس في نيتنا القيام بقراء تحليلية شاملة لمصادر تاريخ مكناس، ولكن الغاية

والقصد هي الإجابة عن سؤال تغطية مختلف المصادر لمبحث الماء ضمن الحركة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية برمتها.

فبخصوص الوثائق نستطيع القول بأنها تشكّل ركنًا أساسيًا في معرفة جانب من جوانب تاريخ الماء بمكناس، حيث تقدم للباحث معلومات مهمة ونادرة عن الطبيعة القانونية للماء، ومدى استغلال كل من المخزن والأحباس والخواص لها، كما تمكننا من جهة أخرى من الوقوف عند دور مؤسسة الأحباس في تدبيره. وتضم هذه الوثائق أصنافا متنوعة منها الحوالات الحبسية(٢) التي تكتسي قيمة كبيرة بالنسبة للدراسات التاريخية بما تقدمه من معطيات تاريخية دقيقة، فرغم الصبغة المتخصصة لوثائق الأحباس، فإنها تحتوي تفاصيل هامة ومتكاملة ومختلفة عن طرق تدبير الماء داخل المدينة وخارجها، بل إن وثائقها تشكل حجر الزاوية ومادة أولية في دراسة جوانب استغلال الماء والحقوق المرتبطة به، والوقوف عند ملامح الشبكة المائية ووسائل التوزيع وأساليب امتلاك الخواص حقوق الاستفادة منه، وفي فهم أصول ملكيته.

ومن الملاحظات التي نبديها بخصوصها رداءة خطوط بعض الموثقين والنساخين، مما يصَعبَ قراءة عدد من جمل وكلمات وثائقها. وقد أثارت رداءة خطوط بعض الموثقين من العدول وغيرهم انتباه الفقيه علي اليوسي الذي قال بضرورة استحداث الحسبة على النساخين لأهمية ذلك في إقامة الدين بقوله: "وقع الكتب من الفساد ما لا يتدارك لولا تفضل الله تعالى لحفظ دينه، وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على النساخين، وقد اعتنوا بشربة لبن ألا يزاد فيها ماء، وخبزة ألا ينقص منها وزن قيراط، وأهملوا الكتب التي هي قوام الدين ومرجع الأمر كله"(٣).

فمن الحوالات الحبسية التي تناثرت بين عقودها مسألة الماء هناك حوالة أحباس المساكين التي تشمل إحصاء لأحباس عبد الله بن حمد، وقد وثقها جملة من القضاة والعدول الثقاة، تنفرد بذكر معاوضات لأرحية قام بها السلطان مولاي إسماعيل مع الزاوية الأحمدية، إضافة إلى بعض الإشارات الواردة في بعض العقود عن السواقي المارة بأراضي الزاوية، وكذا بعض منشآت التوزيع والمرافق المنتفعة بالماء، وحوالة أحباس صغرى مكناس رقم ٤ التي تنفرد بذكر مدينة الرياض العنبري المندثرة وجامعها الأعظم، إضافة إلى عقود جزاء الماء الخاصة بتزويد المساجد والمرافق المرتبطة بها، كما تنفرد هذه الحوالة بذكر عقد جزاء ماء عين تاكمة يعود تاريخه للقرن السادس عشر. وحوالة كبرى مكناس رقم ٥ التي بها ظهير المولى إسماعيل حول تجديد قنوات واد بوفكران وعين تاكمة، وكذا توزيعهما داخل المدينة، كما تتضمن وثائق عن المرافق المنتفعة بالماء، وكذا عقود بأسماء الخواص المستفيدين منه كأعوان المخزن وبعض التجار، وهي في حالة رثة أكلت الأرضة بعض وثائقها مما صعب معه قراءتها. وقد استنسخت هذه الحوالة عام ١٣٣٣هـ وحملت اسم الحوالة رقم ٨، وأضيفت إليها وثائق تحبيسات تعود للقرن ١٨ و١٩م، وأخيرًا حوالة أحباس كبرى مكناس رقم ٧ وقد ورد فيها عدد هام من الوثائق ذات الارتباط بموضوع الماء منها ما لم يرد في الحوالات السابقة الذكر، كعقود معاوضات الخواص لأملاكهم مع الأحباس للحصول على الماء، وعقد جزاء ماء الملاح، بالإضافة لانفرادها بعدد هام من الظهائر والأوامر السلطانية لناظر الحبس قصد "تنفيذ" الماء لأعوان المخزن بالمدينة.

إلى جانب الحوالات الحبسية هناك الكنانيش، وهي عبارة عن سجلات وثائقية تنفرد بمعلومات تاريخية قلّما نجدها في أصول ومظان أخرى، فهي تحتوي على "موضوعات منسجمة، أو مختلفة، متماسكة أو متفرقة، لأهداف علمية واقتصادية وسياسية ودينية"(٤).

وإذا كانت بعض الدراسات أفادت بأن مدينة مكناس حظيت بعدد لابأس به من الكنانيش التي تهم إحصاء أملاك المساجد والزوايا ومداخلها ومصارفها بشكل مضبوط ودقيق، فإنها بالمقابل حظيت كذلك بكنّاش توثيقي دقيق ومضبوط فيما يتعلق بمسألة توزيع الماء داخل المدينة يحمل اسم "إحصاء ماء واد بوفكران"(٥)، الذي يعود زمن تدوينه إلى أواخر عام (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، يشمل حسب ما ورد في صفحته الأولى إحصاء أقسام واد بوفكران "الحمد لله وحده بيان إحصاء أقسام ماء واد بوفكران ابتداء من سيدي أبي زكرياء وفق المأذون به من وزارة الأوقاف السعيد بكتاب عدد ١١٨٨"،

وهو كنّاش تفصيلي لأجزاء الماء والسواقي المار بها، والمرافق الدينية والاجتماعية المستفيدة منه، وكذا العراصي والجنات التي تسقى به والدور الداخل إليها الماء، كما يتضمن نوع القنوات المستعملة وكمية الماء، إضافة إلى بعض الإرشادات عن الأماكن التي ينقطع فيها الماء وما يضاف للواد، وتقويم ما للقبائل، ثم تقويم رقبة الجهة المستفيدة وجزاؤها بالفرنك.

وقد تم إنشاء هذا الكناش بأمر من وزارة عموم الأوقاف لناظر أحباس مكناس آنذاك "أحمد الصبيحي" قصد إحصاء الماء الداخل لمكناس من نهر بوفكران والوقوف عند أصوله، وهو ما يستشف من الورقة الأخيرة من الكناش التي جاء فيها: "الحمد لله وحده لما ورد الأمر من وزارة عموم الأوقاف السعيدة بالأعتاب الشريفة على ناظر الأحباس الكبرى الأرشد الفقيه الأستاذ الأنجد السيد أحمد الصبيحي السلاوي بكتابها عدد ١١٨٨ وتاريخ ١٢ جمادى الثانية عام ١٣٤٢هـ من حمراء مراكش بإعادة إحصاء مياه بوفكران"[٦]. وقد كوّن الناظر الصبيحي لهذا الغرض لجنة كانت تتكون من نائب الناظر محمد بناني، وأرباب البصر القنويين العارفين بأصول مياه النهر الداخل للمدينة، وهم المعلم الحاج المعطي والمعلم العيساوي.

إضافة إلى الكناش المذكور، هناك كنانيش الزوايا التي تناثرت بها عقود خاصة بالماء الداخل إليها، من ذلك أوقاف الزاوية الشبلية نسبة إلى أحمد الشبلي بمكناس، الذي قيّد في ٢٧ ذي الحجة الحرام متم عام (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م)، ويغطي الفترة الممتدة من عام ١١٨٠هـ إلى عام ١٢٣٩هـ، الذي يضم وثيقة حول مسألة معالجة فيض الماء الخارج من السقاية المحاذية للضريح والضرر الذي يحدثه لما جاوره من الدور.

ومن صنف هذه الوثائق نذكر بعض الوثائق الخاصة بأرشيف نظارة أوقاف مكناس، يتضمن هذا الأرشيف، وثائق تتعلق بمسألة الماء زمن الحماية، تتيح الوقوف عند ملامح الصراع الذي كان بين أحباس مكناس مع الإدارة الفرنسية حول الماء، كما بها إشارات تاريخية تهم مسائل تقنية تتعلق بإحصاءات وتقارير حول توزيع الماء بالمرافق الدينية والاجتماعية التابعة لمؤسسة الأحباس، والتي يمكن تصنيفها على النحو التالي:

- وثائق ورسائل مخزنية متبادلة بين عموم الأوقاف وناظر مكناس حول ماء واد بوفكران، وتشمل مسائل سقي الأراضي، ومسائل أخرى متعلقة بأداء مصاريف صيانة القنوات المائية، إضافة إلى مسائل خلافية بين إدارة أحباس المدينة والإدارة الفرنسية حول الماء.
- وثائق تتعلق بالنزاعات التي كانت تقوم بين المستفيدين من المياه لسقي الأراضي الزراعية أو إدخاله للدور.
- وثائق صادرة عن الإدارة الفرنسية بمكناس، وهي مجموع المراسلات والدراسات التي قامت بها حول المياه الداخلة للمدينة.

أما بخصوص المستندات والوثائق التي تزخر بها الخزانة الحسنية، فتطالعنا وثائق المجموعة الزيدانية التي جمعها عبد الرحمان بن زيدان، والتي تم تصنيفها في ٣٤ مجلداً وهي غير مرتبة زمنيا، بفوائد تهم قضايا الماء بالمدينة وأخرى تتعلق بالقبائل المجاورة لمكناس كبني مطير وكروان. أما وثائق المديرية الملكية بالرباط فيعثر الباحث فيها على عدد من الوثائق ذات الصلة بموضوع الدراسة تتعلق بفترة السلطان الحسن الأول وأخرى تعود لعهد الحماية، تكشف عن النزاعات التي كانت قائمة حول الماء داخل المدينة وللدور الذي كان يقوم به المخزن في فضّها.

إلى جانب الوثائق الوطنية، حظيت منطقة مكناس في عهد الحماية بدراسات وتقارير قام بها مبعوثون وزائرون وضباط الشؤون الأهلية جمعوا بعض الأخبار والمعلومات التي تهم مكناس والقبائل المجاورة لها كبني مطير وكروان، وهي تزخر بمعلومات عن وضعية الموارد المائية بالمنطقة وجملة من الأوصاف المرتبطة بشبكة الري والسواقي ومصادر الماء، وهي مرقونة بمركز الأرشيف الدبلوماسي بنانط، نذكر على سبيل المثال "Monographie de la région de Meknès" الذي يعود لأرنود[٧] "Arnaud" وعرض فيه معطيات تتعلق بالمناخ وكمية التساقطات ولأنظمة الري التقليدية ولأعراف سكان القبائل النازلة بأحواز مكناس ولنوعية المنتوجات الزراعية، وهي إشارات على اختلافها تفيد في الكشف عن علاقة المدينة ببواديها. كما يفيد "Michaut"[٨] بمعطيات عن مساحة الأراضي الجماعية

المزروعة في بعض فرق بني مطير كاقدارن وأيت نعمان وأيت بورزون وأيت وارتندي وأيت حماد، وأيضًا بشبكة السواقي التي تخترق مجال هذه القبائل. وبالمثل يقدم "Goudurier"(٩) معلومات قيمة عن أسماء السواقي المستخرجة من الأودية والمرفوعة من العيون بمجال كروان.

ثانيًا: المصادر العربية المطبوعة

فيما يتعلق بكتب الحوليات التاريخية حول مكناس فهي قليلة إذا ما قورنت بنظيرتها حول حواضر أخرى كفاس ومراكش، وهذه القلة تعزى إلى ضياع العديد من تلك الحوليات، والتي لم يصلنا منها إلا بعض النقول والأخبار التي جاءت متناثرة في بعض المصادر، ويبقى مصنّف ابن غازي حول تاريخ المدينة الوسيطي ومؤلفات ابن زيدان من المنوغرافيات التي لا غنى عنها في مسار البحث لحمولتهما التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية والإثنوغرافية، فما مدى حضور الماء بهذه الحوليات المكناسية؟

بالنسبة لكتاب الروض الهتون(١٠) لمؤلفه محمد ابن غازي العثماني فعلى الرغم من تقدم زمن تدوينه فإنه يكشف عن معلومات حول الوضعية المائية بمجال مكناس الوسيطية، منها ما لها علاقة باستغلال المياه وتنظيم توزيعها بالمستقرات المكناسية القديمة، ومنها ما يرتبط بتقنيات السقي والتوزيع، ثم ما يتعلق بالمشاريع المائية للدولة، بالإضافة إلى بعض المعطيات تتعلق بالمنشآت المائية، ستفيد في دراسة الوضع القانوني لمياه واد بوفكران.

والكتاب حافل بالمعلومات الجغرافية والتاريخية ذات الصلة بموضوع الدراسة، كانفراده بذكر بعض التفاصيل العمرانية للحوائر المكناسية القديمة وتوزيعها على ضفاف واد بوفكران، كما قدم وصفا للأراضي السقوية وبعض المنتوجات المختلفة التي كانت تستفيد من مياه العيون المتدفقة بالمجال، ووردت عنده بعض الروايات عن المعطيات البشرية والاقتصادية للمنطقة، وغيرها من النصوص التي ستستفيد منها معظم فصول الدراسة.

وقد اعتمد المؤلف على من سبقه من المؤرخين والجغرافيين أمثال ابن خلدون وابن مرزوق وابن الخطيب، كما احتفظ بنصوص ضائعة من أرجوزة ابن جابر الغساني وتقييد ابن زغبوش، مما أضفى على الكتاب أهمية تاريخية كبرى، قلما نجدها في المصنفات التي غطّت أحداث الفترة. لكن ما يؤاخذ عليه هو الاختصار في الخبر، حيث خصّ المجال المائي لمكناس بأوصاف محدودة رغم أهمية الماء في الحياة الاقتصادية لسكان الحوائر القديمة، ولم يقدم أخبارًا عن الوضعية المائية للمدينة خلال الفترة التي دوّن فيها كتابه، ونقصد هنا الفترة المرينية والوطاسية، ولعل هذا راجع إلى طبيعة المواضيع التي عالجها وإلى الغرض من تأليفه لهذا الكتاب، فهو قد وضع هذا التأليف "لأهل الأندلس بعد عودته إليها"(١١).

ويضاهيه في الأهمية مؤلفي عبد الرحمان ابن زيدان اللّذين خصّصهما لأخبار مكناس، فالأول وهو "إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس"(١٢) فإنه يحوي أخبارًا وتفصيلات فريدة حول المسألة المائية تتعلق بمواقع بعض المنشآت المائية كالسواقي والقنوات المندثرة، كما حقّق مصادر مياه المدينة وبيّن أهميتها ومنافعها بالنسبة لمرافقها الدينية والاجتماعية، كما أورد مادة متناثرة في ثنايا الكتاب حول عمران المدينة وأنشطة سكانها وعاداتهم والمحن التي تعرضوا لها، بالإضافة إلى تراجم أهم أعلامها، وهي معلومات لها فوائدها في دراسة جوانب من إشكالية تدبير الماء.

أما الكتاب الثاني وهو "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف"(١٣) فينفرد بمادة قيمة، إذ تحدث ابن زيدان فيه بإسهاب عن جلب المولى إسماعيل للماء إلى داخل المدينة وتحبيسه على بعض المساجد والأضرحة والسقايات، فضلاً عن إيراده لوثيقتين حبسيتين تتعلق الأولى بإجراء عين ماء "تاجما" والإصلاحات التي همّت مجاريها لتعذر مياهها بعد الخراب الذي أصابها، والثانية تهم إجراء ماء واد بوفكران إلى المدينة والمرافق المنتفعة به، هذا إلى جانب ما يحتويه من وثائق خاصة بالمرحلة الإسماعيلية، تتضمن معلومات اجتماعية واقتصادية وسياسية ستساعد في دراسة تطور وضعية ملكية الماء وقوانين تنظيمه. كما يمد مؤلف "زهر الأكم"(١٤) لعبد الكريم الريفي وكتاب "البستان الظريف"(١٥) لأبي القاسم

الزياني بروايات عن المنشآت المائية رغم ضآلتها، وبوصف للوضعية الاقتصادية والعمرانية والسياسية لمكناس بعد وفاة المولى إسماعيل، وللإدارة المخزنية والمؤسسة العسكرية لهذه المرحلة وتطورها.

وأهمية هذه المعلومات تكمن في معاصرة المؤلف لها وفي تأريخه لفترة مضطربة وغامضة من تاريخ المغرب، كما تفيد في دراسة مختلف التحولات التي تهم تدبير الماء بمجال مكناس، ومظاهر الخراب الذي مس الشبكة المائية، فضلاً عن إزالة الغموض عن التحولات القانونية لمياه المدينة. أما محمد الرباطي الملقب بالضعيف في كتابه "تاريخ الضعيف الرباطي"[١٦]، والمشرفي في كتابه "الحلل البهية"[١٧]، والكنسوسي في "الجيش العرمرم"[١٨]، وأبو العلاء إدريس في "الابتسام"[١٩] فيرجع لهم الفضل في معالجة بعض المسائل خلال الحكم الإسماعيلي وبعده ذات الصلة بموضوع الماء كالأوضاع الاقتصادية والطبيعية وعلاقة المخزن العلوي بالفئات الاجتماعية والقبائل.

وبخصوص كتب الجغرافية والرحلات فإنها تُعَدّ من أهم المظان التي يعول عليها في مجال البحث في تاريخ الماء وتقنيات تدبيره. والملاحظ أن هذا النوع من الكتابات عرف تراجعًا خلال العصر الحديث من حيث قيمته الجغرافية والتاريخية، وذلك راجع بالأساس إلى تأثير المتغيرات السياسية والاجتماعية التي شهدها المغرب منذ بداية القرن السادس عشر، فأغلب الإنتاجات الجغرافية الخاصة بالمرحلة المدروسة استنسخت الأوصاف السابقة دون إظهار أي انفعال مع المجال، إضافة إلى أن هذه الكتابات اتخذت طابعا سفاريا وبعثات دبلوماسية، قدم أصحابها من خلالها أوصافا عن المجالات الأوربية ومظاهر الحياة السياسية والاقتصادية بها، ولم يخلفوا لنا سوى ملاحظات عابرة عن المدن المغربية ومنها مدينة مكناس.

وعلى هذا الأساس فإنه لا مناص للباحث من الاستعانة بالمصادر الجغرافية الوسيطية التي قدمت نصوصا وإشارات عن الماء بمجال مكناس قصد تحقيق العناصر التاريخية الخاصة بأنظمة تدبيره رغبة في فهمها قبل تبدلها وتغيُّرها، خاصةً وأن الرحلات الأجنبية خلال العصر الحديث قد قدمت نظرة سوداء عن الشبكة المائية وحالتها المادية بالمدينة، ولعل المقارنة بين نصوص تلك الكتابات لها أهمية في كشف النقاب عن الوضعية القانونية للماء قديمًا وحديثًا.

وفي هذا الصدد تظهر أهمية "الاستبصار"[٢٠] لمؤلف عفا الزمن عن اسمه و"نزهة المشتاق"[٢١] للإدريسي و"نفاضة الجراب"[٢٢] لابن الخطيب فيما أمدونا به من إفادات حول وضعية مياه أنهار مكناس وعيونها، وإلى تعدد مجالات استعمال المياه في الحياة اليومية للسكان كإدارة الأرحاء وتزويد الحمامات، وفي التعرف على الوضعية المائية لواد بوفكران وتوزيعه بين المستقرات المكناسية الوسيطية.

أما "وصف إفريقيا"[٢٣] لمؤلفه الحسن الوزان فقد قدّم مادة متنوعة قيّمة، رغم اتسامها بالإيجاز والاختصار، إذ أفرد فقرات عن موارد مكناس المائية وخصّ بالذكر واديها الذي وصفه بالصغير وما يحيط به من حدائق وبساتين، وتحدث عن وجود قناة مائية يجلب بواسطتها الماء من خارج المدينة إلى داخلها لتوزيعه على مختلف المرافق كالمساجد والحمامات والطواحين.

أما عن الرحلات الأجنبية وبصرف النظر عن بواعثها ومقاصدها، فإننا نشير إلى مجموعتين منها: الأولى وهي التي ألفت عن مكناس خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، والثانية ألفت خلال القرن التاسع عشر. فعن المجموعة الأولى نجد كتابات بعض الأسرى المسيحيين بمكناس والذين أسهموا في أشغال بناء المدينة خلال العهد الإسماعيلي، ومؤلفات ممثلي البعثات الدبلوماسية وسياسيين وبعض رجال الدين، والمتصفح لهذه الكتابات يلاحظ محدوديتها فيما يخص مبحث تدبير الماء.

فجرمان مويط «Mouette» الذي كان أسيرًا بمكناس عرض في رحلته[٢٤] بعض الإفادات حول المعطيات الطبيعية للمدينة والتي ضمنها وصفًا لأهم أوديتها كواد "بوعماير" فحدد موقعه بالنسبة للمدينة وما كان على ضفافه من البساتين وأشجار الزيتون، وهي معلومات لها أهميتها في الكشف عن الثابت والمتحول في علاقة السكان بالواد، كما أن ذكر المؤلف لإسم النهر بلفظ "بوعماير" له دلالة على احتفاظ الواد باسمه إلى غاية الفترة التي تواجد فيها الأسير بمكناس.

وبخصوص كتابات جون ويندوس[٢٥] «Windus» وماريا ميتلان[٢٦] «Metlen» فقلما تجود بمعلومات تهم موضوع الدراسة سوى ما عرضاه من أوصاف عامة عن النشاط الفلاحي بأحواز المدينة وبعض العناصر العمرانية.

أما المجموعة الثانية من الرحلات التي كتبت خلال القرن التاسع عشر، فقد جمع أصحابها مادة علمية كثيرة عن طبيعة مجال مكناس وأهلها قلما تجود بها مصادر أخرى، ومن تلك الكتابات نجد مؤلف شارل دو فوكو[٢٧] الذي مر بمكناس سنة ١٨٨٣م، وأعطى وصفا دقيقا للأودية المارة بمجالها واتساعها وعمقها باستثناء واد بوفكران الذي لم يذكره، وهو ما يطرح علامات استفهام عن إغفاله له باعتباره من أهم تلك الأودية بالنسبة للمدينة، أم أن واد بوفكران فقد أهميته خلال الفترة التي مرّ فيها دوفوكو بمكناس فصنفه كجدول من الجداول التي مر عليها دون وصفه، أم أن طبيعة الرحلة حتمت على مؤلفها عدم ذكره.

أما كتب الفلاحة مثل "كتاب الفلاحة"[٢٨] لابن العوام، و"الفلاحة النبطية"[٢٩] لابن وحشية، فرغم اختلاف الظروف الزمانية والمكانية للتأليف إلا أنهما وفرا لنا مادة استقينا منها بعض المعلومات حول التقنيات والحيل المائية المستخدمة في مكناس، وطريقة عملها ومواد صنعها وكيفية تشكيلها ووظائفها في تدبير الماء وتصريفه.

وتُعَدّ مصنفات النوازل والخراج والأحكام والأموال من المؤلفات التي لها أهمية في التعرف على مظاهر الحياة اليومية للأفراد، وعلى "بنية المجتمع بأسسها المادية وتنظيماتها القانونية"[٣٠]، حتى أنها غدت "مادة لا يمكن الاستغناء عنها لأهمية ما فيها، لصياغة تاريخ أكثر عمقًا في بعض جوانبه المفقودة في الكتب الإخبارية إضافة إلى قدرتها على إعطاء تفسير متقدم أو عميق لبعض القضايا التاريخية"[٣١]. وعلى الرغم من أن استغلالها يطرح من الناحية التاريخية مشاكل منهجية ترتبط بالتوطين الزماني والمكاني وإشكالية الفصل بين الافتراضي والواقعي فيها[٣٢]، فإنها تبقى من المصادر التي لا غنى للباحث عنها في البحث التاريخي.

ويمكن تصنيف كتب الفقه والخراج والنوازل حسب إفادتها لموضوع الماء إلى مجموعتين: الأولى عالجت موضوع الماء من الناحية النظرية، فجاءت مشحونة بالآراء والنقاشات الفقهية المحضة، وتمكن من التعرف على الأحكام الشرعية المرتبطة بملكية الماء وقوانين تنظيمه وتوزيعه، ومن هذه الكتب "الأحكام السلطانية" للماوردي[٣٣] الذي عالج أحكام المياه وأقسامها من الناحية الشرعية، والأحكام الواجب مراعاتها عند استغلالها في السقي بين العالية والسافلة، وبالمثل تبرز قيمة "كتاب الخراج"[٣٤] لأبي يوسف يعقوب و"كتاب الأموال" لأبي عبيد القاسم[٣٥] فيما تزخر به من مادة فقهية حول أحكام ملكية الأنهار وعلاقتها بملكية الأرض، وهي أحكام تسهم في معالجة وضعية ملكية ماء بمدينة مكناس. كما يعد كتاب "الإعلام بأحكام البنيان" لمؤلفه ابن الرامي[٣٦] البناء، من المصادر التي يعول عليها في دراسة أحكام المجاري والقنوات المائية وقسمة المياه بين الدور والملاكين، والمشاكل التي تعترض قسمة الماء، إلى جانب كثير من المسائل التي ضمنها في كتابه لها صلة بموضوع الدراسة.

أما المجموعة الثانية، فتتمثل في كتب النوازل والأحكام التي تزخر بأعداد هائلة من المسائل المتعلقة بالماء سواء تعلق الأمر بمجالات الوفرة أو القلة، تعكس قضايا اجتماعية واقتصادية لها علاقة بالماء. ووجه أهميتها يتجلى في طرحها جملة من القضايا في عدد من المجالات التي لا نتوفر بشأنها على شهادات ولا نصوص في باقي المصادر، كملكية الماء وتنظيم استغلاله بين المنتفعين منه، والنزاعات التي كانت تقوم حول الاستفادة منه في السقي والشرب وغيرهما من أوجه الانتفاع، والتي كانت تجد حلولا لها في إطار عرفي نجد صداه في كتب النوازل الفقهية.

فمن أهم كتب المصنفات النوازلية التي تفيد في هذا المضمار كتاب "المعيار المعرب" للونشريسي[٣٧] حيث يعثر الباحث في نوازله على معلومات قيمة عن أحكام ملكية الماء وعلاقته بالأرض، كما تزخر نوازله بمظاهر النزاع حول الماء وأسبابه، وعرض لمظاهر النشاط الاقتصادي بالبادية والمدينة، فيكشف بذلك عما كان يحل بهما من كوارث طبيعية وسياسية وتحولات ديمغرافية.

ويُعَدّ مؤلف "الأدوية الرواقي من أدواء الاختلافات في ماء السواقي"(٣٨)، من المؤلفات الفقهية والعلمية الجادة، والذي أحدث من خلاله "التهامي" تفاعلا مع قضايا مجتمعه الفيلالي وهمومه الدينية والفقهية؛ فهو تأليف قصد منه المؤلف الإجابة عن سؤال ورد عليه من سكان قريتين من قرى تافيلالت حول ساقية مرفوعة من واد زيز كان تسقى بمائه أملاك أهل القريتين الأعلين والأسفلين فتنازعوا في قسمتها، فبنى جوابه عن النازلة على أقوال الفقهاء المالكية المتقدمين في مسائل الماء المتملك وغير المتملك والماء المباح. وتعتبر نوازل المهدي الوزاني المسماة "بالنوازل الجديدة"(٣٩) من المصادر الغنية كذلك بالمعلومات التاريخية، إذ أن المؤلف عرض لمجموعة من القضايا ذات الصلة بموضوع الماء في نوازله والمتعلقة بواد فاس، مما إسهام المقارنة بين وضعية تدبير الماء بفاس بنظيراتها بمكناس. أما كتب الأحكام فيمكن الاستفادة على وجه الخصوص من مصنف "المقدمات الممهدات"(٤٠) لابن رشد، وكتاب "العقد المنظم"(٤١) لابن سلمون الكناني، اللذان يزخران بأحكام مختلفة ومتنوعة عن قضايا الماء وملكيته.

خَاتِمَةٌ

وصفوة القول، من خلال استكشاف النصوص التاريخية والجغرافية والأدبية العربية، أصبح واضحًا أن إدارة المياه لم تكن مجرد مسألة تقنية، بل كانت متشابكة مع الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمدينة، كما أن التقنيات المتقدمة في الري والتخزين والتوزيع التي استخدمها سكان مكناس تُظهِر كيف يمكن للتنظيم المدروس لموارد المياه أن يساهم في بناء أسس مستدامة لمدينة مزدهرة.

إن فحص مكونات المصادر وفرز اتجاهاتها يتبين أن حضور الماء فيها اختلف باختلاف الغرض والقصد من التأليف ونوعية المصدر ومنطلقاته وأهدافه، وهو ما يطرح إشكالية الربط فيما رود فيها بالواقع التاريخي، ولا يسعف في تقديم صورة أدق لبعض جوانب تدبير الماء بمدينة مكناس، على أن اتباع منهج يقوم على لمّ شتاتها ومقارنة بعضها ببعض قصد الحصول على الحدث التاريخي الذي يمكن إسقاطه على الواقع التاريخي لمكناس، ولا شك أن الكشف عن موارد تاريخية إما في الخزائن الخاصة لبعض الأسر المكناسية، أو في الأرشيفات الأجنبية واستغلال معلوماتها كفيل بسد الثغرات التي تهم الموضوع.

إن دراسة تاريخ المياه في مكناس لا تقتصر على فهم الماضي، بل تساهم أيضًا في توجيه السياسات الحالية والمستقبلية بشأن إدارة الموارد المائية في المناطق ذات الظروف البيئية المشابهة. من خلال استلهام الدروس من تجارب التاريخ، يمكننا أن نبني استراتيجيات أكثر فاعلية للتعامل مع التحديات المائية المعاصرة، مما يعزز استدامة ورفاهية المجتمعات في المستقبل.

الإحالات المرجعية:

(١) محمد البركة وسعيد بنحمادة، **مصادر تاريخ الغرب الإسلامي : محاولة في التركيب والرصد**، مطبعة آنفو-برانت، فاس، ٢٠١٦، ص ١١.
(٢) بحكم أن هذه الحوالات قد عرّفت بها وبمضمونها وأهميتها التاريخية بعض الدراسات السابقة كدراسة رقية بلمقدم، **أوقاف مكناس في عهد مولاي إسماعيل ١٠٨٢-١١٣٩هـ/ ١٦٧٢-١٧٢٧م**، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٣م، صص١٧٣-١٨٠. ودراسة محمد اللحية، **الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر ١٨٥٠-١٩١٢م**، د.د.ع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، السنة الجامعية ١٩٨٣-١٩٨٤، (مرقون)، ص ٨١-٨٤، فإننا سنكتفي هنا بإبراز أهميتها في موضوع الدراسة الذي نحن بصدده
(٣) خالد الرامي، **تدبير الموارد المائية بمدينة تطوان من خلال وثائق حبسية وعائلية ومخزنية ١٠٦٥-١٣٨٦هـ/ ١٦٥٥-١٩٦٦م**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق، ٢٠١٩م، ص ٣٦.
(٤) عبد الإله لغزاوي، **منوغرافية المقدس بمدينة مكناس**، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٠م، ج١، ص ٤٢.
(٥) يوجد هذا الكناش بنظارة أوقاف مكناس، (بدون ترقيم).
(٦) **كناش إحصاء ماء واد بوفكران**، ص ٥٣-٥٤.
(7) Monographie de la région de Meknès, C .A. D. N, 1MA / 285.
(8) Fiche de la tribu des beni m'tir du sud, C. A. D. N, 1MA / 285/26.
(9) Fiche de la tribu Guerrouane de sud, C .A. D. N, 1MA / 285/ 26.
(١٠) محمد ابن غازي العثماني، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.
(١١) محمد اللحية، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها: مدينة مكناس (٤٥٢ – ٦٤٥ هـ/ ١٠٦٠ – ١٢٤٧م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٦، مطبعة سايس كرافيك، فاس، ٢٠١١، ص ١٤.
(١٢) عبد الرحمن ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد-القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م (٥ أجزاء).
(١٣) عبد الرحمن ابن زيدان، **المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف**، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣م.
(١٤) عبد الكريم بن موسى الريفي، **زهر الأكم مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل**، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٢م.
(١٥) الزياني أبو القاسم، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية-الريصاني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط١، ١٩٩٢م.
(١٦) محمد بن عبد السلام الرباطي، **تاريخ الضعيف الرباطي**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٧م، (جزءان).
(١٧) محمد بن محمد المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة الأمنية، الرباط، ط٢، ٢٠١٨.
(١٨) أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ١٩٩٦م.
(١٩) أبو العلاء إدريس، **الابتسام عن دولة ابن هشام أو ديوان العبر في أخبار القرن الثالث عشر**، تحقيق مصطفى الشابي، المطبعة الملكية، الرباط، ٢٠٢١م.
(٢٠) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، ص١٨٧-١٨٨.
(٢١) أبو عبد الله الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٤٤-٢٤٥.
(٢٢) لسان الدين بن الخطيب، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨١م، ج٢، ص٣٧٢.
(٢٣) الحسن الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣م، ص ٢١٥-٢١٦.
(٢٤) **رحلة الأسير مويط**، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية-الريصاني، دار المناهل، ١٩٩٠م، ص٧٢.
(٢٥) **رحلة إلى مكناس**، ترجمه عن الإنجليزية زهراء إخوان، تقديم وتعليق عبد اللطيف الشادلي، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، بدون تاريخ.
(٢٦) **قصة الهولندية ماريا تيرمتلن**، ترجمة ودراسة إدريس أبو إدريس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦م.
(٢٧) **التعرف على المغرب ١٨٨٣-١٨٨٤م**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩م، ص ٥٩.
(٢٨) أبو زكرياء يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي، **الفلاحة الأندلسية**، تحقيق أنور أبو سويلم وسمير الدروبي وعلي أرشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان- الأردن، ط١، ٢٠١٢م.
(٢٩) أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني (أبن وحشية)، **الفلاحة النبطية**، تحقيق توفيق فهد، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، د.ت.
(٣٠) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان ١٨٥٠-١٩١٢م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسة رسائل وأطروحات رقم ٦٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠١١، ص ٣٨.
(٣١) محمد البركة، "النوازل بين الفقه والتاريخ محددات منهجية ومعالم معرفية"، ضمن **الفقه والتاريخ بسجلماسة: مباحث في تفاعلات المعاش والاقتصاد والثقافة من خلال فتاوى ابن هلال**

السجلماسي، تنسيق محمد البركة وسعيد بنحمادة، منشورات الزمن ٦٥، مطبعة بني ازناسن، سلا، ٢٠١٥م، ص ٢٧.

(٣٢) عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع: مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، رسائل وأطروحات رقم ٦٧، مطبعة الأمنية، الرباط، ٢٠١٢، ص ٥٠-٥٧.

(٣٣) أبو الحسن الماوردي، **الأحكام السلطانية**، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٦٤-٢٧٤.

(٣٤) أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، **كتاب الخراج**، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٩٤-٩٨

(٣٥) أحمد بن نصر الداودي، **كتاب الأموال**، تحقيق ودراسة رضا محمد سالم شحادة، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص١٨١- ١٨٢

(٣٦) ابن الرامي، **الإعلام بأحكام البنيان**، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، بدون ذكر مكان الطبع، ١٩٩٩م، ص١٦٢- ٢٣٢.

(٣٧) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١مج٨، ص٥-٤٤ وص٣٧٩- ٤٣٣.

(٣٨) التهامي بن عبد الله الحسني، **الأدوية الرواقي من أدواء الاختلافات في ماء السواقي**، تحقيق حسن حافظي علوي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط١، ٢٠٠١.

(٣٩) المهدي الوزاني، **النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى**، قابله وصححه على النسخة الأصلية عمر بن عباد، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٨م، ج٨، ص٣٠- ٢٣- ٢٨٦.

(٤٠) أبو الوليد بن رشد، **المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات**، تحقيق سعيد محمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ج٢، ص٢٩٨-٣٠٢.

(٤١) ابن سلمون الكناني، **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام**، عناية وتحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠١١، ص ٢٠٥.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

بحر الروم في المصادر الإسلامية
دراسة تاريخية وجغرافية



د. يوسف المساتي
باحث دكتوراه في التاريخ وعلوم الآثار والتراث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

تهدف هذه الدراسة إلى إعادة النظر في الموقع الجغرافي لبحر الروم كما ورد في المصادر الإسلامية المبكرة (القرن الثاني إلى السادس الهجري). يتناول البحث بالتحليل ثلاث فئات من المصادر. الروايات التاريخية: تربط هذه الروايات بحر الروم بفتوحات إسلامية مبكرة، مثل فتح قبرص، وتشير إلى أنه كان منطقة حدودية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. الأحاديث والتفاسير الدينية: تذكر هذه المصادر بحر الروم في سياق قصص الأنبياء، مثل قصة يونس، وتربطه بمجمع البحرين (حيث يلتقي بحر فارس وبحر الروم). كتب الرحلات والجغرافية: تقدم هذه المصادر أوصافًا لبحر الروم، وتشير إلى أنه كان طريقًا تجاريًا مهمًا يربط بين مناطق مختلفة. خلصت الدراسة إلى أن تحديد بحر الروم بالبحر الأبيض المتوسط في الدراسات الحديثة لا يتوافق مع وصفه في المصادر الإسلامية المبكرة. تقدم المصادر الإسلامية صورة مختلفة لبحر الروم، حيث تصفه بأنه بحر داخلي يقع في منطقة جغرافية مختلفة، وله خصائص طبيعية تختلف عن البحر الأبيض المتوسط. وتشير الدراسة إلى أن بحر الروم كان متصلاً ببحر قزوين (بحر الخزر)، وأن نهر النيل كان يصب فيه، وأن المنطقة المحيطة به كانت تتميز بمناخ جاف.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٢ يوليو ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٦ أغسطس ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

بحر الروم؛ المصادر الإسلامية؛ الجغرافيا التاريخية؛ المنهج النقدي؛ العصور الوسطى؛ الجغرافية الوسيطية

معرِّف الوثيقة الرقمي: doi 10.21608/kan.2024.300904.1144

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يوسف المساتي، "بحر الروم في المصادر الإسلامية: دراسة تاريخية وجغرافية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ٧٤ – ٨٨.

Corresponding author: elmoussatiyoussef@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يعتبر بحر الروم أو بحر الشام واحدًا من أبرز البحار التي ارتبطت بالحضارة الإسلامية، بل والإنسانية عمومًا، بعد نهر النيل، ولهذا نجد حضورا لافتا له في المصادر الإسلامية، خاصةً كتب الجغرافيا والرحلات، وتم توطينه على أساس أنه البحر الأبيض المتوسط، حتى أصبح الأمر كأنه حقيقية تاريخية لا يرقى إليها الشك، لكن تأمل نصوص المصادر الإسلامية، يطرح علامات شك كثيرة حول هذا التوطين.

من هنا تهدف هذه الدراسة إلى إعادة توطين بحر الروم، من خلال جمع المادة المتعلقة به، وفحص التحديدات التي توجد فيها، ومدى انسجامها مع السردية الحالية، وقد تم الاشتغال على مصادر المرحلة من القرن الثاني إلى السادس الهجري، باعتبار أن ما جاء بعدها، لم يخرج عن إطار التلخيص. وبعد تجميع المادة وتصنيفها، فقد توزعت إلى ثلاثة أصناف، مادة تاريخية، وأخرى تراثية متعلقة بالتفاسير الدينية أساسًا، وأخرى جغرافية، فتم تخصيص فصل لكل منها في محاولة لتركيب صورة بحر الروم فيها.

أولاً: الروايات الإخبارية

ارتبط البحر الرومي في البدايات الأولى للإسلام، بفتح قبرص إذ أشار صاحب المعارف إلى أنه "كانت أول غزوة غزيت في خلافته «الري» وأمير الجيوش: أبو موسى الأشعري، ثم الإسكندرية، ثم سابور، ثم إفريقية، ثم قبرس، من سواحل بحر الروم".[١] هذا المعطى يكاد يكون متفقا عليه بين شتى المصادر الإخبارية، ويضيف البلاذري في ذات السياق، أنه "لم يركب المسلمون بحر الروم قبلها وكان معاوية استأذن عمر في غزو البحر فلم يأذن له، فلما ولى عثمان بن عفان كتب إليه يستأذنه في غزوة قبرس ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها، فكتب إليه أن قد شهدت مارد عليك عمر- رحمه الله- حين استأمرته في غزو البحر"[٢].

يؤشر هذا النص على أن بحر الروم كان منطقة حدودية خلال منتصف الفترة الراشدة، وأنه إلى حدود نهاية حكم عمر بن الخطاب لم يكن المسلمون قد تجاوزوا بحر الروم، كما يؤشر على قرب قبرس من دار الإسلام خلال مرحلة عمر بن الخطاب، ويبدو أن المنطقة أصبحت أساسية في مرحلة الفتوحات الإسلامية خلال ما بعد عمر بن الخطاب.

إضافة إلى ذلك يرد بحر الروم في عدة أحداث تاريخية، فقد أورد الطبري في أحداث سنة ٢١١ عند دخول عبد الله بن طاهر للإسكندرية "أن مراكب أقبلت من بحر الروم من قبل الأندلس، فيها جماعة كبيرة أيام شغل الناس قبلهم بفتنة الجروي وابن السري، حتى أرسوا مراكبهم بالإسكندرية، ورئيسهم يومئذ رجل يدعى أبا حفص، فلم يزالوا بها مقيمين حتى قدم عبد الله بن طاهر مصر قال لي يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث- يعني عبد الله بن طاهر- والدنيا عندنا مفتونة ... فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر، أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين، وإلى من كان انضوى إليهم، يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة، فأخبروني أنهم أجابوه إلى الطاعة، وسألوه الأمان، على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام، فأعطاهم الأمان على ذلك، وأنهم رحلوا عنها، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر، يقال لها إقريطش، فاستوطنوها وأقاموا بها، وفيها بقايا أولادهم الى اليوم".[٣]

يبدو من خلال هذا النص، أنه إلى حدود القرن الثالث الهجري كانت بعض أطراف الروم غير خاضعة لبلاد الإسلام، وبالتالي يمكن اعتبار جزءًا من بحر الروم كان بمثابة الحد بين بلاد الإسلام وغيرها.

ثانيًا: الروايات الحديثية والتفسيرية

على نقيض الروايات التاريخية، يحضر البحر الرومي في الموروث الحديثي والفقهي عمومًا، إذ يشير صاحب "إصلاح المال" إلى: "أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في بحر الروم، منهم طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل"[٤]، وتعتبر إشارة ابن أبي الدنيا جد مهمة، فإذا كان بحر الروم لم يحضر إلا بعد مرحلة عمر بن الخطاب، فإن هذه الراوية تؤكد الحضور التجاري للصحابة في البحر الرومي، بمعنى وجود علاقات اقتصادية تربط المدينة مع باقي

الأطراف من خلال بحر الروم، منذ البدايات الأولى للإسلام.

١/٢-بحر الروم: مجمع البحرين

ربطت أغلب كتب التفسير بين لفظة "مجمع البحرين" الواردة في الآية ٦٠ من سورة الكهف، وبحر الروم، إذ أورد الطبري: "وقيل: عنى بقوله: (مجمع البحرين) اجتماع بحر فارس والروم.. قوله: (حتى أبلغ مجمع البحرين) والبحران: بحر فارس وبحر الروم، وبحر الروم مما يلي المغرب، وبحر فارس مما يلي المشرق. حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، قوله: (مجمع البحرين) قال: بحر فارس، وبحر الروم. حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد (مجمع البحرين) قال: بحر الروم، وبحر فارس، أحدهما قبل المشرق، والآخر قبل المغرب"[٥]. حسب هذه الروايات، فإن مجمع البحرين هو نقطة التقاء بحر الروم وبحر فارس، حيث يتجه بحر الروم غربا، بينما يتجه بحر فارس شرقا،

٢/٢-بحر الروم: مرج البحرين

أورد المفسرون بحر الروم في تفسيرهم للآية ١٩ من سورة الرحمن، فقال الطبري: "عن الحسن (مرج البحرين يلتقيان) قال: بحر الروم، وبحر فارس واليمن. حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (مرج البحرين يلتقيان) فالبحران: بحر فارس، وبحر الروم. حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة (مرج البحرين يلتقيان) قال: بحر فارس وبحر الروم"[٦]. ويضيف ابن حاتم حول هذه الاية أنه "برزخا حجازا لا يراه أحد لا يختلط العذب بالبحر ولا يختلط بحر الروم وفارس وبحر الروم ملح"[٧]. ويقدم الماتريدي مؤشرًا جد هام حيث يشير إلى أن "منهم من قال: أحدهما: بحر الروم، والآخر: بحر فارس، (بينهما برزخ)، أي جزيرة العرب"[٨]، ويضيف الثعلبي إشارة جد مهمة "وقال الحسن، وقتادة: بحر فارس، وبحر الروم، وما بينهما برزخ الجزائر"[٩].

تقدم هذه الروايات معطيات جد مهمة، نجملها فيما يلي:

- يتجه بحر الروم صوب الغرب، وبحر فارس صوب الشرق، في مجمع بحرهما.
- يقرن الطبري بحر فارس باليمن فكأنهما بحر واحد موازي لبحر الروم.
- لكن المعطى الأهم أن جزيرة العرب أو الجزائر تشكل برزخًا بينهما يمنعهما من الالتقاء، بمعنى أن الحديث عن منطقة أشبه بالدلتا، يلتقي فيها بحران/نهران، ومن ثَمَّ يتجه أحدهما صوب المغرب والآخر صوب المشرق، وتمنعهم منطقة الجزيرة من اللقاء.

٣/٢-بحر الروم ويونس بن متى

ارتبط بحر الروم في التفسيرات أيضا بقصة يونس، إذ جاء في تفسير الآية ١٤٢ من سورة الصافات، عند ابن أبي حاتم: "قوله تعالى: فالتقمه الحوت. عن قتادة رضي الله، عنه قال: "فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ يقال له: نجم، فجرى به في بحر الروم، ثم النيل، ثم فارس ثم في دجلة"[١٠]. وأورد صاحب التفسير البسيط في تفسيره للآية ٨٧ من سورة الأنبياء رواية جاء فيها: "وقوله تعالى: ﴿إذ ذهب مغاضبا﴾ قال الضحاك: مغاضبا لقومه. وهو قول ابن عباس في رواية العوفي، قال: إن شعيا النبي والملك الذي كان في وقته وذلك القوم أرادوا أن يبعثوه إلى ملك كان قد غزا بني إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سماني لك؟ قال: لا، قال: فهاهنا غيري أنبياء. فألحوا عليه، فخرج مغاضبا للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللملك ولقومه، فأتى بحر الروم فكان من قصته ما كان"[١١]. نفهم من هذه الإشارات أن بحر الروم هو المكان الذي جرت فيه وقائع قصة يونس بن متى، وتقدم الرواية الأولى معطى مهم إذ تجعل بحر الروم مرتبطًا بالنيل ثم بحر فارس ثم دجلة، أي أنه يقدم سلسلة مائية تبدأ من بحر الروم إلى دجلة.

٤/٢-البحر المسجور

وجاءت الإشارة إليه في تفسير الآية السادسة من سورة التكوير، إذ ورد "قال: إن هذا البحر بركة يعني بحر الروم وسط الأرض والأنهار كلها تصب فيه والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس فإذا كان

يوم القيامة أسجر"[١٢]. ويشير السمعاني في تفسيره إلى أن بعضهم قال: "أن بحر الروم وسط الأرض، وفي أسفله آبار من نحاس مطبقة، فإذا كان يوم القيامة سجرت نارا، ومن هذا قوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ وقد بينا، ويجوز أن يجمع بين هذه الأقاويل، فيقال: إن البحار يدخل بعضها في بعض فتصير بحرًا واحدًا، ثم يفيض وييبس، ثم يملأ نارًا".[١٣] تتضمن هذه الروايات إشارات مهمة، إذ أن بحر الروم هو مصب الأنهار كلها، بما فيه البحر الكبير، حتى يصبح بحرا واحدا فيفيض، مع الإشارة إلى معدن النحاس.

٥/٢-بحر الروم وجالوت

يقول الثعلبي في تفسيره: "ثم خلف بعد إلياس اليسع وكان فيهم ما شاء الله أن يكون، ثم قبضه الله إليه، وخلفت فيهم الخلوف وعظمت فيهم الخطايا، وظهر لهم عدو يقال له البلثانا وهم قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم من مصر وفلسطين، وهم العمالقة فظهروا على بني إسرائيل وغلبوهم على كثير من أرضهم".[١٤] يشير هذا النص إلى أن قوم جالوت كانوا مستقرين على ساحل بحر الروم الممتد بين مصر والشام، وقد ورد اسم قوم جالوت بصيغ متعددة منها، البلثانا، والبيشانا، والبلشتانا، والبشاثا، ورغم هذه الاختلافات في النطق إلا أن الأحرف الرئيسية المشكلة لقوم جالوت القاطنين بين مصر والشام حسب الروايات التفسيرية الإسلامية تتكون من الثاء والشين والباء والألف واللام أساسًا.

٦/٢-سد ذو القرنين

يقدم الماوردي معطى آخر إذ أورد في تفسيره للآية ٩٧ من سورة الكهف: "وقيل إن السد وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلي مؤخرهما البحر المحيط. وقيل: ارتفاع السد مقدار مائتي ذراع، وعرضه نحو خمسين ذراعا وأنه من حديد شبه المصمت"[١٥]. ونفهم من هذا النص أن سد ذو القرنين كان وراء بحر الروم، في مضيق صغير، مع الإشارة إلى معدن الحديد.

ثالثًا: نصوص الرحلات

وردت أول الإشارات الى البحر الرومي في كتب الرحلات عند ابن خرداذبه تحت اسم الجر الرومي، مع الإشارة إلى أنه الوحيد الذي ورد عنده الجر مقترنا بالرومي وبالبحر عمومًا، إذ ورد في عدد من المصادر الوسيطية مقترنا باليابسة وخاصة الجبال، باستثناء نص ابن خرداذبه، وعلى العموم، يمكن أن نستشف من إشارات ابن خرداذبه حول الجر أو البحر الرومي، عدة إشارات أبرزها:

- إن البحر الرومي (الجر الرومي) كان مسلك التجار الروس، الذين "يحملون جلود الخزّ وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية الى الجر الرومّى فيعشرهم صاحب الروم ... ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدّعون انهم نصارى فيؤدّون الجزية"[١٦] بمعنى أن جزءا من الصقالبة "يدعون" أنهم نصارى وأن البحر الرومي تابع لصاحب الروم.
- أنه أحد مصبات نهر النيل، بعد أن يتجاوز النيل أرض النوبة "ويجيء الى مصر فيصب بعضه بدمياط في الجر الرومي ويشق باقيه الفسطاط حتى يصب أيضًا في الجر الرومي"[١٧] بمعنى أن النيل يصب فيه من وجهان واحد يلي الفسطاط والآخر في دمياط.
- أنه أحد مصبات نهر اذنة "من بلاد الروم ويصب في الجر الرومي"[١٨].
- أنه "مخرج الأرند نهر أنطاكية من ارض دمشق مما يلي طريق البرية وهو يجرى مع الجنوب ويصب في البحر الرومي"[١٩].
- وهو ملتقى طريقي الإسكندرية وبرقة حيث "يصير الطريقان طريقا واحدا وتحمل الماء من ذات الحمام في البرية ومسايرة بحر الروم حتى تنزل الحنية حنية الروم وهي خراب على الطريق فمن ذات الحمام الى حنية الروم أربعة وثلاثون ميلاً"[٢٠].
- هو أحد منافذ البحر الأخضر أو المحيط الذي "يمر بين الأندلس وطنجة ويسمى سبطا وينفذ الى بحر الروم، "وأما بحر الروم ومصر...... وفيه خليج يخرج الى ناحية الشمال بالقرب من بلد رومية طوله خمس مائة ميل يسمى إدريس وفيه خليج آخر يخرج من الأرض المعروفة بنربونة يكون طوله مائتي ميل وفى بحر الروم مائة واثنتان وسبعون جزيرة كان جميعها عامرا فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازي إليها منها خمس عظام وهي جزيرة قبرس..... وجزيرة

اقريطش..... وجزيرة سقلية..... وجزيرة سرتانية.....وجزيرة يابس حيال الأندلس.... ويسيل منها خليج عند قسطنطينة حتى يصب في بحر الروم وطوله من حيث ابتدائه من مدينة قسطنطينة الى حيث يصب مائتان وستون ميلا وفيه سفن وعرضه مختلف فأما عند قسطنطينة فقد ثلاثة أميال وفى موضع آخر ستة أميال وفى موضع آخر ميل وأكثر وأقل ويكون عرضه عند معقبه مقدار غلوة وبذلك الموضع صخرة عليها برج مبنى وفيه من قبل الروم من يفتش السفن.[٢١]

تعتبر هذه الإشارة جد هامة، إذ يصف ابن خرداذبه البحر الرومي بأنه بحر مصر والروم، بينما ورد في نصوص أخرى بأنه البحر الشامي أو بحر الشام، أو بحر مصر والشام، يعتبر هذا الحقل التداولي عند ابن خرداذبه مهما إذ يتكون من ثلاث مفردات: (مصر، الشام، الروم) الثابت الوحيد فيها هو مصر، بينما تتغير الشام والروم لتعوض الواحدة منهما الأخرى، فيصح القول أن البحر الرومي = البحر الشامي، أو أن بحر مصر والشام = بحر مصر والروم، فهل يؤشر هذا على اقتران الشام والروم؟ أم أنهما ينتميان لمنطقة محاذية لبعضهما البعض؟ إن تجميع النصوص ومقارنته يدفع إلى القول إننا إزاء منطقة واحدة حملت اسمي الشام والروم.

يقدم البتاني وصفا مهما لبحر الروم حيث أورد في "زيج الصابيء": "وأما بحر الروم ومصر فإنه يخرج من عند الخليج الذي يخرج من بحر أوقيانوس الغربي عند الجزيرة التي تسمى غديرة مقابل الأندلس إلى صور وصيداء من ناحية المشرق وطوله خمسة آلاف ميل وعرضه في مكان ستمائة ميل وفي مكان سبعمائة ميل وفي مكان ثماني مائة ميل وفيه خليج واحد يخرج إلى ناحية الشمال قريبا من رومية طوله خمسمائة ميل يسمى أذريس وخليج آخر يخرج نحو أرض نربونة طوله مائتا ميل وفي هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنتان وستون جزيرة عامرة منها خمس عظام إحداها جزيرة قرنس يحيط بها مائتا ميل وإقريطش يحيط بها ثلاثمائة ميل"[٢٢].

يقترن البحر الرومي عند البتاني بالروم ومصر، ويحدد مخرجه من الجزيرة التي تسمى غديرة، وهذا المعطى يحيل إلى ما أورده المفسرون حول أن البرزخ بين البحرين هو جزيرة العرب أو الجزائر أو الجزيرة، ويتجه شمالاً. ويورد السيرافي بدوره إشارة مهمة، حيث قال "يقدر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام ولا يقوم في أنفسهم حتى كان في عصرنا هذا، فانه بلغنا انه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة التي قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر فقذفته إلى بحر الخزر، ثم جرى في خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الروم والشام، فدل هذا على أن البحر يدور على بلاد الصين والسيلا وظهر بلاد الترك والخزر، ثم يصب في الخليج ويفضى إلى بلاد الشام، وذلك إن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام، والروم مسمورة غير مخروزة.

وبلغنا أيضًا أنه وجد في بحر الشام عنبر، وهذا من المستنكر، وما لم يعرف في قدم الدهور، ولا يجوز إن كان ما قيل حقا أن يكون العنبر وقع الى بحر الشام إلا من بحر عدن والقلزم، وهو البحر الذي يتصل بالبحار التي يكون فيها العنبر لأن الله جل ذكره قد جعل بين البحرين حاجزا، بل هو إن كان صحيحا مما يقذفه بحر الهند إلى سائر البحار واحدا بعد واحد حتى يفضي به إلى بحر الشام"[٢٣]

يقدم السيرافي إشارات مهمة في هذا النص، إذ يؤكد على اتصال بحر الهند والصين والخرز ببحر الروم، وأنهم يصبون فيه، وهو ما يتقاطع مع الروايات السابقة التي تعتبر أن البحر الرومي مصب للأنهار جميعها. إضافة الى هذا يشير الصيرافي الى وجود الخشب العربي المخروز في بحر الروم مفترضا قدومه عبر بحر الخرز، ويفترض بالتالي أن بحر الروم يدور على بلاد الصين وبلاد الترك والخزر ويصب في خليج بحر الشام. لا يمكن لهذا أن يستقيم مع التوطينات الحالية التي تعتبر أن بحر قزوين هو بحر الخرز، وهو بحر داخلي، أو مع الصين وبلاد الترك، ما يؤكد أننا إزاء خارطة مغايرة.

يضيف السيرافي في نص أخر: "ورأس الجمجمة جبل يتصل ببلاد اليمن من أرض الشحر والأحقاف والرمل منه تحت البحر لا يدري إلى أين ينتهي غايته في الماء اعنى الجبل المعروف برأس الجمجمة. وإذا كان ما وصفنا من الجبل في البر ومنه تحت البحر سمى في البحر الرومي السفالة من تلك السفالة في الموضع المعروف بساحل سلوقيا من أرض الروم واتصالها تحت البحر بنحو من جزيرة قبرص وعليها عطب أكثر مراكب الروم وهلاكها وإنما نعبر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم"[٢٤]. نلاحظ أن السيرافي قرن بحر الشام بالروم واستبعد مصر، وفي نفس الوقت جعل جبل رأس الجمجمة متصلاً بحرًا بالبحر الرومي على ساحل سلوقيا من أرض الروم، نقف هنا أمام شبكية مجالية تتضمن الشام والروم واليمن وسلوقيا تنتمي لنفس المجال الجغرافي وترتبط بينها برًا وبحرًا، وبمقارنتها بالتحديدات الجغرافية الحالية فإن هذه التوطينات لا يمكن أن تستقيم أو تتفق.

يشير صاحب الخراج "ثم نعيد السير من ترنوط التي كانت المقصد إليها من ذات الساحل فمن ترنوط الى المنبر ثلاثون ميلا، ومن المنبر الى مسارس أربعة وعشرون ميلا، ومن مسارس الى ارمسا اثنا عشر ميلا، ومن أرمسا الى ذات الحمام عشرون ميلا. فيلتقي الطريقان هناك، طريق الإسكندرية، وطريق برقة فيصير الطريقان واحدا، ويحمل الماء من ذات الحمام في البرية ومسايرة بحر الروم حتى تنزل الحنية، حنية الروم، وهي خراب على الطريق"[٢٥]. هكذا يحدد ابن قدامة المسافة من ترنوط إلى الوصول الى مفترق الطرق بين طريقي الإسكندرية وبرقة على ساحل بحر الروم ب ٨٦ ميلاً.

كما يشير في نص آخر الى أن الروم "قسموا المعمورة من الأرض، أول قسمة ثلاثة أقسام، فجعلوا الأول، من حد البحر المحيط وهو البحر الأخضر من ناحية الشمال، والخليج الذي يخرج الى حد تيطوس من البحر الأخضر الى بحر الروم وهو البحر الشامي، وكانت هذه القطعة من الأرض كالجزيرة لأنها من ناحية الشمال والمغرب البحر الأخضر، ومن ناحية الجنوب، وبعض الشرق بحر الشام وسموه باليونانية أروفى والقسم الثاني: أما جهة المغرب فالبحر الأخضر، ومن ناحية الشمال بحر الروم ومن ناحية الجنوب بحر الحبشة، ومن ناحية المشرق عريش مصر وسموا هذا القسم لوبية"[٢٦].

يحدد ابن قدامه أن البحر الرومي هو البحر الشامي، كما يضيف إليه اسما يونانيا وهو أروفي، ويقع بحر الروم على قسمين من أرض الروم، ففي الأول كانت قطعة الأرض على شكل الجزيرة جنوبها وشرقها بحر الشام، أما في القسم الثاني فبحر الشام شمالا وأرض الحبشة جنوبا، وشرقا ارض لوبية. كما يضيف في نص آخر: "وأما أروفى فحدها من جبال اللكام وما والاها مادا الى بحر اوقيانوس الشمالي، والحد الثاني، اوقيانوس الشمالي ذاهبا الى نهاية العمارة من جهة المغرب. والحد الثالث، أوقيانوس المغربي ذاهبا الى بحر الروم وهو المشترك بين أروفى ولوبية. والحد الرابع، هو البحر الرومي من البحار الى حد ما يلي لوبية ذاهبا حتى ينتهي الى ساحل الشام في تمام الحد الأول حتى ينتهي الى جبال اللكام"[٢٧]

يحدد ابن قدامة في هذا النص مبدأ أروفي (الذي اعتبره في نص سابق بحر الشام أو بحر الروم) من جبال اللكام الى بحر اوقيانوس الشمالي ومن ثم الى نهاية العمارة، أما الحد الثاني من اوقيانوس المغربي الى بحر الروم المشترك بين اروفي ولوبية. ويشير ابن قدامة في نص طويل إلى أن "بحر الروم ومصر فابتدأوه من عند هذا الخليج، بين بلاد الأندلس وطنجة آخذا نحو المشرق حتى يمر بسواحل الشام، وطوله من حيث يبتدأ خمسة آلاف ميلا، وعرضه في موضع ستمائة ميلا، وفي آخر سبعمائة ميلا، وفي آخر ثمانمائة [ميلاً. وفيه خليج يخرج الى ناحية الشمال بالقرب من بلد رومية طوله خمسمائة ميلاً] يسمى إدريس.

وفيه خليج آخر يخرج من الأرض المعروفة بنربونة يكون طوله مائتي ميلاً، وفي بحر الروم مائة واثنتان وسبعون جزيرة، كان جميعها عامرًا فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازي إليها، منها خمس عظام وهي جزيرة قبرص التي تحت ساحل دمشق، ويحيط بها ثلثمائة وخمسون ميلا، وجزير أقريطش حيال برقة واحاطتها

ثلثمائة ميلاً، وجزيرة صقلية حيال أفريقية يحيط بها خمسمائة ميلا، وجزيرة سرتانية حيال افرنجية وبلاد تونس واحاطتها ثلثمائة ميلاً، وجزيرة يابس حيال الأندلس يحيط بها مائتا ميلا. وأما بحر قنطوس فأنه يمتد من الشمال عند المدينة المسماة لارقة وراء قسطنطينية وطوله ألف ميلا وثلثمائة ميلا في عرض ثلثمائة ميلا ويدخل فيه البحيرة المسماة طابسين وهي تجري من ناحية الشمال من الجزيرة التي في البحر الأخضر المسماة ماطوس، وطول هذه البحيرة من المشرق الى المغرب ثلثمائة ميلا وعرضها مائة ميلاً ويسيل منها خليج عند قسطنطينية حتى يصب في بحر الروم وطوله من حيث ابتدائه من مدينة قسطنطينية الى حيث يصب مائتان وستون ميلا فيه سفن وعرضه مختلف.

فأما عند قسطنطينية ثلاثة أميال، وفي موضع آخر ستة أميال، وفي موضع آخر ميل وأكثر وأقل، ويكون عرضه عند مصبه مقدار غلوة، وبذلك الموضع صخرة عليها برج مبني وفيه من قبل الروم من يفتش السفن"(٢٨) حسب هذا النص فان بداية بحر الروم من خليج بين بلاد الأندلس وطنجة فيتجه مشرقا حتى يمر على الشام، وبعد أن يحدد عدد الجزائر وموضعها، يشير إلى بحر قنطوس من روافده. وبحيرة طابسين شمال البحر الأخضر.

ويقدم صاحب الخراج إشارة مهمة حول العيون، إذ يشير إلى أن "أول العيون عين يخرج من جبل القمر حذاء خط الاستواء، ثم يتشعب منها عشرة أنهار، وتصب كل خمسة منها في بطيحة من بطحتين من الناحية الجنوبية وراء خط الاستواء، ثم يتشعب من كل بطيحة ثلاثة أنهار يجتمع الى البطيحة في الإقليم الأول، عند بعد جزئين من خط الاستواء، ثم يخرج من هذه البطيحة نهر، هو نيل مصر حتى يمر بمدينة النوبة، ويقطع الإقليم الأول، حتى يتجاوزه على سمته بمقدار جزء ونصف من الإقليم الثاني، ثم ينعرج حتى يصير الى مدينة أسوان ماسا لها ثم يعدل معرجا فيما بين جبل يعرف سلوقيا، ثم يرجع ويمر مارا الى مصر مماسا عند عرض تسعة وعشرين جزءًا وربع يكون ذلك البعد من خط الاستواء ألفان وتسعمائة وثلاثة وثلاثون ميلا، ثم ينقسم النيل من هناك سبعة أقسام متقاربة، ما بين المسافات، والقرى، منها الى الإسكندرية ثم يتفرق فرقتين يصبان مع [السد] الأول إلى بحر الروم في الإقليم الثالث، فيكون مسير النيل منذ البداية ألفي ميل ونيفا"(٢٩).

يقدم ابن قدامة معطى جد هام، إذ يشير الى أن المكان الذي يصب فيه النيل في بحر الروم، هو عند الإقليم الثالث، في حين انه يفترض انه يكون الإقليم الرابع حسب التوطينات الحالية، ما يعتبر تأكيدًا على عدم اتساق التوطينات الحالية. يقدم ابن الفقيه مؤشرات جد مهمة، إذ قال "وقال بعضهم: النيل يخرج من خلف خط الاستواء من بحيرتين يقال لهما بحيرتا النيل، وهو يطيف أرض الحبشة ويجيء فيمر بين بحر القلزم- وهو بحر الفرما- وبين المفازة، فيجيء فيصب بدمياط، ويخرج إلى البحر الرومي المغربي، ودمياط على البحر الرومي المغربي"(٣٠). يحدد ابن الفقيه بحر القلزم بأنه بحر الفرما، وأن النيل يمر بينه وبين المفازة، في أرض الحبشة، فيصب في البحر الرومي، ويضيف ابن الفقيه لفظة المغربي للبحر الرومي، بمعنى أنه يقع في الغرب.

ويضيف: "وذلك أن الفرات يسيل إلى بغداد بجميع الشام وسواحل بحر الروم ومصر وما وراء مصر إلى المغرب، وما بين المغرب ونهاية العمران في الشمال وما يأتي به أيضا من قطع بحر الشام عرضا، حتى قرب من جزيرة نيطس وقسطنطينية، لأن الروم والأندلس والخزر والصقالبة والبربر على هذا البحر فهو يقطع عرضا فيحمل الخزر من شماله إلى جنوبه، ويحمل الأندلس من جنوبه إلى شماله، ولذلك نعجب أن يؤتي بسبي الأندلس في دجلة، والخزر في الفرات. وهذا البحر من أنطاكية إلى جزائر السعادة ومنه خليج يخرج مما يلي الأندلس حتى يبلغ السوس الأقصى، ويصير من ناحية أنطاكية إلى ناحية قسطنطينية ثم يدور حتى الخزر، وعلى ساحل هذا البحر طرسوس والمصيصة وأطرابلس وصيدا، ويافا، وعسقلان، والإسكندرية. وعليه من ناحية قصر دمياط والفرما، وفيه قبرس وصقلية. فكلما على هذا البحر أو وصل إليه أو قرب منه فصار في جنوبه، وأريد به العراق مما يلي ديار مضر، فطريقه في الفرات، وكلما كان في شماله وعدل به إلى ناحية ديار ربيعة وبلاد الموصل وأريد به العراق فطريقه في دجلة، ولدجلة

أنهار تأتي فكلما قصد به بلاد الموصل من أرمينية وآذربيجان".[٣١]

يؤكد ابن الفقيه في هذا النص على أن الفرات يصب في بحر الروم، وهو ما لا يستقيم والسردية الجغرافية السائدة، كما يشير أن كلا من الروم والأندلس والخزر والصقالبة والبربر توجد على سواحله.

أشار صاحب أخبار الزمان إلى أن "جزيرة أقريطش، وهي في بحر الروم، وبها جبال ومعدن ذهب وأنهار وثمار، وهي اثنا عشر يوما في ستة أيام"[٣٢]. ويقدم هذا النص إشارة لطبيعة المعادن الموجودة في المنطقة والتي تتكون من الذهب والمعادن والثمار.

وذكر صاحب التنبيه والإشراف البحر الرومي في نص طويل قائلا: "والبحر الثاني وهو الرومي هو بحر الروم والشأم ومصر والمغرب والأندلس والافرنجة والصقالبة ورومية وغيرهم من الأمم، طوله خمسة آلاف ميل وعرضه مختلف فمنه ثمانمائة ميل ومنه سبعمائة ميل ومنه ستمائة وأقل من ذلك وأكثر على حسب مضايقة البر للبحر والبحر للبر على مرور الأزمان وذهب قوم الى أن طوله ستة آلاف ميل، وأعرض موضع فيه أربعمائة ميل، ومبدؤه خليج آخذ من بحر أوقيانوس المحيط يعرف بالزقاق معترض بين طنجة وسبتة من سواحل افريقية وبين سواحل جزيرة أم حكيم وغيرها من سواحل جزيرة الأندلس، عرضه هنالك نحو من عشرة أميال، وجريته بينة تكون من مبدئه الى أن يتسع ويعظم نحوا من ثلاثة أيام ومما يصب الى هذا البحر من الأنهار العظام المشهورة النيل ... الى أن يصب في البحر الرومي من مصاب كثيرة وذلك في الإقليم الثالث ومن خط الاستواء الى مدينة الإسكندرية التي إليها ينتهى أحد مصبات النيل على شاطئ البحر ثلاثون درجة تكون من الأميال ألف ميل وثمانمائة ميل وعشرين ميلا يكون فراسخ ستمائة فرسخ وستة فراسخ وثلثي فرسخ ... ونهر جيحان وهو نهر المصيصة من الثغر الشأمى أيضًا ومخرجه من الإقليم السابع من عيون وراء بلاد مرعش وبردان نهر طرسوس من الثغر الشأمى... ثم يشق بردان مدينة طرسوس ويصب الى البحر الرومي على ستة أميال منها"[٣٣]

يربط هذا النص بين بحر الروم والشأم ومصر والمغرب والأندلس والافرنجة والصقالبة ورومية، ويحدد منبعه من خليج بين طنجة وسبتة، في الإقليم الثالث وهو ما يتناقض مع التوطينات الحالية، كما أنه مصب لنهر جيحان الذي ينبع من الإقليم السابع. يتضمن كتاب التنبيه والاشراف إشارة مهمة إذ جاء فيه أن: "بحر الإسكندرية وهو بحر الروم فمن جهة شمالها، فيحمى جوها فلا يغلظ البخار السائل إليه ولا يجتمع حتى يخالط بحر الإسكندرية ويمتزج به، ويجوز ان معا جهة الشمال من بلاد أروفى، وإذا صارا الى الموضع الذي يعرض لهما فيه الانحصار ببرد الجو وما يحيط به من الجبال سالت تلك الأبخرة هنالك، فصارت أمطارا في تلك المواضع الشمالية، فلهذه العلة عدم أهل مصر المطر"[٣٤].

يقرن المسعودي بين بحر الروم والإسكندرية، ويشير إلى انه شمال هذه الأخيرة، كما يقدم معطى مناخي هام يتمثل في كون المواضع الشمالية حيث يوجد بحر الروم تنعدم فيه الأمطار ويربط الموقع بمصر، وبالتالي يجوز القول إن بحر الروم في شمال الأراضي المصرية، التي تنعدم أو تقل فيها الأمطار، وهذا يتناقض مع التوطين الحالي، فشمال البحر المتوسط توجد أوروبا التي تتميز بمناخ بارد وتساقطات مطرية وثلجية دائمة

ويشير صاحب البدء والتاريخ إلى أن القدماء قالوا: "البحار المعروفة العظام خمسة أحدها بحر الهند وفارس والصين والثاني بحر الروم وإفريقية والثالث بحر اوقيانوس وهو بحر المغرب والرابع بحر بنطس والخامس بحر جرجان وفي رسالة ارسطاطاليس إلى الإسكندر التي تسمى بيت الذهب أن بحر اوقيانوس بحر محيط بالأرض كالكيل وينفجر منه خلجان هي سائر البحار"[٣٥]. وهكذا يجعل بحر الروم أحد البحار الخمسة المعروفة، وأن كل البحار تتفرع من بحر الأوقيانوس الذي هو البحر المحيط، ومن بينها.

يقدم ابن حوقل إشارات مهمة في كتابه صورة الأرض، إذ أشار إلى أن البحار "فأشهرها اثنان وأعظمها بحر فارس ثم بحر الروم وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط وأفسحهما طولا وعرضا بحر فارس ... أما بحر الروم فإنه يأخذ من البحر المحيط

في الخليج الذي بين المغرب والأندلس حتى ينتهى الى الثغور التي كانت تعرف بالشأمية ومقداره في المسافة نحو أربعة أشهر وهو أحسن استقامة واستواء من بحر فارس وذلك أنك إذا أخذت من فم هذا الخليج أدتك ريح واحدة الى أكثر هذا البحر، وبين القلزم الذي هو لسان بحر فارس وبين بحر الروم على سمت الفرما ثلث مراحل ويزعم بعض المفسرين في قول الله تعالى بينهما برزخ لا يبغيان أنه هذا الموضع ويزعم أهل التأويل غير ذلك غير أن بحر الروم يجاوز الفرما بنيف وعشرين مرحلة وهو مفصل في مسافات المغرب بما يغنى عن إعادته ... ومأخذ بحر فارس وبحر الروم من البحر المحيط فأما بحر الخزر فليست له مادة من شيء من ذين البحرين بوجه ولا سبب وقد حكيت عن هذا البحر حكايات كثيرة عن كبار المؤلفين ولقد قرأت في غير نسخة لجغرافيا أنه يستمد من بحر الروم عن بطلميوس وأعوذ بالله أن يكون مثل بطلميوس يذكر المحال أو يصف شيئا بخلاف ما هو به ... وقد أخذ من البحر المحيط خليج يمر على ظهر بلد الصقالبة ويقطع أرض الروم على القسطنطينية حتى يفرع في بحر الروم"[٣٦]

من خلال هذا النص نستنتج أن بحر الروم ثاني أعظم البحار بعد بحر فارس، لكن هذا الأخير أطول وأعظم، والبحران (فارس والروم) متقابلان يأخذان من البحر المحيط، ويأخذ بحر الروم من المحيط من خليج الأندلس والمغرب، كما يضيف ابن حوقل أن بحر الروم أحسن استقامة واستواء من بحر فارس، والقلزم لسان هذا الأخير، الذي بينه وبين بحر الروم ثلاث مراحل؛ كما يضيف المؤلف أن بحر الخزر، غير متصل ببحري الروم وفارس، مشيرا الى أن بطليموس أشار إلى اتصال بحر الخزر بالروم، وهو ما لا ينسجم مع التوطينات الحالية، فبحر الروم وبحر فارس، ليسا متقابلان ولا يأخذان من نفس المنبع.

وترد الإشارات مرة أخرى الى الفرما عند ابن حوقل، إذ أورد "ومن البقارة الى الفرما مدينة صالحة على نحر بحر الروم كثيرة النخيل والرطب والسمك غير طيبة الماء يردها التجار في البر والبحر ليلاً ونهاراً من الفسطاط والشأم... وطول أرض مصر من أسوان الى بحر الروم نحو عشرين"[٣٧] يؤكد ابن حوقل في هذا النص، على أن الفرما تقع على ساحل بحر الروم، وهي كثيرة النخيل والسمك، ومن أسوان الى بحر الروم عشرين ميلا، ثم يضيف معطى جد هام إذ يشير أن ببحيرة تنيس "سمكة تعرف بالدلفين في خلقة الزق الكبير وتكثر في مياه بحر الروم في منحدر الماء العذب من البحر"[٣٨].

يعتبر هذا المعطى بالغ الأهمية، إذ يشير إلى كثرة الدلافين ببحر الروم، وهو ما يلتقي مع عدة إشارات، فالدلفين النهري يعيش في المياه العذبة ويعيش في الأنهار الكبرى كالنيل الأزرق، ويشير ابن حوقل انه عند منحدر الماء العذب، وهو ما يلتقي مع إشارة الكمال الدميري الى الدلفين أو الدخس، إذ أشار إلى انه "كثير بأواخر نيل مصر من جهة البحر الملح، لأنه يقذف به البحر إلى النيل وصفته كصفة الزق المنفوخ"[٣٩]، ويؤشر هذا النص على أن مياه بحر الروم عذبة وليست مالحة، وبالتالي، فنحن بصدد نهر كبير، توجد فيه الدلافين النهرية المرتبطة بالنيل، عند مصب المياه العذبة.

يقدم ابن حوقل وصفا مهم للبحر الرومي، إذ أورد: "وسأصل ذلك بذكر بحر الروم وتصويره إذ هو خليج من البحر المحيط عليه أكثر هذه الديار وقد أتيت به على التقريب لا على الحقيقة إذ بعضه أشبه شيء بالدائرة المحددة، ومخرجه بين أرض الأندلس وأرض طنجة وسبتة وهذه الناحية محاذية من الأندلس لجزيرة جبل طارق وأشبيلية وعرض هذا المخرج بهذا المكان المعروف باشبرتال وهو جبل عال ويمتد جنوبيا الى سله ويحاذيه من العدوة الأندلسية جبل الأغر ويمتد الى لبله بناحية الشمال من الأندلس فيكون نحو اثنى عشر ميلا ثم لا يزال يتسع ويعرض ويمتد على سواحل المغرب ومما يلى شرقي هذا البحر حتى ينتهى [الى] أقاصي أرض مصر ممتدا على أرضها الى الشأم متصلا عليها الى الثغر الذي كان يعرف بطرسوس ويعطف الى بلدان الروم من جبال اقليميه الى انطاليه ثم يصير الى خليج القسطنطينية ويمضى على سواحل اثيناس وسواحل قلوريه والانكبرذة الى افرنجه وروميه ويصير البحر حينئذ جنوبيا لأرض جليقيه ويكون على ساحله الافرنجة الى أن يتصل بطرطوشه من بلاد الأندلس ويمتد على النواحي التي تقدم ذكرها في صفة الأندلس ويجاوز المرية وأعمال الجزيرة وأشبيلية ويمضى على البحر

المحيط الى شنترين وهى آخر بلاد الإسلام من ناحية الأندلس وجانب بلد الروم، ولو أن امرءا سار من سبتة وطنجة على ساحل هذا البحر المغربي مؤملا أن يعود الى ما يحاذيه من أرض الأندلس لدار على جميع بحر الروم من حيث لا يمنعه مانع إلا نهر يلقى إليه أو يفرع فيه أو خليج القسطنطينية فإنه يفضى إليه من البحر المحيط أيضا وذلك أنه انفصل به من الأرض فاصلة حازت شطر بلد الصقالبة وبعض بلد الروم فسميت الأرض الصغيرة والذي تحوز من البلاد معما ذكرته أرض قلوريه وجليقيه وافرنجه والأندلس فجعل ذلك جزيرة ليست مع الأرض الكبيرة ولا متصلة بشيء منها لأنها قائمة بنفسها ولم يحتج الى أن يدله دليل إن أمكنه ذلك".[٤٠]

يعتبر هذا النص الطويل لابن حوقل بالغ الأهمية، فهو يحدد البحر الرومي على أنه خليج يخرج من المحيط الكبير، وقد شبهه ابن حوقل بالدائرة، وهو يخرج من أرض الأندلس وطنجة وسبتة، ومخرجه من جبل اشبرتال الذي يمتد جنوبا حتى يصل إلى سلا، محاذيا لجبل الأغر الذي يمتد شمالا إلى لبلة؛ ويمتد بحر الروم إلى أن يصل إلى أرض مصر ثم الشام فيصل إلى طرسوس، ثم ينعطف على بلدان الروم، ويصير جنوب جليقية إلى أن يصل إلى شنترين آخر حد بلاد الإسلام المحاذية لبلاد الروم.

ذكر صاحب أحسن التقاسيم أن "البحر الآخر خروجه من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس يخرج من المحيط عريضا ثم ينخرط ثم يعود فيعظم الى تخوم الشام وسمعت بعض مشايخ المغرب يفسر هذه الآية رب المشرقين ورب المغربين قال المغربان هذان الوجهان من هذا البحر مغرب الصيف عن يمينه ومغرب الشتاء عن يساره وسمعت جماعة منهم يذكرون انه يضيق في حدود طنجة حتى يكون......... واتفقوا على انه عند معابر الأندلس إذا عاينت هذا البر تراءى لك البر الآخر، وذكر ابن الفقيه أن طول بحر الروم الدبورى ألفان وخمسمائة فرسخ من انطاكية الى جزائر السعادة وعرضه في مكان خمسمائة فرسخ وفي مكان مائتا فرسخ".[٤١]

يشير المقدسي في هذا النص إلى أن بحر الروم ينبع من السوس الأقصى، فيخرج من المحيط، إلى تخوم الشام، كما أشار المؤلف على أن المسافة بن المضيق ضيقة حتى يتراءى البران لبعضهما

ويورد في النص المتعلق بتقسيم مملكة الإسلام أن: "الشمس تغرب في حافة بلد المغرب ويرونها تنزل في البحر المحيط وكذلك أهل الشام يرونها تغيب في بحر الروم، وإقليم مصر يأخذ من البحر الرومي طولاً إلى بلد النوبة ويقع بين بحر القلزم وتخوم المغرب ويمتد المغرب من تخوم مصر الى البحر المحيط مثل الشريطة يضغطه من قبل الشمال بحر الروم ومن قبل الجنوب بلدان السودان، ويمد إقليم الشام من تخوم مصر نحو الشمال الى بلد الروم".[٤٢]

تدل إشارة غروب الشمس على وجود بحر الروم في غرب الشام، لكن المعطى الأهم هو أن مصر تأخذ طولا من البحر الرومي الى بلد النوبة، وأنه يقع بين بحر القلزم وحدود المغرب، كما يشير إلى أن بحر الروم يقع شمال أرض المغرب. ويشير صاحب حدود العالم إلى أن "وأما ما في بحر الروم، فست جزر عامرة وجبلان اثنان يدعى أحدهما جبل طارق الذي يقع أحد طرفيه في بلاد الأندلس والآخر في الخليج الذي يتصل بالأوقيانوس بواسطة بحر الروم. وفيها معدن الفضة. وتنبت فيها الأعشاب الطبية وتسقط على الأرض مثل الجنطيانا وما شابهها. ويدعى الجبل الثاني جبل القلال. وهو قريب من مدينة رومية في المغرب. وهو جبل يقال إنه لم يستطع أحد الوصول إلى قمته لشدة ارتفاعه. وفيه الصيد والخشب والحطب"[٤٣]. يشير صاحب حدود العالم إلى أن بحر الروم يقع بين جبلين الأول جبل طارق الذي يوجد عند حدود بلاد الأندلس، والثاني يعرف بجبل القلال الذي يوجد في المغرب، وعليهما الفضة وبعض النباتات.

ويورد في إشارة أخرى عن جزائر بحر الروم: "الأولى: قبرس، ومحيطها ثلاثمائة وخمسون ميلا. وفيها معادن الفضة والنحاس والدهنج. وتقع مقابل قيسارية وعكا وصور.

الثانية: قريس: تقع إلى الشمال من الجزيرة الأولى. ومحيطها ثلاثمائة وخمسون ميلاً.

الثالثة: بالس، محيطها ثلاثمائة ميل.

الرابعة: صقلية، قرب رومية. ويخرج من هذه الجزيرة جبل كبير وكانت خزانة الروم في هذه الجزيرة، قائمة منذ القديم فيها. وطولها سبعة منازل في عرض خمسة.

الخامسة: سردانية، إلى الجنوب من رومية. محيطها ثلاثمائة ميل.

السادس: إقريطس، إلى الشمال من أطرابلس ومقابلها. محيطها ثلاثمائة ميل.

وجميع هذه الجزر الست عامرة وفيها خيرات كثيرة ومدن وقرى وناس كثيرون، وتجار وجند وثروة كبيرة. وجزائر بحر الروم هذه هي الأكثر عمارة من جميع جزائر العالم"(٤٤)

ويشير مؤلف كتاب حدود العالم إلى المعادن، حيث تهيمن معادن الذهب والفضة والنحاس والدهنج؛ بينما يقدم البكري عدة إشارات حول بحر الروم، إذ أورد "وأما البحر الثالث فهو البحر الرومي السد، وهو يأخذ من أنطاكية إلى أقصى بلاد المغرب وهو يلتقي البحر المظلم ويخرج الى الجزائر الخالدات، ويخرج من هذا البحر الرومي خليج كبير يمر بجزيرة الأندلس، ثم يمر هذا البحر ذاهبا إلى السوس الأقصى من بلاد فارس والأهواز، ثم يأخذ هذا البحر الثالث من أنطاكية فيصير بحرا رابعا إلى القسطنطينية ثم ينعطف إلى ناحية المغرب آخذا إلى الأبواب من ناحية بلاد الخزر، وعلى هذا البحر المنعطف تقع المدن الخمس التي يأخذ الخزر عليها في ممرهم إلى القسطنطينية منها المدينة البيضاء. وعلى ساحل هذا البحر تقع طرسوس والمصيصة والإسكندرية وأنطاكية واللاذقية وعرقة واطرابلس الشام وسائر ما يتلو هذه البلاد، ثم يدور إلى بلخ مدينة الخزر الموضوعة ومن هناك يأخذ إلى باب الأبواب"(٤٥).

يجعل البكري البحر الرومي هو الثالث في الترتيب من حيث الأنهار، ويمتد من أنطاكية إلى أقصى بلاد المغرب حيث يلتقي مع البحر "المظلم"، ويخرج إلى الجزائر الخالدات؛ لكن المعطى الأهم هو الخليج الكبير الذي يمر بجزيرة الأندلس، لكن المعطى الأساس عند البكري أن هذا الخليج يمر من السوس الأقصى من بلاد فارس والأهواز يحدد البكري مسار البحر الرومي إذ ينعطف الى المغرب بعد وصوله الى انطاكية فيمر بالقسطنيطينة ومن ثم المغرب عبر بلاد الخزر، ويصفه فيقول: "وهذا الخليج هو بحر الروم وطرطوس والمصيصة وأنطاكية واللاذقية وأطرابلس وصور وغير ذلك من سواحل الشام ومصر والإسكندرية. وفي هذا البحر جزائر كثيرة نحو جزيرة قبرس يحيط بها البحر مائتي ميل، وجزيرة إقريطش يحيط بها البحر ثمانمائة ميل، وجزيرة صقلية يحيط بها البحر خمسمائة ميل، وجزيرة سردانية يحيط بها البحر ثلاثمائة ميل، وغيرها"(٤٦).

حسب البكري فخليج بحر الروم يعتبر بحرا للروم وطرسوس والمصيصة وأنطاكية واللاذقية وأطرابلس وصور وسواحل الشام ومصر والإسكندرية، ويضيف في نص آخر: "ومن بحر إفريقية وصقلية يخرج المرجان، وهذا المضيق الذي قدمنا ذكره وهو الخليج الذي عليه طنجة متصل ببلاد المغرب وإفريقية والسوس وأطرابلس المغرب والقيروان وساحل برقة والرمادة إلى بلاد الإسكندرية إلى تنيس ودمياط وساحل الشام ثم ساحل الروم إلى بلاد رومة إلى أن يصل إلى ساحل الأندلس راجعا إلى الخليج الضيق الذي بدأنا بذكره. ويخرج (منه خليج) إلى ناحية الشمال قرب رومة يكون طوله خمسمائة ميل يسمى إدريس، وهو الذي تعرفه الروم بماء ربجينه، ويخرج منه خليج [آخر] إلى أرض نربونة يكون طوله مائتي ميل(٤٧).

يشير البكري أن خليج بحر الروم يخرج منه المرجان، وهو يتصل ببلاد طنجة وإفريقية والسوس واطرابلس، والمغرب والقيروان، وساحل برقة والرمادة، والإسكندرية وساحل الشام وساحل الروم، قبل أن يضيف في نص آخر أثناء وصف البحر الرومي (بحر الشام) فيقول: "وأما بحر الشام، وهو البحر الرومي، فإنه لا تجري فيه جارية ولا يستطاع ركوبه منذ تسير الشمس في أول العقرب الى أن تصل إلى الحوت وذلك أربعة أشهر، لأن الشمس تتباعد وتحدث فيه الرياح العواصف والأهوية المهلكة وبخاصة الناحية الشمالية منه"(٤٨).

يشير البكري في هذا النص إلى أن بحر الروم يبدأ بالهيجان منذ أن تسير الشمس في أول العقرب إلى الحوت (نونبر – مارس) أي فصل الشتاء، حيث يعرف الرياح والعواصف والاهوية خاصة في الناحية الشمالية، كما يقدم في نص آخر إشارة جد هامة، إذ يقول: "بحر الروم وبحر الصين، ولا يتقاربان في بقعة من الأرض تقاربهما في هذا الموضع، فإن الذي ما بين الفرما والقلزم مسيرة ليلة واحدة وبينهما في غير هذا الموضع مسيرة شهور"[٤٩]، وحسب هذا النص فإن بحرا الصين والروم يتقاربان بين الفرما والقلزم، مسيرة ليلة واحدة، على عكس باقي المواقع حيث يمكن أن تسير المسافة لشهور يقدم صاحب سفر نامه إشارة جد مهمة إذ قال: "وتذهب السفينة من تنيس الى القسطنطينية في عشرين يوما وقد سرنا بجانب مصر وحين بلغنا شاطئ البحر سارت السفينة في النيل حين يقترب نهر النيل من البحر يصير فروعا تصب متفرقة فيه ويسمى الفرع الذي سرنا فيه فرع الروم سارت السفينة حتى بلغنا مدينة تسمى الصالحية ..."[٥٠]

حسب هذا النص، الوارد في سفر نامه، فان ملتقى النيل بالبحر يتكون من عدة فروع متفرقة، يعرف أحدها بفرع الروم، والذي سار فيه إلى أن وصل للصالحية، ثم يضيف في ذات النص في "وبين مصر والأندلس ألف فرسخ وسكانها جميعا مسلمون وهي ولاية كبيرة جبلية ينزل فيها البرد ويتجمد سكانها بيض وشعرهم أحمر وأكثرهم كالصقالبة عيونهم كعيون القطط وتقع الأندلس في نهاية بحر الروم فالبحر شرقي بالنسبة لأهلها وإذا ذهب السائر من الأندلس شمالا جهة اليمين متتبعا الشاطئ فانه يبلغ بلاد الروم وكثيرا ما يغزون الروم من الأندلس

ومن الممكن أن يركب المسافر البر الى القسطنطينية إذا أراد، ولكن لا بد من اجتياز خلجان كثيرة عرض كل منها مائتا فرسخ أو ثلاثمائة فرسخ لا يمكن اجتيازها إلا بالسفن والمعابر"[٥١] يقدم المؤلف معطى بشريًا جد هام، إذ يشير إلى أن سكان الأندلس الذين يقعون على أطراف بحر الروم، يشبهون الصقالبة، فهوم بيض وشعرهم أحمر، وعيونهم كالقطط، وهي منطقة تعرف تساقطات ثلجية كثيرة

خَاتِمَةٌ

على المستوى التاريخي يمكن التمييز بين مرحلتين:

مرحلة ما قبل عمر بن الخطاب

لم تكن الفتوحات قد تجاوزت بحر الروم، بل كان يرفض ركوبه حسب ما ورد في النصوص، وبالتالي، كان البحر منطقة حدودية خلال منتصف الفترة الراشدة، في حين كانت قبرص على مشارف دار الإسلام خلال هذه المرحلة، في مقابل هذا الغياب، كان للصحابة حضور تجاري في البحر الرومي، ما يؤشر على وجود علاقات اقتصادية تربط المدينة مع باقي الأطراف من خلال بحر الروم، منذ البدايات الأولى للإسلام.

مرحلة ما بعد عمر بن الخطاب

أصبح بحر الروم جزءًا أساسيًا من الفتوحات الإسلامية، وكان حاضرا خلال توسع أرجاء الدولة الإسلامية، في حين ظلت بعض مناطق بحر الروم غير خاضعة لبلاد الإسلام، وبالتالي، يمكن اعتبار جزءًا من بحر الروم كان بمثابة الحد بين بلاد الإسلام وغيرها. أما الروايات الدينية، فتقدم سردية يمتزج فيها التاريخي والجغرافي، فحسب أغلب الروايات فإن مجمع البحرين هو نقطة التقاء بحر الروم وبحر فارس، حيث يتجه بحر الروم غربا، بينما يتجه بحر فارس شرقًا، وتشكل جزيرة العرب او الجزائر برزخا بينهما يمنعهما من الالتقاء، في منطقة أشبه بالدلتا. كما أن بحر الروم هو مصب الأنهار كلها، يشكل سلسلة مائية تبدأ منه ثم النيل فبحر فارس ثم دجلة. من جهة أخرى، فإن بحر الروم هو المكان الذي جرت فيه وقائع قصة يونس بن متى، كما أن قوم جالوت استقروا على سواحله الممتدة بين مصر والشام، بينما كان سد ذو القرنين وراء حدوده عند مضيق صغير، مع الإشارة إلى معدن الحديد. أما كتب الجغرافيا والرحلات فتقدم معطيات مهمة، يمكن تقسيمها إلى قسمين، معطيات تتعارض مع التحديدات الحالية لبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، ومعطيات تقدم تحديدات جديدة.

المعطيات التي تتعارض مع التحديدات الحالية

يفترض الصيرافي أن بحر الروم يدور على بلاد الصين وبلاد الترك والخزر ويصب في خليج بحر الشام، وباعتبار أن التوطينات الحالية تحدد بحر قزوين على أنه بحر الخرز، وهو بحر داخلي، كما أنه لا يوجد ما يربط بين بلاد الصين والبحر الأبيض المتوسط، كما أن الصيرافي قرن بين اليمن والشام والروم وسلوقيا وجعلها تنتمي لنفس المجال الجغرافي، وهو ما لا يستقيم مع التوطينات الحالية، أي أننا إزاء تحديدات مغايرة. أما المعطى الهام والذي ورد في عدد من النصوص، فهو أن المكان الذي يصب فيه النيل في بحر الروم، هو عند الإقليم الثالث، في حين انه يفترض انه يكون الإقليم الرابع حسب التوطينات الحالية، ما يؤكد على عدم اتساق التوطينات الحالية. كما أن عددًا من النصوص حدد بحر القلزم على أنه بحر الفرما، وأن النيل يمر بينه وبين المفازة، في أرض الحبشة، وهو لا ينسجم مع التحديد الحالي للبحر الأبيض المتوسط.

ويشير المسعودي إلى أن المناطق الشمالية لبحر الروم تنعدم فيها الأمطار وهو ما يتناقض مع التوطين الحالي حيث يفترض أن أوروبا التي توجد شمال المتوسط تعرف تساقطات مطرية مهمة، كما أن الدراسات المناخية الوسيطية تؤكد أن المنطقة كانت تعرف مناخا باردا بشكل كبير؛ إضافة لهذا فإن النصوص تؤشر على أن مياه بحر الروم عذبة وليس مالحة، وتعرف تواجد الدلافين النهرية التي تعيش في المياه العذبة. كما أن ملتقى نهر النيل ببحر الروم يتكون من عدة فروع متفرقة، يعرف أحدها بفرع الروم، بينما تود فروع أخرى، وهو ما يتناقض مع التوطينات الحالية للبحر الأبيض المتوسط على أنه بحر الروم. بناءً على هذا يمكن القول إن توطين بحر الروم على أنه البحر الأبيض المتوسط لا ينسجم والإشارات المصدرية التي توفرها نصوص الجغرافيا والرحلات الإسلامية من القرن الثاني الهجري إلى السادس الهجري، وأننا إزاء جغرافية أخرى مختلفة.

تحديدات أساسية

من خلال تجميع الإشارات الواردة في النصوص، نجد أن الحقل التداولي لاسم بحر الروم يرتبط بالروم والشام ومصر، تعتبر مصر الثابث الواحد فيها، بينما تتغير الشام والروم لتعوض الواحدة منهما الأخرى، فيصح القول إن البحر الرومي = البحر الشامي، أو أن بحر مصر والشام = بحر مصر والروم، وهو ما يمكن أن يعتبر مؤشرا على اقتران الشام والروم؟ أو على الأقل انتماؤهما لمنطقة محاذية لبعضهما البعض؟ مع الإشارة إلى أن ابن قدامة أضاف إليه اسما يونانيا وهو أروفي.

تذهب أغلب الإشارات إلى اعتبار البحر الرومي مصب كل البحار الأخرى (الهند والصين والخرز)، وأنه ينبع من خليج بلاد الأندلس وطنجة حيث يحده جبلان (الأصح سلسلتان جبليتان)، الأول اشبرتال (القلال في روايات أخرى) الذي يمتد جنوبا إلى سلا، والثاني الأغر (جبل طارق في روايات أخرى) الذي يمتد شمالا إلى لبلة، ويتجه بحر الروم مشرقا حتى يمر على مصر والشام، فيصل إلى طرسوس، ثم ينعطف على بلدان الروم، ويصير جنوب جليقية إلى أن يصل إلى شنترين آخر حد بلاد الإسلام المحاذية لبلاد الروم.

تؤكد النصوص أن بحر الروم يوجد شمال أرض المغرب وجنوب ارض الأندلس، وأنه يقع بين بحر القلزم وحدود المغرب، كما يشير إلى أن بحر الروم يقع شمال أرض المغرب، لكن البكري يشير إلى أن بحر الروم يمر من السوس الأقصى من بلاد فارس والأهواز، وهو ما يطرح عددًا من الأسئلة حول مسار هذا البحر، خاصة مع الإشارات النصية إلى أن بحرا الصين والروم يتقاربان بين الفرما والقلزم، مسيرة ليلة واحدة (بين ٢٢ و٤٠ كلم).

معطيات جغرافية متنوعة

نجد عدة إشارات متنوعة للجغرافية البشرية والطبيعية للمنطقة، فحسب النصوص، يحضر معدن الذهب والحديد والفضة والنحاس، كما أن المرجان يخرج من بحر الروم، أما بعض سكان الأندلس الذين يقعون على أطراف بحر الروم، فيشبهون الصقالبة، فهوم بيض وشعرهم أحمر، وعيونهم كالقطط.

تتباين الإشارات النصية حول المناخ فشمال بحر الروم في الأراضي المصرية يكون الجو قاحلا، أما بالتوجه للشمال أكثر، فإن المنطقة تعرف تساقطات ثلجية كثيرة، ويشير البكري إلى أن بحر الروم يبدأ بالهيجان منذ أن تسير الشمس في أول العقرب إلى الحوت (نونبر – مارس) أي فصل الشتاء، حيث يعرف الرياح والعواصف والأهوية خاصةً في الناحية الشمالية.

الإحالات المرجعية:

(١) الدينوري ابن قتيبة، "**المعارف**"، تحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، الجزء الأول، ص ١٩٤.

(٢) أحمد بن يحيى البلاذوري، "**فتوح البلدان**"، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨، ص١٥٣؛ قدامة بن جعفر البغدادي، "الخراج وصناعة الكتابة"، دار الرشيد للنشر، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص٣٠٦.

(٣) محمد بن جرير الطبري، "**تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري**"، دار التراث، بيروت، ١٩٦٧، الطبعة الثانية، الجزء الثامن، ص٦١٣.

(٤) ابن أبي الدنيا، "**إصلاح المال**"، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص٧٦.

(٥) محمد بن جرير الطبري، "**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار التربية والتراث، الجزء ١٨، ص ٥٥؛ أبو الحسن علي الماوردي، "تفسير الماوردي - النكت والعيون"، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الجزء الثالث، ص٣٢٢؛ أبو الحسن علي الواحدي، "**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**"، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ص٦٦٦؛ أبو الحسن علي الواحدي، "**التفسير البسيط**"، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الجزء الرابع عشر، ص ٧٠.

(٦) الطبري، "**جامع البيان** ... مرجع سابق، الجزء ٢٣، ص ٣٠؛ أبو منصور الماتريدي، "تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة"، تحقيق مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥، الجزء الثامن، ص ٣٤؛ أبو جعفر النحاس، "**إعراب القرآن للنحاس**"، تعليق عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، الجزء الرابع، ص٢٠٦؛ أبو الليث نصر السمرقندي، "**بحر العلوم**"، الجزء الثالث، ص ٣٨١؛ أبو إسحاق الثعلبي، "**الكشف والبيان عن تفسير القرآن**"، تحقيق أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، الجزء التاسع، ص ١٨١؛ أبو محمد الحسين البغوي، "**معالم التنزيل في تفسير القرآن**"، تحقيق محمد عبد الله النمر، الجزء السابع، ص ٤٤٤.

(٧) الرازي ابن أبي حاتم، "**تفسير القرآن العظيم** لابن أبي حاتم، تحقيق اسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الثالثة، الجزء الثامن، ص ٢٧٠٩.

(٨) الماتريدي، مرجع سابق، الجزء التاسع، ص ٤٦٩.

(٩) "الثعلبي، مرجع سابق، الجزء الخامس والعشرون، ص ٣١٢.

(١٠) ابن أبي حاتم، مرجع سابق، الجزء العاشر، ص ٣٢٢٩؛ جمال الدين أبو الفرج الجوزي، "**زاد المسير في علم التفسير**"، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ص ٣٥٢.

(١١) الواحدي، التفسير البسيط، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ١٥٤؛ الواحدي، "**التفسير الوسيط**"، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص٢٤٨؛ عبد القاهر الجرجاني، "**درج الدرر في تفسير الآي والسور**"، تحقيق وليد بن أحمد بن صالح الحسين، مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، الجزء الثالث، ص ٩٥٦؛ البغوي، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٥٢؛ البغوي، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ٣٥٠.

(١٢) ابن أبي حاتم، مرجع سابق، الجزء العاشر، ص ٣٤٠٦.

(١٣) أبو المظفر السمعاني، "**تفسير القرآن**"، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، الجزء السادس، ص ١٦٦.

(١٤) الثعلبي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٢٠٩؛ الجرجاني، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٤١٧؛ البغوي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص٢٩٦؛ الزمخشري، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢٩١.

(١٥) الماوردي، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٣٤٤.

(١٦) ابن خرداذبه، مرجع سابق، ص١٥٤.

(١٧) نفسه، ص١٧٦.

(١٨) نفس المرجع والصفحة.

(١٩) نفسه، ص١٧٧.

(٢٠) نفسه، ص ٢٢١.

(٢١) نفسه، ص ٢٣١.

(٢٢) محمد بن جابر البستاني الحراني الرقي الصابيء أبو عبد الله البتاني، "**زيج الصابئ**"، ص١٤.

(٢٣) أبو زيد حسن بن يزيد السيرافي، "**رحلة السيرافي**"، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩، ص٦٥.

(٢٤) نفسه، ص ١١٨.

(٢٥) قدامة بن جعفر، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٢٦) نفسه، ص ١٤٠.

(٢٧) نفسه، ص١٤١.

(٢٨) نفسه، ص١٤٦، ١٤٧.

(٢٩) نفسه، ص ١٥١.

(٣٠) أبو عبد الله احمد ابن محمد بن إسحاق الهمداني ابن الفقيه، "**البلدان**"، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، ص ١٢٠.

(٣١) نفسه، ص ٣٣٠.

(٣٢) أبو الحسن المسعودي، "**أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت، ١٩٩٦، ص٦٧.

(٣٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، الجزء الأول، ص ٥٠- ٥٢.

(٣٤) نفسه، ص ١٩٤.

(٣٥) المقدسي، البدء والتاريخ، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٥٤.

(٣٦) ابن حوقل، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١١– ١٣.

(٣٧) نفسه، ص ١٤٤.

(٣٨) نفسه، ص ١٥٦.

(٣٩) كمال الدين الدميري، "**حياة الحيوان الكبرى**"، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الأول، ص ٤٧٠.

(٤٠) ابن حوقل، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٠-١٩٤.

(٤١) المقدسي، مرجع سابق، ص١٤.

(٤٢) نفسه، ص٦٢.

(٤٣) مجهول، "**حدود العالم من المشرق الى المغرب**"، ص٣٩.

(٤٤) نفسه، ص ٤٠.

(٤٥) البكري، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩١.

(٤٦) نفسه، ص ٢٠٣.

(٤٧) نفسه، ص ٢٠٤.

(٤٨) نفسه، ص ٢٠٩.

(٤٩) نفسه، الجزء الثاني، ص ٦٢٥.

(٥٠) أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي، "**سفر نامه**"، تحقيق يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣، ص ٨٠.

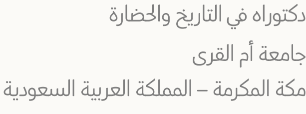
(٥١) نفسه، ص٨٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الإبل في حياة رسول الله (ﷺ) من الولادة حتى الوفاة

دراسة تاريخية





د محمد بن حسين الحارثي الشريف

دكتوراه في التاريخ والحضارة
جامعة أم القرى
مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية

مُلَخّص

تجاوبًا وتفاعلاً مع دعوة وزارة الثقافة السعودية، التي أطلقت على عام (٢٠٢٤ م) اسم عام الإبل تقديرًا للمكانة الفريدة للجمل في قلوب أبناء شبه الجزيرة العربية ووجدانهم. والتي رافقت الإنسان العربي في حياته وترحاله منذ مئات السنين. يستمرّ هذا الاحتفال عامًا كاملاً ليمنحنا فرصة استثنائية لتكريم الإرث الخالد للإبل الأصيلة، وما يجمعنا بها من اتصال روحي عميق وتاريخ مُشترَك. تكمن مشكلة الدراسة في أن الجمل تفاعل مع النبي (ﷺ) فداءً وهجرةً وجهادًا وشكوى في مجمل أحداث السيرة النبوية. إن الدراسات عن الإبل متعددة جدًا، ومتنوعة ما بين تاريخية وشرعية وفقهية وحديثية؛ انطلاقًا مما ورد في القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم. لذا تهدف الدراسة إلى بيان مكانة الجمل في حياة النبي المصطفى سيدنا محمد (ﷺ)، استنباطًا من مصادر السيرة النبوية، والأحاديث الشريفة الصحيحة. ومن منطلق أن طبيعة الموضوع (في كلياته وجزئياته) هي التي ترسم بالأساس ملامح المقاربة المنهجية التي ينبغي اعتمادها في البحث؛ ونظرًا لطبيعة هذه الدراسة التاريخية الوصفية، فقد استخدم الباحث المنهج التاريخي، والنطاق الزماني: من ولادة النبي المصطفى؛ حتى وفاته (ﷺ)، والنطاق المكاني: الجزيرة العربية (إقليم الحجاز).

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١١	سبتمبر	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	نوفمبر	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

النبي؛ الإبل؛ الناقة؛ القصواء؛ الهجرة النبوية؛ الحديبية؛ فتح مكة؛ حجة الوداع

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.415031 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد بن حسين الحارثي الشريف، "الإبل في حياة رسول الله (ﷺ) من الولادة حتى الوفاة: دراسة تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ٨٩ – ٩٨.

Corresponding author: alsharifmh95@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

الإبل من مخلوقات الله العظيمة التي تتجلى فيها قدرته سبحانه وتعالى، وحينما خلقها جعلها آية للبشر للتأمل في عظمة خلقه، فيقول ابن كثير في تفسيره آية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [١]، يقول تعالى آمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)؟ فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها. ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.[٢]

وقد أطلق عليه ألفاظ كثيرة حيث ورد في القرآن الكريم لفظ الإبل مرتين، والناقة سبع مرات، والعير ثلاث مرات، والبعير مرتين، والجمل مرة واحدة ويقال عند العرب ناقة للأنثى من الإبل، والجمع نوق، ويقال للذكر جمل. قيل: ما خلق الله شيئا من الدواب خيرًا من الإبل؛ إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحرت أشبعت. وفي الحديث: «الْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا، وَالْغَنَمُ بَرَكَةٌ، وَالْخَيْرُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [٣]. وهي من الحيوان العجيب، وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس، وهي مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [٤]، ولما كانت مراكب البر والبر فيه ما ماؤه قليل، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبرًا على العطش حتى قيل: إنه يرتع ظمؤها إلى عشر[٥].

ولعظَم شأن الإبل عند العرب جعلوا دية القتيل عددًا خاصا من الإبل يتراوح بين العشر والمائة والمئات، يُساق إلى أولياء القتيل، إما بالنقد العاجل، وإما بنظام التنجيم والتقسيط، وهو ما سجله زُهير بن أبي سُلمى في قوله:

تُعَفّى الكُلومُ بِالْمِئينَ فَأَصْبَحَتْ
يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيْسَ فيها بِمُجْرِمِ
يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَومٍ غَرَامَةً
وَلَمْ يُهَرِيقوا بينهمْ مِلْءَ مِحْجَمِ[٦]

وقال ابن قدامة: "أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الْإِبِلَ أَصْلٌ فِي الدِّيَةِ، وَأَنَّ دِيَةَ الْحُرِّ الْمُسْلِمِ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ. وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ؛ مِنْهَا حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، وَحَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فِي دِيَةِ خَطَأِ الْعَمْدِ، وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي دِيَةِ الْخَطَأِ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الْخِرَقِيِّ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الدِّيَةِ الْإِبِلُ لَا غَيْرُ"[٧].

١-افتدى الله والد النبي (ﷺ) بمائة من الإبل

انطلقت رحلة الجمل مع سيدنا رسول الله (ﷺ) مبكرًا قبل ولادته، في حادثة نذْر جده عبد المطلب بن هاشم، ذبح أحد أبنائه ووقعت القرعة على ابنه عبد الله والد رسول الله (ﷺ) قبل زواجه وكان أحب أبنائه إليه، فافتداه الله بمئة من الإبل. فقد أورد ابن هشام: ذِكْرُ نَذْرِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ذبحَ وَلَدِه: قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ؛ قَدْ نَذَرَ حِينَ لَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ مَا لَقِيَ عِنْدَ حَفْرِ زَمْزَمَ: لَئِنْ وُلِد لَهُ عَشَرةُ نَفَرٍ ثُمَّ بَلَغُوا مَعَهُ حَتَّى يَمْنَعُوهُ؛ لينحرنَّ أحدهم للَّه عِنْدَ الْكَعْبَة. فَلَمَّا تَوَافَى بَنُوه عَشَرَةً، وَعَرَفَ أَنَّهُمْ سَيَمْنَعُونَهُ، جَمَعَهم. ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بنَذْرِه، وَدَعَاهُمْ إلَى الْوَفَاء للَّه بذَلِكَ، فَأَطَاعُوهُ. فَأَخَذَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِب بِيَدِهِ وَأَخَذَ الشَّفْرَة ثُمَّ أَقْبَلَ بِه إلَى إسَافٍ وَنَائلَة لِيَذْبَحَهُ، فَقَامَتْ إلَيْه قُرَيْشٌ مِنْ أَنْدِيَتِهَا، فَقَالُوا: مَاذَا تُرِيدُ يَا عَبْدَ الْمُطَّلبِ؟ قَالَ: أَذْبَحُهُ، فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ وَبَنُوهُ: وَاَللَّه لَا تَذْبَحُهُ أَبَدًا، حَتَّى تُعْذِر فيه. لَئِنْ فَعَلْتَ هَذَا لَا يَزَالُ الرجلُ يَأْتِي بِابْنِه حَتَّى يَذْبَحَهُ، فَمَا بقاءُ الناس على هذا؟! وَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ وَبَنُوهُ: لَا تَفْعَلْ، وانطلقْ به إلَى الْحجَاز فَإِنَّ به عَرَّافة لَهَا تَابِعٌ، فسلْها، ثُمَّ أَنْتَ عَلَى رَأْسِ أَمْرِك، إنْ أَمَرَتْكَ بِذَبْحه ذَبَحْتَهُ، وإنْ أمرتك بأمر لك وله في فرج قبلته، ما أشارت به عَرَّافة الحجاز: فَانْطَلَقُوا حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَوَجَدُوهَا -فيمَا يَزْعُمُونَ- بِخَيْبَر. فَرَكِبُوا حَتَّى جَاءُوهَا، فَسَأَلُوهَا، وَقَصَّ عَلَيْهَا عَبْدُ الْمُطَّلِب خَبَرَهُ وَخَبَرَ ابْنِه، وَمَا أَرَادَ به ونذره فيه، فَقَالَتْ لَهُمْ: ارْجِعُوا عَنِّي الْيَوْمَ حَتَّى يَأْتِيَنِي تَابِعِي فَأَسْأَلُهُ. فَرَجَعُوا مِنْ عندها، فَلَمَّا خَرَجُوا عَنْهَا قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ غَدَوْا عَلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُمْ: قَدْ جَاءَنِي الْخَبَرُ، كَمْ الدِّيَةُ فيكُمْ؟ قَالُوا: عشرٌ مِنْ الْإبِل، وَكَانَتْ كَذَلكَ. قَالَتْ: فَارْجِعُوا إلَى بِلَادكُمْ، ثُمَّ قَرِّبُوا صَاحبَكُمْ، وَقَرِّبُوا عَشْرًا مِنْ الْإبِل، ثُمَّ اضْرِبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيْه بالقِدَاح، فَإِنْ

خَرَجَتْ عَلَى صَاحِبِكُمْ، فَزِيدُوا مِنَ الْإِبِلِ حَتَّى يَرْضَى رَبُّكُمْ، وَإِنْ خرجتْ عَلَى الْإِبِلِ فَانْحَرُوهَا عَنْهُ، فَقَدْ رضيَ ربُّكم، وَنَجَا صاحبُكم. تنفيذ وصية العرافة ونجاة عبد الله: فَخَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا مَكَّةَ، فَلَمَّا أَجمَعُوا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ، قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِب يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ قَرَّبُوا عَبْدَ اللَّه وَعَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ قَائِمٌ عِنْدَ هُبَلَ يَدْعُو اللَّهَ!! ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبِلُ عِشْرِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ ، ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبِلُ ثَلَاثِينَ، وَقَامَ عَبدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الإبل، فَبَلَغَتْ الْإِبلُ أَرْبَعِينَ، وَقَامَ عَبدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ ضَرَبوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإبلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبلُ خَمْسِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإبلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبلُ سِتِّينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الإبلِ.. فبلغت الإبل سبعين، وقام عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبلُ ثَمَانِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبلُ تِسْعِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّه، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإبلِ، فَبَلَغَتْ الإبل مائة، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلب يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى الْإِبلِ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ حَضَرَ: قَدْ انْتَهَى رِضَا ربِّك يَا عَبْدَ الْمُطَّلب، فَزَعَمُوا أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلب قَالَ: لَا وَاللَّه حَتَّى أضرِبَ عَلَيْهَا ثلاثَ مرَّات، فَضَرَبُوا عَلَى عَبْدِ اللَّه، وَعَلَى الْإِبلِ، وَقَامَ عَبْدُ الْمُطَّلبِ يَدْعُو اللَّهَ، فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى الْإِبلِ، ثُمَّ عَادُوا الثَّانِيَةَ، وَعَبْدُ الْمُطَّلب قَائِمٌ يَدْعُو اللَّهَ، فَضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى الْإِبلِ، ثُمَّ عَادُوا الثَّالثَةَ، وَعَبْدُ الْمُطَّلب قَائِمٌ يَدْعُو اللَّهَ، فَضَرَبُوا، فَخَرَجَ القِدْحُ عَلَى الْإِبلِ، فنُحِرت، ثُمَّ تُرِكت لَا يُصَدُّ عَنْهَا إِنْسَانٌ وَلَا يُمْنَع[٨].

قال ابن كثير: قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلب لَمَّا ذَبَحَ تِلْكَ الْإِبِلَ الْمِائَةَ عَنْ وَلَدِه عَبْدِ اللَّه حِينَ كَانَ نَذَرَ ذَبْحَهُ فَسلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَا كَانَ قُدِّرَ فِي الْأَزَلِ مِنْ ظُهُورِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ خَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ مِنْ صُلْبِه[٩].

٢-الإبل ودلالات الولادة النبوية

فِيمَا وَقَعَ مِنَ الْآيَاتِ لَيْلَةَ مَوْلِدِ النبي المصطفى (ﷺ)، منها ذِكْرُ ارْتِجَاسِ إِيوَانِ كِسْرَى وَسُقُوطِ الشُّرُفَاتِ وَخُمُودِ النِّيرَانِ وَرُؤْيَا الْمُوبِذَانِ، وفقد رَأَى الْمُوبِذَانِ إِبِلاً صِعَابًا تَقُودُ خَيْلاً عِرَابًا قَدْ قَطَعَتْ دِجْلَةَ وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهِمْ؛ وتظهر الإبل في هذه الرؤيا من دلالات ولادة النبي العربي، الذي تهدم جيوشه عرش كسرى الفرس[١٠].

٣-تبارك الناقة "الشارف" لزوج "حليمة السعدية" مرضعة رسول الله (ﷺ)

فقد رأت حليمة من بركة النبي المصطفى (ﷺ) ما قصّت منه العجب، ولنتركها تروي ذلك مفصلا: قال ابن إسحاق: كانت حليمة تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء، معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبيننا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في "شارفنا"[١١] ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله (ﷺ) فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه، فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم نام، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى "شارفنا" تلك، فإذا هي "حافل"[١٢]، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا

بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة! لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله! إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها شأنا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لبنا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا، قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا[١٣].

٤-يَسِيرُ النبي (ﷺ) عَلىَ بَعِيرِهِ تظله الملائكة

كَانَتْ –أم المؤمنين– السيدة خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَف وَمَال تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ عَلَى مَالِهَا مُضَارَبَةً فَلَمَّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) مَا بَلَغَهَا مِنْ صِدْقِ حَدِيثِه، وَعِظَمِ أَمَانَتِه، وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ بَعَثَتْ إلَيْه، فَعَرَضَتْ عَلَيْه أَنْ يَخْرُجَ لَهَا فِي مَال تَاجِرًا إلَى الشَّامِ وَتُعْطِيه أَفْضَلَ مَا تُعْطِي غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ، مَعَ غُلَامٍ لَهَا يُقَالَ لَهُ مَيْسَرَةُ، فَقَبِلَهُ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) ثُمَّ أَقْبَلَ قَافِلاً إلَى مَكَّةَ وَمَعَهُ مَيْسَرَةُ، فَكَانَ مَيْسَرَةُ، إذَا كَانَت الْهَاجِرَةُ وَاشْتَدَّ الْحَرُّ، يَرَى مَلَكَيْنِ يُظِلَّانِه مِنَ الشَّمْسِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى بَعِيرِه، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ عَلَى خَدِيجَةَ بِمَالِهَا بَاعَتْ مَا جَاءَ بِه، فَأَضْعَفَ أَوْ قَرِيبًا، وَحَدَّثَهَا مَيْسَرَةُ عَنْ قَوْلِ الرَّاهِبِ وَعَمَّا كَانَ يَرَى من إظلال الملائكة إيَّاهُ[١٤].

٥-خَيْرُ نِساءٍ رَكِبنَ الإبلَ صالحُ نِساءِ قُرَيْشٍ

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[١٥]: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ حَدَّثَنِي شَهْرٌ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّه بْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) خَطَبَ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِه يُقَالُ لَهَا سَوْدَةُ وَكَانَتْ مصبية، كان لها خمس صبية –أو ست –من بعلها مَاتَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ): «مَا يَمْنَعُك منِّي؟» قَالَتْ وَاللَّه يَا نَبِيَّ اللَّه مَا يَمْنَعُنِي مِنْكَ أَنْ لَا تكون أحب البرية إلي، ولكني أكرمك أن يمنعوا هَؤُلَاء الصِّبْيَةُ عِنْدَ رَأْسِك بُكْرَةً وَعَشِيَّةً. قَالَ فَهَلْ مَنَعَك مِنِّي غَيْرُ ذَلِكَ؟ قَالَتْ لَا وَاللَّه، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) يَرْحَمُك اللَّهُ إِنَّ خَيْرَ نِسَاءِ رَكِبْنَ أَعْجَازَ الْإِبِلِ، صَالِحُ نِسَاء قُرَيْش أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِه، وَأَرْعَاهُ عَلَى بَعْلٍ بِذَات يَدِه[١٦].

٦-هاجر الحبيب المصطفى (ﷺ) على القصواء

بَابُ هِجْرَة رَسُول اللَّه (ﷺ) بِنَفْسِه الْكَرِيمَة مِنْ مَكَّةَ إلَى الْمَدِينَة وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) إنَّ يَأْتِي بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، إِمَّا بُكْرَةً، وَإِمَّا عَشِيَّةً حَتَّى إِذَا كَانَ اليوم الذي أذن الله فيه رسوله (ﷺ) فِي الْهِجْرَة وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِه أَتَانَا رَسُولُ اللَّه (ﷺ) بِالْهَاجِرَة فِي سَاعَة كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا، قَالَتْ فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) فِي هَذِه السَّاعَةَ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ! قَالَتْ فَلَمَّا دَخَلَ تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِه، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) وَلَيْسَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) أَحَدٌ إِلَّا أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ): (أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ «قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وَمَا ذَاكَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قَالَ:» إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَة «قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ:» الصُّحْبَةَ " قَالَتْ فَوَ اللَّه مَا شَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يومئذ يَبْكِي. ثُمَّ قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتين كُنْتُ أَعْدَدْتُهُمَا لِهَذَا، فَاسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللَّه بْنَ أُرَقِطَ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ عَبْدُ اللَّه بن أريقط. رجلاً من بني الدئل بْنِ بَكْرٍ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مِنْ بَنِي سَهْمِ بْنِ

عَمْرو، وَكَانَ مُشْرِكًا يَدُلُّهُمَا عَلَى الطَّرِيق وَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، فَكَانَتَا عِنْدَهُ يَرْعَاهُمَا لِمِيعَادِهِمَا [١٧].

كانت ناقةُ رسول الله (ﷺ) تسمى (القصواء)، وهي الناقة الأشهر عنده، حيث كانت حاضرة في أهم الأحداث في حياته، فعلى ظهرها خرج من مكة مهاجرًا، وعلى ظهرها أيضًا عاد إلى مكة مرةً أخرى فاتحًا، وهي الناقة التي بركت في المدينة المنورة، وبُني المسجد النبوي في مكانها، وهذه الناقة اشتراها الرسول -(ﷺ)- من أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، حيث كان أبو بكر -رضي الله عنه- قد اشتراها مع ناقة أخرى بثمانمئة درهم أثناء التجهيز لرحلة الهجرة، ثم باعها لرسول الله -(ﷺ)-، ومعنى القصواء أي: التي قُطع القليل من طرف أذنها، إلا أنها لم تكن كذلك[١٨].

ففي صحيح البخاري [١٩] من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي (ﷺ) اشترى راحلة الهجرة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وهما راحلتان اشتراهما أبو بكر، فجاء بإحداهما إلى رسول الله صلى الله عليه سلم وقال له: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله (ﷺ): " بالثمن " قالت عائشة فجهزناهما أحث الجهاز. يقول أنس: فشهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه، ومشى موكب النبي (ﷺ) في طرقات المدينة، وتطلع زعماء الأنصار إلى استضافة الرسول (ﷺ)، فكلما مر بأحدهم دعوه للنزول عندهم، فكان يقول لهم: ((دعوا الناقة فإنها مأمورة))، فبركت على باب أبي أيوب' وكانت داره طابقين، يقول أبو أيوب: لما نزل علي رسول الله (ﷺ) في بيتي نزل في السفل [٢٠].

وأورد ابن حجر قائلاً: وَأَفَادَ الْوَاقِدِيُّ أَنَّ الثَّمَنَ ثَمَانمائَة وَأَنَّ الَّتِي أَخَذَهَا رَسُول اللَّه (ﷺ) منَ أَبِي بَكْر هِيَ الْقَصْوَاءُ وَأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ نَعَم بَنِي قُشَيْر وَأَنَّهَا عَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) قَلِيلاً وَمَاتَتْ فِي خِلَافَة أَبِي بَكْر وَكَانَتْ مُرْسَلَةً تَرْعَى بِالْبَقِيع [٢١]. ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاس حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِد رَسُول اللَّه (ﷺ) بِالْمَدِينَة، وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يومئذ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْر لِسُهَيْل وَسَهْل غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حِجْر أَسْعَدَ بْن زُرَارَةَ. فقال رَسُولُ اللَّه (ﷺ) حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ الله المنزل»، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَد لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَا بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّه، فَأَبَى رَسُولُ اللَّه (ﷺ) أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا[٢٢].

ويعلق الزرقاني في شرح المواهب [٢٣]: «فيقول:» لكل منهم: «خلو سبيلها»، يعني ناقته «القصواء أو الجدعاء، وفي إنهما ثنتان أو واحدة لها لقبان خلاف، وفي الألفية: عضباء جدعاء هما القصواء، لكن روى البزار عن أنس: خطبنا النبي (ﷺ) على العضباء وليست الجدعاء. قال السهيلي: فهذا من قول أنس أنها غير الجدعاء، وهو الصحيح،» فإنها مأمورة «قال ابن المنير: الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه لمن خصه الله بنزوله عند آية معجزة تطيب بها النفوس، وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئا.» وقد أرخى زمامها وما يحركها وهي تنظر يمينا وشمالا حتى إذا أتت دار ابن مالك بن النجار بركت «بفتح الراء» على باب المسجد «كذا عند ابن إسحاق، ولابن عائذ وسعيد بن منصور مرسلا: عند موضع المنبر من المسجد.

٧-القصواء في غزوة بدر

وقال الواقدي: قدم زيد بن حارثة رضى اللَّه عنه على ناقة النبي (ﷺ) القصواء، يبشر أهل المدينة فذكره. وأورد عن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنهما قال: لقي رسول اللَّه (ﷺ) أسامة بن زيد-يعنى مرجعه من بدر- ورسول اللَّه (ﷺ) على راحلته القصواء، فأجلسه رسول اللَّه (ﷺ) بين يديه وسهيل بن عمرو مجنوب ويداه إلى عنقه، فلما نظر أسامة إلى سهيل قال: يا رسول اللَّه! أبو يزيد؟ قال: نعم، هذا الّذي كان يطعم بمكة الخبز.[٢٤]

٨-حادثة شكوى جمل

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ (ﷺ) ، ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا وَكَانَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ قَدْ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - قَالَ بَهْزٌ، وَعَفَّانُ: فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ (ﷺ) حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - فَمَسَحَ رَسُولُ الله (ﷺ) سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: «مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟» فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا

رَسُولَ الله، فَقَالَ: «أَمَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِه الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللهُ، إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[٢٥]

٩-سجود الجمل

عَنْ حَفْص، عَنْ عَمِّهِ أَنَس بْن مَالك قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْت مِنَ الْأَنْصَار لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْه، وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ، فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَإِنَّ الْأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُول الله (ﷺ) فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنَى عَلَيْه، وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطِشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ، فَقَالَ رَسُولُ الله (ﷺ) لأَصْحَابه: «قُومُوا» فَقَامُوا، فَدَخَلَ الْحَائطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحيَته، فَمَشَى النَّبِيُّ (ﷺ) نَحْوَهُ، فَقَالَت الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْب الْكَلِب، وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ، فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ». فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُول الله (ﷺ) أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْه، فَأَخَذَ رَسُولُ الله (ﷺ) بِنَاصِيَته أَذَلَّ مَا كَانَتْ قَطُّ، حَتَّى أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ[٢٦].

١٠-القصواء في غزوة بدر الكبرى

تعاقب الرسول (ﷺ) على بعير هو وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومرثد الغنوي، ولما جاءت نوبة النبي ﷺ في المشي قالا له: يا رسول الله نحن نمشي عنك، فقال:" ما أنتما بأقوى مني ولا أنا أغنى عن الأجر منكما"، وكانت إبل أصحاب رسول الله (ﷺ) يومئذ سبعين بعيراً، فاعتقبوها، فكان رسول الله (ﷺ) وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، يعتقبون بعيرًا، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله (ﷺ) يعتقبون بعيرًا، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرًا[٢٧].

وروى الإمام أحمد في مسنده عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، قَالَ: كُنَّا فِي غَزْوَة بَدْر، كُلُّ ثَلَاثَة مِنَّا عَلَى بَعِير، كَانَ عَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ زَمِيلَيْ رَسُول الله (ﷺ)، فَإِذَا كَانَ عُقْبَةُ النَّبِيِّ (ﷺ)، قَالَا: ارْكَبْ يَا رَسُولَ الله، حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ، فَيَقُولُ: «مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا»[٢٨].

١١-ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ في الحديبية

وفي صلح الحديبية كان لناقة النبي (ﷺ) موقفًا، أشبه بموقف فيل أبرهة الحبشي الذي غزا مكة، مريدا هدم الكعبة الشريفة، ((.. وسَارَ النَّبِيُّ (ﷺ) حتَّى إذَا كانَ بالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عليهم منها بَرَكَتْ به رَاحِلَتُهُ، فَقالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ، فَقالوا: خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، فَقالَ النَّبِيُّ (ﷺ): ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ..))[٢٩].

وجاء من العام القابل في السنة السابعة لعمرة القضاء، وأحرم (ﷺ) ولبى، ولم يزل إلى أن قدم مكة. فخرجت قريش إلى رؤوس الجبال، وقدم (ﷺ) الهدي أمامه حتى وصل بئر ذي طوى، (فحبس الهدي هنالك)، ودخل مكة على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحون السيوف محدقون به، يلبون. فدخل من الثنية التي تطلعه على الحجون، وابن رواحة آخذ بزمام راحلته، ولم يزل رسول الله (ﷺ) يلبي حتى تسلم الحجر بمحجنه، مضطبعًا بثوبه، وطاف على راحلته والمسلمون يطوفون معه. ثم طاف بين الصفا والمروة على راحلته[٣٠].

١٢-فتح مكة وطاف بالبيت على ناقته

وعند دخول النبي المصطفى (ﷺ) إلى مكة فاتحًا جاءه أنس بن زنيم[٣١]، معتذرا يرجو عفوه وقال له:

أأَنت الذي تُهدَى مَعَدٌّ بأمرِه
بَل اللهُ يهديهم وقال لَكَ اشْهَدِ
فما حَمَلَتْ من ناقة فوق رحْلها
أَبَرّ وَأَوْفَى ذِمّةً من محمدِ

وفي بيت أنس:

فما حَمَلَتْ من ناقة فوق رحْلها
أَبَرّ وَأَوْفَى ذِمّةً من محمدِ[٣٢]

أورد ابن حجر: قول دعبل بن علي في طبقات الشعراء: هذا أصدق بيت قالته العرب[٣٣].

تعظيمًا لحرمة مكة، اتصف رسول الله (ﷺ) عند دخول مكة فاتحًا منصورا بالتواضع والخضوع لله الذي منحه النصر؛ فوقف على راحلته وهو معتجر بشقة برد حبرة أحمر، وقد وضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن أسفل لحيته لتمس واسطة الرحل[٣٤]؛ ((وعن معاوية بن قُرَّة قال: سمعت عبد الله بن مُغَفَّل يقول: رأيت رسول الله (ﷺ) يوم فتح

مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرجِّع، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجع))[٣٥].

وضربت له (ﷺ) قبة بالأبطح، ودخل (ﷺ) على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير رضي الله عنهما، ومعه المهاجرون ﷺوالأنصار رضي الله عنهم لا يرى منهم إلا الحدق لما عليهم من الحديد[٣٦].

١٣-خبر ناقة رسول اللّه (ﷺ) التي فقدت، ومقالة المنافق في غزوة تبوك السنة التاسعة من شهر رجب

ارْتَحَلَ رَسُولُ الله (ﷺ) مُوَجّهًا إلَى تَبُوكَ، فَأَصْبَحَ فِي مَنْزِلٍ، فَضَلّتْ نَاقَةُ النّبِيّ (ﷺ) الْقَصْوَاءُ، فَخَرَجَ أَصْحَابُهُ فِي طَلَبِهَا. وَعِنْدَ رَسُولِ الله (ﷺ) عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ-عَقَبِيّ بَدْرِيّ قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ شَهِيدًا-وَكَانَ فِي رَحْلِه زَيْدُ بْنُ اللّصيت أحد بنى قينقاع كَانَ يَهُودِيّا فَأَسْلَمَ فَنَافَقَ، وَكَانَ فيه خُبْثُ الْيَهُودِ وَغِشّهُمْ، وَكَانَ مُظَاهِرًا لِأَهْلِ النّفَاقِ، فَقَالَ زَيْدٌ وَهُوَ فِي رَحْلِ عُمَارَةَ، وَعُمَارَةُ عِنْدَ النّبِيّ (ﷺ): أَلَيْس مُحَمّدٌ يَزْعُمُ أَنّهُ نَبِيّ وَيُخْبِرُكُمْ عَنْ خَبَرِ السّمَاءِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله (ﷺ): إنّ مُنَافِقًا يَقُولُ إنّ مُحَمّدًا يَزْعُمُ أَنّهُ نَبِيّ، وَأَنّهُ يُخْبِرُكُمْ بِأَمْرِ السّمَاءِ وَلَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ! وَإِنّي وَالله مَا أَعْلَمُ إلّا مَا عَلّمَنِي اللهُ، وَقَدْ دَلّنِي عَلَيْهَا، وَهِيَ فِي الْوَادِي فِي شِعْبِ كَذَا وَكَذَا-الشّعْبُ أَشَارَ لَهُمْ إلَيْهِ-حَبَسَتْهَا شَجَرَةٌ بِزِمَامِهَا، فَانْطَلِقُوا حَتّى تَأْتُوا بِهَا. فَذَهَبُوا فَجَاءُوا بِهَا، فَرَجَعَ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ إلَى رَحْلِه فَقَالَ: الْعَجَبُ مِنْ شَيْءٍ حَدّثَنَاهُ رَسُولُ الله (ﷺ)! إنّهَا عَنْ مَقَالَةِ قَائِلٍ أَخْبَرَهُ اللهُ عَنْهُ! قَالَ كَذَا وَكَذَا-الّذِي قَالَ زَيْدٌ. قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِمّنْ كَانَ فِي رَحْلِ عُمَارَةَ، وَلَمْ يَحْضُرْ رَسُولَ الله (ﷺ): زَيْدٌ وَالله قَائِلُ هَذِه الْمَقَالَةِ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ عَلَيْنَا! قَالَ: فَأَقْبَلَ عُمَارَةُ عَلَى زيد ابن اللّصَيْت يَجَأُهُ فِي عُنُقِه وَيَقُولُ: وَالله، إنّ فِي رَحْلِي لَدَاهِيَةٌ وَمَا أَدْرِي! أُخْرُجْ يَا عدوّ الله من رحلي! وكان الذي أخبره عُمَارَةَ بِمَقَالَةِ زَيْد أَخُوهُ عَمْرُو بْنُ حَزْمٍ، وَكَانَ فِي الرّحْلِ مَعَ رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِه. وَالّذِي ذَهَبَ فَجَاءَ بِالنّاقَةِ مِنْ الشّعْبِ الْحَارِثُ بْنُ خَزَمَةَ الْأَشْهَلِيّ، وَجَدَهَا وَزِمَامُهَا قَدْ تَعَلّقَ فى شجرة، فقال زيد بن اللّصيت: لكأنى لَمْ أُسْلِمْ إلّا الْيَوْمَ! قَدْ كُنْت شَاكّا فِي مُحَمّد، وَقَدْ أَصْبَحْت وَأَنَا فِيهِ ذُو بصيرة، وأشهد أَنّهُ رَسُولُ الله! فَزَعَمَ النّاسُ أَنّهُ تَابَ، وَكَانَ خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ يُنْكِرُ تَوْبَتَهُ وَيَقُولُ: لَمْ يَزَلْ فَسْلاً حَتّى مَاتَ[٣٧].

وحين رجع رسول الله (ﷺ) قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله (ﷺ) ناسٌ من المنافقين فتأمَّرُوا أن يطرحوه من عقبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلما غشيهم رسولُ الله (ﷺ) أُخبِر خبرَهم فقال: «من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادي فإنه أوسع لكم»، وأخذ رسول الله (ﷺ) العقبة وأخذ الناس ببطن الوادي، إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله (ﷺ) لمّا سمعوا بذلك استعدُّوا وتلثَّمُوا وقد هموا بأمر عظيم، وأمر رسول الله (ﷺ) حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه، وأمر عمارًا أن يأخذ بزِمام الناقة وأمر حذيفة بسَوقها، فبينا هم يسيرون إذ سمعوا وَكزة القَوم مِن ورائهم قد غشوه، فغضب رسول الله (ﷺ) وأمر حذيفة أن يردَّهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله (ﷺ) فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربًا بالمحجن، وأبصر القومَ وهم مُتلثِّمون ولا يشعر إلا أن ذلك فعلُ المسافر، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفةَ وظنُّوا أن مكرهم قد ظهر عليه فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله (ﷺ) ، فلما أدركه قال: «اضرب الراحلة يا حذيفة، وامشِ أنت يا عمار»، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي (ﷺ) لحذيفة: «هل عرفت من هؤلاء الرهط ـ أو: الركب ـ أحدًا؟» قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمةُ الليل وغشيتُهم وهم متلثمون، فقال (ﷺ): «هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟» قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: «فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمْتُ في العقبة طرحوني منها»، قالوا: أَوَلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناسُ فتُضرَب أعناقُهم؟ قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولون: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه»، فسمّاهم لهما وقال: «اكتماهم»[٣٨].

١٤-على القصواء حج حجة الوداع (خذوا عني مناسككم)

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) مكث تسع سنين لم يحج، ثم آذن في الناس في العاشرة أن رسول الله حاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله (ﷺ) ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فصلى رسول الله في المسجد، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله (ﷺ) بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به، فأهل بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك". (٣٩)

وفي رواية أخرى لجابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول: رَأَيْتُ النبيَّ (ﷺ) يَرْمِي علَى رَاحِلَتِه يَومَ النَّحْرِ، ويقولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فإنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذِه. (٤٠). وفي رواية لأم الحصين: حجَجْتُ مع النَّبيِّ (ﷺ) حجَّةَ الوداعِ فرأَيْتُ أسامةَ وبلالاً أحدُهما آخذٌ بخطامِ ناقة النَّبيِّ (ﷺ) والآخَرُ ﷺرافعٌ رضي الله عنه ثوبَه يستُرُه من الحرِّ حتَّى رمى جمرةَ العَقبة(٤١)

١٥-ناقة النبي (ﷺ) بعد وفاته

كانت وفاة النبي المصطفى (ﷺ) حين اشتد الضحى من يوم الإثنين (١٢) ربيع الأول سنة (١١) هـ. وقد تم له (ﷺ) ثلاث وستون (٤٢). ومما سبق ذكره أن الْوَاقِديُّ أفاد عن القصواء أَنَّهَا عَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) قَلِيلاً وَمَاتَتْ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَكَانَتْ مُرْسَلَةً تَرْعَى بِالبَقِيعِ؛ إلا أن ابن سعد: أورد: (كانت القصواء من نعم بني الحريس ابتاعها أبو بكر وأخرى معها بثمانمائة درهم، فأخذها رسول الله،(ﷺ)، منه بأربعمائة درهم، فكانت عنده حتى نفقت)(٤٣)، أي أن القصواء ماتت في حياة رسول الله(ﷺ)، وكذلك مما ينفي خبر الواقدي الحديثين التاليين: عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ خَتَنِ رَسُولِ الله (ﷺ) أَخِي جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ قَالَ: «مَا تَرَكَ رَسُولُ الله (ﷺ) عِنْدَ مَوْتِه دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً.» (٤٤). وورد عَنْ أم المؤمنين السيدة عَائِشَةَ. قَالَتْ: "مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، وَلَا أَوْصَى بِشَيْءٍ" (٤٥).

خَاتمَةٌ

الغاية من دراسة السيرة النبوية، التطبيق العملي الأمثل لنصوص الوحي وتنزيل أحكام الشريعة في كافة مناحي الحياة الإنسانية، ومن ذلك التطبيق، الاهتمام بالإبل التي رافقت الإنسان العربي في حياته وترحاله منذ مئات السنين، فالإبل من مخلوقات الله العظيمة التي تتجلى فيها قدرته سبحانه وتعالى، وحينما خلقها جعلها آية للبشر للتأمل في عظمة خلقه.

فالإبل؛ إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحرت أشبعت، وإنّ مظاهر الرفق والإحسان بالإبل كانت واضحة في مواقف النبي (ﷺ)؛ فقد نهى عن الإساءة لهذا الحيوان بالضرب أو التجويع أو زيادة الحمل عليه.

ومن خلال مباحث الدراسة الخمسة عشر، اتضح لنا تفاعل الجمل مع النبي (ﷺ) فداءً وهجرةً وجهاداً وشكوى في مجمل أحداث السيرة النبوية. فقد كانت الإبل في الماضي هي عصب المواصلات والتنقل وهي الراحلة الرئيسية للقوافل البرية، فعليها يرتحل المسافر في الصحاري القاحلة لملاءمتها لتلك الظروف البيئية القاسية، كما كانت تستخدم لنقل الأحمال والأمتعة الثقال ومن فوائدها أنها كانت تدفع مهرًا للزواج وتساق دية في حوادث القتل، كما تم بيانه في الدراسة.

الإحالات المرجعية:

(١) **سورة الغاشية**، آية رقم (١٧).

(٢) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ، **تفسير القرآن العظيم**، المحقق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، (٨/٣٨٦-٣٨٧).

(٣) أخرجه: ابن ماجه (٢٣٠٥) واللفظ له، الألباني: صحيح ابن ماجه، ١٨٨٠، (صحيح). انظر: **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية -فيصل عيسى البابي الحلبي، (٢/٧٧٣)؛ ابن أبي عُلفة: رائد بن صبري: الكتب الستة: (صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داوُد، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجة)، مكتبة الرشد-الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

(٤) **سورة المؤمنون**، آية رقم (٢٢).

(٥) الأبشيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت ٨٥٢هـ): **المستطرف في كل فن مستطرف**، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ، ص٣٤٧؛ الدميري: محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (ت ٨٠٨هـ) ، **حياة الحيوان الكبرى**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ، (١/٢٦).

(٦) هارون: عبدالسلام محمد: **قطوف أدبية**، دراسات نقدية في التراث العربي، مكتبة السنة، الدار السلفية، ص١١٣.

(٧) ابن قدامة: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (٥٤١ - ٦٢٠ ه: المغني، على مختصر: أبي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي (المتوفى٣٣٤ه)، تحقيق: طه الزيني - ومحمود عبد الوهاب فايد - وعبد القادر عطا [ت ١٤٠٣ هـ]- ومحمود غانم غيث، مكتبة القاهرة، الطبعة: الأولى، (١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م) - (١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م)، (٨/٣٦٧).

(٨) ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ٢١٣ هـ): **السيرة النبوية**، المحقق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل- بيروت، ١٩٧٥، (١/١٤٠-١٤٣)؛ السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت ٥٨١هـ)، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م،(٢/٨٤-٨٧)؛ ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، **البداية والنهاية**، حققه: مأمون محمد سعيد الصاغرجي، ومحمود عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، (٣/١١-١٣).

(٩) ابن كثير: **البداية والنهاية**، (٣/٣٥).

(١٠) ابن كثير: **البداية والنهاية**، (٣/٤٤) ؛ إلا أن الألباني: محمد ناصر الدين (ت ١٤٢٠ هـ) ، في كتابه (صحيح **السيرة النبوية**) [من "**البداية والنهاية**" لابن كثير] ، المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ، ذكر ارتجاس الإيوان وسقوط الشرفات، وخمود النيران ورؤيا الموبذان، وغير ذلك من الدلالات، (ليس فيه شيء) (١٤) ، أي أنه لم يرد فيه شيء صحيح.

(١١) الشارف: الناقة المسنة.

(١٢) حافل: أي الممتلئة لبناً.

(١٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، (١/١٥١) ؛ السهيلي: **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، (٢/١٠٣) ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٥٥).

(١٤) ابن هشام: **السيرة النبوية**، (١/١٧٣) ؛ السهيلي: **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، (٢/١٥٢) ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (٣/٨٦).

(١٥) ابن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ): **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المحقق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ح (٢٩٢٦) ، (٣/٢٨٨).

(١٦) ابن كثير: **البداية والنهاية**، (٣/٣٧٨) ؛ وورد الحديث بنص "خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإبِلَ صالِحُ نِساءِ قُرَيْشٍ، أحْناهُ علَى ولَدٍ في صِغَرِهِ، وأَرْعاهُ علَى زَوْجٍ في ذاتِ يَدِهِ"، في صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح وأي النساء خير؟ برقم (٥٠٨٢).

(١٧) ابن كثير: **البداية والنهاية**، (٣/٤٤٠).

(١٨) ابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٥٩ - ٧٥١)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، تحقيق (محمد أجمل الإصلاحي)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م، (١/١٢٩).

(١٩) **صحيح البخاري**: **كتاب مناقب الأنصار**، باب: هجرة النبي (ﷺ)، رقم (٣٩٠٥)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٤٣.

(٢٠) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج٢، ص٩٨-١٠٤؛ الطبري: **تاريخ الأمم والملوك**، ج١، ص٥٧١- ٥٧٤؛ وج٢، ص٧، ابن عبد البر: الدرر، ص٩٤.

(٢١) **صحيح البخاري**: كتاب **مناقب الأنصار**، باب: هجرة النبي (ﷺ)، رقم (٣٩٠٥)، ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٤٣. [انظر حول خبر الواقدي، المبحث الأخير].

(٢٢) ابن كثير: **البداية والنهاية**، (٣/٤٥٢).

(٢٣) الزرقاني: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (ت ١١٢٢هـ) ، **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م (٢/١٦٠).

(٢٤) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، **المغازي**، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٩/١٩٨٩، (١/١١٥-١١٨) ؛ وانظر: ابن كثير: **البداية والنهاية**، (٤/١٠٦).

(٢٥) ابن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ): **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ح (١٧٤٥)، إسناده صحيح على شرط مسلم، (٣/٢٧٣).

(٢٦) ابن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ): **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ح (١٢٦١٤)، صحيح لغيره، (٢٠/٦٣).

(٢٧) ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ٢١٣ هـ)، **السيرة النبوية** لابن هشام ، المحقق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل- بيروت، ١٩٧٥م ، (٢/١٨٦).

(٢٨) مسند أحمد، **مسند المكثرين من الصحابة**، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، (حديث رقم: ٤٠٠٩)، المحقق: شعيب

الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، (١١٢/٧).

(٢٩) **صحيح البخاري**، كتاب: **الشروط**، باب: الشروط في الجهاد، حديث رقم (٢٧٣١) ، (٢٧٣٢).

(٣٠) ابن هشام: **السيرة النبوية**، (٣/٤-٥)؛ ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، حققه: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، (١٢٠/٢).

(٣١) أنس بن زنيم الكناني، **أسلم يوم الفتح**، وأتى رسول الله (ﷺ)، يعتذر إليه مما بلغه، قال رسول الله (ﷺ): "قد عفوتُ عنه". ابن سعد: الطبقات الكبير، (٦/ ١٥١)؛ انظر: الشريف: التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين، (ص١٧٣).

(٣٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، (٤٥/٤-٥٢)؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، (٥٦٥/٤-٥٦٨).

(٣٣) **الإصابة في تمييز الصحابة**، (١٢٣/١)؛ انظر: الشريف: **التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين**، (ص١٧٣).

(٣٤) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٢، ص١٦٧؛ انظر: الشريف: **التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين**، (١١٢).

(٣٥) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، حديث رقم (٤٢٨١)، ابن حجر: **فتح الباري**، ج٧، ص٧٨٣، ويبين ابن حجر: قوله: (يرجع) بتشديد الجيم، والترجيع ترديد القارئ الحرف في الحلق؛ انظر: الشريف: **التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين**، (١١٣)

(٣٦) ابن هشام: **السيرة النبوية**، ج٤، ص٣٠؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٢، ص ١٦٣؛ ابن القيم: زاد المعاد، ص٤٦٩؛ ابن حجر: **فتح الباري**: ج٧، ص٧٧٧، في شرحه لحديث البخاري رقم (٤٢٨٠)؛ السنجاري: علي تاج الدين بن تقي الدين: **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**، جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، (٤٨٤/١).

(٣٧) الواقدي: المغازي، (١٠١/٣)؛ المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ)، **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، المحقق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩ م، (٢١١/١).

(٣٨) ابن القيم: **زاد المعاد**، (٦٨٦/٣-٦٨٧).

(٣٩) **صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب حجة النبي (ﷺ)، حديث رقم (١٢١٨)، النووي: المنهاج، ج٨، ص١٤٩؛ انظر: الشريف: التحولات التاريخية للمدينتين المقدستين، (ص٨٦).

(٤٠) **صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة يوم النحر، حديث رقم (١٢٩٧).

(٤١) صحيح ابن حبان، حديث رقم (٣٩٤٩)، التخريج: أخرجه مسلم (١٢٩٨) باختلاف يسير.

(٤٢) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته. من حديث رقم (٤١٦٥) – (٤١٧٤)؛ انظر: المباكفوري: صفي الرحمن (ت ١٤٢٧هـ)، الرحيق المختوم، دار الهلال – بيروت، الطبعة الأولى، (ص٤٢٩-٤٣٢).

(٤٣) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، قدّم لها: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، (٤٩٢/١).

(٤٤) **صحيح البخاري**، كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي (ﷺ): وصية الرجل مكتوبة عنده، رقم: (٢٧٣٩).

(٤٥) **صحيح مسلم**: كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، حديث رقم (١٦٣٥).

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

صالح بن يوسف قبل اليوسفيّة (١٩٤٥-١٩٥٥)
بيوغرافيا استعاديّة



د. فوزي السباعي
أستاذ التاريخ المعاصر
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة صفاقس – الجمهوريّة التونسيّة

مُلَخّص

اغتيل صالح بن يوسف سنة ١٩٦١ بعد صراع مرير مع رفيقه وخصمه الحبيب بورقيبة. وتشكّلت منذ ظهور الحركة اليوسفية حول شخصه سنة ١٩٥٥، وخصوصًا بعد وفاته، صورًا وتمثّلات مستمدّة من نهايته التراجيدية، ولكنّها غير متطابقة بالضرورة مع مساره السياسي الطويل بما فيه من ثوابت ومتغيّرات. نحاول في هذه الدراسة المراوحة بين تكثيف الزمن البيوغرافي واعتماد الومضة الورائية، للوصول إلى فهم أعمق لشخصيّة بن يوسف، وتفسير التحوّلات الطارئة عليها والتمثّلات شبه المنقبيّة المرتبطة بها. ونعود إلى الماضي للبحث عن الأصل، ونقوم بالتّالي بالتأكيد أو التفنيد وذلك عبر مقارنة الماضي السياسي بالصورة النمطيّة. وآثرنا قصر هذا التقصّي على العشريّة الممتدّة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٥، نظرًا لأهميّتها في فهم هذه الشخصيّة بما فيها من ثوابت متأصّلة، وتحوّلات طارئة بفعل التجربة الذاتيّة والظروف الخارجيّة. وتبدأ هذه الفترة من أواسط الأربعينيات، لأنّها تمثّل مرحلة النضج السّياسي بالنسبة لصالح بن يوسف بعد اندفاع الشباب، وتنتهي بسنة ١٩٥٥ التي تمثّل القطيعة الأبرز في مساره عندما أصبح القائد الفعلي والرمزي للحركة اليوسفيّة التي تشكّلت حول شخصه.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ أغسطس ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ سبتمبر ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

صالح بن يوسف؛ الحبيب بورقيبة؛ الحزب الدستوري؛ تاريخ تونس الحديث؛ الحركة اليوسفية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.415051 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فوزي السباعي، "صالح بن يوسف قبل اليوسفية (١٩٤٥-١٩٥٥): بيوغرافيا استعاديّة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ٩٩ – ١٢٧.

Corresponding author: faouzisbai@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

"إنّهم يختلقون شخصيّتي ليجعلوا منها العدوّ الأوّل لفرنسا، للعالم الغربي وللحضارة، في حين أنّني رجل مطارد". هكذا كان ردّ صالح بن يوسف على شارل سوماني بتاريخ ٢٣ جانفي ١٩٥٦ حين واجهه بجملة التّهم المروّجة ضدّه آنذاك، والتي تجعل منه عونا للقوى المحافظة بالشرق وللكتل الإقليميّة والدوليّة، وممثّلا للنزعة العروبيّة والإسلاميّة مهمّته خدمة أجندات صديقه جمال عبد الناصر.[١]

تنضاف إلى هذه الصّور صور أخرى تشكّلت بعد اغتيال صالح بن يوسف سنة ١٩٦١، منها صور الشهيد والقدّيس المغدور، والمحافظ المتزمّت، والرمز القومي الذي دافع عن هويّة تونس العربيّة والإسلاميّة وتصدّى للنزعة البورقيبيّة التغريبيّة، وصانع الاستقلال الفعلي الذي دافع إلى النهاية عن استقلال تونس والمغرب العربي.[٢] وقد استبطن الوعي الجماعي هذه الصّور، وأصبح البعض يوظّفها حسب أهوائه الايديولوجيّة ومصالحه السياسيّة، ممّا ساهم في تشكيل شخصيّة "ميتا تاريخيّة" مفارقة للواقع وللتاريخ، تقدّم عادة على كونها الشخصيّة النقيض لشخصيّة الحبيب بورقيبة.

نحاول في هذه الدراسة البحث في شخصيّة صالح بن يوسف "الحقيقي" من خلال قراءة تاريخيّة تخيّرنا أن تتّخذ شكل بيوغرافيا استعاديّة Biographie rétrospective ننطلق فيها من المعطى الراهن أو الصورة النمطيّة السّائدة، ونعود إلى الماضي للبحث عن الأصل، ونقوم بالتّالي بالتأكيد أو التفنيد وذلك عبر مقارنة الماضي السياسي بالصورة النمطيّة. وآثرنا قصر هذا التقصّي على العشريّة الممتدّة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٥، نظرا لأهميّتها في فهم هذه الشخصيّة بما فيها من ثوابت متأصّلة، وتحوّلات طارئة بفعل التجربة الذاتيّة والظروف الخارجيّة. وتبدأ هذه الفترة من أواسط الأربعينات، لأنّها تمثّل مرحلة النضج السّياسي بالنسبة لصالح بن يوسف بعد اندفاع الشباب، وتنتهي بسنة ١٩٥٥ التي تمثّل القطيعة الأبرز في مساره عندما أصبح القائد الفعلي والرمزي للحركة اليوسفيّة التي تشكّلت حول شخصه.

فمَنْ هو صالح بن يوسف؟ وكيف كانت علاقته بالحبيب بورقيبة الذي يشترك معه في نوعيّة التكوين والتجربة السياسيّة والمكانة الحزبيّة؟ وهل كان صالح بن يوسف يمثّل حقّا النزعة القوميّة والدينيّة، والخطّ الراديكالي المتشدّد داخل الحزب الدستوري الجديد؟ وجمّاع القول: إلى أيّ مدى كان صالح بن يوسف يوسفيّا قبل تبلور الحركة اليوسفيّة؟

أوّلاً: "بورتريه" صالح بن يوسف

١/١-الزعيم الكبير وعقدة الرجل الثاني

يرى الاشتراكي اليهودي التونسي إيلي كوهين حضرية أنّ صالح بن يوسف كان ذكيّا وطموحا، وأكثر ما يؤرقه ويرهقه هو أن يظلّ دوما الرجل الثاني في الحزب لأنّ حظّه السيّئ جعله أصغر من بورقيبة ببضعة سنوات. كان بن يوسف يمسك بالجهاز الحزبي، لكنّ بورقيبة يفوقه شعبيّة. وكان يمنّي النفس بأن يكرّر معه المناورة التي نجحت سنة ١٩٣٨ مع عبد العزيز الثعالبي: إزاحته بهدوء بعد تكريمه، ويعمل دوما على إبعاده من الساحة باسم الدفاع عن القضيّة التونسيّة بالخارج. ويضيف حضريّة بأنّ بن يوسف كان محبّا للسلطة من أجل السلطة ومن أجل ما توفّره من امتيازات مادية.[٣]

كانت عقدة "الرجل الثاني" تقلق بالفعل صالح بن يوسف الواثق من إمكاناته ومن قدراته كزعيم له رؤية استراتيجيّة للتحرّر الوطني، وخصوصا من أحقيّته في قيادة الحزب الذي شرع منذ سنة ١٩٤٥ في إعادة تنظيمه وهيكلته على أسس جديدة صحبة المنجي سليم. وقد عبّر عن ذلك بنفسه حين قال للصحفي جان روس Jean Rous إثر مؤتمر باندونغ: "لقد انتهى الأمر. لم أعد أرغب في أن أكون الرجل الثاني وراء بورقيبة"،[٤] أو كذلك عندما قال للطالب الصادق بن جمعة: "إنّ تونس بلد صغير ولا يمكن أن يحكمه في نفس الوقت شخصان من وزن بورقيبة وصالح بن يوسف".[٥]

وتتّفق هذه الشهادة إجمالاً مع شهادة شارل أندريه جوليان، الذي صوّر بن يوسف بكونه كثير الكلام، شديد الحماس والانفعال، محبّا للمال والسلطة. وكأنّ صورة صالح بن يوسف لا تكتمل إلّا من خلال مقارنتها بصورة غريمه الأزلي، لذلك يضيف هذا المؤرّخ المقرّب جدّا من

بورقيبة بعض اللّمسات غير البريئة للإطار الذي رسمه، فيقرّ أنّ بن يوسف كان يتمتّع بنفس الحماس النضالي الذي يتحلّى به بورقيبة الأكبر منه بأربع سنوات، لكنّ تفانيه والتزامه الحصري في سبيل القضيّة أقلّ، وحماسته أكثر تشنّجا، ومسلكه أكثر فردانيّة. ويذهب إلى أنّه لم يكن، رغم فصاحته المعروفة، يسيطر دائما على أقواله، وأنّه كثيرا ما يضفي على المحادثات حماسة محمومة ما انفكّت حدّتها تثير المخاوف. ويعتبر أنّ تصلّبه العقائدي والتكتيكي، الذي يقابل المرونة البورقيبيّة، لم يمنعه من افتعال بعض الخصومات والعراقيل السريّة، وأنّ عدم رضوخه إلى لعب دور الرجل الثاني جعل طموحه الجارف يتحوّل تدريجيّا إلى نوع من الحقد والعداء الصريح.[٦] وربّما تنطبق هذه الصورة أكثر على صالح بن يوسف المعارض لاتّفاقيّات الحكم الذاتي، أمّا في الفترة التي تهمّنا فإنّه لم يكن أبدا بمثل هذا التصلّب والانغلاق. وحريّ بالإشارة إلى أنّ هذا المؤرّخ قد دأب على جعل بن يوسف الشخصيّة النقيض لبورقيبة، معتبرا أنّه ذو مزاج متشنّج وعاطفيّة مفرطة، في حين يبدو بورقيبة بمظهر الرصين والمتوازن الشخصيّة نتيجة طبعه القادر على المراوحة بين الجديّة والحذر،[٧] وسنرى أنّ هذه المقابلة المصطنعة لا تصمد كثيرا أمام الحقائق التاريخية.

٢/١-مناور ومجادل ذو شخصيّة عنيدة ومتشنجة

تأتي شهادة روجيه كازماجور أكثر اختزالاً وتركيزًا على الثوابت البارزة في شخصيّة بن يوسف، إذ يرى أنّه تولّى إدارة الحزب الدستوري الجديد بكلّ اعتدال، ولكن من دون إغفال مصالحه الشخصيّة، وهو ما جعله عرضة لانتقادات مصدرها رفاقه بالحزب وخصومه المنتمين إلى الحزب الدستوري القديم.[٨] ويضيف في تقرير يعود إلى ٥ جانفي ١٩٥٦ بأنّ صالح بن يوسف، الذي يتميّز بعناده وطبعه الحاد وبميله إلى المناورة وحبك الدسائس، لم يكن يتوانى عن استعمال كلّ الأسلحة المكنة للوصول إلى تحقيق غاياته.[٩] يأتينا التأكيد بخصوص هذه النقطة بالذات من صالح بن يوسف نفسه، فقد صرّح لسوماني في لقاء الأوراق المكشوفة سنة ١٩٥٦ قائلا: "يريدونني أن أتخلّى عبر تصريحات غير ناضجة عن حظوظي في ظلّ مفاوضات أصبحت بحكم الظروف الحالية أمرا محتوما، وأن أتخلّى عن أوراقي الرابحة التي حصلت عليها من المشرق؟ عليّ أن أحتفظ بها في إطار لعبتي الخاصّة، وسيأتي وقت أكون فيه غير محتاج إلى هذه الأوراق". وبيّن له أنّ وضعه كمعارض سياسي يسمح له بالاستفادة من كلّ العوامل المساعدة حتّى وإن كانت مخالفة لمواقفه وأفكاره الحقيقيّة.[١٠] ويوحي هذا الحوار أنّ بن يوسف لم يكن مغرقا في العاطفيّة والتشنّج، ولم يكن موغلا في التصلّب الفكري والتكتيكي، وإنّما كان سياسيّا محنّكا وبراغماتيّا يمتلك القدرة على ترتيب الأدوار وتعديل المواقف حسب الظروف وطبيعة المتلقّي.

تبدو اللّوحة التي رسمها المقيم العام الفرنسي لويس بيريّي لشخصيّة صالح بن يوسف أكثر اكتمالا بعد أن خبره جيّدًا أثناء جلسات التّفاوض سنتي ١٩٥٠ و١٩٥١. ويقول في شهادته: "كان صالح بن يوسف رجلا حازما، حادّ الذكاء، حاذقًا، بل داهية، يمتلك جدلا شديد التماسك ويستخدم اللغة الفرنسيّة بدقّة رجل القانون، ويعرف كلّ دقائق لغتنا وفويرقاتها، ويتمتّع ببديهة سريعة سهلة وفوريّة. لقد كان مفاوضا خطيرا، ورغم موقفه الوطني العنيد ومزاجه الحادّ، كان يعرف كيف يسيطر على نفسه ليقيم الدليل على دبلوماسيته واعتداله. ولكنّ طموحه كان كبيرا حتّى أنّني كنت كثيرا ما أشعر أنّه يعتبر الحبيب بورقيبة خصما أكثر ممّا يعتبره قائدا له". ويضيف بأنّ قوّة شخصيّته جلبت له عداوات كثيرة سواء في صفوف الفرنسيين أو التونسيين".[١١]

تتجلّى من خلال هذا العرض الدقيق صورة صالح بن يوسف المثقّف المتشبّع بأصول الثقافة الغربيّة بحكم تكوين علمي متين في المدرسة الصادقيّة بتونس ثمّ في كليّة الحقوق بباريس، وكذلك صورة السياسي المحترف الذي يجسّد أنموذجا مثالا للزعامات المتشنّجة في الحركة الوطنيّة التونسيّة، أمّا طبعه الحادّ وأسلوبه الصدامي فقد عرف به أكثر في بداياته السياسيّة، أي في منتصف الثلاثينات حتّى أنّ البعض كان يطلق عليه اسم "هتلر".[١٢]

ويقرّ بيريي في تقرير سرّي بتاريخ ٦ جانفي ١٩٦١، أنّ صالح بن يوسف المشاغب والمتحمّس لم يتخلص

خلال مشاركته في حكومة شنيق، ورغم كلّ الجهود المبذولة، من جبّة "المحرّض"، ولم يمتلك اعتدال رجل الدولة، لكنّه نجح في استغلال سلطته لتحقيق مكاسب مادية ومعنوية بشكل فاق كلّ توقّعاتي.[١٣]

٣/١-"الرجل ذو المروحة" المقبل على مباهج الحياة

"صاحب المروحة" «L'homme à l'éventail» هو اسم أطلقته جريدة "لابريس" الباريسية على صالح بن يوسف، وصوّرته على أنّه رجل شديد العناية بنفسه، ذو خطوات واثقة وصوت تسلّطي، يحمل دوما مروحة غالية الثمن، وكأنّه يستعيد صورة داي الجزائر ويوجّه رسالة استفزازية للفرنسيين. ورأت أنّه أشبه للقائد الأرستقراطي منه إلى الثوري البروليتاري.[١٤] وكان الصحفي جان عمروش قد أظهره بنفس الصورة تقريبا، إذ شدّد على جرأته وثقته التامة بنفسه، ولاحظ عند لقائه به أنّه لا يحمل أيّ مركّب نقص تجاه الفرنسيين الموجودين بالنزل، بل إنّه يسعى إلى استفزازهم بطريقة غير مباشرة.[١٥]

يتناول سليمان بن سليمان صورة بن يوسف من زاوية مماثلة مركّزا على سلوكه وعلاقاته، ليؤكّد أنّه كان قبل ارتقائه للوزارة سنة ١٩٥٠ مقبلا على متع الحياة ومتّهما بالمجون، مشيرا إلى علاقته بالرّاقصة اليهودية دنيازاد وسهراته في الملاهي الليلية مع المحامي عمار الدخلاوي الذي كان حسب رأيه مخبرا للبوليس الفرنسي، فضلا عن علاقاته المشبوهة مع المحامي والوزير مصطفى الكعاك ورجل الأعمال الحبيب شيخ روحه، وهما أيضا من أعوان فرنسا.[١٦] إلّا أنّه لم يشر إلى ما كان يروّج آنذاك حول مغامرات الحبيب بورقيبة في القاهرة والإسكندرية وخصوصا علاقته بالراقصة الإسكندرانية ميّا شطّا، وكذلك حول تجاوزاته الماليّة.[١٧] وكان بن يوسف حسب شهادة سليمان بن سليمان، وهو من أشدّ خصومه في الديوان السياسي، يميل إلى سياسة التهدئة والاعتدال مع سلطة الحماية، ويمتلك علاقات واسعة تمتد من القصر الملكي إلى السفارة الأمريكيّة مرورا بالبورجوازية المحليّة، واعتبر أنّه شخص مخاتل يتاجر بنفوذه السياسي.[١٨]

تؤكّد التقارير الفرنسيّة هذا الجانب الخفيّ في مسلكه، إذ بيّن تقرير أمني يعود إلى صائفة ١٩٤٨ التي قضّاها بن يوسف بباريس، أنّه كان ينفق أغلب أوقاته وأمواله في اللهو والخمر في الشانزيليزيه رغم أنّ إقامته هناك تزامنت مع شهر رمضان. ويذكر تقرير آخر أنّ بعض الأعيان اشتكوه إلى الباي سنة ١٩٥٠ لأنّه لم يكن مواظبا على القيام بواجباته الدينيّة.[١٩] ويفيد تقرير الملحق العسكري الفرنسي بتونس في ١٧ أكتوبر ١٩٥٩، أنّ بعض الفرنسيين كانوا يعتقدون أنّ صالح بن يوسف الذي شارك في حكومة شنيق كان "قابلا للترويض بسهولة لأنّه كان حسّاسا تجاه بعض الإغراءات".[٢٠] ونجد نفس الإشارة تقريبا في تقرير لويس بيريي المذكور أعلاه، حيث أشار إلى انّ بن يوسف كان "يتّهم أحيانًا بالجشع، بل وبالقابليّة للارتشاء".[٢١]

تبرز هنا صورة التاجر الجربي الذي ينتمي إلى عائلة باذخة الثراء، والذي يسعى بشتّى الطرق وراء تكديس الأموال وإبرام الصفقات رغم ممارسته لمهنة المحاماة وعدم تفرّغه التام للسياسة. وقد تعلّقت هذه التهم بصالح بن يوسف خصوصا عند ارتقائه لوزارة العدل في حكومة امحمد شنيق، وهو ما يجعلها أكثر خطورة لارتباطها بعامل استغلال النفوذ: ففي سنة ١٩٥١ تولّى بن يوسف نيابة وزير التجارة محمد الصالح مزالي أثناء غيابه، وسرعان ما تورّط في صفقة استيراد السكّر التي أثارت الكثير من اللغط والتعاليق.[٢٢] وتتمثّل هذه القضيّة حسب جريدة "الأسبوع" في أنّ بن يوسف حاول بالتنسيق مع الكاتب العام للحكومة إتمام إجراءات صفقة تجاريّة مشبوهة مع شركة إنكليزية لتوريد السكّر مقابل حصوله على "مكافأة بسيطة تقدّر بمائتين وأربعين مليون فرنك علاوة على اثنين في المائة من الأرباح"،[٢٣] ورغم تعطّل الصفقة نتيجة عدم موافقة المقيم العام وعودة وزير التجارة، فإنّه أصبح ينعت في هذه الجريدة المقرّبة آنذاك من الحزب الدستوري القديم والجبهة القوميّة باسم "وزير السكّر". ودافعت جريدة "الزهو" عن صالح بن يوسف معتبرة أنّ كلّ ما قام به هو عدم استشارة السلطة الفرنسيّة العليا قبل إبرام هذه الصفقة، وأنّه دافع عن موقفه بكلّ شجاعة مبيّنا أنّ كلفة الصفقة كانت بثمن مناسب.[٢٤]

تحدّثت جريدة "الأسبوع" عن صفقة أخرى أكثر خطورة نسبت إلى صالح بن يوسف الذي كان على علاقة باللوبي اليهودي الإعلامي (برانص وسماجة وزانا) المتحكّمين في جرائد "الصباح" و"لابريس" و"البتي ماتان" في تونس وصحيفة "كومبا" في فرنسا. وقد سعى هؤلاء إلى فتح فرع بنكي جديد بتونس تابع للشركة الفرنسية الأمريكية للبنك الكائنة بباريس يسمّى "الشركة الفرنسية التونسية للبنك والقرض"، والهدف من ذلك منح هذا البنك امتياز التعامل مع الحكومة التونسية عوضا عن "البنك التونسي"، مقابل تعيين شقيق صالح بن يوسف مندوبا لهذا البنك وضمان دعم البنك للحكومة التفاوضيّة وللحزب الجديد.[٢٥] وكان شقيق بن يوسف يدير سنة ١٩٥٦ بنكا أحدث في طرابلس بدعم مصري لتمويل حركات المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي في بلاد المغرب.[٢٦] وذكرت بعض التقارير الأمنية الفرنسية أنّ الشاذلي باي نجل محمد الأمين باي حقّق ثروة كبيرة في وقت قصير بفضل مشاركته لصالح بن يوسف في الأعمال والمشاريع.[٢٧]

تكتمل اللوحة أكثر حين نضيف إلى ما تقدّم ما ورد في أحد التقارير الأمنية الذي صوّر بن يوسف على أنّه: "خطيب وسياسي مفوّه ونشيط ومندفع، ولا يخلو مع ذلك من روح مرحة. وهو يميل إلى حياة الرفاه والمتع، ويطمح دوما إلى الريادة والقيادة. يتميّز بسرعة البديهة والجرأة والمكر، كما أنّه يحذق فنّ المناورة والهجوم. وهو، فوق ذلك، خطيب شعبي أكثر منه مجادل، إذ يمتلك موهبة التأثير في الجماهير".[٢٨] وقد ركّزت مجلة "أفريك أكسيون" على هذه النقطة الأخيرة، فكتبت عن بن يوسف بعد أيّام من اغتياله ما يلي: "مجادل خطير، ذكيّ يتّقد حماسة، وحيوان سياسي في المقام الأوّل. يميل غريزيّا إلى النقد الجارح والجدل السّاخن والحلول التوافقيّة. وهو متحدّث بارع ومسهب، يحسن الإغواء خلال المحادثة ويبحث عن الإقناع. وكان يمتلك، بفضل تبصّره وألاعيبه وحساباته وجرعاته الموزونة، فنّ إثارة الجماهير، ويحكم في ذلك استعمال مصادر الحجاج وترسانة الشعارات الحماسيّة".[٢٩]

نستدلّ من خلال هذه الشهادات، رغم طابعها التجزيئي والتبريري أحيانا، أنّ صالح بن يوسف كان ذكيّا إلى حدّ الدهاء، فصيحا إلى حدّ الدمغجة، مقداما إلى حدّ التهوّر، متحرّرا إلى حدّ المجون، واثق النّفس إلى حدّ التكبّر وطموحا إلى حدّ الجنوح إلى البراغماتية أحيانًا والمناورة أحيانًا أخرى. وكان بحكم أصوله الجربيّة، ومكانته الاجتماعيّة، وخصاله الشخصيّة، حسّاسا تجاه المال وشغوفًا بالسلطة والنفوذ ومحبّا لمباهج الحياة. وهي خصال قد تتعارض مع صورة القدّيس المتزمّت أو الرجعي المحافظ التي ألصقت به لاحقا، ولكنّها تفسّر إلى حدّ كبير سيرورة تشكّل الصورة التي رسخت في الأذهان، وهي صورة المعارض الصلب والسياسي المحنّك الذي يمتلك مواصفات "الزعيم الكبير"، الندّ لبورقيبة أو الذي يفوقه أحيانًا.

ثانيًا: في علاقة صالح بن يوسف بالحبيب بورقيبة

١/٢-تقاسم أدوار أم هدايا مسمومة؟

يرى بعض البورقيبيين، أسوة بمحمد الصيّاح، أنّ رحيل بورقيبة إلى القاهرة في أواخر شهر مارس ١٩٤٥ كان نتيجة مؤامرة خفيّة دبّرها صالح بن يوسف بهدف ابعاده عن طريقه تمهيدا لتحقيق سيطرته على الحزب. وتبدو هذه القراءة للوهلة الأولى مجرّد تأويل متأخّر اقتنع به بورقيبة نفسه سنة ١٩٤٩ حينما بلغه أنّ بعض الدستوريين أصبحوا يفكّرون في إزاحته بعد أن نجحوا في إضعاف مركزه، وتيقّن أنّ بن يوسف أصبح يهيمن على الجهاز الحزبي. ولا نعتقد أنّ بن يوسف بريء تمام البراءة من هذا الادّعاء، إذ لا نفهم كيف يتمّ إرسال قائد الحزب في رحلة مجهولة العواقب لا سيّما بعد خروج رئيسه الفعلي الحبيب ثامر مع الألمان؟ ولماذا تمّ اختيار علالة البلهوان لمهمّة تمثيل الحزب في مقرّ جامعة الدول العربية النّاشئة قبل تعويضه ببورقيبة من دون إعلام كلّ أعضاء الديوان السياسي؟[٣٠]

كان بورقيبة بعد "تحرير" البلاد التونسيّة من الاحتلال الألماني مع فكرة بقاء المناضلين في تونس حسب شهادة يوسف الرويسي، وذلك لتجنّب إفراغ الساحة في وقت تراجعت فيه مكانة الحزب الدستوري الجديد مقابل صعود قوى جديدة كالمنصفيين والشيوعيين.[٣١] واقتنع منذ أواخر سنة ١٩٤٤ بضرورة

الخروج من تونس للدفاع عن القضيّة التونسيّة انطلاقا من المشرق، وشرع في القيام بترتيبات خاصّة هدفها إيهام السلطة الفرنسيّة بابتعاده عن السياسة. وأعاد ربط قنوات الاتّصال مع صديقه القنصل الأمريكي هوكر دوليتل الذي انتقل من تونس إلى الإسكندرية، فساهم صحبة زوجته في تسهيل الرحلة إلى القاهرة بالتنسيق مع قيادة الحزب في تونس.(٣٢)

واقتنع بورقيبة بعد مدّة من بقائه في مصر أنّ إبعاده من تونس تمّ بتخطيط من بن يوسف، وصرّح بأنّ "الرحلة إلى المشرق كانت مؤامرة من أفظع المؤامرات التي دبّرت للإيقاع بي".(٣٣) وانتهى سليمان بن سليمان إلى نفس القناعة بعد أن استعاد شريط الأحداث التي وقعت بتونس في ظلّ غياب بورقيبة والتي تميّزت بانحراف الحزب عن توجّهاته السابقة القائمة على الاتصال المباشر بالجماهير الشعبيّة مخيّرا بقيادة بن يوسف المراهنة على التحالف مع الأوساط البرجوازية والقصر، واعتماد سياسة الاعتدال والتهدئة.(٣٤) ولم يستبعد المنصف الشابي المتعاطف مع صالح بن يوسف أن يكون هذا الأخير قد قام بتشجيع بورقيبة على مغادرة البلاد حتّى يخلو له الجوّ ويؤسّس مشروعه المتمثّل في بناء حزب قويّ، في حين كان مشروع بورقيبة بناء شخصيّة وطنيّة.(٣٥) وذكر بوبكر باكير في مذكّراته أنّ صالح بن يوسف أخبره أنّهم أرسلوا بورقيبة إلى القاهرة للتخلّص منه نتيجة مسؤوليته المباشرة في حصول محنة ٩ أفريل ١٩٣٨ التي كانت لها انعكاسات سلبيّة على الحزب.(٣٦)

ويبدو أنّ بن يوسف نجح في إقناع بعض القادة بضرورة خروج بورقيبة من تونس حتّى يضمن نجاحا أفضل لخطّته في إعادة بناء الحزب، ولم يكن يسعى بالتّالي لإضعاف بورقيبة فقط لأنّه كان في الحقيقة قد فقد نصيبًا كبيرًا من شعبيته ومكانته، وأصبح عبئا على الحزب. والمهمّ أنّ بن يوسف نجح نجاحا باهرا في تنظيم الحزب على أسس عصريّة، وجعله أكثر قوة وإشعاعًا: إحداث خطة مدير الحزب، إنشاء الجامعات الدستورية كهياكل وسطى بين الشعب والديوان السياسي، الانفتاح على الشرائح الوسطى، اكتساح المناطق غير الممثّلة تقليدياّ وبعث لجان تفكير متكونة من كوادر دستورية وغير دستورية. وعندما تقدّم أشواطا في مهمّته، أصبح يميل صراحة إلى إبقاء بورقيبة بالقاهرة، وهو ما يفسّر معارضته المبدئيّة لعودته إلى تونس في شهر سبتمبر ١٩٤٩ باتّفاق تامّ مع باقي أعضاء الديوان السياسي باستثناء سليمان بن سليمان وبدرجة أقلّ الهادي نويرة.(٣٧) وتثبت التقارير الأمنيّة أنّ بن يوسف لم يكن مرتاحا لعودة بورقيبة، إذ أرسل إليه برقيّة يدعوه فيها إلى عدم القيام بخطوة غير محسوبة العواقب، وعندما أصرّ بورقيبة على الرجوع إلى تونس في الموعد الذي حدّده، نظّم له بن يوسف استقبالاً باهتًا.(٣٨)

ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك إذ يرى أنّ بن يوسف حرّض بورقيبة أيضا بمجرّد عودته إلى تونس على مواصلة رحلاته إلى الخارج،(٣٩) وهو تأويل فيه الكثير من التعسّف لأنّه ينفي عن شخص بورقيبة روح المبادرة وحذق المناورة، والحقيقة أنّ رحلته الناجحة إلى باريس سنة ١٩٥٠ تمّت بعد تخطيط دقيق بدأ الإعداد له في القاهرة بالذات.(٤٠) ويلمّح بعض اليوسفيين من جهتهم إلى أنّ بورقيبة دفع بن يوسف للمشاركة في حكومة امحمد شنيق الثانية (أوت ١٩٥٠) لتوريطه في تجربة محكوم عليها بالفشل،(٤١) وهو ادّعاء لا تدعمه كثيرا الشهادات التاريخية التي بيّنت أنّ اختياره لتمثيل الحزب الدستوري الجديد في الوزارة التفاوضية تمّ بدعم من الأمين باي وابنه الشاذلي باي وربّما بمساعدة أمريكية، ولا ننسى أنّه كان من بين المستوزرين في عهد المقيم العام شارل ماست وخلفه جان مونص، في حين كان بورقيبة المرشّح المفضّل للمنصفيين بقيادة امحمد شنيق، غير أنّ الحكومة الفرنسية رفضت تزكيته آنذاك، ووعد المقيم العام بإمكانيّة إلحاقه بالحكومة بعد ستّة أشهر.(٤٢) لم يكن بورقيبة يتحكّم في كل خيوط اللعبة، ولكنّه استفاد من بقائه خارج الحكم ليعيد ترميم شعبيته وفرض مكانته داخل الحزب، وفي مارس ١٩٥١ عندما كان صالح بن يوسف متشبّثا بكرسي الوزارة، رغم ضغط الإقامة العامة الغاضبة من إمضائه للائحة إضراب عام تضامني مع المغرب الأقصى، كان بورقيبة يدعو من باكستان إلى الانسحاب من الحكومة استجابة لضغط المؤتمر الإسلامي، وهو ما جعل بن يوسف يتساءل في اجتماع المجلس الملّي: "ترى أهي مؤامرة مدبّرة ضدّي بين السفارة ورئيس الحزب؟".(٤٣)

هكذا يتبيّن لنا أنّ بن يوسف كان إلى حدّ سنة ١٩٥٠ المرشّح المؤهّل في نظر الفرنسيين للمشاركة باسم الحزب في أيّة مفاوضات ثنائيّة محتملة، حتّى أنّ المقيم العام لويس بيريّي قال عنه بعد اختياره لتمثيل الحزب في الحكومة: "إنّكم الدليل الحيّ على ازدهار ثقافتنا".[٤٤] ولم يتغيّر الوضع لصالح بورقيبة إلّا ابتداء من سنة ١٩٥٢ نتيجة الشكوى التي قدّمها الوزير بن يوسف ضد فرنسا إلى الأمم المتحدة وهروبه بعد ذلك إلى القاهرة صحبة محمد بدرة. وقد تكرّس هذا الاستبعاد أثناء تشكيل وزارة الطاهر بن عمار (أوت ١٩٥٤) حيث اشترطت فرنسا ألّا يتمّ اختيار صالح بن يوسف أو أيّ من المقرّبين منه.[٤٥]

٢/٢-مؤتمر دار سليم (أكتوبر ١٩٤٨): انتصار لبورقيبة أم لصالح بن يوسف؟

لعلّه من المهمّ جدًا الإشارة إلى أنّ آخر مؤتمر شرعي للحزب الدستوري الجديد عقد في أواخر أكتوبر وبداية نوفمبر ١٩٣٧، وهو المؤتمر الثاني المعروف باسم "مؤتمر نهج التريبونال". وقد أسفر هذا المؤتمر عن انتخاب ديوان سياسي ضمّ ٦ أعضاء: محمود الماطري (رئيس)، الحبيب بورقيبة (كاتب عام)، الطاهر صفر (كاتب ثاني)، صالح بن يوسف (أمين مال)، البحري قيقة (كاهية أمين المال) وسليمان بن سليمان (ناظر الحزب).[٤٦] تعرّض الحزب بعد ذلك إلى أزمة هيكليّة وتنظيميّة ناجمة عن سياسة القمع الفرنسي سنة ١٩٣٨، ثمّ عن اندلاع الحرب العالميّة الثانية، حيث مرّت أكثر من عشر سنوات من دون تنظيم أيّ مؤتمر باعتبار أنّ مؤتمر ليلة القدر (٢٣ أوت ١٩٤٦) كان مؤتمرا عاما شارك فيه الحزب الدستوري الجديد بوصفه فصيلا من بين تشكيلات وهيئات وطنيّة عديدة. ونذكر من بين تجليّات أزمة الشرعيّة هذه عدم وجود رئيس منتخب للحزب بعد استقالة محمود الماطري (جانفي ١٩٣٨) التي تلتها استقالة الطاهر صفر بعد انتخابه من المجلس الملّي في مارس ١٩٣٨ بفترة قصيرة، وتولّي الحبيب ثامر الرئاسة بطريقة توافقيّة منذ أواخر سنة ١٩٣٨.[٤٧] ولم يبق من الديوان السياسي المنتخب سنة ١٩٣٧ سوى الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف وسليمان بن سليمان، وذلك بعد استقالة الثالوث المناصر لسياسة الاعتدال وهم الماطري وصفر وقيقة، وظهرت بالمقابل زعامات جديدة. وتعمّقت الأزمة بعد هروب ثامر من تونس سنة ١٩٤٣ وهجرة بورقيبة إلى القاهرة سنة ١٩٤٥، فظهر صالح بن يوسف ليملأ الفراغ، ويتولّى قيادة الحزب في الداخل وإعادة تنظيمه صحبة المنجي سليم وعلي البلهوان وفق استراتيجيّة جديدة.

أثارت سياسة بن يوسف تململا في صفوف بعض الدستوريين المستائين من تهميشهم ومن تهميش بورقيبة في مصر بعد أن أصبحت أموال الحزب توجّه باسم الحبيب ثامر. وتضمّ هذه المجموعة، الموالية لبورقية: بلحسين جراد والشاذلي قلالة ومحمود شرشور ومحمود زهيوة والبشير زرق العيون وغيرهم.[٤٨] وكانوا ساخطين على بن يوسف، الذي ركّز في نظرهم على زعامة الصالونات، وتخلّى عن العمق الشعبي والثوري للحزب، وسلك سياسة معتدلة ومحافظة باتّجاه التقارب مع القصر والأعيان وكبار نوّاب المجلس الكبير، وتحالف مع المنجي سليم والباهي الأدغم وعلالة البلهوان للهيمنة على الجهاز الحزبي وإحداث الفراغ حول بورقيبة مقابل الميل إلى زعامة ثامر. ويرى بن يوسف من جهته أنّ سياسته تهدف إلى خلق الفراغ حول إدارة الحماية، وخلق جبهة وطنية واسعة تحظى بتأييد القصر الملكي ويقودها الحزب الدستوري الجديد وتضمّ المنظمات الوطنية التي ظهرت بدعم منه (الاتحاد العام التونسي للشغل والاتحاد العام للفلاحة التونسية والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة وغيرها)، والضغط على الأعيان بالترغيب والترهيب لإبعادهم عن الدوائر الفرنسية والاستفادة من مكانتهم.[٤٩]

دعا معارضو صالح بن يوسف إلى عقد اجتماع خاص لرؤساء شعب مدينة تونس خارج أطر الحزب، تمهيدا إلى الدعوة لتنظيم مؤتمر استثنائي يطالبون فيه بتوسيع الديوان السياسي من خلال الانفتاح على العناصر الشعبيّة. واضطرّ بن يوسف أمام خطورة الوضع الذي أصبح يهدّد بانقسام الحزب، إلى الضغط على "المنشقين"، ونجح في إقناعهم بإلغاء اجتماعهم بعد أن وعدهم بتنظيم المؤتمر الحزبي في الموعد الذي سيتمّ تحديده بعد الاتّفاق مع الحبيب بورقيبة.[٥٠] واتّفق الطرفان بالفعل أثناء لقائهما بالقاهرة في شهر أوت

١٩٤٨ على الخطوط العريضة لتركيبة الديوان السياسي خلال المؤتمر المزمع تنظيمه، وتعهّد بن يوسف بأن تكون سياسة الحزب مزيجا من تكتيكه السياسي القائم على التهدئة، ومن الأسلوب البورقيبي السّاعي آنذاك إلى التصعيد واعتماد بعض الأساليب الثوريّة اللّازمة لتوفير الدعاية للقضيّة التونسيّة بالخارج.(٥١)

انتظم المؤتمر الثالث للحزب يومي ١٦ و١٧ أكتوبر ١٩٤٨ بدار المنجي سليم في جوّ مشحون، ولكنّ الأمور ظلّت تحت سيطرة بن يوسف الذي كان يوحي للحاضرين بأنّه يطبّق تعليمات بورقيبة.(٥٢) وقدّم في خطابه الافتتاحي عرضا وافيا حول نشاط الحزب، وأشار إلى المبادرة التي أطلقها جماعة مقهى جراد فوصفها "بالعمل الإجرامي"، قبل أن يقوم بسحب كلمته في خطابه الثاني. وانحاز أغلب المؤتمرين إلى الخطّ الذي يمثّله بن يوسف في الداخل وثامر في الخارج، ونوّهوا بما تحقّق من إنجازات تنظيميّة وشعبيّة، في حين ركّز البعض على اتّهام بن يوسف والمقرّبين منه بالاستحواذ على الحزب.(٥٣) وحاول في خطابه الثاني تهدئة الأجواء، وأنكر وجود أيّ خلاف بين أعضاء الديوان السياسي، وأكّد ضرورة الحفاظ على وحدة الحزب وتماسكه بقيادة مؤسّسه الحبيب بورقيبة رمز النضال الوطني.(٥٤)

لم يمنع ذلك من تواصل الخلاف داخل المؤتمر أثناء المرور للعمليّة الانتخابيّة، فقد طالب المنشقّون بقيادة بلحسين جراد بتوسيع الديوان السياسي وفتح المجال لبعض العناصر الشابة ذات الأصول الشعبيّة، وساندهم سليمان بن سليمان في ذلك بخلاف علي البلهوان الذي دعا إلى الحفاظ على تجانس المجموعة القياديّة القديمة.(٥٥) وتمّ إسناد رئاسة الحزب إلى الحبيب بورقيبة باقتراح من صالح بن يوسف مبرّرا ذلك بأنّ المشارقة لا يولون أيّ اهتمام لخطّة الأمين العام لأنّهم تعوّدوا على خطّة الرئيس، فضمن لنفسه خطّة الأمانة العامة.(٥٦)

وكانت تركيبة الديوان السياسي الجديد على النحو الآتي: الحبيب بورقيبة (رئيس)، الحبيب ثامر (كاهيته)، صالح بن يوسف (كاتب عام)، الهادي نويرة وعلي البلهوان (كاهيتاه)، المنجي سليم (مدير وأمين مال)، سليمان بن سليمان ويوسف الرويسي والهادي شاكر وجلّولي فارس (أعضاء). ويتّضح جليّا أنّ هذه التركيبة تضمّ أغلبيّة من المقرّبين لصالح بن يوسف آنذاك باستثناء الهادي نويرة وسليمان بن سليمان، أمّا الهادي شاكر فقد تمّ فرضه من قبل بلحسين جراد تعزيزا لمكانة الجنوب في الحزب بينما كان بن يوسف ينوي تعيين الباهي الأدغم محلّه.(٥٧) وكانت سيطرة أنصار بن يوسف أوضح على انتخابات المجلس الملّي، كما فرضوا توجهاتهم في صياغة لوائح المؤتمر، الذي صادق على السياسة التي وضعها بن يوسف والتي تمثّلت في اعتماد سياسة "اللاتعاون في ميداني الحكم والنيابة"، وذلك بإحداث الفراغ حول وزارة الكعّاك والمجلس الكبير تمهيدا لتدويل القضيّة التونسيّة عن طريق الجامعة العربيّة ومجلس الأمن.(٥٨)

وصف بورقيبة سنة ١٩٧٣ مؤتمر دار سليم بأنّه "مؤتمر الخيانة والغدر والنفاق"، واعتبر أنّ بن يوسف تعمّد إدخال الرويسي، الذي كان في دمشق، إلى الديوان السياسي "ويعرف صالح بن يوسف أنّه ضدّي، كما أدخل فيه الدكتور ثامر الذي عيّن أمين مال الديوان السياسي...أمّا أنا فقد سحب منّي كلّ نفوذ واعتبرت خارج دائرة ذوي الحلّ والعقد في الحزب".(٥٩)

فهل كان إسناد رئاسة الحزب إلى الحبيب بورقيبة مؤامرة أخرى مدبّرة من صالح بن يوسف؟

تميل أغلب التحاليل إلى تأكيد هذه الفكرة، باعتبار أنّ الحزب الدستوري مهيكل على نمط الأحزاب الشيوعيّة حيث يكون النفوذ الحقيقي بيد الأمين العام، في حين تكون خطّة رئاسة الحزب مجرّد خطّة شرفيّة، ولا أدلّ على ذلك من احتكار بورقيبة للكتابة العامة منذ تأسيس الحزب.(٦٠) ولكن يبدو أنّ بورقيبة هو الذي ألحّ بنفسه على تولّي رئاسة الحزب لأنّه أدرك خلال إقامته في القاهرة أنّ المشارقة يتفاعلون عموما أكثر مع هذه الخطّة، والدليل على ذلك أنّه كان يمضي بعض البيانات بهذه الصفة بالذات، وهو ما ينفي وجود مناورة يوسفيّة.(٦١) ويعتبر حصوله على رئاسة الحزب من ناحية أخرى مكسبًا لصالحه لأنّه افتكّها من غريمه القويّ الحبيب ثامر، غير أنّه كان مستاء من بقاء الشؤون الماليّة بيد المنجي سليم الذي تربطه علاقة قرابة بثامر،

إضافة إلى استيائه من إدخال يوسف الرويسي إلى الديوان السياسي.

كان مؤتمر دار سليم الجولة الأولى شبه العلنيّة في الصراع بين صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة، وقد اعترف سليمان بن سليمان أنّ انتهاء المؤتمر من دون تسجيل حوادث تذكر يعتبر انتصارا لصالح بن يوسف الذي خرج أكثر قوّة مع مجموعته.(٦٢) واعتبرت بعض التقارير الأمنيّة أنّ شخصيّة بن يوسف تمّ "تلميعها" خلال هذا المؤتمر.(٦٣) ورأت جريدة "الأسبوع" أنّه مجرّد "مؤتمر إقليمي خاص"،(٦٤) في حين اعتبرت جريدة "لاكسيون" أنّ تأثير مؤتمر دار سليم على الحركة الوطنيّة كان محدودا، وقد مكّن فقط من تجنّب انقسام كارثي للحزب.(٦٥)

كانت أولى جلسات المجلس الملّي المنبثق عن مؤتمر دار سليم، والتي التأمت يوم ٢ أوت ١٩٤٩، شديدة التوتّر، إذ طرحت الخلافات الحزبيّة إلى النقاش العلني، وتعرّض بورقيبة إلى انتقاد عنيف من الفرجاني بلحاج عمار والهادي شاكر، وخصوصا من علي المعاوي الذي تعرّض إلى الرسائل الموجّهة من بورقيبة إلى أنصاره بالداخل لتحريضهم ضدّ الديوان السياسي، وانتقد المساعي التي يقوم به علالة العويتي الذي عاد من القاهرة لجمع الأموال لفائدة رئيس الحزب، وطالب بإرسال وفدا حزبيا إلى القاهرة ليلزم جميع أعضاء مكتب المغرب العربي "بحتميّة العمل الجماعي القائم على مبدأ التشاور والاحترام المتبادل والابتعاد عن التسلّط واستغلال الصفة والانفراد بالرأي".(٦٦) احتجّ الهادي نويرة على هذه الاتهامات وغادر الاجتماع، وتدخّل صالح بن يوسف مرّة أخرى ليمنع تطوّر الأمور باتجاه انقسام الحزب، إذ لم يكن، حسب تحليل محمد الصيّاح، يرغب في الدفع بالأمور إلى هذا الحدّ، بل كان يريد فقط إضعاف بورقيبة والنيل من صورته ومنعه من العودة إلى تونس.(٦٧)

وأشاع أنصار بورقيبة غداة المؤتمر أنّ علي المعاوي طالب بمحاسبة بورقيبة أو طرده من الحزب، وهو ما أشارت إليه جريدة "الصريح" التي ذكرت أنّ "اقتراحا خطيرا عرض أثناء ذلك الاجتماع يرمي إلى فصل أعظم شخصيّة في الديوان"، ممّا جعل رئيس المجلس الملّي محمد زخامة ينشر تكذيبا قطعيّا لهذا الخبر بالصحف التونسيّة.(٦٨) وأدرك بورقيبة، رغم هذا التوضيح، أنّ سلطته الحزبية أصبحت في خطر، وأنّه ربّما وقع ضحيّة مناورات بن يوسف، فقرّر العودة إلى تونس ليستعيد نفوذه و"حزبه" قبل فوات الأوان، ولكنّه لم يحقّق هدفه إلّا في خريف ١٩٥٥ بطرد بن يوسف من الحزب وسيطرته على المؤتمر الدستوري بصفاقس.

٣/٢-اختلاف مواقع أم اختلاف مواقف؟

تبيّن لنا ممّا تقدّم وجود بوادر اختلاف حقيقي بين صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة منذ سنة ١٩٤٧ على الأقلّ، وهو اختلاف يخبو حينا أو يطفو على السطح حينا آخر حسب الظروف والمواقع، ولكن من دون أن يتحوّل إلى خلاف جوهري أو إلى قطيعة تامّة قبل إمضاء اتّفاقيّات الحكم الذاتي بين أفريل وجوان ١٩٥٥. فما هي جذور هذا الاختلاف؟ وما هي طبيعته ورهاناته خلال العشريّة الممتدّة بين ١٩٤٥ و١٩٥٥؟

نودّ في البداية إبراز مسألة دقيقة يتمّ إغفالها عادة على أهميّتها، وهي أنّ بن يوسف وبورقيبة لم يلتقيا خلال الفترة المذكورة في نفس الحيّز المكاني سوى مدّة قصيرة تقدّر بحوالي سنتين فقط من مجموع إحدى عشرة سنة (جانفي ١٩٤٥- جانفي ١٩٥٦). ويقودنا ذلك إلى الوصول إلى استنتاجات مهمّة: يتمثّل أوّلها في أنّ اختلاف المواقع يساهم عادة في إذكاء حدّة التنافس والصراع بين الزعيمين أو إلى حصول تقاسم في الأدوار بينهما، بينما الالتقاء في إطار مكاني واحد يقود إلى خفوت حدّة التوتّر والمواجهة وحصول نوع من التجانس والتكامل، وذلك باستثناء المرحلة الأخيرة التي وقعت فيها المواجهة العلنيّة والقطيعة.

تفرّغ صالح بن يوسف، بعد "إبعاد" بورقيبة من الساحة التونسيّة إلى إعادة بناء الحزب، ونجح في ذلك إلى حدّ كبير، مثلما نجح بورقيبة في التعريف بالقضيّة التونسيّة في المشرق من خلال مساهمته في بعث مكتب المغرب العربي بالقاهرة ثمّ في تكوين لجنة تحرير المغرب العربي. إلّا أنّ التحاق بعض القادة الدستوريين الذين فرّوا من تونس بعد هزيمة الألمان (الحبيب ثامر ويوسف

الرويسي والرشيد إدريس وحسين التريكي) واستقرارهم بالقاهرة ودمشق، ووصول القائد المغربي محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى القاهرة وكذلك محي الدين القليبي ممثّل الحزب الدستوري القديم، ضيّق الخناق على بورقيبة ومنعه من التصرّف بشكل انفرادي، ومن الاستئثار بالإمدادات الماليّة المتأتيّة من تونس، فدخل في خلاف مع ثامر الذي فرض عليه الإلتزام بالقيادة الجماعيّة للحزب، وهمّش مكانته داخل لجنة تحرير المغرب العربي.[٦٩] وانحاز قادة الداخل إلى ثامر وجناحه بالمشرق، فالتجأ بورقيبة إلى تكوين كتلة مضادّة تضمّ بعض المناضلين الدستوريين المتصلبين المنتمين إلى الصفّ الثاني في الحزب، وأصبحت المعركة قائمة بين الكتلتين في الكواليس أحيانا وعلى أعمدة الصحافة المصريّة والتونسيّة أحيانا أخرى، اعتمادا على الاتّهامات المتبادلة والتشويه والتخوين والإشاعات والمزايدات، من ذلك اتّهام بورقيبة لصالح بن يوسف وقادة الحزب بالاعتدال والمهادنة ومطالبتهم بالتصعيد والعودة إلى النضال الثوري بمشاركة الجماهير الشعبيّة.[٧٠] وعندما أصبحت الأمور تنذر بانقسام الحزب، تدخّل بن يوسف ليلعب في مصر دور الحكم أو لينظّم "محاكمة" لبورقيبة شارك فيها ثامر والرويسي وجلولي فارس، وليفرض نوعا من تقاسم الأدوار تكون له فيه اليد الطولى، ولكنّه لم يفكّر أو لم يجرؤ على إزاحة بورقيبة، حيث صرّح لبعض أتباعه قائلا: "تذكّروا بأنّ بورقيبة اليوم في نظر الخاص والعام هو الرمز للحزب وللقضيّة الوطنيّة..وليس من السداد التفكير في تبديل الرمز في هذا الظرف...وثقوا بأنّ بورقيبة مستعدّ لتكوين حزب حتّى من الشيّاتة (ماسحي الأحذية) إن لزم الأمر، وسيجد فرنسا إلى جانبه تسانده".[٧١]

تواصلت الاختلافات والمشاحنات بعد تنظيم مؤتمر دار سليم، بل احتدت أكثر في صائفة ١٩٤٩ قبيل اجتماع المجلس الملّي، فقرّر بورقيبة العودة إلى تونس، وعملت السلطة الفرنسيّة على تسهيل هذه العودة بهدف تعميق الشقاق داخل الحزب. وساهم رجوع بورقيبة، وبخلاف ما كان متوقّعا، في عودة الهدوء بين الزعيمين وأنصارهما ولاسيما بعد وفاة الحبيب ثامر، إذ رضيا بتقاسم الأدوار في انتظار الحسم، وكان كلّ منهما يراقب الآخر ويرافقه في جولاته واجتماعاته، ويفسح له المجال لتقديم مبادراته. ويشير تقرير أمني مؤرّخ في ١٣ سبتمبر ١٩٤٩ أنّه لا توجد علامة حقيقيّة على وجود شقاق بين بن يوسف وبورقيبة لأنّ كلّ منهما لا يزال يتحسّس وزنه الشعبي، وأنّهما اتّفقا على عدم استقبال الضيوف بصفة منفردة، وعلى عدم الافتراق عند التنقّل إلى داخل البلاد في جولات دعائيّة.[٧٢] ويمكن القول إنّ اختلاف المواقع خلال هذه المرحلة الأولى ساهم في اختلاف المواقف بصفة شكليّة غير جوهريّة، وإنّ صالح بن يوسف كان خلالها الطرف الأقوى والمناور الأذكى والماسك الحقيقي بزمام المبادرة وبخيوط اللعبة.

ويتمثّل ثاني الاستنتاجات: في أنّ فترة الوجود في تونس مكّنت رأسي الحزب من لعب ورقتهما الأساسيّة باتّجاه فرنسا في نفس السنة (١٩٥٠) بعد تحضير سابق، ويتعلّق الأمر ببرنامج النقاط السبع الذي طرحه بورقيبة في فرنسا في أفريل سنة ١٩٥٠ من جهة، وقبول بن يوسف المشاركة في حكومة شنيق التفاوضيّة في أوت ١٩٥٠ من جهة ثانية. وتكشف هذه الورقة المزدوجة استعداد كلّ طرف لأن يكون المفاوض الرئيسي والمحاور الأجدر مع فرنسا عندما يفتح باب التفاوض، مع ما يقتضيه ذلك من إبداء علامات الودّ والانفتاح والاعتدال والاستعداد لتقديم التنازلات حتّى إن كانت متعارضة مع مقرّرات الحزب ولوائحه. كان بورقيبة في هذا السّياق أكثر تأنيّا ومرونة وقدرة على المناورة لأنّه زاوج بين الاستعداد للحوار والتلويح بسلاح التصعيد، واعتمد على شبكة أوسع من العلاقات شملت الأمريكيين والإنكليز وخصوصًا الليبراليين والاشتراكيين الفرنسيين مثل الصحفي. "جان روس" «Jean Rous» الذي رافقه خلال شهر جانفي ١٩٥١ في جولاته بدواخل البلاد.[٧٣] أمّا صالح بن يوسف فلم يكن أقلّ حنكة أو انفتاحا واعتدالا حيث اعتمد على مساندة القصر والأعيان والمنظمات الوطنية، وكانت له علاقة جيّدة حتّى مع بعض رموز اللوبي الفرنسي بتونس (أصحاب الصحف كما ذكرنا ومارسيل كازابيانكا رئيس القسم الفرنسي للمجلس الكبير)،[٧٤] إلّا أنّ انخراطه في التجربة الحكوميّة جعل مستقبله السياسي محكوما بما ستؤول إليه تلك التجربة من نتائج. وبما أنّ هذه التجربة

التفاوضيّة آلت إلى الفشل، فإنّ ورقته الخاصّة أحرقت خصوصا بعد أن تولّى تقديم الشكوى التونسيّة إلى منظمة الأمم المتّحدة احتجاجا على مذكّرة ١٥ ديسمبر ١٩٥١ التي أقرّت السيادة المزدوجة، واختياره غير الصائب بالهروب من فرنسا إلى مصر بدل الاستفادة من تجربة الإيقاف الذي طال باقي الوزراء في تونس. خسر صالح بن يوسف ورقته وفقد حظوظه في كسب ثقة الفرنسيين رغم التنازلات التي قدّمها فالتجأ إلى القاهرة بحثا عن أوراق جديدة، في حين ظلّت الأبواب مفتوحة مع بورقيبة الذي استفاد من تجربة الاعتقال الطويلة التي بدأت منذ بداية ١٩٥٢ ليدعّم مكانته وصورته في نظر الداخل والخارج.

ويتمثّل ثالث الاستنتاجات المرتبطة باختلاف لعبة المواقع، في أنّ الزعيمين مرّا بالتجربة القاهريّة: بورقيبة بين ١٩٤٥ و١٩٤٩، أي في ظروف تشكّل جامعة الدول العربيّة واشتداد الصراع العربي الصهيوني، وبن يوسف بين ١٩٥٢ و١٩٥٥، أي في ظروف مختلفة تميّزت بنجاح ثورة يوليو ١٩٥٢ وبروز زعامة جمال عبد الناصر الذي تبنّى الطرح القومي العربي بعد فترة قصيرة من سيطرته على الحكم، وراهن على الحلّ العسكري في مقاومة الإمبريالية والصهيونيّة. وكان تأثير الإقامة في مصر أكبر في شخصيّة صالح بن يوسف وفي مواقفه، أمّا بورقيبة فقد زادته التجربة المصريّة اقتناعا بمبادئه الأولى التي تشبّع بها في مرحلة الدراسة والتكوين بفرنسا.

نتبيّن من خلال ما تقدّم أنّ الحزب كان منقسما على نفسه بين عدّة أجنحة أو كتل متصارعة، وهو أمر طبيعي ملازم للأحزاب السياسيّة في العالم التي تفرز مثل هذه التكتّلات لا سيّما إذا كانت أحزابا غير عقائديّة وغير طبقيّة مثل الحزب الدستوري الجديد. وكان الصراع بين بن يوسف وبورقيبة شبه خفيّ في أواخر الأربعينات، إذ نجد صداه في التقارير الأمنيّة وفي شهادات بعض المقرّبين من قيادة الحزب، لكنّ بن يوسف وبورقيبة كانا حريصين على عدم كشفه بصفة علنيّة.[٧٥] ودافع بن يوسف عن بورقيبة عبر الجرائد الحزبيّة التي يتحكّم فيها عندما تعرّض لهجوم عنيف من الطالب التونسي طاهر المقدميني، الذي اتّهم رئيس الحزب في جريدة "الحوادث" المصريّة بجمعه الأموال من الدول العربيّة باسم عبد الكريم الخطابي والاستيلاء عليها لحسابه الخاص، حيث كذّبت جريدة "الرقيب" هذه الأخبار الزائفة،[٧٦] ونشرت جريدة "الحريّة" بلاغات رسميّة صادرة عن الدول العربيّة التي زارها بورقيبة في أفريل ١٩٤٨ دحضت فيها مزاعم جريدة "الحوادث".[٧٧] وكان بن يوسف يسعى من وراء ذلك إلى إنقاذ سمعة الحزب والحفاظ على وحدته، وخصوصا تهدئة التوتّر بينه وبين بورقيبة لأنّه كان بمصر عند جمع هذه الوثائق، وكان همّه الأساسي إقناع بورقيبة بتقاسم الأدوار الذي طرحه قبيل مؤتمر دار سليم.

ونعتقد أنّ الخلاف بين بن يوسف وبورقيبة قبل اتّفاقيّات الحكم الذاتي تمحور بالأساس حول رهانات ثلاثة:

- رهان داخلي: يتمثّل في التنافس والصراع حول الزعامة وقيادة الحزب بين بورقيبة الذي يستند إلى الشرعيّة التاريخيّة التأسيسيّة وحجم التضحيات التي قدّمها منذ سنة ١٩٣٤، وصالح بن يوسف الذي يستند إلى دوره النضالي التاريخي وخصوصًا إلى مساهمته الفعّالة في إعادة تنظيم الحزب بين ١٩٤٥ و١٩٤٩. ويمثّل هذا الصراع، الموجّه لكسب ثقة الشعب وحشد الأنصار، الشكل الغالب في علاقة زعيمين يشتركان في الكاريزما والإشعاع وقوّة الشخصيّة والطموح الفيّاض، وكذلك في السعي المتواصل والخفيّ إلى إضعاف الخصم وتشويهه. ونجد صدى لهذا الصراع في التقارير الأمنيّة التي تعود إلى سنة ١٩٤٩، حيث تحدّثت عن "صراع حول النفوذ"،[٧٨] وعن "اختلاف وجهات النظر والتنافس حول الزعامة بسبب مشاعر الغيرة الحادّة عند بن يوسف"، [٧٩] وكذلك عن "صراع شخصي بين المجاهد الأكبر والزعيم الكبير".[٨٠] وتؤكّد الشهادات الشفويّة هذا البعد الشخصي في الصراع بين الزعيمين، إذ أقرّ محمد المصمودي أنّ الخلاف بينهما كان حول الزعامة ولم يكن خلافا فكريّا،[٨١] وأكّد حسين التريكي أنّ الخلاف بين بورقيبة وبن يوسف كان خلافًا شخصيّا وليس مبدئيّا، وأنّ بورقيبة كان يقول بأنّه لا يمكن أن يكون مع صالح بن يوسف في حزب واحد.[٨٢] وذكر

الأزهر الشابي القروي أنّ الخلاف بينهما بدأ قبل الاتّفاقيّات وكان في شكل نزاع شخصي خفيّ بين زعيمين كبيرين، وبيّن الصادق الشايب مدير ديوان صالح بن يوسف أن "لا فرق بين الرجلين، فكلاهما أنانيّ نرجسيّ محبّ لذاته ولا يقبل الرأي المخالف"، وقد جاراه في هذا الرأي صديقه أحمد صوّة الذي اعتبر أنّ أعضاء الديوان السياسي مدرسة واحدة في حزب واحد. وأشار الصادق العبيدي إلى أهميّة العامل الذاتي في إذكاء الخلاف، إذ احتدّ التنافس بينهما حول الزعامة غير أنّ بورقيبة كان أكثر إيغالاً في الفرديّة إلى درجة الغرام بحبّ الذات، في حين بيّن عبد الستار الهاني أنّ بورقيبة كان يخشى أثناء وجوده بالقاهرة تفرّد بن يوسف بالحزب.(٨٣) ويرتبط بهذا الخلاف الشخصي أحيانا خلاف حول طريقة تسيير الحزب، وهو ما يضفي عليه بعدا سياسيا يشمل الجوانب التكتيكيّة أكثر من الثوابت الاستراتيجيّة التي لم تكن محلّ اختلاف يذكر بين الزعيمين، ولا ننسى أيضا الصراع الخفيّ حول التحكّم في ماليّة الحزب. وهو نفس ما توصّل إليه الأستاذ حسين رؤوف حمزة الذي رأى أنّ الخلاف بين بن يوسف وبورقيبة خلاف مفتعل وناجم عن تضخّم نرجسي في شخصيتهما من جهة، وعن تضخّم لمكانتهما على رأس الحزب من جهة أخرى، وأنّ خلفيّاته وجذوره تعود إلى عوامل ذاتيّة وكذلك إلى الصراع حول السلطة.(٨٤)

– رهان باتّجاه فرنسا: يتجسّد في التنافس والصراع حول كسب ثقة الفرنسيين من أجل الاستئثار بورقة المفاوض الرئيسي أو "المحاور الأمثل" «L’interlocuteur valable». ويبدو أنّ بن يوسف كان المؤهّل الأبرز لكسب هذه الورقة بين ١٩٤٧ و١٩٥٠، وذلك بالنظر إلى تنوّع علاقاته واعتداله ودهائه السياسي، ومن علامات ذلك قيامه في أفريل سنة ١٩٤٨ باتّصالات سرّيّة مع الحكومة الفرنسيّة التي سمحت له بالسفر إلى القاهرة صحبة جلولي فارس لإقناع بورقيبة بالمشاركة في المشاورات الجارية مع المقيم العام جان مونص،(٨٥) واختياره سنة ١٩٥٠ ليمثّل الحزب في حكومة شنيق التفاوضيّة، إلّا أنّ تكفّله بعد فشل المفاوضات بتبليغ الشكوى التونسيّة إلى منظمة الأمم المتّحدة أثار استياء الأوساط الليبراليّة في فرنسا، وأصبح الأمين العام شخصا غير مرغوب فيه من قبل الحكومة الفرنسيّة بعد هروبه إلى القاهرة وتأثّره تدريجيّا بالدعاية المصريّة.(٨٦) ولم يفقد صالح بن يوسف الأمل في كسب ثقة الفرنسيين حتّى بعد استبعاده من مفاوضات الاستقلال الداخلي وتزّعمه حركة معارضة اتّفاقيات جوان ١٩٥٥، حيث صرّح لشارل سوماني في جانفي ١٩٥٦ بأنّ بورقيبة وأتباعه خدعوا فرنسا وسخروا منها، وبالمقابل فإنّه لم يخدعها أبدا، وأشار إلى أنّه لا يريد أن يكون سفير فرنسا بالمشرق ولكنّه الوحيد القادر على جعلها تحصل من هذه المنطقة على مكاسب معنويّة وسياسيّة.(٨٧) وقد نجح بورقيبة في آخر المطاف في الحصول على ورقة المحاور الأمثل بعد تجارب ومناورات عديدة بدأت منذ سنة ١٩٤٩ وتواصلت إلى سنة ١٩٥٤، إذ بيّنت بعض التقارير الأمنيّة أنّ عودته من القاهرة لم تكن فقط بسبب تراجع مكانته في الحزب أو بسبب الصعوبات التي وجدها بمصر، بل إنّها تمّت في إطار مخطّط مدروس وتفاهم سرّي مع ممثّلي فرنسا بعد أن أبدى استعداده للتعاون.(٨٨) واستغلّ بورقيبة على الوجه الأمثل إقامته في باريس (أفريل- جويلية ١٩٥٠) لعرض برنامجه الإصلاحي المرن وكسب المزيد من الصداقات في صفوف الأوساط الليبراليّة الفرنسيّة وخصوصا المنتمين إلى الحزب الاشتراكي وحزب "الحركة الجمهوريّة الشعبيّة" « MRP »، وسانده بالخصوص شارل أندريه جوليان الذي اعتبره "محاورا ذكيّا ومتفهّما"، والصحافي جان روس الذي اعتبره المرشّح الأبرز لقيادة التفاوض مع الفرنسيين، وأصبح ايلي كوهين حضريّة الذي كان منبهرا بصالح بن يوسف سنة ١٩٤٧ يميل إلى ضرورة التعامل مع بورقيبة بوصفه المحاور الأجدر، وهو ما لم يقنع الكيه دورسيه الذي اعتبر أنّه لا يمتلك أيّة صفة رسميّة للحديث باسم التونسيين.(٨٩) ودعا أندريه بيديه إلى ضرورة التفاهم مع بورقيبة كما تفاهمت بريطانيا مع غاندي،(٩٠) وتجدّدت المشاورات مع بورقيبة سنة ١٩٥٢ بطبرقة عن طريق الوسيط الطاهر بن عمّار،(٩١) غير أنّ الحسم النهائي في اختيار الشريك المفاوض لم يقع إلّا سنة ١٩٥٤ حيث نجح النائب الاشتراكي آلان سافاري في إقناع منداس فرانس بأهميّة اختيار بورقيبة، ويقول في هذا السّياق:

"صحيح كان أمامنا الحزب الدستوري الجديد، ولكن في وقت معيّن وجب علينا أن نختار مع من نتحاور: بورقيبة أو صالح بن يوسف...إنّ مصلحة فرنسا اقتضت أن نتحاور مع الذين لهم سلطة على أتباعهم حتّى يتمّ الإيفاء بالعهود الممضاة".[٩٢] وذكر منداس فرانس في اعتراف مثير: "إنّ المفاوض المثالي، الذي نحن متيّقنون من التفاهم معه بسهولة هو الذي نصنعه نحن حسب ميولاتنا الخاصّة، ويمكن أن نعطيه الملامح التي نريدها".[٩٣]

– رهان خارجي: ويتمثّل في سعي الزعيمين إلى البحث عن الشرعيّة الخارجيّة من خلال التكفّل بتمثيل الحزب في المحافل الدوليّة. ولم يكن هناك أيّ اختلاف بينهما حول ضرورة تدويل القضيّة التونسيّة، والبحث عن السند الخارجي لدى دول الجامعة العربيّة ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وكذلك لدى الإنكليز والأمريكيين، مع التعويل خصوصا على منظمة الأمم المتّحدة. وكان مسارهما متشابهًا ومتقاطعًا لكنّه انتهى بهما إلى بلوغ نتائج متباينة: انطلق بورقيبة من مصر مقرّ جامعة الدول العربيّة مع الحفاظ على اتّصالاته المتينة بالإنكليز والأمريكيين، واقتنع تدريجيّا بأهميّة المراهنة على العالم الغربي بقيادة الولايات المتّحدة الأمريكيّة، التي تمكّن من زيارتها في مناسبتين (الأولى في نهاية سنة ١٩٤٦ والثانية في خريف سنة ١٩٥١). وحافظ بن يوسف على علاقات جيّدة بالأمريكيين، وكان مقتنعا مثل بورقيبة وحشّاد بضرورة الاصطفاف إلى جانب الكتلة الغربيّة الأمريكيّة،[٩٤] وتمكّن سنة ١٩٥٢ من حضور أشغال منظمة الأمم المتّحدة رغم خلافه مع العابد بوحافة، الذي اعترض على رئاسة بن يوسف للوفد التونسي في مداولات الجلسة العامّة معتبرا أنّه عيّن نفسه لهذه المهمّة من دون استشارة أحد.[٩٥] وشارك في مؤتمر الأمميّة الاشتراكيّة بستوكهولم (جويلية ١٩٥٣)، وآل به الأمر بعد ذلك إلى الاقتناع بأهميّة الدعم العربي، وأصبح الممثّل الشرعي للتونسيين في نظر القاهرة وجامعة الدول العربيّة ومنظمة دول عدم الانحياز.

ثالثًا: صالح بن يوسف من البراغماتية إلى اليوسفية

١/٣-هل كان صالح بن يوسف عروبيّا أم قوميّا؟

ميّزنا هنا بين "العروبي" و"القومي" على أساس نفس الفصل المنهجي الذي استنبطه الأستاذ محمد عابد الجابري بين "الوعي العروبي"، الذي يعني الانتماء إلى الأمّة العربيّة من حيث هي حقل ثقافي وإطار حضاري يتحدّدان بثلاثة عناصر أساسيّة: وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة الأهداف والمصير، وبين "الوعي القومي"، الذي يكتسي في المشرق مضمونا وحدويّا وايديولوجيّا، ويطرح بالتّالي كبديل أو منافس لمفهوم الوعي الوطني الذي يحمل مضمونا قطريّا. ويرى الجابري أنّ الوعي العروبي، في السّياق الاستعماري المغاربي، لا يتناقض، بل ولا يتقابل أو يتغاير مع الوعي الوطني القطري، وذلك لأنّ الاستعمار لم يؤدّ إلى تجزئة ترابيّة مثلما حدث بالمشرق، بل استهدف سيادة الدولة القائمة في الوحدة الترابيّة، كما استهدف الهويّة الثقافيّة للسكّان، وبالتّالي فإنّ فكرة القوميّة لم تنبن في بلاد المغرب على رفض التجزئة والمطالبة بالوحدة، وإنّما على استعادة السّيادة، وتأكيد الهويّة العربيّة الإسلاميّة.[٩٦]

ذكر صالح بن يوسف في اجتماع عام عقد يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٨، أنّ النقطة الأساسيّة التي تمّ الاتّفاق حولها غداة مؤتمر دار سليم تتعلّق بضرورة الحفاظ على "الوحدة القوميّة"، والرفض القطعي لمشروع "الوحدة الفرنسيّة"، والتصميم بالمقابل على "التمسّك بعروبتنا وعدم الدخول في أيّ وحدة غير الوحدة العربيّة".[٩٧] وتعمّق في تحليل هذه المحاور بمناسبة خطاب جامع القيروان (ديسمبر ١٩٤٨) قائلاً: "إنّ أمّتنا لن ترضى بالوحدة الفرنسيّة...ولذلك صادمنا هذا الادعاء الباطل وأقمنا الدليل القطعي على أنّ الأمّة المغربيّة عربيّة وإسلاميّة...لقد كنت في مصر وتحقّقت أنّ الوحدة العربيّة لم تكن مجرّد حركة مناهضة للصهيونيّة وكذلك هي تهدف لتحرير الأمم العربيّة بأجمعها". وبيّن أنّ الردّ الملائم على مشروع الاتحاد الفرنسي يتمثّل في الدخول في كتلة أخرى تضمن الحفاظ على الاستقلال المنشود،

وهذه الكتلة لا يمكن أن تكون إلّا "الرابطة الطبيعيّة العربيّة".[٩٨]

تستدعي هذه التصريحات، التي تقاطع فيها الوطني بالمغربي والعروبي وحتّى بالقومي، جملة من الإيضاحات والتدقيقات، من دون أن نتغافل تماما عن طابعها الدعائي والتعبوي. انطلق بن يوسف من التذكير ببعض الثوابت المميّزة لحزبه، وهي تأكيد "الوحدة القوميّة" التي تعني في الخطاب السياسي التونسي آنذاك "الوحدة الوطنيّة"، إذ يشترك قادة الدستور الجديد في اعتبار تونس أمّة تمتلك جميع المقوّمات، أمّا هويّة هذه الأمّة، المرتبطة طبيعيّا وتاريخيّا وبشريّا ببلاد المغرب، فهي "عربيّة إسلاميّة وجزء لا يتجزّأ من العالم العربي".[٩٩] واعتبارا لذلك حصل الإجماع داخل الحزب على رفض مشروع "الوحدة الفرنسيّة" أو الاتحاد الفرنسي الذي يهدّد بابتلاع ما تبقّى من السيادة الوطنيّة والهويّة التونسيّة. وطرح بن يوسف في هذا الخطاب مشروعًا بديلاً، وهو الانخراط في "الوحدة العربيّة" التي كانت تحيل إلى المشروع الذي بلوره العراقي نوري السعيد سنة ١٩٤٣ في "الكتاب الأزرق"، ودعا فيه إلى توحيد سوريا الكبرى في دولة واحدة، وإنشاء جامعة عربيّة تضمّ سوريا والعراق وأيّ بلد عربي مستقل يؤيّد ذلك، وقد حظي هذا المشروع برعاية بريطانيّة، ثمّ بتأييد أمريكي. وتوّج بعد مشاورات طويلة، أشرف عليها نوري السعيد ومصطفى النحّاس باشا رئيس الوزراء المصري، بإنشاء جامعة الدول العربية بمصر في مارس ١٩٤٥، مع العلم أنّ بلدان المغرب لم تشارك في المشاورات ولا في عضويّة الجامعة بسبب الرفض البريطاني.[١٠٠]

وعليه، فإنّ صالح بن يوسف كان يعطي الأولويّة في المقام الأوّل إلى التحرّر الوطني الذي يشمل مفاهيم الاستقلال والسيادة والهويّة، وكان يحمل وعيا عروبيّا متقدّمًا، ولكن من دون مضمون أيديولوجي واضح، وهو وعي اكتسبه حسب شهادته بفضل إقامته الخاطفة بمصر سنة ١٩٤٨، وسيستعمل هذه الورقة الجديدة بأكثر وضوح خلال الخمسينيات.

لم يكن بن يوسف يراهن على الكتلة العربيّة الناشئة فقط، فقد كان يصرّح أحيانا قبيل ارتقائه للوزارة بأنّ الروابط الجغرافيّة تجعل تونس منفتحة على الكتلة الغربيّة بقيادة الولايات المتّحدة الأمريكيّة،[١٠١] ويذكّر في أحيان أخرى بأهميّة الروابط الثقافيّة مع الشعب الفرنسي، ويلوّح في نفس الوقت بإمكانيّة الالتجاء إلى الرّوس.[١٠٢] وتتنزّل في هذا الإطار نفسه رؤية الحزب الدستوري الجديد للعمل المغاربي المشترك ولتوحيد الكفاح التحريري، إذ لا يمثّل هذا الخيار التكتيكي سوى ورقة ضغط جديدة ضدّ السلطة الاستعماريّة ومناوراتها، ولا يؤسّس بالتّالي لمشروع سياسي مغاربي حامل لمضامين قومية ومبشّر بدولة موحّدة سياسيّا. ولم تتغيّر هذه الرؤية جزئيّا لدى بن يوسف وبعض الدستوريين المقيمين بالمشرق إلّا في منتصف سنة ١٩٥٤، عندما تبنّوا مبدأ توحيد الكفاح المغاربي وتوسيع رقعته للاستفادة من دعم الجامعة العربية.[١٠٣]

تعرّض بن يوسف في خطاب القيروان إلى موقف "الوحدة العربيّة" أو بالأحرى الجامعة العربيّة من الحركة الصهيونيّة، ويجرّنا ذلك إلى تقصّي موقف الحزب الدستوري الجديد وأمينه العام من هذه الحركة، ومن اليهود التونسيين، ومن القضيّة الفلسطينيّة ككلّ. يبدو بن يوسف أحيانا متشدّدًا في مناصرته للقضيّة الفلسطينيّة، ومتحمّسا في إبراز عواطفه العروبيّة، من ذلك خطابه في الجامع الكبير ببنزرت في ١٦ ماي ١٩٤٨، الذي ذكر فيه أنّ القضيّة الفلسطينيّة لا يمكن أن تحلّ إلّا عن طريق السلاح والاتّجاه الإيجابي لصالح العرب،[١٠٤] وكذلك خطابه في جامع الزيتونة، الذي أشار فيه إلى أنّ الحرب التي يخوضها الصهاينة ضدّ العرب هي حرب صليبيّة ضدّ الإسلام والمسلمين. إلّا أنّ هذا الموقف لم يكن يعبّر صراحة عن القناعات الشخصيّة والحزبيّة لصالح بن يوسف، فتواتره كان محدودا في خطاباته وتصريحاته، وكان يغلب عليه الجانب العاطفي والدعائي، إضافة إلى جانب المزايدة السياسيّة على الحزب الدستوري القديم وجمعيّة الشبّان المسلمين. ونذكر من بين الثوابت المميّزة للحزب الدستوري الجديد في هذه المسألة: اعتبار أنّ الحرب الجارية في فلسطين ليست حربا دينيّة بين يهود ومسلمين، وإنّما هي حرب استعماريّة توطينيّة بين غزاة صهاينة من جهة، وسكان أصليين عرب مسلمين ومسيحيين من جهة أخرى. ويترتّب على ذلك التمييز بين

اليهود الصهاينة الذين أيّدوا الحركة الصهيونيّة وخيّروا الانتماء إلى الوطن القومي اليهودي، وبين اليهود الذين لم يرتبطوا بالصهيونيّة وتشبّثوا بالانتماء إلى أوطانهم الأصليّة.[١٠٥] وقد عبّر الحبيب بورقيبة عن هذا الموقف منذ سنة ١٩٣٨ عندما أكّد أنّ "اليهوديّة دين، أمّا الصهيونيّة فهي مذهب سياسي. أمّا الأولى فقد حظيت دائما باحترام المسلمين وتسامحهم، وأمّا الثانية فهي تصدم تطلّعات العرب في فلسطين وبطريقة غير مباشرة مشاعر التضامن التي يكنّها لهم مسلمو العالم"، وبيّن أنّ علاقة التونسيين بعرب فلسطين قائمة على التعاطف والتضامن، بيد أنّه ليس ثمّة أيّ تونسي يعتبر فلسطين وطنا له.[١٠٦]

التزم بن يوسف بهذه الثوابت، حيث صرّح في أواخر سنة ١٩٤٧ بأنّ اليهود التونسيين "رعايا للباي يجب أن يوضعوا على قدم المساواة مع المسلمين التونسيين، ولا يجب التعرّض لهم"،[١٠٧] وقد أثار هذا الموقف، "المتعقّل والحكيم" حسب السلطة الفرنسيّة، استياء قادة اللجنة التنفيذيّة للحزب الدستوري القديم، الذين اتّهموه بالسعي من ورائه إلى مضاعفة هيبة حزبه ونفوذه وتقوية مكانته لدى الرأي العام والسلطة الفرنسيّة، وإلى زيادة شعبيّته الشخصيّة في نفس الوقت، وفاتهم أنّه موقف سياسي مبدئي وصادم للرأي العام المعادي لليهود بقطع النظر عن علاقتهم بالصهيونيّة، وأنّه موجّه لكسب تعاطف النخب اليهوديّة في تونس، وكذلك القوى العالميّة الكبرى المساندة لتطلّعات اليهود القوميّة، وهو منسجم مع خياراته السياسيّة في تلك الفترة التي تميّزت بالاعتدال وتجنّب التصعيد.[١٠٨]

تعود تصريحات بن يوسف بجامع الزيتونة في بداية ديسمبر ١٩٤٧ والتي دافع فيها عن اليهود التونسيين شريطة عدم تورّطهم في مساندة الصهيونيّة، إلى فترة تميّزت بتنامي دعوات المقاطعة الاقتصاديّة لليهود الصادرة عن الحزب الدستوري القديم، وخصوصا عن أعضاء لجنة الدفاع عن فلسطين وأبرزهم الصادق بسيّس والشاذلي بن القاضي والفاضل بن عاشور. وشرع هؤلاء إثر قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتّحدة في نوفمبر ١٩٤٧ في جمع التبرّعات الماليّة الموجّهة إلى معاضدة المجهود الحربي العربي، وفي تجنيد المتطوعين التونسيين للقتال في فلسطين. وكان الحزب الدستوري متذبذبا في مواقفه، إذ يضطرّ أحيانا إلى مسايرة الموجة التضامنيّة والمشاركة فيها، ويعمل في أحيان أخرى على عرقلة أعمال لجنة الدفاع عن فلسطين تخوّفا من تنامي شعبيّتها على حسابه. وتمسّك بن يوسف بالدفاع عن ثوابت الحزب في التعاطي مع هذه الحرب الاستعماريّة غير الدينيّة، وفي الدفاع عن اليهود التونسيين وحمايتهم، رافضا الانخراط في دعوات المقاطعة التي تبنّاها الحزب القديم، ووصل به الأمر سنة ١٩٥١ إلى اقتراح تطعيم الوزارة ببعض العناصر اليهوديّة، حتّى أنّ بعض التقارير الأمنيّة لمّحت إلى أنّه كان يحصل على مبلغ ٥٠ ألف فرنك شهريّا من بعض العناصر الصهيونيّة بتونس ليواصل سياسة التهدئة التي يعتمدها تجاه اليهود التونسيين.[١٠٩] ومهما يكن من أمر فإنّ مواقفه من القضيّة الفلسطينيّة ومن اليهود التونسيين، تعكس رؤية سياسيّة براغماتيّة لم تتأثّر بالحماس الشعبي واتجاهات الرأي العام بقدر ما تأثرت بموازين القوى العالميّة المتميّزة بقوّة الحركة الصهيونيّة وتحالفها الوثيق مع الإمبرياليّة البريطانيّة ثمّ الأمريكيّة، وكانت هذه الرؤية موجّهة لخدمة القضيّة التونسيّة، إضافة إلى خدمة بعض الأهداف الشخصيّة من خلال ضمان دعم القوى العظمى واليهود.

وتفيد بعض الدراسات أنّ قادة الحزب الدستوري الجديد كانوا على اتّصال وثيق مع الإسرائيليين، حيث التقى الباهي الأدغم سنة ١٩٥٢ بمستشار البعثة الإسرائيلية بالأمم المتحدة "جيدون رافائيل" «Gideon Rafael»، وطلب منه دعم المساعي التونسيّة من أجل الاستقلال، مبيّنا أنّ حزبه لم يكن وراء التظاهرات المناهضة لليهود بتونس. وتمّت الاتّصالات أيضا مع صالح بن يوسف الذي عبّر يوم ٩ فيفري ١٩٥٣ عن انزعاجه من محدوديّة الدعم الإسرائيلي للقضيّة التونسيّة مقارنة بالدعم العربي، ملمّحا أنّ ذلك سيؤثّر على توجّهات الدولة التونسيّة بعد الاستقلال. وذكر الحبيب بورقيبة سنة ١٩٥٤ للسكرتير السياسي للمؤتمر اليهودي العالمي "ألكس ليفي ايسترمان" « Alex Levvey Easterman » أنّ تونس ستنضمّ إلى الجامعة العربيّة بعد الاستقلال غير أنّها لن تتّبع بالضرورة

سياسة الدول العربيّة وتوجّهاتها، أمّا عن موقفه الشخصي فبيّن أنّه يتفهّم القوميّة اليهوديّة لكنّه كعربي يجد نفسه مضطرًا إلى اعتبار قيام دولة إسرائيل شكلاً من الاستعمار، وأنّه يميل إلى الحلول السلميّة في التعامل معها.[١١٠] وقد كشف "ناحوم غولدمان" سنة ١٩٦٥ أنّ بورقيبة حافظ على علاقة وطيدة بايسترمان منذ ١٩٥٤، وأنّهما كانا يلتقيان مرّة أو مرّتين كلّ سنة لمناقشة مختلف القضايا اليهوديّة.[١١١] ويدلّ ذلك أنّ قادة الحزب الدستوري الجديد كانوا بحكم خلفياتهم الفكريّة ينتمون إلى نفس المدرسة السياسيّة، وأنّ الخلافات بينهم لم تكن في مستوى الأفكار والخيارات الاستراتيجيّة.

وكان الممثّل الحقيقي للنزعة القومية في الحزب الدستوري الجديد آنذاك هو يوسف الرويسي المقيم في دمشق، الذي عبّر في شهر نوفمبر ١٩٥٠ عن موقفه المعارض للتجربة التفاوضية التي شارك فيها بن يوسف، واعتبرها تراجعا عن خطة النضال المغاربي الموحّد وتنكّرا للمبادئ الاستقلالية والمواثيق الدولية.[١١٢] أمّا صالح بن يوسف فقد رفض في بداية نوفمبر ١٩٥١، عندما كان وزيرا للعدل، مشاركة الحزب في المظاهرة التضامنيّة مع مصر، التي انتظمت بتونس بمساهمة الحزب الدستوري القديم والحزب الشيوعي والجبهة القوميّة ولجنة أحبّاء السلم والحريّة ومنظمة صوت الطالب الزيتوني، وذلك عقب قرار مصطفى النحّاس باشا إلغاء معاهدة الصداقة المصريّة البريطانيّة.[١١٣]

عادت النزعة العروبيّة إلى البروز عند صالح بن يوسف بعد إقامته بمصر، وكانت تظهر في الغالب في شكل مشاعر تضامن مغاربي وعربي، بمعنى أنّها ظلت في الإطار العاطفي المتعلّق بالهويّة والانتماء، ولم تكن في شكل وعي قومي متضمّن لشحنة ايديولوجيّة. ونذكر في هذا السّياق التقرير الذي أعدّه في ١ سبتمبر ١٩٥٣ صحبة محمد بدرة حول الوضع في تونس، الذي تميّز باشتداد القمع والترويع بسبب تضامن التونسيين مع المغرب الأقصى بعد عزل السلطان محمد بن يوسف، وقد جاء في نهايته: "إنّنا إزاء مؤامرة استعمارية مدبّرة لإبادة شعب كامل، لأنّه يتمسّك بأمانيه القومية في الحرية والاستقلال، ويدافع عن مقوّماته العربية، ويصرّ على اعتبار نفسه جزء لا يتجزّأ من شمال افريقيا ومن العالم العربي".[١١٤]

عايش صالح بن يوسف سنوات الغليان التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط في الخمسينات: ثورة الضبّاط الأحرار، انفراد جمال عبد الناصر بالسلطة وتزايد شعبيّته وتأثيره وتبلور مشروعه القومي، هزيمة فرنسا في "ديان بيان فو"، مؤتمر باندونغ، انطلاق الثورة الجزائريّة المسلّحة. ويظهر تأثير التجربة المصريّة في صالح بن يوسف في نوعيّة الشعارات التي رفعها عند عودته إلى تونس سنة ١٩٥٥، وهي شعارات في قطيعة شبه تامّة مع قناعاته الفكريّة وأساليبه السياسيّة السّابقة. ويطرح ذلك وجود فرضيّتين: فإمّا أن يكون صالح بن يوسف قد تأثّر بعمق خلال إقامته المشرقيّة بموجة المدّ القومي التحرّري وتبنّى سياسيّا وفكريّا الطرح القومي العربي، وإمّا أنّه انخرط في موجة التحرّر العربي والعالمي لاعتبارات سياسيّة وتكتيكيّة فقط وأحكم توظيفها لتزعّم حركة المعارضة في تونس. ونحن نميل صراحة إلى تبنّي الفرضيّة الثانية، فنرى أنّ صالح بن يوسف اختار توظيف العامل القومي لأسباب سياسية أكثر منها فكرية، ونستند مرّة أخرى إلى تصريحه الذي خصّ به شارل سوماني سنة ١٩٥٦، حيث سخر من الرؤية التي تعتبره "رسول الاتّجاه العربي الإسلامي"، واعترف أنّه لعب الورقة التي حصل عليها في المشرق في نضاله ضدّ اتّفاقيّات الحكم الذاتي من أجل تحقيق استقلال بلاد المغرب واستعادته لشخصيّته الدوليّة لحسابه الخاص وليس لحساب أيّة قوّة خارجيّة سواء كانت أفروآسيويّة أو عربيّة إسلاميّة، ولكن من دون قطيعة تامّة مع فرنسا، مذكّرا بأنّ خطاب بورقيبة في مؤتمر صفاقس (نوفمبر ١٩٥٥) تضمّن تملّقا كبيرا تجاه المشرق العربي.[١١٥] ونشير إلى أنّ شخصيّة السياسي تتطوّر وتتغيّر باستمرار، ومساره لا يكون بالضرورة متناسقا ومنسجما وكأنّه قدر معلوم، لذا وجب على البيوغرافي ألّا يسقط في "الوهم الغائي" فيجعل روايته تسير بصفة خطيّة لتتوافق مع النهاية المعروفة مسبقا لمصير المترجم له، إذ يقول مالك بن نبي، الذي كان في بداية الثلاثينات يلقّب بزعيم الوحدة المغاربية ويدعو إلى الإصلاح والوهابية، أنّ الطالب صالح بن يوسف انبهر به

بعد أن حضر إحدى محاضراته لا بسبب المحاضرة في حدّ ذاتها بل لتعقيبه المرتجل عليها. وقال في مذكّراته: "هل كان هذا الطالب التونسي هو الآخر من المثاليين؟ إنّني أطرح السؤال بعد أربعين سنة، لأنّني رأيته بعد سنوات قد أصبح واقعيًّا".[١١٦]

٢/٣-هل كان صالح بن يوسف متشدّدًا ومناصرًا للمقاومة العسكرية؟

عندما بدأ بن يوسف مسيرته السياسيّة ضمن الحزب الدستوري الجديد في أواسط الثلاثينيات، كان يصنّف ضمن أبرز العناصر الراديكاليّة المتشدّدة. وقد تعرّض بسبب ذلك إلى الاعتقال والسجن والنفي، في برج البوف (١٩٣٥- ١٩٣٦)، ثمّ في السجن المدني وحصن سان نيكولا بمرسيليا (١٩٣٨- ١٩٤٣). وتعرّض حتّى بعد رحلة بورقيبة إلى مصر لبعض المضايقات والتتبعّات، حيث مثل أمام المحكمة العسكريّة بتونس يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٤٥ بسبب انتقاده للسياسة الاستعماريّة ومطالبته بالاستقلال بمناسبة جنازة ضحايا حيّ الحلفاوين الذين سقطوا برصاص الطابور المغربي، وتعرّض إلى الايقاف والسجن المخفّف أيضا بعد مساهمته الفعّالة في تنظيم مؤتمر ليلة القدر.[١١٧]

وأصبح يميل منذ سنة ١٩٤٧ إلى الاعتدال والتهدئة، وصرّح بأنّ الوصول إلى الاستقلال يمكن أن يكون بواسطة الحوار والتفاهم لا عن طريق العنف والتصعيد.[١١٨] وكان يسعى بشتّى الطرق إلى الحصول على منصب وزاري، ويعمل على إبراز حسن نواياه إلى ممثّلي السلطة الفرنسيّة من خلال التزامه بالتحكّم في الشارع وتجنّب الصدام والمواجهة رغم معارضة بعض أعضاء الديوان السياسي مثل سليمان بن سليمان، الذي ذكر أنّ الأمين العام للحزب غضب منه بشدّة لأنّه قام بإجبار بعض التجّار على غلق محلّاتهم أثناء أحد الإضرابات كما جرت العادة، وبيّن له أنّ هذه الطرق لم تعد مجدية ولم تقدّم شيئا للحركة، وأنّه لن يسمح باعتمادها منذ الآن، ويضيف سليمان بن سليمان معلّقا بأنّه لأوّل مرّة يشاهد بن يوسف وهو يعبّر عن آرائه بطريقة صريحة ومباشرة.[١١٩]

تفيد العديد من الوقائع والشهادات أنّ صالح بن يوسف لم يكن أبدا في نهاية الأربعينيات من أنصار التصعيد والحلّ العسكري في المقاومة، ولعلّ من أبرزها قضيّة فلّاقة زرمدين الشهيرة الذين تمّت تصفيتهم سنة ١٩٤٨، وراجت آنذاك شائعات تفيد تورّط الأمين العام للحزب في التخلّص من الفلّاقة عن طريق الطاهر بطّيخ رئيس الجامعة الدستوريّة بقصر هلال.[١٢٠] تتمثّل الوقائع في أنّ مجموعة صغيرة من "الخارجين عن القانون" ظهرت خلال الحرب العالميّة ببلدة زرمدين بالساحل التونسي، وشرعت تقوم بأعمال "صعلكة" ضدّ بعض أهالي المنطقة، وخصوصا ضدّ ممثّلي السلطة المحلية، وعجزت السلطة الفرنسيّة عن الإيقاع بهم لفترة طويلة لعدم تعاون الأهالي معها، فقامت يومي ١٥ و١٦ جوان ١٩٤٦ بأعمال انتقاميّة واسعة ضدّ سكان قريتي زرمدين وبني حسّان دوّنها بن يوسف في تقرير رفعه إلى الباي والمقيم العام.[١٢١] ولم تنجح السلطة الفرنسيّة في القضاء على فلّاقة زرمدين إلّا في أفريل ١٩٤٨، حيث تمّ اغتيالهم قرب بلدة "القطار" بعد تدبير مكيدة محكمة. وهنا تتعدّد الروايات، فتتعارض وتتقاطع من دون الكشف عن جميع الملابسات، ولكنّها تتّفق عموما حول الدور المشبوه للطاهر بطّيخ الذي كان أداة تنفيذ المؤامرة، إذ تمّ توريطه وإقحامه في المسألة تحت التهديد قبل التخلّص منه بصفة غامضة سنة ١٩٥٥، أمّا بن يوسف فيشتبه أنّه شارك في تدبير خطّة استدراج الفلاقة بدعوى ترحيلهم إلى طرابلس لإعدادهم للكفاح المستقبلي لتسهيل تصفيتهم في الطريق من قبل البوليس الفرنسي، أو أن يكون على الأقلّ على علم بحيثياتها واختار السكوت وتزكيتها بصفة غير مباشرة.

يتعلّق المثال الثاني بمواقف بن يوسف الرافضة للتنسيق العسكري مع الجزائريين. وفي هذا السياق، يفيد المناضل الجزائري حسين آيت أحمد، قائد "المنظمّة الخاصة" «L'O.S.» التّابعة لحزب الشعب- حركة انتصار الحريّات الديمقراطيّة، أنّ الأمين العام الجديد لهذه الحركة حسين لحول أرسل سنة ١٩٤٩ وفدين إلى تونس والمغرب الأقصى للاتّصال بزعماء الحزب الدستوري الجديد وحزب الاستقلال، وذلك لطلب مساعدات مالية، وخصوصا لدعوتهم إلى توحيد الكفاح

المغاربي ضدّ الاستعمار الفرنسي وتحريضهم على بعث منظمات عسكرية سريّة شبيهة بالمنظمة الخاصة الجزائرية. اتّصل الوفد الجزائري، المتكوّن من بن بلة وبوقادوم ودردور، بصالح بن يوسف غير أنّه لم يتفاعل إيجابيّا مع المقترحات الجزائرية، واعتبرها "نزوات صبيانيّة" تدلّ على عدم نضج سياسي، في حين أمر بورقيبة، "الذي كان أكثر استشعارا لنبض الشارع الشعبي"، بعض النشطين الدستوريين بالتنسيق مع أحمد بن بلة.[١٢٢]

قدّم الجزائري محمد حربي تفاصيل أكبر حول هذه المسألة، فذكر أنّ إقناع الوطنيين التونسيين والمغاربة باللجوء إلى الكفاح المسلح في جانفي ١٩٤٩ لم يكن بالأمر الهيّن، ففي الجانب التونسي توقّف الحوار سريعا مع صالح بن يوسف الذي "تعامل مع محاوريه بعليائية ووصف مسعاهم بالعمل الصبياني". وبيّن أنّ الجزائريين لم يفقدوا الأمل بعد نجاحهم في الاتّصال بمناضلين دستوريين من الصفّ الثاني منهم الشاذلي قلالة، إلّا أنّ هؤلاء لم تكن لهم سلطة اتّخاذ القرار بشأن بعث منظمة خاصة، وكانوا متحمّسين فقط لتعلّم كيفيّة صنع المتفجّرات واستخدامها. وذكر أنّ بن بلة قام بزيارة ثانية إلى تونس لتفعيل التنسيق التقني بين حركة انتصار الحريات الديمقراطية وبعض مناضلي الحزب الدستوري، وفي ربيع سنة ١٩٤٩ تحوّل إلى تونس بعض الخبراء في صناعة المتفجرات صحبة القيادي بوقادوم، ولكنّهم لم يحقّقوا تقدّما ميدانيّا يذكر وثبت لديهم صعوبة الاختراق السياسي للمعسكر الدستوري.[١٢٣] ويبدو أنّ الاتّصالات تجدّدت بعد تكوين منظمة "الأحد عشر السود" إثر عودة بورقيبة من مصر في سبتمبر ١٩٤٩، إذ يذكر بلحسين جراد أنّه التقى بأحمد بن بلة في سوق الأربعاء يوم ١٧ فيفري ١٩٥٠ بطلب من الحبيب بورقيبة، وكان هذا اللقاء كسابقيه من دون آفاق تذكر نتيجة حلّ المنظمة الخاصة في مارس ١٩٥٠، ومشاركة الحزب الدستوري في حكومة شنيق.[١٢٤]

وأكّد مناضل جزائري آخر وهو "بن يوسف بن خدّة" أنّ كبار القادة السياسيين في تونس ومراكش كانوا يفضّلون العمل الدبلوماسي والسياسي على العمل العسكري، وذكر في هذا الصدد أنّ قيادة حزب الشعب الجزائري أرسلت كلّ من حسين لحول وأحمد بن بلّة إلى تونس يوم ١٩ جوان ١٩٤٩، حيث أجريا اتّصالات مع الأمين العام للحزب الدستوري الجديد صالح بن يوسف هدفها تأسيس جبهة مسلّحة على مستوى الشمال الافريقي، غير أنّ المسؤولين التونسيين أبدوا تحفظّهم بخصوص هذا الخيار، وكانوا يعتبرون أنّ حظوظ بلادهم في استعادة سيادتها واستقلالها أوفر من حظوظ الجزائر ذات الوضعيّة القانونيّة الخاصّة باعتبارها تشكّل "ثلاث عمالات فرنسيّة". ولم تسفر المباحثات سوى عن حصول اتّفاق بتنظيم لقاء ثلاثي بين الحزب الدستوري الجديد وحزب الاستقلال المغربي وحزب الشعب-حركة انتصار الحريّات الديمقراطيّة، ولكن عندما انعقد هذا الاجتماع بطنجة في ماي ١٩٥٠ قاطعه الحزب الدستوري الجديد.[١٢٥]

وفي سنة ١٩٥٠، التقى المناضل التونسي عز الدين عزّوز بمجموعة من قادة الديوان السياسي (صالح بن يوسف والمنجي سليم والباهي الأدغم)، ونقل لهم التوصية التي كلّفه بها محمد بن عبد الكريم الخطّابي، والتي تتعلّق بتنفيذ وعودهم بشأن تفعيل المقاومة المسلّحة على مستوى شمال افريقيا. وبينّ أنّهم رفضوا التفاعل إيجابيّا مع هذا المقترح، حيث أكّد له صالح بن يوسف أنّ الحزب الدستوري الجديد حزب سياسي وسلمي وليست في نيّته تنظيم تمرّد مسلّح ضدّ الاستعمار.[١٢٦]

وأبدى بن يوسف عند ارتقائه لوزارة العدل في السنة ذاتها مرونة وبراغماتية أثارت احتجاج المعتدلين كمحمود الماطري وامحمد شنيق،[١٢٧] وأثارت حتّى استغراب المقيم العام الفرنسي لويس بيريّي الذي قال عنه: لم يكن فقط موافقًا على سياسة المراحل التي تضمّنها بيان ١٧ أوت ١٩٥٠، بل إنّه قبل إصلاحات فيفري ١٩٥١ المتواضعة جدّا، والتي أدّت إلى وضع القطار على السكّة المؤدّية – ببطء شديد- إلى الاستقلال الداخلي. وعبّر خلال محادثات نوفمبر ١٩٥١ بباريس عن قبوله بأن يظلّ هذا القطار بطيئا بشرط أن يتمّ الاعتراف بمبدأ السّيادة التونسيّة، كما عبّر عن أمله في القيام بخطوة إلى الأمام تتجسّد في منح التونسيين وزارة إضافيّة فوق مبدأ التناصف المعتمد في إصلاحات فيفري.[١٢٨] وقدّم

محمد الصالح مزالي في مذكّراته قراءة نقديّة لإصلاحات فيفري ١٩٥٤، فبيّن أنّها هزيلة بشهادة امحمد شنيق نفسه، وأنّها كانت تقدّم للتونسيين على أساس أنّها خطوة نحو الاستقلال وتقدّم للفرنسيين على أساس أنّها تكريس لامتيازاتهم. وذكر أنّ بن يوسف طلب منه عدم التعبير عن أيّ اعتراض حول هذه الإصلاحات عند تقديمها للباي.[١٢٩]

وكانت خيبة أمل صالح بن يوسف كبيرة جدّا لأنّ هذه التنازلات لم تثمر شيئا أمام تعنّت المتفوّقين الفرنسيين، بل إنّه اضطرّ في أواخر شهر مارس ١٩٥٢ إلى الهروب من باريس إلى القاهرة ليتجنّب الاعتقال لذي طال بعض وزراء حكومة شنيق. وكان من الطبيعي أن يولّد فيه فشل هذه التجربة ميلاً متناميًا إلى التشدّد النّاجم عن فقدان الثقة في فرنسا، وهو المآل الذي اتجهت له الحركة ككلّ منذ بداية سنة ١٩٥٢ وتجسّد في انطلاق المقاومة المسلّحة، التي لم يساهم في الإعداد لها في بداية الخمسينيات.

وتدعّم البعد العسكري في أطروحات بن يوسف خلال إقامته بالقاهرة تحت تأثير الالتقاء مع توجّهات جمال عبد الناصر، الذي كان يخطّط لفتح جبهة مقاومة عسكرية واسعة ضدّ فرنسا في بلدان المغرب العربي تمهيدا للقيام بتأميم قناة السويس. ويظهر ذلك مثلا في خلافه الشديد مع الهادي نويرة سنة ١٩٥٣، لأنّه واصل اعتماد سياسة اللين والتهدئة من دون اعتبار المتغيّرات الطارئة على الساحة المحليّة والإقليميّة والدوليّة.[١٣٠] وأصبح الخيار العسكري ورقة ممكنة بالنسبة لبن يوسف منذ سنة ١٩٥٣ من خلال إشرافه على بعض معسكرات التدريب في طرابلس،[١٣١] وخصوصا منذ سنة ١٩٥٤ بعد اندلاع الثورة الجزائرية وتأكّد استبعاده من الترتيبات الجارية آنذاك حول مستقبل العلاقات التونسية الفرنسية. وعندما عارض بعض الثوّار تسليم أسلحتهم واختاروا مواصلة المقاومة المسلّحة بعد إبرام الاتّفاقيّات، استوعبتهم الحركة اليوسفيّة آليّا لأنّ رمزها صالح بن يوسف تزعّم حركة المعارضة، وأصبح البعد العسكري بعدا مميّزا لهذه الحركة التي انطلقت سياسيّة وغدت ثوريّة خصوصا بعد انضمام الطاهر الأسود إليها في نهاية ١٩٥٥، حتّى أصبح بن يوسف يعتبر نفسه "القائد الأعلى لجيش التحرير الوطني".[١٣٢]

٣/٣-صالح بن يوسف والزيتونيّون: علاقة عداء وصراع أم تحالف وانسجام؟

مرّت علاقة صالح بن يوسف بالزيتونيين بثلاث مراحل متعاقبة: من المهادنة والتقارب الحذر (١٩٤٦-١٩٥١)، إلى العداء الصريح والمواجهة طيلة تقلّده وزارة العدل (١٩٥١- ١٩٥٢)، وصولاً إلى التحالف والتقاء المصالح منذ عودته إلى تونس سنة ١٩٥٥.

حاول بن يوسف في بعض خطاباته توظيف المشاعر والرموز الدينيّة، وذلك بهدف إثارة عواطف المستمعين واستمالتهم إلى صفوف الحزب من خلال اعتماد نفس أساليب خصومه المحافظين كالحزب الدستوري القديم وبعض رموز جامعة الزيتونة. ولعلّ أبرز مثال عن ذلك خطابه في الجامع الكبير بالقيروان في ديسمبر ١٩٤٩ الذي جاء في بدايته: "أيّها المسلمون، أيّها الإخوان...إنّي رأيت أن يكون اجتماعنا في بيت الله حيث يتذاكر المؤمنون في هذا البيت التاريخي المقدّس...اقترحت ذلك لأنّ هذا البيت رمز لمبعث النور، إذ كان أجدادنا الغزاة الفاتحون ينبثّون منه للقيام برسالتهم التمدينيّة ولتحرير العالم من الجبروت والطغيان. ويلذّ لنا أن نجتمع في هذا المكان الذي ربّما يحتلّه غيرنا لسلوك سياسة المغالطة، إذ نحن أحقّ من غيرنا للاجتماع فيه ما دام أمرنا شورى بيننا حسب تعاليم ديننا الحنيف".[١٣٣]

وبالتوازي مع هذا الأسلوب المألوف لدى قادة الحزب المتعوّدين بازدواجيّة الخطاب والبارعين في فنّ المناورة، سعى صالح بن يوسف إلى الاستفادة من الرأسمال الرمزي الذي كان يتمتّع به بعض رموز الزيتونة في منتصف الأربعينات، وذلك بجرّهم إلى تدعيم صفوف الحزب حتّى يستفيد من مكانتهم وشعبيّتهم ويخرج من عزلته. وبادر في هذا السّياق غداة مؤتمر ليلة القدر باقتراح إدخال الشيخين الفاضل بن عاشور والشاذلي بن القاضي إلى الديوان السياسي، وهو ما زكّاه باقي الأعضاء باستثناء سليمان بن سليمان الذي عبّر عن احترازه من توسيع الحزب في اتّجاه جناحه الأيمن بدل الانفتاح على العناصر الشعبيّة،[١٣٤] وسرعان ما أدرك

بن يوسف أنّ شخصيّة الفاضل بن عاشور الرئيس الشرفي للاتحاد العام التونسي للشغل ورئيس الجمعيّة الخلدونيّة، وبدرجة أقلّ الشيخ الشاذلي بن القاضي المدرّس الزيتوني، ازدادت إشعاعا وشعبيّة على حساب الحزب وقادته، وأصبحا يمثّلان التيّار الإسلامي والعروبي المناصر للقضيّة الفلسطينيّة، فعمل على إبعادهما تدريجيّا من الديوان السياسي للحزب لا سيّما منذ الاحتفال بالذكرى الثانية لتأسيس الجامعة العربيّة حين خطف حضور الفاضل بن عاشور الأضواء من صالح ن يوسف. وفي سنة ١٩٤٧ قرّر محمد الأمين باي عزل المفتي الحنفي محمد الصالح بن مراد نظرا لمواقفه الجريئة عقب تنظيم مؤتمر ليلة القدر، وتعويضه بالشيخ الدامرجي الذي لا يحظى بثقة الزيتونيين، ممّا أثار احتجاجات الدستوريين والطلبة الزيتونيين على حدّ السّواء، والتجأ بن يوسف مرّة اخرى إلى المناورة بتخلّيه عن مساندة هذه الحركة الاحتجاجيّة كتعبير ضمني عن تزكيته لمرشّح القصر الملكي.[١٣٥] ولعلّ هذه المواقف المتذبذبة هي التي تفسّر سخط النائب أحمد الخبثاني على بن يوسف في مؤتمر دار سليم واتّهامه بالحقد على الزيتونة والزيتونيين والعمل على اقصائهم من تحمّل المسؤوليات في الحزب وفي المنظمات الوطنية النّاشئة.[١٣٦]

لم يكن الحزب الدستوري الجديد متحمّسا لظهور لجنة صوت الطالب الزيتوني في أفريل ١٩٥٠ لأنّها لم تكن فرعا من فروعه، إذ ضمّت بعض المتعاطفين مع الدستور الجديد وقلّة من التابعين للدستور القديم وأغلبيّة من الزيتونيين المستقلين، فاختار أن يسلك معها سياسة المهادنة والمجاملة في محاولة يائسة لاحتوائها. ونذكر من ذلك خطاب بن يوسف في جامع الزيتونة الذي توجّه فيه إلى الطلبة قائلا: "إنّ رسالة جامع الزيتونة كعبة الشمال الافريقي التي تنشدونها اليوم هي عماد كلّ قوميّة صحيحة".[١٣٧] وكان ذلك بمناسبة زيارته التضامنيّة صحبة المنجي سليم للطلبة الذين دخلوا يوم ٢٠ أفريل ١٩٥١ في إضراب جوع،[١٣٨] واعتبر في خطاب ٢١ أفريل أنّ منظمّة صوت الطالب تمثّل "جزءا من حركة الأمّة وموطنا من مواطن كفاحها".[١٣٩] وكان الهدف السياسي من وراء هذه المساندة خلق المزيد من الفراغ والصعوبات أمام حكومة مصطفى الكعّاك تمهيدا لإسقاطها، وهو ما وقع بالفعل، وظهرت على أنقاضها حكومة شنيق التي شارك فيها بن يوسف.[١٤٠]

بدأت علاقة الحزب الدستوري الجديد بالزيتونيين تشهد بعض التوتّر الذي ينذر بقرب حصول القطيعة، حيث طلب بن يوسف من لجنة صوت الطالب إلغاء التظاهرة المزمع تنظيمها في شكل يوم حداد سنوي بمناسبة اختتام السنة الدراسيّة في ١٤ جوان لأنّها تتزامن مع اليوم الثاني لحلول المقيم العام الجديد لويس بيريّي، لكنّ المنظمة تمسّكت ببرنامجها وباستقلاليّتها.[١٤١] وكان الدستوريّون يحاولون تجنّب المواجهة مع الزيتونيين، مع السعي إلى تدجينهم أو إضعافهم، وهو ما يظهر جليّا في رسالة بورقيبة التي وجّهها إلى بن يوسف من القاهرة سنة ١٩٥١ ودعا فيها إلى مواصلة مهادنة الزيتونيين واستمالتهم، مع السعي الخفيّ إلى بثّ الفرقة في صفوفهم، وتأجيل المواجهة معهم حتّى يتمّ التفرّغ للعمل الوطني في إطار من الوحدة الوطنيّة. ونذكر بعضا ممّا جاء في هذه الرسالة المهمّة لأنّها تترجم بصدق موقف قادة الدستور الجديد من الزيتونيين: "إنّ أقطاب الزيتونيين على وعي واضح بالخطر الذي يهدّدهم من وصول مقاليد السلطة إلى زعماء الدستور الجديد ذوي الثقافة الغربيّة..ولعلّ تكوين فرقة زيتونيّة يكون لها أن تقف في وجه صوت الطالب الزيتوني أمر مستحسن...ويجب السعي إلى جذب القادة واستهوائهم...ومن أجل ذلك ينبغي- مادمنا لم ننته من مواجهة عدوّنا الرئيسي- أن نداري الزيتونيين وأن نلتزم الحلم والصبر".[١٤٢]

اختار بن يوسف بعد ارتقائه إلى وزارة العدل مواجهة الزيتونيين، أو بالأحرى اضطرّ إليها، لأنّهم رفضوا وصاية الحزب وقرّروا التصعيد ومواصلة الإضراب ما لم تستجب الحكومة لمطالبهم، فقام بطرد الشيخ محمد البدوي أحد أبرز قادة لجنة صوت الطالب من مكتبه، كما ضغط على مشيخة الجامع لتقوم بطرد بعض الطلبة، لكنّ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رفض الاستجابة لهذا الطلب، فأشيع خبر فصله عن منصبه في ديسمبر ١٩٥١.[١٤٣]

بدأت المواجهة الفعليّة بين الزيتونيين والدستوريين منذ أواخر سنة ١٩٥٠، حيث كوّن الحزب مجموعة "السواعد المفتولة" التي مارست العنف والترهيب على الطلبة، وتمّ الاعتداء على الشيخ الفاضل بن عاشور، فاضطرّ الزيتونيون إلى ردّ الفعل والانخراط في موجة من العنف المضادّ، مع القيام بحملة واسعة ضدّ إصلاحات فيفري.[١٤٤] وحاول الحزب ضرب الوحدة الطلابيّة ببعث منظمات موازية للجنة صوت الطالب، ويتعلّق الأمر بمنظمتي "لسان الحياد الزيتوني" (نوفمبر ١٩٥٠) و"كتلة الدفاع عن المطالب الزيتونيّة" (مارس ١٩٥١)، فلم يساهم ذلك إلّا في مزيد توتّر الأوضاع. وبلغ العنف أوجه بين الجانبين في شهر ماي ١٩٥١ بحيث تحوّل إلى ما يشبه الحرب الأهليّة،[١٤٥] وقام الحزب الدستوري آنذاك بنشر كتيّب دعائي ضدّ عائلة ابن عاشور اتّهمها فيه بالخيانة والعمالة للاستعمار، وشبّه الفاضل بن عاشور بـ "قلاوي مرّاكش".[١٤٦]

تواصلت المعارك في الشوارع وعلى أعمدة الصحف، فاعتبرت جريدة "الأسبوع" أنّ بن يوسف هو "المسؤول عن تعطيل الدروس ومنع إجراء الامتحانات وإثارة الفتنة بين أنصاره وبين الطلبة"، كما ذكّرت بتصريح علي البلهوان في مدينة مساكن الذي قال فيه: "تحت كلّ عمامة يوجد شيطان".[١٤٧] واتّهمت بن يوسف بأنّه حوّل خلافه الحزبي مع الفاضل بن عاشور إلى خلاف واسع مع مشيخة الزيتونة ولجنة صوت الطالب، وأنّه حاول تعطيل إجراء الامتحانات بغلق الجوامع لمدّة ثلاثة أيّام، وتدخّل لدى القصر الملكي لاتّخاذ إجراءات ردعيّة ضدّ الطلبة والمشائخ.[١٤٨] وقد أكّد محمد الصالح مزالي، زميل بن يوسف في الحكومة، أنّ وزير العدل طلب من الباي عزل محمد الفاضل بن عاشور أو نفيه إلى الجنوب، لكنّ الأمين باي ردّ عليه بمكر مبيّنا أنّه لا يزال يحتفظ بعدد من جريدة "الزهرة" يتضمّن صورة بن يوسف وهو يتوسّط الطلبة مباركا إضرابهم، وقال له: أنت الذي علّمتهم التمرّد على الحكومة، وقد استفادوا من دروسك، وبما أنّك أصبحت الآن في الحكومة فاظهر أنّك لاعب جيّد.[١٤٩] ونجحت في الأخير مساعي صالح بن يوسف، فتمّ تجميد نشاط محمد الطاهر بن عاشور وتكليف الشيخ علي النيفر بإدارة جامعة الزيتونة، كما تمّ تعيين مدير جديد لمدارس سكنى الطلبة هو محمد الشاذلي النيفر المقرّب من الحزب، فقام بحرمان بعض رموز لجنة صوت الطالب من السكن الجامعي.[١٥٠]

تدلّ هذه الأمثلة والشواهد وغيرها على تأصّل العداء الذي أبداه بن يوسف تجاه الزيتونيين بمجرّد وصوله إلى الوزارة، وتؤكّد عدّة شهادات مدى الحقد الذي كان يكنّه للزيتونة وللزيتونيين، من ذلك شهادة أبو القاسم محمد كرّو الذي قال: "كان بورقيبة يكره الزيتونيين كثيرا، أمّا بن يوسف فيكرههم أكثر"،[١٥١] وذكر جلّولي فارس أنّ بن يوسف كان "يحتقر الدين الإسلامي ويستهتر بقيمه"،[١٥٢] وروى محمد الحبيب الهيلة، أحد النشطاء البارزين في لجنة صوت الطالب الزيتوني في بداياتها، أنّ صالح بن يوسف كان يقول في المجالس الدستوريّة الخاصّة: "إنّنا بمجرّد حصولنا على الاستقلال سنضع مفاتيح جامع الزيتونة في متحف باردو الأثري".[١٥٣] وتؤكّد هذه الشهادات أنّ المسألة أعمق من مجرّد خلاف سياسي، إذ تدلّ على وجود اختلاف فكري وايديولوجي عميق مرتبط باختلاف المرجعيّات الثقافيّة بين الزيتونيين المحافظين وقادة الديوان السياسي المتشبّعين بالثقافة الغربيّة وقيمها الليبراليّة.

خفت الخلاف بعد سقوط حكومة شنيق وانطلاق المقاومة المسلّحة سنة ١٩٥٢، ثمّ حصل الالتقاء السياسي بين الزيتونيين والحركة اليوسفيّة حول معارضة اتّفاقيّات الحكم الذاتي لا سيّما حول جانبها الثقافي الذي يكرّس تواصل هيمنة الثقافة الفرنسيّة، وكذلك حول معارضة بورقيبة الذي بدأ يكشف عن مشروعه التحديثي واللائكي. واختار بن يوسف أن يبدأ معارضته الصريحة من جامع الزيتونة بالذات حيث ألقى خطاب ٧ أكتوبر ١٩٥٥ الشهير، وواكب في شهر نوفمبر مؤتمر الطلبة الزيتونيين.[١٥٤]

لعب صالح بن يوسف كلّ الأوراق دفعة واحدة في صراعه السياسي والشخصي مع بورقيبة، وبما أنّ الحركة اليوسفيّة التي تشكّلت حول شخصه كانت غير متجانسة منذ الأساس، فقد استوعبت الزيتونيين المتشبثين بهويّة البلاد الثقافيّة، والحاملين لمشروع

حضاري بات مهدّدا في الصميم، فأصبح البعد العربي الإسلامي بعدا من أبعاد هذه الحركة رغم أنّ قائدها كان إلى حدّ قريب أحد أبرز خصومهم.

٤/٣-هل كان صالح بن يوسف معاديًا لسياسة المراحل ومدافعًا عن مطلب الاستقلال التّام؟

شارك الحزب الدستوري الجديد في "لجنة الدراسات والإصلاحات" السباعية ممثّلا في شخص الحبيب بورقيبة، وتوّجت هذه اللجنة مشاوراتها يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٤٤ بإصدار "الميثاق التونسي" الذي ورد فيه أنّ المشاركين "أجمعوا بعد نقاشات واسعة على أن تكون مطالب الشعب التونسي مقصورة، نظرا للظروف الرّاهنة، على مطلب الاستقلال الداخلي للأمّة التونسية (الحكم الذاتي) القائم على أساس ديمقراطي". وكان التنصيص على عبارة "الظروف الرّاهنة" من إيحاء صالح فرحات أمين عام الحزب الدستوري القديم، وذلك انسجاما مع مقرّرات حزبه الذي عقد في مارس ١٩٤٤ مؤتمرا سريّا في منزل الدكتور أحمد بن ميلاد تبنّى فيه مطلب الاستقلال التام.[١٥٥]

توسّعت هذه اللجنة في بداية سنة ١٩٤٥، بانضمام صالح بن يوسف وغيره من الدستوريين والمستقلّين إليها، وأصدرت يوم ٢٢ فيفري ١٩٤٥ "بيان الجبهة الوطنيّة" الذي تمسّكت فيه بمطلب الاستقلال الداخلي.[١٥٦] وفي سنة ١٩٤٦، التقى بن يوسف بالمقيم العام "شارل ماست" بوساطة من الطاهر بن عمار، وذلك بهدف معرفة وجهة نظر الحزب بخصوص الإصلاحات السياسيّة والاستقلال الداخلي، فاستغلّ هذا اللقاء لإحياء عمل الجبهة الوطنيّة، وإعداد كرّاس مطالب وطنيّة يحظى بإجماع مكوّناتها تمهيدا لعرضها على مؤتمر وطني. عقد هذا المؤتمر، المعروف باسم "مؤتمر الاستقلال" أو "مؤتمر ليلة القدر"، مساء يوم ٢٣ أوت ١٩٤٦ بمشاركة أبرز ممثلي النخبة التونسية الناشطين ضمن الجبهة الوطنية الموسّعة. وكان لصالح بن يوسف شرف ارتجال الاستفتاء العاجل، الذي تبنّى المؤتمرون خلاله بالإجماع مطلب الاستقلال التام.[١٥٧] وأكّدت لائحة المؤتمر "عزم الشعب التونسي الثابت على السعي في استرجاع استقلاله التام وفي الانضمام لجامعة الدول العربية ومجلس الأمم المتحدة والمشاركة في مؤتمر السّلام".[١٥٨]

تغيّرت رؤية بن يوسف للاستقلال بصفة جليّة سنة ١٩٤٧ بعد فشل إصلاحات شارل ماست وقدوم المقيم العام الاشتراكي التحرّري "جان مونص"، وعبّر عن ذلك في الندوة الصحفيّة التي عقدها يوم ٢٠ أوت ١٩٤٧، ومن أبرز ما جاء فيها: "عندما نطالب بالاستقلال، هذا لا يعني أنّ الفرنسيين يجب أن يزولوا من تونس بين عشيّة وضحاها. إنّ الاستقلال غاية مثلى نتوق إليها إمّا بتوخّي العنف أو الحوار السلمي. إنّ مذهب الحزب الحرّ الدستوري الجديد يعادي العنف. في تقديرنا يمكن الوصول إلى الاستقلال بالتعاون مع الجمهوريّة الفرنسيّة. هناك استقلال واستقلال! بالنسبة للحزب الدستوري، الاستقلال نتحصّل عليه بعد اجتياز الشعب التونسي سلسلة من المراحل".[١٥٩]

قد يحيل هذا التغيّر المفاجئ في موقف صالح بن يوسف من الاستقلال إلى نوع من التناقض، أو الانتهازيّة السياسيّة، ولكن يمكن فهمه على كلّ حال في سياق المناورة السياسيّة ولعبة التوازنات الاستراتيجيّة، وكذلك الطموحات الشخصيّة. ونشير إلى أنّ الحزب الدستوري الجديد شارك في مؤتمر الاستقلال كفصيل غير مهيمن مقارنة بالمنصفيين والزيتونيين وأعضاء الحزب الدستوري القديم، وكان عليه أن يجاري أنصار النزعة الاستقلالية المتشدّدة في ظروف نهاية الحرب العالمية الثانية، التي تميّزت بتضافر عدّة عوامل ملائمة لتجذير المطالب الوطنيّة: منها تراجع هيبة الإمبراطورية الاستعماريّة الفرنسيّة وصعوبة فرضها لمشروع الاتحاد الفرنسي، وظهور منظمات دوليّة وإقليميّة جديدة (الأمم المتّحدة وجامعة الدول العربيّة)، وسعي الحزب إلى استعادة مكانته وريادته في الساحة الوطنيّة بعد تراجع شعبيّته خلال الحرب. وبما أنّ هذا الاتحاد الذي تشكّل في إطار جبهة وطنية واسعة لم يدم طويلا، فإنّ الحزب عاد إلى ممارسة قناعاته السياسية بصفة مستقلة عن الفصائل الأخرى، وهي تقوم على الاكتفاء في مرحلة أولى بطرح مطلب الاستقلال الداخلي لكسب المزيد من الأنصار في صفوف الفرنسيين التحرّريين وتدويل القضيّة التونسيّة، وجعل الاستقلال التام غاية مثلى

يمكن الوصول إليها عن طريق الحوار والتفاوض بعد إتمام التعبئة الوطنيّة الداخليّة، أو عن طريق التصعيد والتلويح به عند الضرورة. ولم تكن هذه الاستراتيجيّة التحريريّة محلّ خلاف بين قادة الحزب في منتصف الأربعينات وبداية الخمسينيات.

حجّتنا في ذلك أنّ مسألة الاستقلال لم تكن ضمن المسائل الخلافيّة في مؤتمر دار سليم (أكتوبر ١٩٤٨)، واكتفى بن يوسف في الندوة الصحفيّة التي عقدت بعد المؤتمر بتقديم إشارات مقتضبة تتعلّق بضرورة تمتين روابط الوحدة الوطنيّة "حول ميثاق الاستقلال الذي هو هدفها الأوحد". وبيّن أنّ رحلته الأخيرة إلى مصر كشفت له أنّ بعض الدول تفاجأت بالاستقلال دون أن تستعدّ له جيّدا، لذلك قرّر تكوين لجان اقتصاديّة وثقافيّة تضمّ نخبة من المثقفين لإعداد تصوّرات وبرامج مستقبليّة.[١٦٠] واستنادًا إلى هذا المنطق الذي يجعل من الاستقلال هدفا منشودا يمكن الوصول إليه عبر مراحل، شارك بن يوسف في الحكومة التي تشكّلت في ١٧ أوت ١٩٥٠ برئاسة امحمد شنيق للتفاوض حول الاستقلال الداخلي. وحاول الحزب مع ذلك الحفاظ على الخيط الرابط بين توجّهه الجديد وبين ما التزم به في مؤتمر ليلة القدر، ويظهر ذلك في اللّائحة الصادرة عن المجلس الملّي المنعقد بتاريخ ٤ أوت ١٩٥٠ بحضور رئيس الحزب وأمينه العام، ومن أبرز ما جاء فيها مباركة سياسة بورقيبة الذي نجح في التعريف بالقضيّة التونسيّة وتوضيح "الاتّجاه الاستقلالي للحزب المستمدّ من قرار ليلة القدر بوجوب تحرير السيادة التونسيّة من جميع القيود التي كبّلتها". وصادق المجلس على السياسة التي وضعها رئيس الحزب وأمينه العام "للخروج من أزمة الوضع الحالي والقضاء على سياسة الجمود بإلغاء الحكم الفرنسي المباشر"، وأكّد ثقته في الديوان السياسي لاختيار الحلول العمليّة لتحرير السّيادة التونسيّة "في أمد معقول".[١٦١]

تعبّر هذه اللّائحة عن جوهر الموقف الحزبي من مسألة الاستقلال، فهو يتمسّك بمقرّرات مؤتمر ليلة القدر بوصفها المرجعيّة الرمزيّة والغاية النهائيّة، مع القبول بإمكانيّة تحقيق هذه الغاية المثلى بصفة مرحليّة عن طريق الحوار المباشر مع فرنسا، وتعني المرحليّة هنا المرور بوضعيّة انتقاليّة هي مرحلة الحكم الذاتي، واستعادة مقوّمات السّيادة التونسيّة تدريجيًا، ولكن في آجال معقولة. وعندما فشلت هذه التجربة التفاوضيّة مع صدور مذكّرة ١٥ ديسمبر ١٩٥١ التي أقرّت مبدأ السّيادة المزدوجة، اختار الحزب اعتماد أساليب أخرى للضغط والتصعيد وتعديل رؤيته للاستقلال المنشود. وتجلّى ذلك في تزامن بداية الكفاح المسلّح مع انعقاد المؤتمر الرابع للحزب سريًا بتاريخ ١٨ جانفي ١٩٥٢، الذي أكّد ضرورة "إلغاء الحماية وتحوّل تونس إلى دولة مستقلة ذات سيادة".[١٦٢]

ظلّ بن يوسف متمسّكا بهذا المبدأ لإيمانه بدخول الكفاح الوطني مرحلته الحاسمة، وكذلك لاقتناعه بعد اللجوء إلى مصر بالارتباط الوثيق بين التمسّك بهذا الخيار وتواصل الدعم العربي والآسيوي للقضيّة التونسية. ولكنّه لم يقطع نهائيّا مع إمكانيّة المرور بمرحلة الاستقلال الداخلي شريطة أن تكون مرحلة انتقاليّة وقصيرة المدى، ففي سبتمبر ١٩٥٢ اتّهمه العابد بوحافة بأنّه "حصر القضيّة التونسيّة في المطالبة بالاستقلال الداخلي"، فردّ عليه صالح بن يوسف بتصريح يوم ٢٠ أكتوبر الذي قال فيه: "إنّ الشعب التونسي يطالب في واقع الأمر باستقلاله التّام لأنّه أهل لممارسة السّيادة". وبرّر المنصف الشّابي هذا التضارب بالقول إنّ مطلب الاستقلال الداخلي مطلب ظرفي ربّما تجاوزته الأحداث، ولكنّه ضروري لكسب المزيد من التضامن الخارجي للقضيّة التونسيّة، والتجأ أحيانا إلى التبرير العاطفي فادّعى أنّ بن يوسف لم يكن مقتنعا بالسياسة المرحليّة لكنّه كان منضبطا لتوجهّات الحزب،[١٦٣] في حين أنّه كان منذ سنة ١٩٤٧ على الأقلّ أبرز ممثّل لهذا التوجّه داخل الحزب صحبة بورقيبة، وهو في نهاية الأمر سياسي محنّك وطموح يقيم اعتبارا كبيرا لموازين القوى الداخليّة والخارجيّة، ويميّز جيّدا ما هو تكتيكي وما هو استراتيجي، ويحكم التموقع والتعبير السّياسي عن الطموحات الشخصيّة. وقد تعهّد للاشتراكيين الفرنسيين أثناء مؤتمر الأمميّة الاشتراكية بأنّ تحقيق الاستقلال الوطني يكون "مع التوافق الكلّي وضمان المصالح العليا لفرنسا ولفرنسيي تونس واحترامها.[١٦٤] وبيّن أنّ الحوار التونسي الفرنسي يجب

أن يكون على قاعدة إلغاء الحماية وتعويضها باتّفاقيّة جديدة تضمن مصالح الطرفين، وإقرار فرنسا لتونس بأنّها دولة مستقلة وذات سيادة.(١٦٥)

وتسعفنا إحدى الوثائق المهمّة بالتعرّف على رؤية بن يوسف للاستقلال من لجوئه إلى مصر إلى بداية سنة ١٩٥٤، وهي وثيقة داخلية سريّة وجّهت إلى المنجي سليم يوم ١٤ فيفري ١٩٥٤، وتختلف بالتّالي عن التصريحات العلنيّة التي لا تكشف إلّا ما يراد كشفه، أو تلك الموجّهة إلى الخارج والتي تغلب عليها عادة لغة المناورة والدبلوماسيّة. يقول بن يوسف في هذه الرّسالة: "بعد أن رفعت الشكوى لمجلس الأمن في ١٤ أكتوبر ١٩٥٢، ودخلت البلاد في الكفاح المشروع الذي أبهر العالم، أصبحنا كبعثة من الحكومة الشرعيّة تمثّل البلاد بأسرها نصرّح بأنّ الشعب التونسي يكافح من أجل استرداد استقلاله وسيادته كاملة. وسواء في خطب أذعتها في القاهرة أو في مؤتمرات صحفيّة عقدتها بالشرق وأمريكا والسويد طيلة هاذين العامين، جعلت الهدف الذي نكافح من أجله داخل البلاد وخارجها وهو الاستقلال والسّيادة الكاملة، ولم نكن في ذلك إلّا منفذّين لقرار المؤتمر التاريخي لحزبنا، وهو المؤتمر المنعقد في ١٨ جانفي ١٩٥٢ يوم ألقي القبض عليكم جميعا، والذي نادى بوجوب إلغاء الحماية والاعتراف باستقلالنا التام كأساس وحيد لحلّ المشكل التونسي".(١٦٦)

ويضيف أنّه التقى محمود المسعدي والنوري البودالي بستوكهولم سنة ١٩٥٣، وعبّر لهما عن سخطه من سياسة التهدئة التي توخّاها الهادي نويرة وتأثيرها السلبي على قرار الأمم المتّحدة الخاصّ بتونس، فبيّنا له أنّ "مؤتمر الحزب المشار إليه انعقد في ظروف خاصّة فلا يمكن التقيّد بقراراته". ووضع بن يوسف الشروط المطلوبة للدخول في مفاوضات مع الفرنسيين، فرأى ضرورة أن تتمّ بواسطة حكومة تونسيّة ممثّلة للشعب ومتحكّمة في جميع السلطات بما فيها الماليّة والأمن والتعليم، معتبرًا أنّ الاستقلال الداخلي "مرحلة أنجزناها واجتازها الشعب"، ولا يمكن أن نطالب بعد هذا الكفاح الطويل بالاستقلال الداخلي والسّيادة الداخليّة فقط.(١٦٧)

تمثّل هذه الوثيقة حقيقة موقف صالح بن يوسف من الاستقلال بعد استقراره في مصر، وهو يختلف عن موقفه أثناء الوزارة وقبلها. ويرتبط هذا التحوّل بداهة بتغيّر الظروف الموضوعيّة سواء في تونس أو في مصر، ويحمل كذلك تأثير التجربة الشخصيّة التي بيّنت له أنّ رهان الاعتدال لم يكن مجديا، وأنّ فرنسا أسقطته من حساباتها في اختيار المحاور الأمثل بعد تكفّله بتقديم الشكوى التونسيّة إلى منظمة الأمم المتّحدة وهروبه إلى مصر حيث خضع لتأثير النظام الناصري المعادي لها. فكيف تفاعل مع خطاب منداس فرانس، الذي فتح في ٣١ جويلية ١٩٥٤ باب المفاوضات حول الاستقلال الداخلي من جديد؟

صرّح بن يوسف بالقاهرة يوم ٣٠ جويلية ١٩٥٤، أي قبل يوم واحد من خطاب قرطاج، أنّه لا يقبل أيّ تنازل عن الاستقلال التام، وأنّه لن يعود إلى تونس إلّا بعد تحقيق هذا الهدف.(١٦٨) وانتقل إلى سويسرا حيث التقى يوم ٣ أوت بمجموعة من قادة الحزب مثل المنجي سليم وعلي البلهوان والباهي الأدغم، ومنح تزكيته لمشاركة الحزب في الحكومة التفاوضيّة مذكّرا برؤيته للاستقلال.(١٦٩) وصرّح بعد الاجتماع أنّه لا يحبّ كثيرا كلمة "استقلال داخلي"، ويحبّذ استعمال عبارة "حكم ذاتي" لأنّها تعبّر عن السّيادة التونسيّة بشكل أفضل، وقال: "إنّ هذا الاستقلال الداخلي لن يكون سوى مرحلة انتقاليّة على طريق تحقيق الاستقلال التام، الذي كان دائما وما زال إلى اليوم الهدف الأسمى لحزبنا. إنّ سرعة الإنجاز هي الشاهد على حسن نوايا فرنسا".(١٧٠) وتمسّك بموقفه من خطاب منداس فرانس حتّى بعد إمضاء الاتّفاقيّات فقال: "وجاء منداس فرانس إلى تونس في ٣١ جويلية، يعلن أنّ الشعب التونسي أصبح من النضج بحيث يجعله أهلا ليتمتّع حالا وفورا بالحكم الذاتي، أو ما يسمّونه بالاستقلال الداخلي. ونحن جميعا رجال الحزب وزعماؤه قد قبلنا هذا التعهّد من فرنسا، وصرّحنا بأنّنا لا نقبل هذا الاستقلال الداخلي إلّا إذا كان مرحلة حاسمة وقصيرة جدّا نحو هدفنا الأسمى وهو استقلالنا التام.(١٧١)

يفهم ممّا تقدّم ذكره أنّ صالح بن يوسف عاد مرّة أخرى، رغم التشدّد الذي أبداه في رسالة ١٤ فيفري

١٩٥٤، إلى القبول بإمكانيّة المرور بمرحلة الحكم الذاتي على أن تكون خطوة قصيرة جدًا في طريق الاستقلال التّام. وبما أنّ المفاوضات بين حكومة الطاهر بن عمّار والحكومة الفرنسيّة قد تمطّطت أكثر من المتوقّع وتعثّرت في عدّة مناسبات، وظهرت العديد من المناورات في الكواليس، فقد عاد في أواخر سنة ١٩٥٤ إلى التصلّب في رؤيته للاستقلال، فأعلن في القاهرة يوم ٢١ ديسمبر ١٩٥٤ أنّ المفاوضات لا تستجيب لآمال التونسيين ما دامت فرنسا تريد الانفراد بتحمّل أعباء الأمن والعدالة في تونس.[١٧٢] وحصل التحوّل الحاسم في موقف بن يوسف من المفاوضات الجارية، ومن مسألة الاستقلال، في ٣١ ديسمبر ١٩٥٤ حينما صرّح في جينيف بأنّ "الشعب التونسي لن يرضى أبدا بحكم ذاتي صوري يحول دون تحقيق الاستقلال التام للوطن التونسي".[١٧٣] وحدّد في تصريح يوم ٣ جانفي ١٩٥٥ شروطًا خمسة تمثّل الحدّ الأدنى المقبول لتهيئة الاستقلال الحقيقي، وأبرزها وضع رزنامة واضحة للاتّفاقيّات التي تحدّ من السيادة كالدفاع والعلاقات الخارجيّة، وإقامة حكومة تونسيّة متجانسة ومسؤولة عن الشؤون الأمنيّة والاقتصاديّة والتربويّة، وإرجاع جميع السلطات القضائيّة إلى القضاء التونسي. وبيّن أنّ التنازلات الممكنة تشمل فقط السّماح بوجود بعثة ثقافيّة فرنسيّة، وإمكانيّة توافق السياسة الاقتصاديّة مع سياسة منطقة الفرنك الفرنسي.[١٧٤]

مرّ بن يوسف إلى خطّة سياسيّة أخرى عند استئناف المفاوضات مع حكومة ادغار فور يوم ١٥ مارس ١٩٥٥، إذ أصبح يحرّض على تعطيل المفاوضات وعرقلتها بعد أن كان يدعو إلى ضرورة التعجيل بإتمامها. ويفسّر ذلك برغبته في تصعيد الموقف مع الفرنسيين للدخول إلى مؤتمر باندونغ من موقع قوّة وتحميل فرنسا مسؤوليّة فشل المفاوضات.[١٧٥] إلّا أنّ بورقيبة وادغار فور نجحا في إفشال هذه المناورة، حيث اجتمعا مطوّلا يومي ١٨ و٢١ أفريل ١٩٥٥، وتمكّنا عبر تنازلات متبادلة من حسم جميع الأمور الخلافية، وانتهت بذلك عمليًا مفاوضات الاستقلال الداخلي التي لم توقّع إلّا في ٣ جوان ١٩٥٥ بعد يومين من عودة بورقيبة الاستعراضيّة إلى تونس.[١٧٦]

تزامن اتّفاق ٢١ أفريل مع وجود بن يوسف في باندونغ بوصفه رئيسا للوفد المغاربي المشارك في مؤتمر دول عدم الانحياز، وكان منطلق حملته السياسيّة المعارضة لاتّفاقيّات الحكم الذاتي قبل توقيعها رسميًا لا سيّما أنّ تأثير خصمه بورقيبة في سير المفاوضات أصبح حاسمًا ومباشرًا. وأصدر يوم ١٧ ماي ١٩٥٥ مذكّرة وجهّها إلى الدول العربيّة بيّن فيها أنّ الحزب الدستوري الجديد قبل إثر خطاب منداس فرانس الحكم الذاتي الذي وعدت به فرنسا، مشترطا أن يكون ذلك الخطوة الأولى نحو الاستقلال التام. وذكّر أنّ هذه التحفّظات صدرت عن الأمين العام يوم ٣ أوت ١٩٥٤، وكذلك عن رئيس الحزب يوم ٤ أوت.[١٧٧] وأكّد أنّ اتّفاق ٢١ أفريل لا يؤدّي بتونس إلى تحقيق استقلالها التام، مشيرًا إلى أنّ مؤتمر باندونغ أعلن يوم ٢٠ أفريل مساندته لاستقلال دول المغرب العربي، وهو ما أربك حكومة ادغار فور التي التجأت إلى بورقيبة يوم ٢١ أفريل وأنهت معه مسألة الاتّفاقيّات بعد أن كان الوفد المفاوض بقيادة المنجي سليم متردّدا بشأن قبولها. وأضاف بن يوسف قائلا: وبما أنّ الحكومة تستعدّ الآن لقبولها، فإنّي أعلن تحمّل مسؤوليّتي في معارضتها بصفة صريحة.[١٧٨]

تواصلت معارضة صالح بن يوسف للاتّفاقيّات، التي اعتبرها "خطوة إلى الوراء" وخيانة للثورة الجزائريّة، حتّى بعد عودته إلى تونس يوم ١٣ سبتمبر ١٩٥٥، وحصول القطيعة النهائيّة بينه وبين بورقيبة الذي اعتبرها خطوة إلى الأمام في طريق الاستقلال، الذي تحقّق في الأخير كما توقّع بورقيبة، ولكن بفضل معارضة بن يوسف وضغط الحركة اليوسفيّة.

وندرك في الأخير أنّ موقف صالح بن يوسف من الاستقلال لم يكن يتميّز دائما "بالثبات على الموقف والالتزام بمقرّرات الحزب"،[١٧٩] لأنّ ذلك لا ينطبق إلّا على الفترة التي تبدأ من لجوئه إلى مصر، ونفهم من ذلك مدى تأثير التجربة المصريّة في تغيّر بعض مواقفه إذ لا يخفى أنّ مصر شجعته على معارضة الاتّفاقيّات، إضافة إلى تأثير تشكّل الكتلة العالميّة الثالثة بباندونغ، واندلاع الثورة الجزائريّة. ولا تنفي هذه العوامل الموضوعيّة تواصل تأثير الجوانب الذاتيّة المتعلّقة

بالصراع الشخصي بين بن يوسف وبورقيبة حول الزعامة وقيادة الحزب، ثمّ حول دور المحاور الأمثل الذي يكون بالضرورة المستفيد الأوّل بعد الاستقلال والمؤهّل منطقيّا لقيادة البلاد.

خاتِمَةٌ

بيّنت هذه الدراسة أهميّة الخصال الشخصيّة والسياسيّة التي تمتّع بها صالح بن يوسف، خصال جعلت منه زعيما وطنيّا دستوريّا في المقام الأوّل، إذ تمسّك بانتمائه الدستوري إلى النهاية، وحافظ على وحدة الحزب عندما كان مهدّدا بالانقسام، وقاد المعارضة منذ سنة ١٩٥٥ بوصفه الأمين العام الشرعي للحزب، ولم يسع بالتّالي إلى أن يؤسّس حزبًا بديلاً. وإذا بدا الحزب الدستوري بالنسبة إلى البعض أقرب إلى الحركة الواسعة وغير المتجانسة، فإنّ قيادته لم تكن كذلك، فهي تضمّ في الغالب عناصر من النخبة المثقّفة ذات التكوين العصري والثقافة المزدوجة، المتشبّعة بقيم الثقافة الغربيّة الحداثيّة والمتمسّكة في نفس الوقت بالذاتيّة التونسيّة والهويّة العربيّة الإسلاميّة.

كان بن يوسف سياسيّا محترفا، وكان بشهادة جميع من عاصروه وجايلوه يتميّز بخصال الزعيم والقائد السياسي الفذّ بما يمتلكه من مواهب في الخطابة والحجاج والإقناع والتأثير في الجماهير، وكذلك بما أوتي له من دهاء سياسي وتمكّن من فنّ المناورة، ومن قدرة على كسب الصداقات والولاءات وعلى المراوحة بين البراغماتيّة والتمسّك بالمبادئ الأساسيّة. وكان رغم طبعه العنيد والحادّ ميّالا إلى العمل الجماعي المنظّم تحت إشرافه أكثر منه إلى الفردانيّة، وهذا ما يفسّر نجاحه في إعادة تنظيم الحزب الدستوري الجديد على أسس عصريّة جعلت منه القوّة الرئيسة المؤهّلة للتفاوض مع الفرنسيين، ممّا ساهم هذا النجاح في تزايد شعبيّته وتعزيز مكانته الماديّة والرمزيّة.

دخل بن يوسف في منافسة مع الحبيب بورقيبة، الذي لا يقلّ عنه دهاء وقدرة على المناورة، بل ويفوقه من حيث الكاريزما وحيازة الشرعيّة التأسيسيّة. وتبيّن لنا أنّ هذا التنازع بين رأسي الحزب يعود على الأقلّ إلى سنة ١٩٤٧، وأنّ جوهره كان شخصيّا وسياسيّا، في حين أنّ رهاناته كانت معقّدة. حسم هذا الصراع شبه الخفيّ خلال مؤتمر دار سليم بتوافق يقضي بتقاسم الأدوار والنفوذ بين الزعيمين، ممّا أدّى إلى تأجيل المواجهة الحاسمة بينهما. وظلّ بن يوسف المحاور المفضّل للفرنسيين لما أظهره من مرونة واعتدال سواء قبل تقلّده وزارة العدل سنة ١٩٥٠ أو خلال مباشرته التفاوض مع الفرنسيين حول الإصلاحات الممهّدة للحكم الذاتي، إلّا أنّه اصطدم، رغم كلّ التنازلات التي قدّمها، بالتعنّت الفرنسي، فاضطرّ إلى الهجرة نحو القاهرة سنة ١٩٥٢، تحت وطأة الشعور بخيبة الأمل ثمّ بالإقصاء بعد إصراره على تقديم الشكوى التونسيّة إلى منظّمة الأمم المتّحدة.

وانفتح هناك على تجارب نضالية آسيوية وعربية مختلفة، وعايش تحوّلات كبرى كالثورة المصرية والثورة الجزائرية، واتّصل بشخصيات مؤثّرة كجمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو وأحمد سوكارنو وعلال الفاسي، وشارك في مؤتمر عدم الانحياز بباندونغ. وقد أكسبته هذه التجربة مزيدا من التصلّب في رؤيته للاستقلال المنشود وطرق تحقيقه لا سيّما بعد اقتناع الفرنسيين بالتفاوض مع الحبيب بورقيبة الذي لقي الدعم من الاشتراكيين الفرنسيين، وجعلته يتبنّى استراتيجية تحريرية جديدة قائمة تكتيكيّا على اعتماد التوجّه العروبي والإسلامي. وقد بينّا من خلال الومضة الورائيّة التي قمنا بها للتعرّف على مسار بن يوسف أنّ التوجّهات الجديدة التي بدأت تظهر تدريجيّا في مواقفه صالح كانت مناقضة في الغالب لما كشف عنه من قناعات وأساليب نضاليّة قبل لجوئه إلى مصر، ولكن بعض بذورها كانت كامنة في أعماق شخصيّته العنيدة والمتشنجة.

وإذا كانت التجربة أو اللحظة المصريّة قد أثّرت فيه بعمق، فإنّ ذلك لم يصل إلى حدّ الانقلاب الجذري في شخصيّته، وهذا يعني أنّه كان يستعمل هذه الشعارات الجديدة بوصفها أوراقا إضافيّة يمكن توظيفها في معركته الخاصّة. وتأكّد ذلك أكثر بعد أن حصل الاتّفاق بين إدغار فور والحبيب بورقيبة شخصيّا حول حسم الصيغة النهائيّة لاتّفاقيّات الحكم الذاتي، فلم يتبقّ له سوى خيار التصعيد المستمرّ والمزايدة السياسيّة وتبنّي مختلف الخيارات التي تناقض وتقابل تلك التي يتبنّاها

بورقيبة حتّى إن كان في الأصل يشترك فيها معه. وتحوّل ذلك الاختلاف والتنافس بينهما إلى قطيعة تامّة بين مشروعين متباينين وخلاف مفتوح بين زعيمين، ثمّ تطوّر بعد تشكّل الحركة اليوسفيّة، التي استوعبت كلّ المعارضين للاتّفاقيّات ولسلطة بورقيبة وخياراته، إلى مواجهة واسعة ودمويّة بين بورقيبة وأنصاره المدعومين من أجهزة الاحتلال الفرنسي من جهة، وبين بن يوسف والحركة اليوسفيّة التي تشكّلت حول اسمه أكثر منها حول مبادئه، إذ كان بن يوسف "أسوأ ممثّل لليوسفيّة"،(١٨٠) أو لنقل إنّ وجوده على رأس هذه الحركة، التي ضمّت خليطًا من القوميين والزيتونيين والمقاومين والثوريين والمحافظين، كان في الأعمّ الغالب على أساس أنّه زعيم دستوري معارض لسلطة بورقيبة لا على أساس أنّه ثائر يحمل مشروعًا مجتمعيّا وحضاريّا بديلاً.(١٨١)

الإحالات المرجعية:

(1) Saumagne, Charles, « Une interview inédite de Salah Ben Youssef », Les Temps modernes, mars 1976.

(٢) بوقرّة، عبد الجليل، وعيسى، لطفي، "بورقيبة وبن يوسف: تهافت على الحكم...أم تصادم خيارات؟"، مجلة **المغرب العربي**، ع. ١٦٧، ١٩٨٩.

(3) Cohen-Hadria, Elie, Du protectorat français à l'indépendance tunisienne. Souvenirs d'un témoin socialiste, CMMC, Nice, 1976, p. 214 et 238.

(4) Khlifi, Omar, L'assassinat de Salah Ben Youssef, Ed. Media Com, Tunis, 2005.

(٥) شهادة حامد الزغل، مجلة **الملاحظ**، ٢٣ جانفي ٢٠٠٢.

(6) Julien, Charles-André, Et la Tunisie devint indépendante…(1951- 1957), Les Editions J.A/ S.T.D, Paris, 1985, p. 40 et 188.

(٧) بوقرّة وعيسى، بورقيبة وبن يوسف...**نفس المرجع**.

(8) Casemajor, Roger, L'action nationaliste en Tunisie. Du Pacte Fondamentale de M'hamed Bey à la mort de Moncef Bey (1875-1948), MC Editions, Tunis, 2010, p. 349.

(9) Chérif, Fayçal, « Affrontement Bourguiba-Ben Youssef. Inédit : ce que révèlent les archives françaises décembre 1955- mars 1956 », Réalités, n(o) 1152, 2008.

(10) Saumagne, une interview…op. cit.

(11) Périllier, Louis, La conquête de l'indépendance tunisienne, Editions Robert Laffont, Paris, 1979, p. 81.

وقد اعتمدنا في تعريب هذا المقطع على ما ورد في مقال: - بن عامر، علي،"سيرة صالح بن يوسف. قراءة نقدية"، تعريب محمد معالي، **أطروحات**، ع. ١٥، ١٩٨٩، ص. ٩.

(12) Questions nord-africaines, 25 mars 1935.

(13) M.A.E., Archives diplomatiques (1951), CAD, 2017, p. 39.

(14) «Comme le Dey d'Alger le nouveau maitre de la Tunisie joue trop bien de l'éventail », La Presse, 3 septembre 1950.

(15) Amrouche, Jean, « Tunisie 47 (8) », Combat, 5 août 1947.

(16) Ben Sliman, Sliman, Souvenirs politiques, Cérès Productions, Tunis, 1989, p. 263- 264.

(١٧) سعيد، الصافي، **بورقيبة: سيرة شبه محرّمة**، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٠، ص. ١٩٨.

(18) Ben Sliman, p. 273.

(١٩) التركي، عروسيّة، **الحركة الوسفيّة في تونس (١٩٥٥- ١٩٥٦)**، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ٢٠١١، ص. ٩٢.

(20) M.A. E., Documents diplomatiques français (1959), t. 2, CPDDF, 1995, p. 465.

(21) Périllier…op. cit.

(22) Mzali, Mohamed Salah, Au fil de ma vie. Souvenirs d'un tunisien, Editions Hassan Mzali, Tunis, 1972, p. 247.

(٢٣) **الأسبوع**، ٦ أوت ١٩٥١.

(٢٤) الغربي، محمد، "الأحاديث السكّرية"، **الزهو**، ١١ أوت ١٩٥١.

(٢٥) **الأسبوع**، ٢ جويلية ١٩٥١.

(26) Saumagne…op. cit.

(27) M. A. E., Archives diplomatiques (1951)…op. cit., p. 565.

(٢٨) **المركز الوطني للتوثيق**، تقرير حول صالح بن يوسف مؤرخ في ١ فيفري ١٩٥٦.

(29) Afrique-Action, 19-25 août 1961.

(30) Ben Sliman, p. 206.

(٣١) التركي...**نفس المرجع**، ص. ٣١.

(32) Bessis, Sophie) et Belhassen, Souhayr, Bourguiba. 1. A la conquête d'un destin (1901-1957), Groupe Jeune Afrique, Paris, 1988, p. 107.
(٣٣) المحاضرة الثامنة التي ألقاها الحبيب بورقيبة بمعهد الصحافة بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٧٣.
(34) Ben Sliman, p. 206.
(٣٥) شهادة المنصف الشابي في مؤسّسة التميمي، **الصباح**، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٦.
(٣٦) "مذكّرات بوبكر باكير"، **العمل**، ١١ مارس ١٩٧٦.
(37) Ben Sliman, p. 282.
(٣٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، سلسلة الحركة الوطنيّة، صندوق ٥٦ ملف ٤، مذكّرة أمنيّة بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٤٩.
(39) Cohen-Hadria, p. 214.
(٤٠) عبيد، خالد، "استراتيجية العمل الوطني لفترة الخمسينات كما حدّدها الحزب الدستوري الجديد منذ سنة ١٩٤٩ من خلال وثيقتين"، **المجلة التاريخية المغربية**، العدد ٦٧-٦٨، ١٩٩٢.
(٤١) الشابي، منصف، **صالح بن يوسف. حياة كفاح**، دار الأقواس للنشر، تونس، ١٩٩٠، ص. ٢٠١.
(42) Mestiri, Saïd, Le ministère Chenik à la poursuite de l'autonomie interne, Arcs Editions, Tunis, 1991, p. 53.
(٤٣) **الأسبوع**، ٢ أفريل ١٩٥١.
(٤٤) التركي، ص. ٦٤.
(٤٥) **أ. و. خ. ف.**، سلسلة تونس (١٩٥٦-١٩٦٩)، ص. ٤٦: برقية من المقيم العام بوايي دي لاتور إلى كريستيان فوشي بتاريخ ٣ أوت ١٩٥٤.
(٤٦) **العمل**، ١٠ نوفمبر ١٩٣٧.
(٤٧) جراد، محمد الصالح، "للحقيقة والتاريخ"، **الأسبوع**، ٣٠ أفريل ١٩٥١.
(48) Bourguiba, Habib, Ma vie, mon œuvre (1944-1951), textes réunis et commentés par Mohamed Sayah, t. 4, Plon, Paris, 1987, p. 61.
(٤٩) المعاوي، علي، **ذكريات وخواطر**، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، منّوبة، ٢٠٠٧، ص٢٧٣ وما يليها.
(50) Ben Sliman, p. 266.
(51) Ibid.
(52) Bessis et Belhassen, p. 122.
(٥٣) المعاوي، ص. ٢٧٥.
(54) Bourguiba, p. 60.
(55) Ben Sliman, p. 270.
(٥٦) المعاوي، ص. ٢٧٩.
(٥٧) شهادة حامد الزغل في مجلة **الملاحظ**، ٢٣ جانفي ٢٠٠٢.
(٥٨) **الرقيب**، ٢٦ أكتوبر ١٩٤٨.
(٥٩) المحاضرة السابعة التي ألقاها الحبيب بورقيبة في معهد الصحافة بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٧٣.
(٦٠) بوقرّة وعيسى...**نفس المرجع.**
(٦١) عبيد، خالد، "دلالات الخلاف البورقيبي الثامري بمصر وتفاعلاته (١٩٤٧-١٩٥٠)"، في: التميمي، عبد الجليل (إعداد وتقديم)، **الحبيب بورقيبة وإنشاء الدولة الوطنية: قراءات علمية للبورقيبية**، مشورات مؤسّسة التميمي، زغوان، ٢٠٠٠، ص. ١٣٤.
(62) Ben Sliman, p. 270.
(٦٣) **أ- و- ت**، س. الحركة الوطنيّة، ص. ٥٥، م. ٣، مذكّرة أمنيّة بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٤٨.
(٦٤) **الأسبوع**، ٢٤ أكتوبر ١٩٤٨.
(65) L'Action, 4 octobre 1971.
(٦٦) المعاوي، ص. ٣٤٠.
(67) Bourguiba, p. 62.
(٦٨) **الصريح**، ١٣ و ٢٠ أوت ١٩٤٩.
(٦٩) عبيد.
(70) Ben Sliman, p. 206 et 264.
(٧١) المعاوي، ص. ٣١٩.
(٧٢) **أ. و. ت.**، س. ح. و.، ص. ٥٥، تقرير أمني مؤرّخ في ١٣ سبتمبر ١٩٤٩.
(٧٣) **الأسبوع**، ١٥ جانفي ١٩٥١.
(74) Mestiri, p. 75.
(٧٥) **أ. و. ت.**، س. ح. و.، ص. ٥٦، مذكّرة أمنيّة بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٤٩، وأخرى بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٤٩.
(٧٦) **الرقيب**، ٢٦ أكتوبر ١٩٤٨.
(٧٧) **الحريّة**، ٢٤ أكتوبر ١٩٤٨.
(٧٨) **أ. و. ت.**، س. ح. و.، ص. ٥٥، مذكّرة أمنيّة بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٤٩.
(٧٩) **أ. و. ت.**، س. ح. و.، ص. ٥٦، مذكّرة أمنيّة بتاريخ في ٢٠ ديسمبر ١٩٤٩.
(٨٠) **المصدر نفسه**، مذكّرة أمنيّة بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٤٩.
(٨١) مجلة **حقائق**، عدد ٩٥٤، ١٤/٨ أفريل ٢٠٠٤.
(٨٢) **الصباح**، ١٨ أفريل ٢٠٠٦.
(٨٣) وردت هذه الشهادات في الندوة التي نظمتها مؤسّسة التميمي يوم ٤ جانفي ٢٠٠٣ حول موضوع اليوسفيّة والخلاف اليوسفي البورقيبي.
(84) Ladgham, Bahi, Correspondance : 1952-1955 : les années décisives, Cérès, Tunis, 1990.
(85) Chaïbi, Mohamed Lotfi, Socialistes français et nationalistes tunisiens : histoire d'une rencontre (1945-1956), Orbis, Tunis, 1997, p. 92.
(86) Ibid., p. 160.
(87) Saumagne.
(٨٨) **أ. و. ت.**، س. ح. و.، ص. ٥٥، مذكّرة أمنيّة بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٤٩.
(89) Chaïbi, p. 136- 140.
(٩٠) **النهضة**، ٤ جوان ١٩٥٠.
(٩١) المنستيري، المنصف، "نظرة تحليليّة خاطفة للاتّفاقيّات"، **الاستقلال**، ٣٠ سبتمبر ١٩٥٥.
(٩٢) الشايبي، محمد لطفي، "الحركة الوطنيّة التونسيّة ومطلب الاستقلال (١٨٨١-١٩٥٦)"، في: **أعمال الندوة الثالثة عشرة حول استقلال تونس ومسيرة التحرّر من الاستعمار**، منشورات المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنيّة، تونس، ٢٠١٠، ص. ٣٠.
(٩٣) **المرجع نفسه.**
(94) Le Libertaire, 2 octobre 1955.
(٩٥) الشابي، ص. ١١٦.
(٩٦) الجابري، محمد عابد، "يقظة الوعي العروبي في المغرب: مساهمة في نقد السوسيولوجيا الاستعماريّة"، في: **تطوّر الوعي القومي في المغرب العربي**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٨٦، ص. ٣٣-٣٦.
(٩٧) **الرقيب**، ٢٦ أكتوبر ١٩٤٨.
(٩٨) **الحريّة**، ١٩ ديسمبر ١٩٤٨.
(٩٩) البلهوان، علي، **نحن أمّة**، نشر جريدة الحريّة، تونس، د. ت.، ص. ٤١.
(١٠٠) هلال، علي الدين، **أمريكا والوحدة العربيّة (١٩٤٥-١٩٨٢)**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٨٩، ص. ٦٤ وما يليها.
(101) Le Libertaire, 20 octobre 1955.
(١٠٢) **الأسبوع**، ٢٢ جوان ١٩٤٧.
(١٠٣) العريبي، عبد القادر، **تونس وعلاقاتها مع بلدان المغرب العربي (١٩٤٧-١٩٨٠)**، أطروحة دكتوراة في التاريخ المعاصر، إشراف الأستاذ علي المحجوبي، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٩، ص. ٨٩-٩١.
(١٠٤) الحنّاشي، عبد اللطيف، **تطوّر الخطاب السياسي في تونس تجاه القضيّة الفلسطينيّة (١٩٢٠-١٩٥٥)**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٦، ص. ٢٤٥.
(١٠٥) **المرجع نفسه**، ص. ٢٤٩.
(١٠٦) التيمومي، الهادي، "دور القضيّة الفلسطينيّة في تعميق الوعي القومي العربي في المغرب العربي: مثال تونس"، في: **تطوّر**

الوعي القومي في المغرب لعربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ١٩٨٦، ص. ٣٢١.

(١٠٧) الحنّاشي، ص. ٢٨٩.

(١٠٨) **المرجع نفسه**.

(١٠٩) **أ. و. ت.**، س. ح. و.، ص. ٥٦، مذكّرة أمنيّة بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٤٩.

(110) Laskier, Michael, «Israel and the Maghreb at the Height of the Arab-Israeli Conflict: 1950s – 1970s », Middle East Review of International Affairs, Vol. 4, No. 2 (June 2000).

(١١١) التميمي، عبد الجليل، "المسألة الفلسطينيّة وعلاقات الحبيب بورقيبة بالمؤتمر اليهودي العالمي"، في: **الحبيب بورقيبة وإنشاء...نفس المرجع**، ص. ٤٨.

(١١٢) ضيف الله، محمد، **المدرج والكرسي: بحوث حول الطلبة التونسيين بين الخمسينات والسبعينات**، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ٢٠٠٣، ص. ٣٠.

(١١٣) **الأسبوع**، ٥ نوفمبر ١٩٥١.

(١١٤) إدريس، الرشيد، **في طريق الجمهورية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١، ص. ٢٤٤.

(115) Saumagne.

(١١٦) بن نبي، مالك، **مذكّرات شاهد للقرن**، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط. ٢، ١٩٨٤، ص. ٢٣٨. الواقعي حسب تعريفه هو الطالب المستعدّ لكلّ التواطؤات مع الإدارة الاستعمارية، والمثالي هو المستعد لرفض كلّ تواطؤ.

(117) Combat, 27 novembre 1945 et 6 octobre 1946.

(١١٨) الشايبي، ص. ٢٥.

(119) Ben Sliman, p. 262.

(١٢٠) **أ. و. خ. ف.**، السلسلة: مراسلات سياسية وتجارية، السلسلة الفرعية: تونس (١٩٤٤- ١٩٥٥)، البكرة: ٥٩٧، الصندوق: ٣٤ (تقارير جانفي- ديسمبر ١٩٤٨).

(121) La Défense, 2 août 1946.

(١٢٢) آيت أحمد، حسين، **روح الاستقلال: مذكّرات مكافح (١٩٤٢- ١٩٥٢)**، ترجمة سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر، ٢٠٠٢، ص. ١٨٠.

(١٢٣) حربي، محمد، **الجزائر (١٩٥٤- ١٩٦٢): جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع**، ترجمة كميل قيصر داغر، مؤسّسة الأبحاث العربية- دار الكلمة للنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص. ٥٨- ٥٩.

(١٢٤) شهادة بلحسين جراد في: العلاّني، عبد الحميد، **لم يناموا على الذلّ**، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس، ٢٠٠٦، ص١٢٧.

(١٢٥) بن خدّة، بن يوسف، **جذور أوّل نوفمبر ١٩٥٤**، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار الشاطبيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٢، ص. ٢١٣.

(١٢٦) عليّة الصغيّر، عميرة، **المقاومة المسلّحة في تونس في الخمسينات**، مطبعة التسفير الفنّي، صفاقس، ٢٠٠٤، ص. ١٥٥- ١٥٦.

(127) Mestiri, p. 91.

(128) Périller, Louis, La conquête de l'indépendance tunisienne, Robert Laffont, Paris, 1979, p. 277.

(129) Mzali, p.243.

(١٣٠) الشابي، ص. ٢١٣.

(131) Chérif, Fayçal, «Affrontement Bourguiba-Ben Youssef : le procès (4)», Réalités, n(o) 1167, janvier 2008.

(١٣٢) واردة، المنجي، "جذور الحركة اليوسفيّة"، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع. ٧١-٧٢، ماي ١٩٩٣، ص. ٥٠٧.

(١٣٣) **الحريّة**، ١٩ ديسمبر ١٩٤٩.

(134) Ben Sliman, p. 228.

(135) Ibid., p. 230- 234.

(١٣٦) المعاوي، ص. ٢٧٦.

(١٣٧) الهيلة، محمد الحبيب، "بورقيبة والزيتونيّون: خطوط عريضة"، في: التميمي، عبد الجليل (إعداد وتقديم)، **الحبيب بورقيبة وإنشاء...نفس المرجع**، ص. ٢٢٤.

(١٣٨) ضيف الله، **المدرج**، ص. ٢٥.

(١٣٩) التركي، ص. ٧٥.

(١٤٠) ضيف الله، محمد، "وثيقة تنشر لأوّل مرّة منذ ٦٦ عاما...الحزب الدستوري يتّهم الشيخين الطاهر والفاضل بن عاشور بالخيانة"، https://www.journal-30minutes.fr ، ٣٠ مارس ٢٠١٧.

(١٤١) ضيف الله، **المدرج**، ص. ٢٦- ٢٧.

(١٤٢) الهيلة، ص. ٢٢٥.

(١٤٣) ضيف الله، **المدرج** ص. ٣١.

(١٤٤) الهيلة، ص. ٢٢٥.

(١٤٥) ضيف الله، ص. ٢٩- ٣٥.

(١٤٦) ضيف الله، وثيقة تنشر لأوّل مرّة منذ ٦٦ عاما...**نفس المرجع**.

(١٤٧) **الأسبوع**، ٢ جويلية ١٩٥١.

(١٤٨) **الأسبوع**، ١٦ جويلية ١٩٥١.

(149) Mzali, p. 245.

(١٥٠) ضيف الله، **المدرج**، ص. ٣٥.

(١٥١) **الشروق**، ٢٧ أفريل ٢٠٠٤.

(١٥٢) التركي، ص. ١١٤.

(١٥٣) الهيلة، ص. ٢٢٤.

(١٥٤) واردة، ص. ٥٥٨.

(١٥٥) شلبي، محمد الحبيب، "خلفيات مؤتمر الاستقلال: ٢٦ رمضان ١٣٦٥هجري/ ٢٣ أوت ١٩٤٦"، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد ٢٣- ٢٤، تونس، ١٩٨١، ص. ٣٢٢.

(156) Casemajor, Roger, L'action nationaliste…op.cit., p. 246.

(١٥٧) السباعي، فوزي، **الطاهر بن عمار (١٨٨٩- ١٩٨٥): بيوغرافيا تاريخيّة**، شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، إشراف الأستاذ عبد الواحد المكني، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، تونس، ٢٠١٠، ص. ٢٦٤.

(١٥٨) شلبي، ص. ٣٢٨.

(١٥٩) الشايبي، ص. ٢٤- ٢٥.

(١٦٠) **الرقيب**، ٢٦ أكتوبر ١٩٤٨.

(١٦١) **الوزير**، ١٠ أوت ١٩٥٠.

(١٦٢) عليّة الصغيّر، عميرة، **اليوسفيّون وتحرّر المغرب العربي**، المغاربية للطباعة والإشهار، تونس، ٢٠٠٧، ص. ١٤.

(١٦٣) الشابي، ص. ١١٦.

(١٦٤) الشايبي، ص. ٢٧.

(١٦٥) عليّة الصغيّر، ص. ١٥.

(١٦٦) إدريس، ص. ٢٥٢- ٢٥٣.

(١٦٧) **المصدر نفسه**، ص. ٢٥٦

(١٦٨) التركي، ص. ١٦٦.

(١٦٩) **الصباح**، ٤ أوت ١٩٥٤.

(١٧٠) الشابي، ص. ١٣٥.

(١٧١) خطاب صالح بن يوسف بجامع الزيتونة يوم ٧ أكتوبر ١٩٥٥، **الصباح**، ٨ أكتوبر ١٩٥٥.

(١٧٢) بن عامر، ص. ١٠.

(١٧٣) عليّة الصغيّر، ص. ١٥.

(١٧٤) **الصباح**، ٥ جانفي ١٩٥٥.

(١٧٥) التركي، ص. ١٩٣.

(١٧٦) **المرجع نفسه**، ص. ١٩٤.

(177) Archives nationales d'outre- mer, Aix-en-Provence. www.cvce.eu

(178) Ibid.

(١٧٩) عليّة الصغيّر، ص. ١٤.

(١٨٠) واردة، ص. ٤٨٠.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

وباء التيفوس في مدينة الدار البيضاء
زمن الحماية ١٩١٢ - ١٩٥٦



د. مصطفى الزعير
دكتوراه التاريخ المعاصر جامعة الحسن الثاني
أستاذ الاجتماعيات بالسلك الثانوي التأهيلي
الدار البيضاء – المملكة المغربية

مُلَخّص

تُعَدّ الأمراض والأوبئة من أهم التحديات التي واجهت الإنسانية عبر تاريخها، ولم يظل المغرب والمغاربة بمنأى عنها، بل عانوا بدورهم من قسوتها، وتجرعوا مرارة تداعياتها الخطيرة، مما خلف هزات قوية شملت مختلف المستويات، حيث عرقلت تطور الاقتصاد والمجتمع المغربي، وأحدثت شرخًا في ذهنية المغاربة، وساهمت بشكل كبير في تأخر الدولة عن مصاف مجموعة من البلدان. وقد عرفت فترة الحماية بدورها تكرار موجات الأمراض والأوبئة بالمغرب، على غرار وباء التيفوس الذي شملت موجاته كل أنحاء المغرب أحيانًا، واقتصرت على مناطق محدودة أحيانًا أخرى، غير أن مدينة الدار البيضاء لم تسلم من مختلف أوبئة التيفوس خلال هذه المرحلة، وذلك بفعل موقعها الاستراتيجي، والأهمية الاقتصادية لمينائها، وكذا ارتفاع عدد سكانها وتعدد أصولهم وجنسياتهم، مما يساهم في انتشار العدوى بسرعة. وحصد وباء التيفوس العديد من الأرواح بمدينة الدار البيضاء، وأثار الخوف والرعب في نفوس المغاربة والأوربيين، الأمر الذي أجبر سلطات الحماية على التدخل لمحاولة التصدي له والتخفيف من أثاره في إطار السياسة الصحية الكولونيالية بالمغرب، ولاسيما أن مكافحة الأوبئة شكلت إحدى الاهتمامات الكبرى لسلطات الحماية، لارتباطها الوثيق بالبعد الإنساني الذي بنت عليه مشروعيتها الإمبريالية، واعتبارها وسيلة فعالة للتغلغل واستقطاب المغاربة وتحقيق التهدئة. استنادًا على الاعتبارات السابقة، ارتأينا تسليط الضوء على موضوع وباء التيفوس بمدينة الدار البيضاء زمن الحماية، وذلك من خلال إبراز أهم أوبئة التيفوس التي عرفتها المدينة زمن الحماية الفرنسية، والعوامل المفسرة لتكرارها بشكل دوري، وكذا الآثار الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عنها، إضافة إلى التدابير والإجراءات التي اتخذتها سلطات الحماية لتفادي الوباء من جهة، والتخفيف من انعكاساته الوخيمة من جهة ثانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ يوليو ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٧ أغسطس ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الوباء؛ التيفوس؛ الدار البيضاء؛ الحماية؛ التاريخ المعاصر؛ تاريخ الأمراض والأوبئة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.301245.1145 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مصطفى الزعير، "وباء التيفوس في مدينة الدار البيضاء زمن الحماية ١٩١٢- ١٩٥٦".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٢٨ – ١٤١.

Corresponding author: mustaphaezzair@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

عرف المغرب على امتداد تاريخه العديد من الأمراض والأوبئة على غرار الطاعون والجدري والتيفوس، واكتسح هذا الأخير المغرب بشكل كبير خلال القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، وزاد الأمر بعد فرض معاهدة الحماية، حيث عاث الوباء في المغرب، وتكررت موجاته بشكل دوري بفعل توالي سنوات القحط والجفاف، وقد حصد العديد من الأرواح، مما أثار الخوف والرعب في نفوس المغاربة والأوربيين.

وتُعَدّ مدينة الدار البيضاء أكثر المناطق المغربية تضررًا من وباء التيفوس زمن الحماية، بحكم موقعها الجغرافي كنقطة ربط بين شمال وجنوب المغرب، وأهمية مينائها الذي شكل البوابة الرئيسية للمغرب، وكذلك هيمنتها على النشاط الاقتصادي، إضافة إلى ارتفاع عدد سكانها سواء المغاربة أو الأجانب. وقد أحدث تعاقب هذا الوباء أثارًا اقتصادية وديموغرافية على المدينة، مما أجبر سلطات الحماية على اتخاذ عدة تدابير بهدف الوقاية منه ومواجهته. تسلط الدراسة الراهنة الضوء على وباء التيفوس بمدينة الدار البيضاء زمن الحماية الفرنسية من خلال الإجابة على التساؤلات التالية: ما هي أهم دورات التيفوس بمدينة الدار البيضاء؟ وما أبرز عواملها وآثارها؟ وأخيرًا ما هي أهم التدابير المتخذة لوقاية المدينة من هذا الوباء والتصدي له؟

أولاً: التيفوس بالدار البيضاء زمن الحماية

١/١-تعريف التيفوس

حمى حادة وبائية معدية سريعة الانتشار، وتسمى أيضًا حمى السجون وحمى المجاعات، وهو مرض يصيب جميع البلدان، والرجال والنساء وخاصة الفئات العمرية بين العشرين والأربعين، في المقابل قليل الظهور لدى الأطفال دون الخامسة من العمر، كما يظهر هذا الوباء في مختلف فصول السنة[١]. وقد عرفته جريدة السعادة بما يلي: "التيفوس من الأمراض الخبيثة الطبع المهلكة للبشرية (...) فما نزل بقوم إلا وخرت قواهم"[٢]. وتتسبب فيه جرثومة صغيرة جدا تسمى "ركتس بروفاتسكي" نسبة إلى العالمين الأمريكي" ركتس" (Rickets)والنمساوي "بروفاتسيك" (Prowaceki) اللذان اكتشفا هذا الميكروب، وتنتقل العدوى من المرضى إلى الأشخاص السليمين عبر القمل[٣]، حيث تلسع القملة الشخص فيحك المكان بأظافره، مما يحدث خدوشا في الجلد، تمكن الميكروبات من ولوج جسمه عن طريقها، فيصير مصابا بالتيفوس[٤]. وتصل مدة المرض تقريبا إلى أسبوعين، وتتعدد أعراضه:

- الأسبوع الأول: يتميز بعدة أعراض أهمها، ارتفاع درجة الحرارة، وصداع شديد في الرأس، وألم في الجسم، وسرعة دقات القلب، وكذلك جفاف اللسان، واحمرار الوجه، واحتقان العينان، وتضخم الطحال، والغثيان، وأيضًا فقدان الشهية، وقلة البول وغمق لونه، والإصابة بالإمساك وهذيان نتيجة الحمى، ثم يظهر طفح التيفوس على بطن المريض وصدره في البداية وهو عبارة عن نقط حمراء تبعد عن بعضها البعض سنتيمترا أو سنتيمترين، وتنتشر بسرعة في ظرف يومين أو ثلاثة أيام في باقي أعضاء الجسم وخاصة الأعضاء السفلى والذراعين، ونادرا ما يظهر على الوجه والعنق.

-الأسبوع الثاني: يُعَدّ حاسمًا في تحديد مصير المريض، إذ إما تتفاقم أعراض المرض، حيث يصاب المريض بهبوط حاد، وترتفع درجة حرارته بشكل أكبر، كما يسرع نبض القلب والذي يصل ما بين ١١٠ و١٢٠ دقة في الدقيقة، ويزرق الوجه، وأيضًا ينحبس البول ويشتد الهذيان هذا من جهة، أو تنخفض درجة الحرارة في أواخر هذا الأسبوع، ويستفيق المريض، ويشعر بالتحسن من جهة ثانية[٥].

٢/١-توالي التيفوس بالدار البيضاء زمن الحماية

(٢/١) ١-تيفوس: ١٩١٣ – ١٩١٤

يُعَدّ أول تيفوس بالمغرب زمن الحماية، نتج عن الجفاف الذي عم البلاد خلال هاتين السنتين، حيث انخفضت كمية التساقطات بمجموع مناطق المغرب وعلى رأسها مدينة الدار البيضاء التي عرفت كمية تساقطات بلغت ١٩٦ ملمتر فقط، في حين يصل المعدل السنوي للأمطار المدينة ٤٠٦ ملمتر، أي ما يمثل تراجعًا بحوالي ٥٢%، مما خلف أزمة فلاحية كبيرة، وكادت الأمور تأخذ منحى أكثر خطورة بسبب هذا الوضع، لكن

التساقطات المهمة التي عرفتها المدينة سنة ١٩١١ والتي بلغت ٦١٩ ملمتر وسنة ١٩١٢ التي سجلت ٤٣٩ ملمتر، وفرت كميات مياه مهمة، مكنت من تعويض الضعف الشديد للأمطار سنة ١٩١٣ [٦].

وقد عاش المغرب خلال هاتين السنتين أوضاعًا جد مزرية اقتصاديًا واجتماعيًا، خصصت لها جريدة السعادة حيزًا من صفحاتها، إذ أوردت: "لقد بلغت الحالة الاقتصادية بالمغرب أقصى درجات الضيق لأن النحل الذي نزل بالغلال منذ عامين والثورات الماضية تركت المغاربة على بساط الفقر، ثم انحبس المطر ونفد الزرع وجف الضرع ونشفت الينابيع وأجدب المرعى وماتت البهائم جوعا وفر الفلاحون من الداخلية إلى المراسي يطلبون الأرزاق"[٧].

اضطرت هذه الظروف المزرية العديد من سكان البوادي إلى الهجرة نحو المدن، فانتشر التيفوس خلال شتاء سنتي ١٩١٣ و١٩١٤ بفاس ومكناس وسلا والجديدة، لكن ذروته سجلت بالرباط والدار البيضاء، حيث عرفت هذه الأخيرة خلال الخمسة الأشهر الأولى من سنة ١٩١٤ تسجيل ٦٠٠ إصابة في صفوف المغاربة و٢٠٠ لدى الأوربيين. ولم يخلف هذا الوباء إصابات فقط بالدار البيضاء، بل أدى إلى العديد من الموتى قدروا بالمئات سنة ١٩١٣، وخلال الفترة الممتدة بين نونبر ١٩١٣ ومارس ١٩١٤ راح ضحيته حوالي ٣٠٠٠ شخص ما بين مغاربة وأوربيين[٨].

لقد كان تيفوس ١٩١٣- ١٩١٤ حدثًا مأساويًا على المغاربة والأوربيين بالدار البيضاء وعلى رأسهم الأطقم الطبية، إذ تكدست حالات المصابين وجثث الموتى بالطرق في مشهد درامي بسبب سرعة تفشي الوباء، واستعمال وسائل بدائية كالعربات في نقل المرضى، وكذا قلة الأدوية. وقد وصف الصحفي الفرنسي "كريستيان هويل" (Christian Houel) هول هذا الوباء بمدينة الدار البيضاء قائلاً: "كشفت لي زيارة الدكتور "أزيمار"(Azemar) مدى تفشي الوباء فأدخلني خادمه إلى غرفة الطبيب طريح الفراش مع حمى تزيد عن أربعين درجة. قال لدي التيفوس (...) وباء التيفوس ينتشر بسرعة إذا لم نتخذ إجراءات فورية للحد منه فسينهي حياتنا جميعا (...) لقد أودى وباء التيفوس بحياة العديد من الأوربيين (...). غادرنا ساحة فرنسا فجرا بقيادة ممرضين على متن عربتين إحداهما للأحياء وأخرى للأموات، بمجرد وصولنا إلى طريق مديونة، صادفنا جسدا جامدا ملقى على الرصيف، إنه رجل ميت أمسكناه من رأسه وقدميه وحملناه إلى العربة تاركا على الرصيف بقعة مبللة لم أدري ما هي. وفي منطقة بعيدة من ذلك المكان أجساد أخرى تنهض من الأرض ووجوههم تتلوى من الألم وأوعيتهم متسعة بسبب الحمى، يستمر الحصاد ١٢ مصاب بالتيفوس لا يزالون على قيد الحياة التقطنا ٦ قتلى.(...) لم يكن هناك علاج آخر بسبب قلة الموارد المالية غير الكينين، وقد رفض ثلاث أرباع المرضى تناوله لأنهم لا يثقون في أدويتنا. نمر مع الممرضين بين الأجساد الممدودة من أجل سحب الموتى وحين امتلأت العربة الأولى بالفعل بدأنا في حملهم على العربة المخصصة للأحياء[٩]". وتبرز هذه الشهادة الوضع المأساوي الذي عرفته مدينة الدار البيضاء خلال وباء التيفوس سنتي ١٩١٣ و١٩١٤، فقد أثار الرعب في النفوس وجعل السكان في حيرة من أمرهم بفعل خطورته لاسيما في ظل قلة الموارد المالية المرصودة لمكافحته.

(٢/١) ٢-تيفوس ١٩٢٠-١٩٢١

انطلق هذا التيفوس من المنطقة الشرقية للمغرب، إذ ساهم دور تازة كممر استراتيجي[١٠]، وضيق المعيشة في ظهور إصابات بالحمى التيفوسية[١١]، وانتقل من تازة إلى مختلف مناطق المغرب[١٢]، ثم وصل لمدينة فاس ونواحيها، حيث ظهرت بعض الإصابات في سجن باب الدكاكين[١٣]. في حين ظهرت أولى الحالات بمدينة الدار البيضاء بسجن علي مومن وانتشرت العدوى بالمدينة[١٤]، كما برزت بعض الحالات الأخرى في مقالع الحجارة وأوراش العمل نتيجة اختلاط العمال السجناء مع غير السجناء، وساهم هؤلاء بدورهم في نشر العدوى بين عائلاتهم، مما أدى إلى ارتفاع عدد الحالات إلى ٨٦ حالة، توزعت بين ٦١ إصابة في صفوف السجناء، وحالة واحدة لدى العمال، إضافة إلى ٢٤ حالة متفرقة بالمدينة. وقد ساهم في تفشي هذا الوباء وارتفاع عدد المصابين عدة عوامل، على غرار الازدحام، وقلة الماء، وكذا البؤس،

إضافة لاستقرار السكان في بيوت قليلة الهواء والنور، وأيضًا عدم الالتزام بالتدابير الوقائية[١٥].

(٢/١) ٣-تيفوس ١٩٢٧-١٩٢٨

نتج تيفوس ١٩٢٧- ١٩٢٨ عن جفاف حاد شمل مختلف مناطق المغرب لاسيما الجنوبية، وخلف مجاعة بفعل قلة المحاصيل، مما أجبر العديد من السكان على مغادرة مناطقهم والنزوح نحو المناطق الشمالية، فأدى هذا الأمر إلى تفشي الوباء وانتشاره بمختلف مناطق المغرب، ومن بينها الدار البيضاء التي انطلقت العدوى فيها من سجن علي مومن، وامتدت إلى المناطق المحيطة بالمدينة، فأضحت بذلك بؤرة رئيسية للوباء، وخاصة في ظل الحركية الهامة التي تربطها بضواحيها[١٦]. وخلف هذا التيفوس العديد من الإصابات بمختلف المناطق المغربية خاصة بالمدن الكبرى مثل مراكش التي بلغ عدد المصابين بها ٢٤٧٩ حالة، ويعزى تفاقم عدد الحالات بها إلى هجرة السكان نحوها من المناطق الجنوبية مركز انطلاق هذا الوباء، وتلتها مدينة الدار البيضاء بمجموع ١٦٦٧ إصابة خلال سنتي الوباء، وذلك ما يبرزه الجدول التالي:

جدول رقم (١)

توزيع حالات التيفوس بالمغرب **1927**-١٩٢٨[١٧]

المنطقة	عدد الحالات المسجلة	المنطقة	عدد الحالات المسجلة
الدار البيضاء	١٦٦٧	وجدة	١٠٩
الرباط	٣٩٦	مراكش	٢٤٧٩
الغرب	١١٤	أسفي مع عبدة وشياظمة	٢٣٦
مكناس بما في ذلك أقاليم تافيلالت والأطلس المتوسط.	٢٩٧	مازغان	٢٢٧
فاس	١٢٦	تازة	٢٧

(٢/١) ٤-تيفوس ١٩٣٧-١٩٣٨

عرف النصف الثاني من الثلاثينات أزمة حادة بالمغرب، فقد اتسمت سنة ١٩٣٥ بنقص المحاصيل وارتفاع أسعار المواد الغذائية، وساد الجفاف بالشمال المغربي سنة ١٩٣٦، ولم يحصل الفلاحون حتى على ما زرعوه سنة ١٩٣٧ من بذور بالمغرب الشرقي وفي كل مناطق جنوب مراكش سواء الحوز وسوس ودرعة وتافيلالت، إضافة إلى ذلك عم الجفاف مختلف مناطق المغرب سنة ١٩٣٨ باستثناء المناطق الشمالية، فقلت المحاصيل وهلكت الماشية وظهر التيفوس. وقد أدى هذا الوضع المزري إلى هجرة موجات بشرية من المعوزين نحو المناطق الشمالية للعمل في الأراضي الفلاحية أو نحو المدن التي توفر فرص الشغل، وحملت هذه المجموعات من النازحين الوباء، تاركة في طريقها ضحايا الجوع والوباء من مرضى وقتلى وتكدست في ضواحي المدن وفي هذا الصدد أورد ألبير عياش: "كانت هذه المجموعات الحاملة للوباء (...) تعلم بالجثث بالطرق التي تسلكها. وتضخمت الأحياء المحيطة بالمدن واتسعت رغم جهود السلطات في محاصرة هذا المد[١٨]". وقد عم هذا التيفوس مختلف المناطق المغربية، لكن سجلت أعلى معدلات الإصابة بمدينتي مراكش والدار البيضاء، وذلك ما يبرزه الجدول التالي:

جدول رقم (٢)

توزيع الإصابات بتيفوس ١٩٣٧-١٩٣٨[١٩]

المنطقة	عدد الحالات المسجلة	المنطقة	عدد الحالات المسجلة
الدار البيضاء	٢٩٥٢	وجدة	٦٥
الرباط	٥٨٩	مراكش	٤٣١١
الغرب	١٢٩	أسفي مع عبدة وشياظمة	٢٢٤
مكناس بما في ذلك أقاليم تافيلالت والأطلس	١٢٨	مازغان	٣٨٠

المنطقة	عدد الحالات المسجلة	المنطقة	عدد الحالات المسجلة
المتوسط			
فاس	٤٠٢	حدود درعة	٢٥
تازة	٧٦		

لقد تفشى التيفوس بالدار البيضاء في دجنبر١٩٣٧، وبلغ ذروته في مارس من سنة ١٩٣٨، واستمر إلى غاية يونيو من نفس السنة، وانتشر بالشاوية ودكالة بفعل الاتصالات المباشرة والمتعددة بين هذه المناطق ومدينة الدار البيضاء[٢٠]. وقد خلف هذا الوباء أثارا سلبية على ساكنة المدينة.

جدول رقم (٣)

عدد حالات التيفوس المعلنة

من فاتح أكتوبر ١٩٣٧ إلى ٣٠ شتنبر ١٩٣٨ بالمكتب الصحي للدار البيضاء[٢١]

الشهور	الأوربيون	المغاربة يهود ومسلمون	الشهور	الأوربيون	المغاربة يهود ومسلمون
أكتوبر	٠	٠	أبريل	٣٨	٦٦
نونبر	١	١٥	ماي	١٩	٣٥
دجنبر	٤	٧٢	يونيو	٩	٤٢
يناير	١٣	٣٩	يوليوز	٣	١٤
فبراير	٢٧	٦٣	غشت	٢	٥
مارس	٤٣	١٩١	شتنبر		

لم يخلف هذا الوباء إصابات فقط في صفوف سكان الدار البيضاء، بل تعدى الأمر، حيث حصد العديد من القتلى خاصة في صفوف المغاربة. وفيما يلي عدد الوفيات بالتيفوس بالدار البيضاء سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨.

جدول رقم (٤)

العدد التقريبي لوفيات التيفوس بالدار البيضاء سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨[٢٢]

السنوات	المسلمون	اليهود
١٩٣٧	٩٨٢	١٤٩
١٩٣٨	١٩١٩	٢٥٧

لقد أضحى هذا الوباء عاملاً أساسيًا من عوامل وفاة سكان المدينة، وعنصرًا مهمًا في تحديد معالم النمو الديموغرافي، إذ لم يخل شهر واحد خلال سنتي الوباء من وفاة عدد من سكان المدينة بسببه، فقد شهدت سنة ١٩٣٧ حوالي ٤٨٢٣ وفاة في صفوف المغاربة، من بينها ٣٥٧ وفاة نتيجة وباء التيفوس، توزعت عبر أشهر السنة كالأتي:

جدول رقم (٥)

عدد الوفيات المغاربة بالدار البيضاء سنة ١٩٣٧[٢٣]

الشهور	عدد الوفيات		عدد حالات التيفوس المصرح بها		
	المسلمون	اليهود	المسلمون	اليهود	المجموع
يناير	٢١٧	٦٤			
افبراير	١٨٧	٥٩			
مارس	٢٨٥	٨٥	٢		٢
أبريل	٢٤١	٦٧	٥		٥
ماي	٢٧٣	٤٦	١٥٦	٣	١٥٩
يونيو	٢٩٦	١٠٠	١٢٧	٩	١٣٦
يوليوز	٣٧٩	١٣٨	٢٣	٠	٢٣
غشت	٤٢١	٩٦	٩	٢	١١
شتنبر	٢٩٧	٧١	٨	٠	٨
أكتوبر	٣٥٤	٦٧	١	٠	١
نونبر	٤٢٢	٧٤	١	٠	١
دجنبر	٥٠١	٨٣	٧	٦	١٣

وعرفت سنة ١٩٣٨ ما مجموعه ٥٦٨٤ وفاة بمدينة الدار البيضاء في صفوف المغاربة، من بينها ٥١٥ وفاة بفعل وباء التيفوس، توزعت عبر الأشهر العشرة الأولى من السنة على الشكل التالي:

جدول رقم (٦)

عدد الوفيات المغاربة بالدار البيضاء

خلال الأشهر العشرة الأولى من سنة ١٩٣٨[٢٤]

عدد حالات التيفوس المصرح بها					
الشهور	عدد الوفيات		المسلمون	اليهود	المجموع
	المسلمون	اليهود			
يناير	٥٩٣	١٢٧	٤١	٢	٤٣
فبراير	٦٦٢	١٢٦	٤٨	١٠	٥٨
مارس	٤٤٣	٩٢	١٤٧	٢٨	١٧٥
أبريل	٥٥٣	١٢٢	٧٩	١٥	٩٤
ماي	٥١٧	١١٨	٣٦	٢١	٥٧
يونيو	٤٤٨	١١١	٢٨	٢٢	٥٠
يوليوز	٣٩٨	١٠٠	١٤	١٢	٢٦
غشت	٣٣١	١٣٠	١٠	١	١١
شتنبر	٣٣٠	٩٧	١	٠	١
أكتوبر	٣٢٥	٦١	٠	٠	٠

غير أن هذه الأرقام تظل نسبية، ويعزى ذلك لندرة بلاغات المغاربة سواء المسلمين أو اليهود عن حالات التيفوس، فقد كانوا يحرصون على إخفائها، مما استحال معه تحديد الرقم الدقيق للحالات والوفيات الناجمة عن هذا المرض من طرف السلطات الصحية[٢٥]. وعلى عكس ذلك كان الأوربيون يصرحون بحالات الإصابة بالتيفوس لمكتب الصحة بالمدينة من أجل تلقي العلاج وحماية أنفسهم من خطره، فقد بلغ عدد الأوربيين المصرحين لمكتب الصحة بالدار البيضاء خلال هذا الوباء ما يلي:

جدول رقم (٧)

عدد حالات ووفيات الأجانب

بمدينة الدار البيضاء خلال تيفوس ١٩٣٧ – ١٩٣٨[٢٦]

السنوات	عدد الحالات	عدد الوفيات
١٩٣٧	٢٦	٩
١٩٣٨	١٥٥	٥١

وقد ساهم النشاط المهني بشكل أساسي في إصابة الأوربيين بالوباء، فقد كان معظمهم عاملون في المجال الطبي من أطباء وممرضين، ومصففي الشعر لاسيما في وسط الفقراء، وكذا عمال المنازل، وكذلك الذين يترددون على مناطق استقرار المغاربة، ناهيك عن كبار السن وخاصة المصابين بأمراض مزمنة والذين شكلوا ثلثي الوفيات[٢٧]. ومثل الفرنسيون نسبة ضئيلة من عدد الوفيات، فقد عرفت مدينة الدار البيضاء خلال الفترة الممتدة ما بين شهر دجنبر ١٩٣٧ وماي ١٩٣٨ وفاة ٢٨ فرنسي من مجموع ٤٥٠٠٠ و٢٠ أجنبي من مجموع ٢٦٠٠٠ فقط. ويرجع هذا التفاوت لاختلاف أسلوب العيش بين الفرنسيين وباقي الأوربيين، وخاصة الإسبان والبرتغاليون والإيطاليون، والذين ينتمون في الغالب إلى الطبقة الفقيرة، ويعيشون في اتصال وثيق مع المغاربة، كما يتشاركون معهم عاداتهم[٢٨].

(٢/١) ٥-التيفوس بالدار البيضاء خلال الحرب العالمية الثانية

أدت ظروف الحرب العالمية الثانية إلى حدوث نقص حاد في المواد الغذائية خاصة الأساسية منها، مما جعل سلطات الحماية تقوم بتقنينها، إضافة إلى شح كبير في ووسائل التنظيف بالمغرب، فترتب عن ذلك تهيئ الظروف المواتية لظهور موجات من وباء التيفوس، فتكت بالمغاربة مستغلة ظروفهم المزرية ماديًا ومعنويًا.

وانطلق هذا التيفوس من الحدود المغربية الجزائرية، ووصل إلى المنطقة الشرقية، ثم تازة وفاس ومكناس، ومن ناحية أخرى إلى تافيلالت، في حين لم يمس الجنوب الغربي للمغرب على عكس الفترات السابقة التي كانت خلالها أكثر المناطق تضررا[٢٩]. وسلك هذا التيفوس طريقا مشابها لتيفوس ١٩٢٠، حيث انتشر من الشرق نحو الغرب وهو أمر مخالف لمعظم أوبئة التيفوس بالمغرب والتي انطلقت من الجنوب نحو الشمال[٣٠].

وقد عرفت سنة ١٩٣٩ إصابة ١١٠٠ حالة معظمها في صفوف المغاربة، وسجل١٠٧١ منها خلال النصف الأول من السنة، في حين لم يعرف النصف الثاني سوى ٣٩ إصابة، حظيت الشاوية بنصيب مهم ضمنها بلغ ٤٩١، أي ما يمثل تقريبًا نصف عدد المصابين، متجاوزة

بكثير مدينة مراكش التي احتلت المرتبة الثانية بحوالي ١١٥ مصاب، في حين وصل عدد الحالات بالرباط ١٠٦[٣١]. وشهدت سنة ١٩٤١ ارتفاع شدة الوباء وتزايد عدد الحالات بالمغرب، حيث بلغت ١٦٦٧، شملت مختلف مناطق المغرب. ويبين الجدول أسفله ذلك بجلاء.

جدول رقم (٨)

توزيع حالات التيفوس بالمغرب سنة ١٩٤١[٣٢]

المناطق	الحالات	المناطق	الحالات
تازة	٥٧٤	الشاوية	١٥٧
فاس	٢٣٥	الدار البيضاء واد زم	١٢
تافيلالت	١٢٥	مازغان	٤
مكناس	٤٥	أسفي الصويرة	٤
الغرب	٤٥	مراكش	١٧
الرباط	٣٣	أكادير	٣

وقد أدى تدني الأوضاع الاقتصادية بالمغرب سنة ١٩٤٢ إلى نقص المواد الأساسية، فاضطر المغاربة للانتظار فترات طويلة في صفوف ممتدة أمام متاجر المواد الغذائية، وزاد الأمر سوءا بفعل قلة الملابس وأدوات التنظيف كالصابون والمواد المضادة للطفيليات، ناهيك عن تعدد الاحتكاكات في وسائل النقل العمومية، مما وفر الظروف المواتية لتفشي التيفوس، حيث ارتفع عدد المصابين سنة ١٩٤٢ إلى ٢٨٨٠٢ حالة من بينها ٥٥٦ أوربي، وسجلت معظم الإصابات بمنطقة الشاوية[٣٣]. وتوزعت على الشكل التالي:

جدول رقم (٩)

توزيع حالات التيفوس بالمغرب سنة ١٩٤٢[٣٤]

المناطق	عدد الحالات	المناطق	عدد الحالات
وجدة	٢٥٦٥	أكادير	٨٠٨
تازة	٣٣٣٠	ورزازات	٢٠٠
فاس	٣٧٠٠	أسفي-موكادور	١٠١
تافيلالت	٢٠٨٩	مراكش	٦٥١
مكناس	٢٧٣٤	دكالة	٥٤١
الغرب	٣٣٢٦	الدار البيضاء-وادزم	٨٠٤
الرباط	٤٥٧٧	الشاوية	٣٣٧٦
المجموع	٢٨٨٠٢		

بلغ عدد المصابين بالدار البيضاء سنة ١٩٤٢ حسب مكتب الصحة ٣٢٠ حالة من بينها ٣٦ يهودي و٥٦ أوربي. أما على مستوى الأحياء، فقد عرفت المدينة القديمة ٧٠ حالة، والمدينة الجديدة ٨٢ إصابة، في حين سجلت الأحياء الخارجية للمدينة ١١٤ حالة، وبلغ عدد الوفيات ٦٣، من بينهم ٤٧ مسلم، و٧ يهود، و٩ أوروبيين[٣٥]. لكن سرعان ما انخفضت أعداد المصابين سنة ١٩٤٣ إلى ١٦١٩١ حالة، سجلت معظمها بالشاوية والدار البيضاء. ويوضح الجدول أسفله ذلك.

جدول رقم (١٠)

توزيع حالات الإصابة بالتيفوس سنة ١٩٤٣[٣٦]

المناطق	عدد الحالات	المناطق	عدد الحالات
الشاوية	٣٣٢٩	فاس	١٥٢٤
الدار البيضاء دكالة	٦٥٩	وجدة تازة	٦٢٥
وادزم	٢٥١٠	مراكش	٥١
الرباط	٧٢٢	ورزازات	٤٢٥
الغرب	٥٧٢	أسفي الصويرة	١٢٥٣
مكناس تافيلالت	١٠٣٥	أكادير	٢٢٣
المجموع	١٦١٩١		

واصل وباء التيفوس فتكه بالمغاربة خلال سنة ١٩٤٥ لاسيما في ظل سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

بفعل الحرب العالمية الثانية، والاستنزاف الاستعماري للمغرب، مما أدى لموجة من الهجرة نحو المدن الكبرى كالدار البيضاء، فعم الوباء مختلف المناطق، ونالت منطقة الشاوية حصة الأسد من الإصابات، يتضح ذلك جليًا من خلال الجدول التالي:

جدول رقم (١١)

توزيع حالات الإصابات بالتيفوس سنة ١٩٤٥[٣٧]

المناطق	عدد الحالات	المناطق	عدد الحالات
الشاوية	٢٣٢٧	فاس	٨١٠
الدارالبيضاء دكالة	١٢	وجد تازة	١٢٤
وادزم	٧٢٧	مراكش	٥٢
الرباط	٣٧١	مراكش ورزازات	١٠٢٦
الغرب	٣٦	أسفي	١٥٣
مكناس	٤٠٦	الصويرة	١٩٧
تافيلالت	٩١٥	أكادير	٨٣٠

ثانيًا: وسائل الوقاية ومواجهة التيفوس بمدينة الدار البيضاء

أدى توالي وباء التيفوس بالمغرب منذ مطلع الحماية، وحجم الخسائر البشرية التي نتجت عنه، إضافة للرعب الذي خلفه في النفوس، لاتخاذ عدة تدابير وإجراءات بغية الحد منه خاصة في الدار البيضاء، مدينة المال والأعمال، والوجهة الأساسية للأوربيين وفي مقدمتهم الفرنسيين، وقد تنوعت أساليب مكافحته، واتخذت أشكال متعددة، تنوعت بين الإدارية والتحسيسية والطبية، وذلك بهدف سد جميع الثغرات التي من شأنها أن تساهم في انتشاره بالمدينة.

١/٢-الإجراءات الإدارية

(١/٢) ١-تنظيف المدن

بذلت بلديات المدن المغربية وعلى رأسها الدار البيضاء مجهودات كبيرة لتطويق وباء التيفوس زمن الحماية، وذلك عن طريق اتخاذ عدة تدابير من بينها نظافة المدن، وكانت الدار البيضاء سباقة إلى توفير السبل من أجل ذلك منذ مطلع الحماية، حيث عقدت البلدية اتفاقية مع شركة فرنسية سنة ١٩١٤ لجمع أزبال المدينة، وإنشاء البنيات التحتية بالمدينة، وفي هذا الصدد أوردت جريدة السعادة ما يلي: "اجتمع المجلس البلدي وعقد مع كمبانية فرنساوية لأجل تنظيف المدينة ورفع الأزبال منها، ثم بحث المجلس بشأن جر المياه (...)وترصيف الطريق الدائرة بالمدينة وجعل خريطة عمومية للمجاري الحارة والقنوات المؤدية له"[٣٨]. وقد قامت الشركة بالتعاون مع البلدية بتنظيف الطرق والأزقة، ولاسيما التي يسكنها أو يتردد عليها الأوربيون، وتبييض واجهات بيوت هذه المناطق بالجير مرة واحدة كل شهر[٣٩].

كما قامت بلدية الدار البيضاء بمجهودات لتزويد المدينة بالماء الصالح للشرب ومياه الغسيل التي افتقرت لها معظم الأحياء خاصة الصفيحية، مما أعاق ضمان نظافة بدن السكان المغاربة وملابسهم، وساهم في تفشي الأمراض كالتيفوس[٤٠]. وتتمثل تلك الجهود في توقيع اتفاقية مع شركة فرنسية، التزمت بتزويد السكان بالماء بسعر فرنك وثلاثين سنتيما للمتر المكعب دون احتساب النفقات الأخرى اللازمة لإدخال الماء إلى البيوت والمساكن، وكانت هذه الشركة تجلب المياه من مصادر مختلفة، إذ دأبت تزويد المدينة بكمية ١٥٠٠٠ متر مكعب يوميا من عين المعزي، و٢٥٠٠٠ متر مكعبا لإطفاء الحرائق ورش الطرقات من عين مليل[٤١]. إضافة لذلك بذلت البلدية جهدًا كبيرًا للقضاء على السكن الصفيحي بالدار البيضاء[٤٢].

ولم تتوقف جهود البلدية في مجال النظافة عند هذا الحد، بل شملت جميع مرافقها، حيث دعت أصحاب المباني والمحلات التجارية إلى تنظيف الرصيف المجاور لهم مرتين في اليوم بمبيض كريزيل (crésylée) أو ماء

جافيل، بل واصل الأمر إلى إجبار كل من رفض ذلك، ناهيك على تنظيف فنادق ومقاهي المغاربة مرة واحدة على الأقل في الأسبوع من طرف أصحابها أو عمال النظافة بالبلدية، ومراقبة الحمامات التي تعد أكثر أماكن تبادل الطفيليات بفعل الازدحام، كما فرضت البلدية تنظيف المكاتب الإدارية المفتوحة للعموم، وقاعات الحفلات والأسواق مرتين في اليوم، ووسائل النقل العمومية، ومنعت ركوب الأشخاص بمظهر غير نظيف، وعملت على رش جميع الحافلات القادمة من القرى بمبيض كريزيل عند وصولها إلى المرآب، وكذلك وسائل النقل الخاصة كالسيارات[٤٣].

(١/٢) ٢-التطهير والتفلية

ينتقل داء التيفوس عن طريق لسعات القمل الحامل للفيروس من شخص مصاب لآخر، لذلك شنت سلطات الحماية الحرب على القمل[٤٤]، وذلك بواسطة تنظيم عملتي التفلية والتطهير واللتان تعدان الحل الأساسي للوقاية من هذا الوباء، ووسيلة أساسية لا مفر منها مادام القمل يساوي انتقال العدوى[٤٥]، وفي هذا الصدد بذلت مجهودات لإجرائهما بشكل دوري في جميع التجمعات والشركات الكبرى، لاسيما الأفراد الذين يحتكون مع الأوربيين، سواء عمال البيوت، أو ملمعو الأحذية وكذلك الحمالون، حيث حجزت لهم حصص خاصة في مراكز التطهير، على غرار محطة الصحة البحرية بالدار البيضاء التي تقوم بتطهير جميع عمال الميناء والحمالين الذين يستقلون القوارب بانتظام، كما جهزت المدارس والسجون بحمامات للتطهير[٤٦]. ونظرًا لأهمية هذه العملية في صد التيفوس، قررت اللجنة البلدية للدار البيضاء في ٦ ماي ١٩٣٨ حماية المدينة من عودة محتملة له، عن طريق إنشاء ست محطات تفلية بكل من عين الشق، وبوسبير خديم، والمدينة الجديدة، والمدينة القديمة (الملاح)، وروش نوار ومحطة الحي الصفيحي.

جدول رقم (١٢)

محطات التفلية بالدار البيضاء[٤٧]

المحطة	التجهيزات	التكلفة المالية
عين الشق	غرفة كبريت لحافلات المغاربة	٣٠٠٠٠
	محطة تفلية	٣٠٠٠٠
	معزل صحي	٧٥٠٠٠٠
بوسبير خديم	شراء معدات التفلية لإزالة القمل	٤٥٠٠٠
المدينة الجديدة	تشييد وتجهيز المحطة	١٤٥٠٠٠
محطة المدينة القديمة (الملاح)	تشييد وتجهيز المحطة	١٤٥٠٠٠
محطة روش نوار	-	-
حي الصفيح	تشييد وتجهيز المحطة	٣٠٠٠٠٠
مجموع المصاريف	١٤٤٥٠٠٠	

وبلغ عدد التفليات بالمغرب ٩٨٤١١٤ وعمليات التطهير ٦١٠٥٦٥ سنة ١٩٣٨[٤٨]، في حين عرفت سنتي ١٩٤١و١٩٤٢ حوالي ١١٣٦٤٨٠ عملية تطهير و١٤٢٠٢٦٧ عملية تفلية[٤٩]. وقامت الصيدلية المركزية بالدار البيضاء بتحضير محلول النيكوتين لاستخدامه لنقع الأغطية والملابس من أجل قتل الحشرات[٥٠].

(١/٢) ٣-منع السكان من الهجرة والإعادة القيسرية

اتخذت سلطات الحماية عدة تدابير لحماية المدن الكبرى وعلى رأسها الدار البيضاء من تدفق السكان القرويين، وتجنب النزوح الجماعي للمعوزين نحوها،

وكذا تثبيت الفلاح وعائلته في البوادي، وفي مقدمتها مكافحة الفقر، ومواجهة أثار الجفاف، وذلك بسن برامج واسعة للأشغال الهيدروليكية تسمح باستخدام جميع المياه المتاحة، ومنح الفلاحين القروض والبذور ووسائل العمل، إضافة إلى فتح الأوراش الكبرى لتوفير فرص الشغل، وتوزيع الطعام على كبار السن الذين لا يستطيعون العمل، كما عملت على مراقبة الهجرة وإيقافها بكل الوسائل، بإصدار تصاريح المرور ووضع حواجز المراقبة عند أبواب المدن(٥١). ويستشف من هذه التدابير رغبة سلطات الدار البيضاء في منع وصول السكان إليها بشتى الوسائل.

لكن رغم هذه الإجراءات، كان العديد من المهاجرين يصلون إلى الدار البيضاء، لذلك اتخذت السلطات إجراءات على مستوى المدينة لضبطهم وإعادتهم لديارهم، إذ شنت مصلحة الشرطة سلسلة من الاعتقالات في صفوف المتشردين في الشوارع والأزقة، وسهرت على اتخاذ الاحتياطات اللازمة في حقهم، بتغيير ملابسهم، ورش المبيدات الحشرية، وكذا توجيه المتشردين إلى مراكز الشرطة، وعملت على تلقيح جزء منهم في حدود الإمكانيات المتوفرة، وإعادة الغرباء عن المدينة إلى مناطقهم الأصلية بعد وضعهم تحت الملاحظة لمدة ١٨ يومًا على الأقل.

لقد رفعت سلطات الحماية شعار "من الأحياء الفقيرة إلى الحقول"، ونصحت سكان المدن -الفلاحون الجدد- بالعودة إلى الأرض والهواء النظيف، وفي هذا الصدد أوصت بلدية الدار البيضاء بإعادة حوالي ١٣٠٠٠ من سكان المدينة إلى مناطقهم خلال وباء ١٩٣٨(٥٢)، حيث أرسلوا سيرا على أقدامهم في مجموعات تحت مراقبة رجال السلطة الذين يمتطون خيولا، وقد أدى هذا الإجراء إلى إثارة غضب المغاربة وامتعاضهم(٥٣). وللتخفيف من حدة الاحتقان أصبحت سلطات الحماية تنظم عمليات الإعادة القيسرية للسكان عن طريق قوافل السيارات، وذلك بعد إبلاغ السلطات المستقبلة بعدد العائدين الذين يتوجب استقبالهم ونقلهم إلى المرافق الصحية في المناطق المستقبلة، حيث كان العائدون يوضعون في المخيمات الإقليمية القريبة من هذه المناطق، ويخضعون للمراقبة والتطهير، ويتم إرسال المعوزين إلى قبيلتهم الأصلية، لكن هذا الإجراء لم يشمل المرضى في حالة حرجة. وضمت هذه العملية ثلاث مراحل أساسية: جمع السكان والإيواء والإعادة القيسرية، لذلك سهرت البلدية على تنظيم تفاصيلها بعناية فائقة لتجنب الأخطاء التي من شأنها أن تخلف ردود فعل قوية من طرف السكان(٥٤).

(١/٢) ٤-عزل السكان

قامت سلطات الحماية بعزل السكان كآلية من آليات حماية المناطق المغربية من انتشار وباء التيفوس، حيث دأبت مدينة الدار البيضاء خلال فترات الوباء اعتماد هذه الوسيلة، وذلك منذ تيفوس ١٩١٣، موظفة في ذلك العديد من الأماكن أهمها الفنادق، لكن هذه العملية كانت تتم أحيانا في ظروف غير صحية ولا إنسانية. وقد وصفها هويل بغاية الدقة قائلاً: "في نهاية طريق مديونة (...) يتوقف الموكب (...) عند فندق تحول إلى محجر صحي. أنزلنا المرضى الأحياء وعندما أردت الولوج إلى الفندق تراجعت إلى الوراء من رعب المشهد الرائحة الكريهة والجو نتن من جراء البول والبراز الذي يملأ المكان، كان بالفناء ثلاثون مغربيا يرتدون ملابس بالية يرقدون على حصائر قذرة يقف بعضهم لطلب شرب الماء، والبعض الآخر يتمايل على المقاعد يرددون في لحن حزين اسم الله"(٥٥).

ولكن نتيجة تعاقب الوباء على المدينة، أنشأت السلطات محاجر صحية خاصة بالعزل على غرار محجر العنق الذي لعب دورا أساسيا في عزل المرضى إبان وباء التيفوس سنة ١٩٣٧(٥٦)، ونظرا لأهمية هذه العملية في صد التيفوس قررت اللجنة البلدية بالدار البيضاء في ٦ ماي ١٩٣٨ بناء محجر آخر بعين الشق(٥٧)، وصممت مراكز المساعدة والإيواء وفقا لعدة قواعد أهمها: الفصل الصارم بين الوافدين الذين خضعوا لعملية التطهير وغير المطهرين، والفصل بين الجنسين، كما جهزتها بدوش وفرن وغرفة كبريت(٥٨).

غير أن سلطات الحماية واجهت مشكلا أساسيا بمدينة الدار البيضاء أعاق مجهوداتها لتطويق المدينة من الأوبئة لاسيما التيفوس، تجلى في طبيعة سكانها الذين ينقسمون إلى فئتين، الأولى، السكان الثابتون،

تضم التجار والملاكون والحرفيون والموظفون والمسؤولون وخادمو البيوت والعمال، قطنوا بالمدينة القديمة والدروب المحيطة بها وبجزء من المدينة الجديدة، مزودون بكمية كافية من مياه المغاسل والحمامات ومحطات التطهير، مما سمح لهم بوقاية أنفسهم وجعلهم بمنأى عن العدوى. في حين ضمت الفئة الثانية السكان شبه الرحل وفي مقدمتهم تجار الماشية والحبوب والقماش وسائقو الحافلات والشاحنات بين الدار البيضاء ومختلف المدن، حيث عاش هؤلاء في أحياء الصفيح والدروب المجاورة للمدينة الجديدة .وقد شكلت هذه الفئة الأخيرة خطورة كبيرة على السكان الأوربيين، لذلك سعت البلدية استبعادها من المدينة الأوربية، كما عملت أيضًا على خفض عدد نقاط الاتصال بين السكان المغاربة الثابتون والسكان المغاربة المتنقلون(٥٩).

٢/٢-الإجراءات التحسيسية

عملت سلطات الحماية على توعية وتحسيس السكان بضرورة حماية أنفسهم ومواجهة وباء التيفوس، فقد قامت بنشر مختلف المعلومات حوله لإبقائهم على علم بتطور الحالة الوبائية، ومنعت انتشار الأخبار الكاذبة التي من شأنها أن تخلق جوا من القلق وتخفض الروح المعنوية للسكان، كما دأبت على نصح وتحذير السكان عن طريق المنشورات والملصقات والصحافة والبث الإذاعي، إضافة إلى إلقاء المحاضرات من طرف الأطباء ورؤساء مكاتب الصحة البلدية، ناهيك عن تقديم المدرسين النصح والإرشاد لتلاميذ المدارس الأوربية والمغربية قصد توعيتهم بخطورة وباء التيفوس. ولم تكتف بذلك، بل سعت الوصول إلى أكبر عدد ممكن من المغاربة، لذلك عملت على توعية السكان عن طريق المساجد والأسواق باستخدام مكبرات الصوت والتحدث باللهجة المحلية، مقدمة لهم نصائح حول أساسيات النظافة بعبارات بسيطة. كما قامت باستخدام رواة القصص والتمثيل الصامت والمهرجين الذين قدموا سيناريوهات بسيطة وسهلة الوصول إلى الجماهير. وقد كانت هذه الطرق أكثر نجاعة في إيصال الرسالة المنشودة إلى أكبر عدد ممكن من المغاربة، وأكثر ضمانا من نقلها عبر السلطات المحلية التي يمكن أن تشوه مضمون الرسائل الموكولة إليها عن غير قصد(٦٠).

٣/٢-الإجراءات الطبية

تمثلت الإجراءات الطبية في التلقيح وذلك بغية إيقاف انتشار الوباء، وقد استعان الأطباء بنوعين من اللقاحات ضد وباء التيفوس بالدار البيضاء:

لقاح "جورج بلان" **(G. Blanc):** اخترع من طرف الدكتور جورج بلان مدير معهد باستور بالدار البيضاء، وهو عبارة عن فيروس حي مخفف بمادة صفراء، يحضر قبل ستة أيام من تاريخ استعماله، يتم إعداده في صيغته النهائية ربع ساعة فقط قبل التلقيح من طرف تقنيي معهد باستور بالمكان المحدد للتلقيح، لذلك استحال تخزينه، ووصلت مدة مناعته ما بين سنة وثلاث سنوات، واتسم بحقنة واحدة فقط، مما سمح بتحضيره بكميات مهمة كافية لتلبية الاحتياجات الكبيرة(٦١). وتمت التوصية باستخدامه من طرف خبراء الوقاية من التيفوس الذين اجتمعوا بجنيف في ١٠ فبراير ١٩٣٧ تحت إشراف لجنة الصحة التابعة لجمعية الأمم(٦٢).

وانطلق استعماله بالدار البيضاء ابتداء من ماي ١٩٣٧، وخصصت حصص نصف أسبوعية لفائدة الجماهير، إضافة إلى تلقيح عدد قليل من الأفراد في معهد باستور كعمال المنازل والحراس الذين لم يستفيدوا بعد من حصص التلقيح بالأحياء. وأعطيت الأولوية لتلقيح السكان الأكثر عرضة للعدوى وفي مقدمتهم المغاربة لاسيما ملمعو الأحذية والحمالون بأسواق المدينة وعمال البلديات والكناسون وناقلو المياه والمعوزون وقاطنو دار الأيتام، إضافة للأوربيون الأكثر اتصالا بالمغاربة وعلى رأسهم الأطباء والممرضين(٦٣).

ووضعت سلطات الحماية برنامجا للقاح استهدف المناطق الموبوءة سنة ١٩٣٧، وحظيت خلاله مدينة الدار البيضاء بالنصيب الأكبر، فقد شهد شهر فبراير ومارس سنة ١٩٣٧ تلقيح ١٣٧٠٠٠ فرد بالدار البيضاء و١١٠٠٠ بزناتة وفضالة(٦٤). ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل عملت سلطات الحماية على تكثيف عمليات التلقيح بالمدينة خلال النصف الثاني من نفس السنة، حيث استفاد حوالي ١٤٠٠٠٠ فرد من اللقاح خلال يومين

فقط، إذ عرف يوم ١٢ يونيو إجراء ١٢٩٩٤٥ لقاح، في حين سجل اليوم الموالي ١٠٠٠٠ جرعة، وذلك بغية حماية المدينة من أي خطر محتمل لوباء التيفوس[٦٥]. ويبرز هذا الرقم الكبير وكذلك سرعة العملية مدى الرغبة الكبيرة لسلطات الحماية في تطويق الوباء واجتثاث أثاره من المدينة. وتواصلت عملية اللقاح بلقاح بلان وزادت وثيرة توظيفه، لاسيما في ظل تيفوس الحرب العالمية الثانية، وهكذا أجري ٤٢٧١٠٠ لقاح سنة ١٩٤١، وارتفع العدد إلى ٩٩٧٥٠٠ سنة ١٩٤٢، نالت الدار البيضاء الجزء الكبير من الحصة[٦٦].

ولم يكن للقاح بلان تأثيرات جانبية كبيرة في صفوف المغاربة، باستثناء ارتفاع حرارة الجسم إلى ٤٠ درجة خلال الفترة ما بين ١٦ و٢١ يوم بعد اللقاح، والتي تنخفض إلى المعدل الطبيعي بعد ٤ إلى ٥ أيام[٦٧]، إضافة إلى مضاعفات أخرى بلغت نسبتها ٢%، اتخذت شكل تيفوس الفئران، وهو عبارة عن تيفوس خفيف يستمر حوالي ١٥ يوم بدون أعراض وغير قاتل[٦٨]، غير أنه سجلت في بعض الأحيان حالات شلل خلال وباء ١٩٣٧-1938 لم تتجاوز ١,٥% من مجموع الملقحين[٦٩]. وعلى عكس ذلك، خلف هذا اللقاح أثار جانبية كبيرة في أوساط الأوربيين، اتسمت بالخطورة والتكرار، مما فرض اقتصار التلقيح به على الأوربيين الذين يحتكون في عملهم مع المغاربة ولاسيما العاملون في المجال الطبي والمفتشين الذين يقومون بجولات أثناء الأوبئة ويشاركون في مكافحة المرض، وكذا مراقبي السلطات البلدية، إضافة لموظفي إدارة مكافحة الغش الذين يتنقلون في المدن، لكن شريطة ألا يتجاوز عمرهم الأربعين وأن يكونوا غير مصابين بمرض عضوي.[٧٠]

لقاح البروفيسور "ويجل دي لو" **(Weigl de Lwow)**: لقاح ميت، ابتكره ويجل دي لو مدير المعهد البيولوجي ببولندا، يتم تحضيره مسبقا وقابل للتخزين، ويتطلب عناية كبيرة في تحضيره، مما منع الحصول على كميات كبيرة منه، كما أن سعر تكلفته مرتفع للغاية بلغ حوالي ٥٠ فرنكا للجرعة. ويتم التلقيح به في ثلاث حقن في ظرف ٣ إلى ٦ أيام، وخلف ردود فعل موضعية لم تتجاوز تلك التي تحدثها اللقاحات الأخرى. وقد تمت التوصية باستخدامه للأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن الأربعين سنة، ويمنح المناعة لثلثي الحالات لكن لمدة غير معروفة[٧١].

وأدت الآثار الجانبية السلبية من جهة، والمدى القصير لفعالية لقاحي بلان وويجل من جهة ثانية، إلى تخصيص لقاحات أخرى للأوربيين أهمها لقاح "ديروند" (Durand)، استعين به لأول مرة سنة ١٩٤١ بإجراء ٨١٧٣ لقاح، واستفاد منه على وجه الخصوص الأشخاص الأكثر عرضة للعدوى من بينهم العديد من المسؤولين[٧٢].

وكانت عمليات التلقيح تتم في الوحدات الصحية وأحياء المدن، وبالأسواق الأسبوعية بالبوادي، وذلك بمساعدة السلطات التي تعمل على جمع السكان وفق برنامج زمني يحدده المكلفون بقطاع الصحة، واستعملت أحيانا القوة والقمع في مختلف مراحل العملية سواء لجلب السكان إلى مركز اللقاح أو لرص الصفوف، إضافة إلى عدم الفصل بين أماكن تطبيب الرجال والنساء والأطفال، مما أدى إلى نشوب نزاعات بين المغاربة من جهة، والعاملين في مراكز التلقيح والجنود الذين يشرفون على العملية من جهة ثانية[٧٣]، وجعل العديد من المغاربة يمتنعون عن الاستفادة منه، وذلك عن طريق الفرار من مناطق التجمع القسري ومقاطعة الأسواق[٧٤]، وهو ما ساهم في عرقلة تحقيق الأهداف المنشودة بشهادة ألبير عياش الذي أورد: "فعالية هذا التطبيب الجماهيري أصبحت محدودة نتيجة للحذر المتعاظم الذي أبداه المغاربة حيال التجميع التعسفي الذي كانت تأمر به السلطات المحلية دون أي اعتبار، وقد سجل أطباء الصحة العمومية في محاضرهم نفور المغاربة من هذا النوع من التجميع"[٧٥]. في المقابل، ردت سلطات الحماية على تعنت المغاربة بتطبيق ما عرف بديكتاتورية صحية وذلك باسم المصلحة العامة[٧٦].

خَاتمَةٌ

لقد تعاقب التيفوس على مدينة الدار البيضاء زمن الحماية بشكل كبير، وارتبط بشكل أساسي بتوالي سنوات الجفاف والقحط، وساهم في انتشاره موجات الهجرة نحو المدينة، وخلف العديد من المصابين والقتلى سواء في صفوف المغاربة أو الأوربيين. واتخذت السلطات الصحية عدة تدابير لمكافحة التيفوس بالمدينة، تنوعت بين الإدارية والتحسيسية والطبية، واستخدمت في تطبيقها وسائل متعددة، هيمن عليها طابع الترهيب من عنف وحملات بوليسية واعتقالات، مما أثار سخط المغاربة لاسيما أن معظم هذه الممارسات لم تكن تشمل الأوربيين حيث "كانت الحملات في المدن وعروض الغلي العنيفة والتلقيحات الإجبارية باستخدام لقاح بلان (...) تتسبب في بعض حالات عدم التحمل وفي حوادث قاتلة، وكان الأوربيون في إعفاء منه قد أثار استياء قويا في الأوساط المغربية[٧٧]". كما أن إجراءات إيقاف الوباء لم تكن لدوافع وقائية محضة، بل حضر فيها الهاجس الأمني الذي تجلى في ضبط المدينة وتحقيق الهدوء واستتباب الأمن.

الإحالات المرجعية:

(١) جورج قصيري، «التيفوس»، **مجلة المقتطف**، العدد ١، ١٩١٨، ص. ص. ٥٩-٦٠.

(٢) «مكافحة داء التيفوس»، **جريدة السعادة**، العدد ٤٣٥٣، ٢٠ يونيو ١٩٣٦، ص2.

(٣) جورج قصيري، «التيفوس»، مرجع سابق، ص. ٥٩.

(٤) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب خلال الحماية»، ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص. ٤٧.

(٥) جورج قصيري، «التيفوس»، مرجع سابق، ص. ص. ٦٠-٦١.

(6) G. Bidault, «Pluviométrie de l'année agricole 1944-1945», in **Bulletin Economique et Social du Maroc**, n° 26, 1945, pp .58-59

(٧) «الحالة الاقتصادية بالمغرب»، **جريدة السعادة**، العدد ٧٠٦، ١٧يناير ١٩١٤، ص. ١.

(٨) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص.٤٧٧.

(9) Christian Houel, **Mes aventures Marocaines**, Editions Maroc-demain, Casablanca, 1954, pp. 256-257.

(١٠) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص.٤٧٧.

(١١) «الحالة الصحية بالايالة الشريفة»، **جريدة السعادة**، العدد ٢٢٣٧، ١ يونيو ١٩٢١، ص. ١.

(١٢) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص.٤٧٧.

(١٣) «الحالة الصحية بالايالة الشريفة»، مرجع سابق، ص. ١.

(١٤) نفسه، نفس الصفحة.

(١٥) بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-١٩٥٦**، مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة الثانية، ٢٠٢٠، ص.١١٥. بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص. ص. ٤٧٨- 479.

(١٦) نفسه، ص. ص. 479-480.

(١٧)» Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938«, in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, Janvier- Juin 1939, p. 124.

(١٨) ألبير عياش، **الحركة النقابية في المغرب ١٩١٩ -1942**، ج. ١، ترجمة نور الدين سعودي، مراجعة العربي مفضال، مطبعة فضالة -المحمدية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص 157 -١٥٨.

(19) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, op.cit, p.124.

(٢٠) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص. ٤٨٥.

(21) Gaud. M et Bonjean. M, «L'épidémie de typhus au Maroc d'octobre 1937 à septembre 1938», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, n°3-4, juillet-décembre1938, p. 20.

(22) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», **Maroc-Médical**, n°198, décembre 1938, p. 493.

(23) Ibidem.

(24) Ibidem.

(25) Ibidem.

(26) Ibidem.

(27) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», in **Maroc-Médical**, n° 180, juin 1937, p. 214.

(28) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938, **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, op.cit, p. 125.

(29) «Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé, de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, t.2, 1942, p. 130.

(30) Ibidem.

(31) «Rapport sur l'activité de la direction de la santé et de l'hygiène publics pendant l'année 1939, in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, t. 3-4, juillet-décembre1939, pp. 218-219.

(32) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé Publics et de l'Assistance pendant l'année1941», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, t.1,1941, p. 119.

(33) «Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé, de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, op.cit, p. 129.

(34) Ibidem.

(35) Ibid, p. 132.

(36) «Rapport de la Santé public de 1943», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, 1943, p. 172.

(٣٧) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص. ٤٩.

(٣٨) الدار البيضاء، **جريدة السعادة**، عدد ٦٩٥، ٦ دجنبر ١٩١٣، ص. ٣.

(39) Gaud et Bonjean, «La Prophylaxie du typhus au Maroc», in **Maroc-Médical**, n°198, décembre 1938, p. 498.

(40) Ibidem.

(٤١) المياه بالدار البيضاء، **جريدة السعادة**، العدد ٧٣٦، ١٣ ماي ١٩١٤، ص.٢.

(٤٢) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc », op.cit, p. 498. Ibid, pp. 498-500.

(43) Ibid, pp. 498-500.

(٤٤) Daniel Rivet, **Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc (1912-1925)**, t. 2, Paris, L'Harmattan, 1988, p. 236.

(٤٥) رضوان شعايبي، **صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين 1912-1956**، مطابع نت، الرباط، ٢٠١٦، ص. ١٩٠.

(46) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc », op.cit, p. 499.

(٤٧) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 489.

(48) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938», op.cit, p. 125.

(49) « Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé, de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942», op.cit, pp. 132-133.

(50) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», in **Maroc-Médical**, n°198, décembre 1938, p. 499

(51) Ibid, pp .495-497.

(52) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 486.

(53) Daniel Rivet, **Le Maroc de Lyautey à Mohammed V, le double visage du protectorat**, Ed. Porte d'Anfa, Casablanca, 2004, p. 281.

(54) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, p. ٤٩٨.

(55) Christian Houel, **Mes aventures Marocaines**, op.cit, p. 257.

(56) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 214.

(57) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 489

(58) Gaud. et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc », op.cit, p. ٤٩٨

(59) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 485.

(60) Gaud. et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, pp. 501-502.

(61) Ibid, pp. 500-501. «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», pp. 214-215.

(62) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.

(63) Ibidem.

(٦٤) صالح شكاك، «١٩٣٧ سنة الجوع»، ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص. ٤٦٨.

(65) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.

(66) «Rapport sur l'activité des services de la direction santé, de la famille et de la jeunesse pendant l'année 1942, op.cit, p. 133.

(67) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.

(68) Gaud. et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, p. 500. « A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.

(٦٩) رضوان شعايبي، **صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين 1912-1956**، مرجع سابق، ص. ١٩٢.

(70) Gaud. et Bonjean, «La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, pp. 500-501.

(71) Ibid, p. 501.

(٧٢) «Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé», de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942, op.cit, p..130

(٧٣) بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-١٩٥٦**، مرجع سابق، ص. ص. ٣١٦-٣١٧.

(٧٤) أحمد المكاوي، **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص. ١٢٦.

(٧٥) ألبير عياش، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ٣٣١.

(٧٦) أحمد المكاوي، **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب**، مرجع سابق، ص. ١٢٦.

(٧٧) ألبير عياش، **الحركة النقابية في المغرب...**، مرجع سابق، ص. ١٥٨.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الدعارة بخنيفرة خلال فترة الحماية الفرنسية 1914 – 1956م



د. إدريس أقبوش
دكتوراه في التاريخ المعاصر ومهتم بالبحث
في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد زيان
الرحامنة – المملكة المغربية

مُلَخّص

إن تناول موضوع البغاء بخنيفرة لم ينشأ من فراغ، وإنما يرجع إلى اهتمامي بالتاريخ الاجتماعي المعاصر وخاصة في بعض القضايا المهملة في متونه، وكذا اهتمامي ببعض الفئات الاجتماعية المهمشة في أمهات الكتب. وبناءً على ما سبق، جاء اختيار الموضوع في إطار استمرار اهتمامي بمجال زيان في إطار إنجاز الأطروحة، ومن ضمن التساؤلات التي رافقتني خلال هذه المرحلة، هي الدعارة التي نشطت بخنيفرة. بيد أن الخوض في هذا الموضوع يعتبر أمرًا صعبًا بالنظر إلى شح المادة المصدرية وضعف المعلومات عن الموضوع، فباستثناء الإشارة التي أوردها فرانسوا بيرجي في كتابه موحى وحمو الزياني (1877-1921)، ومقال Nos grands ennemis des zaian، نكاد لا نجد أثر لهذا الموضوع في كتب التاريخ. وهذا ما جعل موضوع الدعارة موضوعًا خصبًا على الدوام أملاً في إضاءته أكثر وتملكه علميًا. ولعل هذا ما دفعني إلى تساؤل: كيف ومتى ظهرت الدعارة بخنيفرة؟ وما الهدف من تشجيعها؟ وما موقف العرف من الظاهرة؟

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٣ يوليو ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣١ أغسطس ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

زيان؛ خنيفرة؛ البغاء؛ التاريخ الاجتماعي؛ الفئات المهمشة

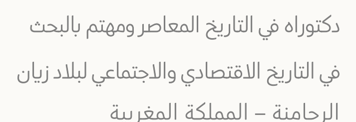
معرِّف الوثيقة الرقمي:


10.21608/kan.2025.415055

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إدريس أقبوش، "الدعارة بخنيفرة خلال فترة الحماية الفرنسية ١٩١٤ – ١٩٥٦م".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٤٢ – ١٥٢.

Corresponding author: akbouchidriss@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

السوسيولوجيا أو الأنتربولوجيا أو التاريخية أو الاجتماعية والاقتصادية....، ولعل تناسل الدراسات في هذا المجال دليل على أهميته، إلا أن جذور الظاهرة بالمغرب اختلفت في شأنها الكتابات، فهناك من ربطها بفترة الاستعمار الفرنسي، ومنهم علال الفاسي الذي قال إن نابليون بونابرت أول من أسس دور البغاء المنظمة على الطريقة التي نراها في بلادنا، وقد قلدته في ذلك أغلب أمم الشرق والغرب حتى أصبح البغاء الرسمي مظهرا من مظاهر النظام الحديث، في حين أشار البعض إلى وجودها قبل الاستعمار ومنهم الحسن الوزان صاحب كتاب وصف إفريقيا.

وفي مجال التاريخ المعاصر احتل موضوع البغاء حيزا صغيرا في الدراسات المونوغرافية التي أنجزت في الجامعات المغربية منذ الثمانينيات، مقارنة بمواضيع أخرى مثل المقاومة و الرعي والماء ....، وحتى في مقاربة المجال، يمكن القول إن الدراسات التي تناولت هذا الموضوع على قلتها ركزت اهتمامها على المدن الكبرى مثل الدار البيضاء...وهذا ما دفعني في إطار اهتمامي بتاريخ الهامش، إلى تسليط الضوء على البغاء بخنيفرة، لإقامة نوع من الحوار مع الظاهرة، وذلك بغرض إعادة النظر في موضوع ظل من المواضيع المسكوت عنها، وبالتالي لم ينل ما يستحقه من عناية. وإذا كانت ظاهرة الدعارة تصنف من أهم الظواهر التي طبعت تاريخ المنطقة منذ فترة الحماية الفرنسية، فإن تعميق البحث فيها قمين بأن يساعدنا على تحديد الدواعي والأسباب ومعرفة أصولها، كما سيمكننا من الوقوف على حجم التداعيات وأبرز التحولات التي أحدثتها على مستوى البنيات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية.... كما يسمح البحث في هذا الموضوع بانخراط جملة من التخصصات والمناهج، خاصة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، نظرا لتعدد أبعاد الظاهرة، وما يرافقها من تداعيات. واختيارنا للحدين الزمنيين 1914- 1956 نابع من ضرورات كرونولوجية ترتبط بحدث دخول فرنسا إلى خنيفرة في يونيو 1914، أما سنة 1956م فتعتبر نهاية عقد الحماية، وبالتالي خضعت المنطقة لتدبير مغربي لم يحيد عن المنهج الذي سارت عليه فرنسا في تشجيع المواخير بالمناطق الهامشية.

الدعارة وتعدد مداخل تناولها

إن تحديد العوامل المسؤولة عن ظاهرة الدعارة تظل ذات طبيعة إشكالية، ولذلك يصعب الحديث عن المتغيرات التي تسببها، فعلى الرغم من تفاعل العديد من العوامل، إلا أن ذلك لا يعني أن هاته العوامل هي التي تدفع النساء إلى الدعارة، علاوة على أن تعدد المتغيرات المسؤولة عنه يجعل من الصعوبة بمكان تحديد أيها أكثر أهمية لتفسير هذه الظاهرة، كما أن اختلاف العوامل التي تدفع النساء إلى الدعارة، ليس باختلاف المحيط الاجتماعي فقط، بل أيضا داخل نفس المحيط يجعل من غير الممكن تنميط هذه الظاهرة وإخضاعها لتفسير موحد، بل إن الكثير من ظواهر الدعارة تظل غير قابلة للتفسير. وعلى الرغم من أن العوامل المفسرة للدعارة تظل ذات طبيعة إشكالية، إلا أن ذلك لا ينفي خضوع هذه الظاهرة لمجموعة من المتغيرات التي تؤثر فيها بشكل مباشر، والتي تتمظهر من خلال جملة من المستويات، يمكن تحديدها فيما يلي:

- المستوى الفردي: ويتمثل هذا العامل في ضعف المستوى الدراسي
- المستوى الاقتصادي والاجتماعي: الضعف المادي للأسرة
- المستوى القانوني: وترتبط بالتشريعات المنظمة للدعارة، إذ أصدرت السلطات الفرنسية في ١٦ أبريل من سنة ١٩٢٤ مرسوما يرخص بموجبه فتح منازل رسمية للمتعة.
- المستوى الجماعي: يقترن هذا المستوى بموقف المجموعة الثقافية من الدعارة
- المستوى الثقافي: ويتعلق بصورة خاصة بالمواقف الثقافية اتجاه الدعارة

منهج الدراسة

انسجاما مع الإطار النظري الذي اتبعته في مقاربة الظاهرة، فإنني سوف أركز على المستويين الاقتصادي والقانوني، بالنظر إلى أن ظاهرة الدعارة لا تتم في نظري إلا بتفاعل هذين المكونين. ففي المستوى

الاقتصادي ترتبط بالوضع المادي، فكلما انخفض الدخل الفردي كلما نشطت الدعارة، وأصبحت نشاطًا أساسيًا في غياب أي نشاط اقتصادي بالموازاة مع النشاط الفلاحي للبوادي على المستوى الاجتماعي، وبالتالي يظل العامل الاقتصادي هو المحدد لظاهرة الدعارة، وهذا ما قاله علال الفاسي في قوله "الذي يريد القضاء على الدعارة فليعمل على تغيير النظام الاقتصادي القائم في البلاد"[١]، ويضيف أنه لو زال هذا العامل من الوجود لما بقي إلا لون يسير من السهل علاجه بوسائل الخلق والتهذيب[٢]. أما المستوى القانوني، فسنبرز فيه أن تقنين الدعارة هو ما يفسر انتشارها.

فرضية الدراسة

تؤطر الدراسة فرضيتين أساسيتين، وهما: فرضية تعتبر الدعارة نتاجا لظروف اقتصادية واجتماعية، وفرضية تعتبر الدعارة ظاهرة نفسية ناتجة عن عدم اشباع الرغبة الجنسية في مجتمع لا يساوي بين الجنسين في الحرية الجنسية.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى البحث في موضوع الدعارة، إذ يعتبر مساهمة نوعية في البحث التاريخي، لأن ما أنجز لحد الآن في ميدان الدعارة، هي دراسات قليلة لا تتعدى بعض المقالات وبعض الإشارات الخجولة المتناثرة في مختلف المضان المصدرية، والتي لا زالت تحتاج للدرس والتحليل والمقاربة لنموذج ظاهرة اجتماعية تعددت مداخل فهمها وتفسيرها إلى دراسة العلاقة بين الدعارة والاستعمار، وبيان آليات ضبطها وتنظيمها.

تحديد مجال الدراسة

يدل اسم العلم على الفضاء المكاني أو الزماني محسوسا كان أو مجردًا، واقعيًا أو خياليًا، أو ميتافيزيقيا، وتتراوح أسماء العلم بين أسماء دالة على عناصر بسيطة أو مفردة، وأسماء أخرى تحيل على كائنات مركبة. أما في مجال اللغة، فإننا نجد أسماء العلم أحيانا بسيطة في بنيتها الصرفية وأحيانا مركبة، تارة مقترنة بال، وتارة أخرى غير مقترنة، مضافة أو غير مضافة، صفة أو اسما، جملة أو جزءا من جملة... ومن ثمة تبقى كثير من أسماء الأماكن القديمة مجهولة الدلالة يصعب ربطها بأي أصل لغوي، وعليه فإن تأويلها يأتي متعسفا في كثير من الأحيان. وفي نفس الاتجاه يرى محمد شفيق "أنه لو حصل أن كل باحث في تاريخ المغرب وجغرافيته كان له إلمام بالمعجم الأمازيغي وبمقتضيات الصرف والإعراب والاشتقاق في الأمازيغية، لوقف القوم على دقائق من تاريخنا وجغرافيتنا تدعوهم إلى تعميق التأمل في تسلسل حلقات ماضينا، وفي رحابة المجال الذي جابه وعمره أجدادنا طوالا آلاف السنين"[٣].

وهذا ما يعني أن الدلالة اللغوية شيء ضروري بالنسبة للجغرافيين والمؤرخين[٤]، على اعتبار أن الأسماء كيفما كانت طبيعتها ومصدرها، لاتنتج من الخيال، بل تستقى غالبا من الإطار الإيكولوجي أو المعطى السوسيو-اقتصادي وتأثير الظروف التاريخية وخصوصية اللغة والتعابير المحلية. ومن هذا المنطلق، تضاربت العديد من الروايات عن دلالة اسم خنيفرة. ففيما يخص الرواية الشفوية المتداولة عند أغلب سكان المدينة تعتبر خنيفرة تسمية مأخوذة من خوينفر ويقولون إن خوينفر مواطن برتغالي استقر بهذه المدينة ومن ثم أطلق عليها هذا الاسم[٥]. إلا أن هذه الرواية تبقى ناقصة ولا يعتد بها، حيث الوجود البرتغالي انحصر في السواحل ولم يصل إلى هذه المدينة. إلى جانب هذه الرواية، هناك روايات متعددة ومنها: رواية يسردها فرانسوا بيرجي François Berger في كتابه "موحى وحمو الزياني" إذ يقول إنه لم يعثر على هذا الاسم (خنيفرة) في المصادر المهتمة بتاريخ المغرب، الشيء الذي أدى به إلى الاعتماد على الرواية الشفوية المتداولة. فبعض الروايات تعتبر اسم خنيفرة هو تحريف لكلمة أمازيغية "خنفر" وتعني استعمال القوة والعنف وهي سمة اتصف بها المكلف بجمع رسوم المرور بقنطرة المدينة وكان الكل يهابه فيحذر بعضهم البعض منه "غراك خنفر" تعني احذر خنيفر، ويضيف بأن هناك رواية أخرى تحكي عن وجود امرأة تقيم في خيمة بجانب القنطرة تسمى خنيفرة وسميت القنطرة خنيفرة ومن ثم اسم مدينة خنيفرة[٦]. وقد وردت رواية أخرى في كتاب أحمد المنصوري الذي يصرح بأن أحد جهابذة القاهرة في كتاب له حول زيارة الأطلس ولهذه المدينة أن الكلمة

(خنيفرة) مشتقة من لفظة أمازيغية في حكاية طريفة[٧]. "خنفر" يقال "خنفر ارياز" بالأمازيغية، أي خذ الرجل بشدة وقوة[٨]. وفي رواية أخرى نجد أن الاسم مستمد من الوضع الطوبوغرافي للمكان. فالكلمة مأخوذة من "خنك فرة" أي مضيق فرة فالشيء الضيق يسمى بالأمازيغية خنك، وإلى جانب هذا المضيق في اتجاه الجنوب موقع يسمى فرة، ومن ثم أخذ الاسم "خنك فرة" صيغة خنيفرة على ألسن أهل المنطقة[٩].

نستخلص مما سبق ذكره أن الرواية الجانحة للصواب هي رواية "خنفر أرياز" أي خذ الرجل بشدة وقوة، على اعتبار أن القبائل الزيانية، كانت قبائل انتجاعية، وكانت مدينة خنيفرة بمثابة الموقع الاستراتيجي للعبور من أزغار إلى الجبل، والعكس صحيح، بالإضافة إلى أن هاته المنطقة كانت تشهد غليانا وتمردات، الأمر الذي فرض وضع رجل قوي بقناة العبور ولا يسمح بالعبور إلا لمن خضع واستسلم، أما المتمردون والرافضون للخضوع فجزاؤهم هو قمم الجبال حتى تموت مواشيهم بحر البرد والثلج أيام الشتاء.

خنيفرة اسم مدينة تقع عند قدم الأطلس المتوسط الهضبي على ارتفاع حوالي 830م، وهي عبارة عن منخفض داخل الجبل، يخترقها نهر أم الربيع، وتبعد إلى الشمال الشرقي عن قصبة تادلة بحوالي 100 كلم على الطريق الرئيسية في اتجاه مكناس[١٠]. أسست في منطقة استراتيجية هامة، حيث تقع على ممر "طريق السلاطين الرابطة بين عاصمتي فاس ومراكش عبر تادلة من جهة، وبين تافيلالت والسهول الداخلية والأطلنتيكية من جهة أخرى[١١]. وقد سمح هذا الموقع الجغرافي لخنيفرة من تقاسم حدودها الطبيعية مع مجموعة من القبائل، ومنها: قبائل إشقيرن، وقبائل آيت مكيلد، وقبائل آيت سكوكو. سكانها من زيان، يتكلمون الأمازيغية. وبلغ سكان هذا التجمع في نهاية القرن التاسع عشر ألفا ومائتين وثلاثين نسمة[١٢]، بما فيه الأمازيغ وبعض العرب الذين تخلوا عن قبائلهم: كزنوج وعبيد، أو عبيد قدماء بالإضافة إلى الصحراويين الذين آتوا من الجنوب للعمل بمدينة خنيفرة[١٣].

وتتجلى أهمية خنيفرة في كونها منطقة قريبة من المدن الكبرى، التي شكلت عبر التاريخ مركز الحضارة المغربية (فاس، مراكش، مكناس). كما تكمن أهمية مدينة خنيفرة، في ابتعادها عن سيطرة وحكم السلطة المخزنية، مما جعلها لا تخضع للرقابة المباشرة للمركز، ما دفعها لتعتمد في تنظيم علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية على الأعراف القبلية. وتتضح علاقة التوتر في لجوء السلطان الحسن الأول إلى تعيين موحى أوحمو الزياني قائدا على خنيفرة، وتدعيمه بمحلة من 400 عسكري وثلاثة مدافع لمساعدته في بسط السلطة المخزنية بصفة نهائية على خنيفرة [١٤]. وبعد استتباب الأمن أعد سوقا تجارية ينعقد مرتين في الأسبوع، قام ببناء مائة وثلاثين حانوتا، خصص ثلاثين منها لقيصارية تباع فيها المنسوجات الحريرية والتحف النفيسة. وفرض على كل مالك تنظيف وصيانة الطريق أمام منزله وإزالة الأزبال إما بنفسه أو بإعطاء أجر زهيد للسجناء أو بعض المحتاجين الذين يعيشون من هذه المهنة[١٥]. والظاهر أن موقع المنطقة جعلته تحت منظار المستعمر الفرنسي، لذلك فإن احتلالها كان من بين الأولويات المسطرة في الأجندة الاستعمارية الفرنسية منذ السيطرة على تازة. وفي هذا السياق كتب برناند Bernand يقول "طالما أن هذه الطريق ليست في أيدينا، فإن وحدة امبراطوريتنا الافريقية تبقى غير ثابتة"[١٦]. وفي بداية يونيو 1914، بعد أن فرغت الإدارة الفرنسية من السيطرة على ممر تازة (مايو 1914) تحركت الفرق المتنقلة (groupes mobiles) صوب خنيفرة. وفي يوم 12 يونيو 1914 تمكنت الجيوش المهاجمة من دخول خنيفرة، بعد أن غادرها سكانها الذين توجهوا نحو الجبال المجاورة لإعادة تنظيم المقاومة المسلحة[١٧].

أولاً: تعريف البغاء (الدعارة) وبعض أسباب ظهورها

عندما نحاول وضع تعريف لأي مفهوم فإننا نصطدم بمجموعة من الصعوبات التي تحول دون ضبطه وتحديد علاقته بغيره من المفاهيم التي تتداخل معه، وترجع تلك الصعوبة إلى اختلاف المشارب الفكرية، وينطبق هذا الاختلاف حول مفهوم البغاء. ومهما يكن من أمره، وجب

علينا الإحاطة بمفهوم البغاء باعتباره مفتاحا من مفاتيح المقال، لذا فإننا سنحاول مقاربة المفهوم لغويا واصطلاحا، معرجين على بعض أسباب ظهورها.

البغاء لغة هي مصدر بغت المرأة تبغي بغاء، أي زنت، أي فجرت وتكسبت بفجورها[١٨]، والدعارة حسب ابن منظور هي الفسق والفجور والخبث[١٩]. وقد عرفها علال الفاسي بأنها "عدم قدرة المرأة على عول نفسها ولا تستطيع أن تقوم بعمل مشرف يؤول بها الحال إلى إلقاء نفسها في أحضان الرذيلة لتأكل الخبز ممزوجا بالدموع"، وبالتالي اعتبرها فعل اقتصادي يخضع للعرض والطلب المرتبطة بأي نشاط تجاري، بمعنى أن للاقتصاد أثره الكبير في تكوين البغاء ونشره. وعلى هذا المستوى، يلخص تحقيق جون ماتيو Mathieu وموري Maury بشأن تعريف الدعارة في المغرب الكولونيالي أن الدعارة ليست انحرافا بل هي فعل اقتصادي مرتبط بحركة البروليتاريا المدنية[٢٠]. وتعرفها نوال السعداوي "الدعارة هي حدوث عملية جنسية بين رجل وامرأة، لتلبية حاجة الرجل الجنسية، ولتلبية حاجة المرأة الاقتصادية"، بمعنى للاقتصاد أيضا أثره الكبير في تكوين البغاء، إلا أن الملاحظ في تعريف السعداوي هو قصر ممارسة الدعارة على المرأة وحدها، مستبعدة بذلك البغاء المثلي الذي يمارسه الذكور. أما البغاء في تعريف الدكتور نيازي حتاتة فهو "استخدام الجسم إرضاء لشهوات الغير مباشرة، نظير أجر وبغير تمييز"[٢١]، وهو نفس التعريف الذي وضعه ابراهام فلكسنر Abrham Flexner في دراسته الشاملة للبغاء عام 1914 بأنه "الاتصال الجنسي الموسوم بالمقايضة، وعدم التمييز، وعدم التجاوب الانفعالي"[٢٢]. بمعنى غياب التجاوب الانفعالي، خاصة من جانب البغى التي يعتاد ممارستها بقصد الكسب والربح، وقد تؤدى مع أي شخص. وحسب عادل شيهب "الدعارة هي كل نشاط جنسي خفي يصدر خارج المؤسسة الزواجية الشرعية، يرتبط أولا بالقوادين الذين يكفلون الزبائن، يكون بين رجل وامرأة دون تمييز من الناحية الجنسية، فهي لا تبحث عن طريق هذا الاجتماع لا عن اللذة ولا الحب ولا العطف ولا الحنان. أو من ناحية السن، المكانة أو الوضع الاجتماعي والاقتصادي...مقابل خدمات جنسية متنوعة يحصل عليها الرجل، وفي المقابل حصول المرأة على فائدة مادية آيا كان نوعها، وذلك نظير سد وتلبية حاجاتها ومتطلباتها الضرورية وغير الضرورية التي تنقصها أو التي كانت لا يمكنها الوصول إليها"[٢٣].

أما من وجهة النظر القانونية، قدم المشرع الفرنسي في عام 1912 تعريفا للدعارة على أنها "استخدام المرأة جسدها كوسيلة للحصول على أجر بما يرضي الملذات العامة، مهما كانت طبيعة أعمال الفجور المقدمة"[٢٤].

يبدو من خلال ما سبق، أن الدعارة أو البغاء هي فعل استئجار أو تقديم أو ممارسة خدمات جنسية بمقابل مادي، بمعنى "بيع الخدمات الجنسية"، إلا أن التعاريف السابقة الذكر، لم تستطع التمييز بين الدعارة القسرية والدعارة الطوعية. هكذا يتضح أن كثيرا من المحاولات المبذولة لتحديد البغاء تحاط بأوجه قصور في بعض الجوانب مما يجعل مفهوم البغاء مفهوما غامضا وغير محدد.

أما عن أسباب ظهورها فيعتبر علال الفاسي البغاء داء قديم بقدم الإنسانية لأنه من الطفيليات الاجتماعية التي ما فتئت تمتص معنوية البيت وتقضي على كيان عماده الذي هو الشباب[٢٥]، وينشأ البغاء عادة من عدم إشباع الغرائز الجنسية خارج العائلة أو داخلها، وكذلك من الغرور الناتج عن انعدام الحب والتضامن الذين هما أساس الأسرة، أو من فقدان التفاهم والانسجام في الحياة البيتية، وكذلك من الفقر أو من سوء القدوة التي يجدها الذكر والأنثى في الإنسانية جمعاء[٢٦]. إذا كان علال الفاسي يعتبر البغاء ظاهرة قديمة، فنوال السعداوي تربط منشأ البغاء بالمجتمع الذكوري، حين تقول إن الإنسان البدائي (قبل نشوء الأسرة الأبوية) لم يعرف شيئا اسمه البغاء، لأن الحرية الجنسية كانت ممنوحة للشباب من الجنسين، ولم تعرف المجتمعات الأمومية البغاء، لأن مكانة المرأة الاجتماعية كانت عالية، وكانت لها الحرية الكاملة كالرجل، كما أن البغاء لا يمكن أن يحدث أيضا في مجتمع يساوي بين الجنسين في القيود الجنسية. إن المساواة بين الجنسين سواء في الحرية أو في القيود تمنع حدوث البغاء، إن البغاء لا يحدث إلا إذا أعطيت الحرية لجنس، وفرضت القيود على الجنس الآخر[٢٧]. وتضيف السعداوي أن البغاء

ظهر في المجتمع الأبوي لأن الرجل أخذ السلطة في يده، وخصص لمتعته الجنسية نساء أخريات خارج نظام الزواج، أطلق عليهن اسم المومسات، وما المومسات إلا إحدى الظواهر الاجتماعية للحضارة الذكورية القائمة على الأبوية، وبالتالي أصبح البغاء هو الوجه الآخر للزواج[٢٨]. ويساير هذا الطرح الأخير، ما توصل إليه تقرير جون ماتيو وموري اللذان اعتبرا أن العاهرة لا تغادر بيئتها الأصلية، وعائلتها، وزوجها إلا عندما تكون معرضة للعنف[٢٩]. بل وبين التقرير أن وصول العاهرات إلى حي بوسبير مرتبط بعدة عوامل، أهمها، وفاة إحدى الوالدين، أو وفاة الزوج أو الاغتصاب، وكذا الفرار من المنزل هروبا من سلطة ووحشية الأب، أو تعسف الزوج أو الحماة[٣٠]. يتضح مما سبق أن هناك من اعتبر الدعارة ظاهرة قديمة بقدم الإنسانية ارتبطت بالفقر وانعدام القدوة...، بينما ربطها الأخرون بمفهوم توازن القوى ورمز القهر في المجتمع.

ثانيًا: الدعارة بخنيفرة (الجذور والتجليات)

إن حرمة البغاء ثابتة بالكتاب لقوله تعالى "ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم"[٣١]. وبهذا يكون الإسلام قد هدم الرذيلة في المجتمع، وأغلق ونهى عن كل الطرق التي تؤدي إليه. وتخالف أيضا الأعراف المحلية ببلاد زيان، فقد ربطت الأعراف المحلية طهارة الفتاة بالعفة، فالمرأة هي شرف القبيلة، وممارستها للدعارة خارج الزواج يحولها إلى عاهرة، ويتم التبرؤ منها. وبهذا تتضمن الأعراف الزيانية على غرار الأعراف الأمازيغية بصفة عامة القيم الراقية، وتطبق عل كل ما يخص الإنسان الأمازيغي، ينتقل من جيل إلى آخر، بالتقليد الشفوي، وعبر امتداد السنين، وللمسنين دراية شفوية بالعرف، مما يسهل على كل إنسان غير مطلع قصدهم للاستشارة كما يستشير العربي القاضي[٣٢].

لا أحد في مقدوره إنكار وجود الدعارة في المجتمع المغربي قبل مجيء الفرنسيين، رغم شهرتها في فترة الحماية، لاسيما بحي بوسبير[٣٣] الذي أداره المستعمر الفرنسي بالدار البيضاء، فقد أشار الحسن الوزان إلى وجودها متحدثا عن فاس بقوله: «وفيها أيضا دور وعمومية تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس، تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة. كما يتعاطى بعض الرجال دون أن يثير غيظ البلاط مهنة البغاء، فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات وخمورا يبيعونها، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما شاء بكل طمأنينة»[٣٤]. وهذا يوضح لنا أن هذه الظاهرة تعد من علامات بعض المدن المغربية، وتتميز بالطابع المنزلي الخاص السري والمستتر، غير أنها نشطت بشكل كبير بدخول المستعمر الفرنسي، وحظيت باعتراف السلطة.

حينما وجدت الإدارة الفرنسية أن جنودها الذين يوطنون مبادئ الحماية في المغرب، في حاجة لمن يوفر لهم متعة مفتقدة. أصدرت في ١٦ أبريل من سنة ١٩٢٤ مرسوما يرخص بموجبه فتح منازل رسمية للمتعة[٣٥]. وكانت هذه الظاهرة من أهم الظواهر الاجتماعية المعبرة عن عمق الخلخلة التي عرفها المجتمع المغربي خلال الفترة الاستعمارية. فقد دفعت الظروف الجديدة بشرائح واسعة من النساء والفتيات إلى التعاطي للدعارة هروبا من الجوع أو الفقر أو القهر الاجتماعي وبحثا عن مدخول يوفر لهن هامشا من العيش أو يسمح لهن بإعالة الأسر. وصنفت الدعارة إلى نوعين دعارة رسمية وأخرى سرية دائمة أو موسمية، وكانت سلطة المراقبة المدنية تعترف بالدعارة الرسمية[٣٦]، ويتم تسجيل عدد العاهرات، فبخنيفرة تم إحصاء ٢٠٠ عاهرة بين سكان قدرهم ١٢٠٠ نسمة بحي دشرة الزاكي في سنة ١٩١٤[٣٧]. ويصف المقال الدعارة بهذه المدينة بكونها مؤسسة قائمة الذات عليها أمين يسيرها حسب تعليمات القايد ويوزع الزوار على العاهرات كواجب تحتمه الضيافة. يسهر الأمين أيضا على العهارة ويشرف على كل الأعمال المتعلقة بها. بينما يتكلفن هؤلاء النسوة بتوفير مسكنه وتغذيته دون أي واجبات، وبقيت هؤلاء النسوة حرة في العيش والسفر والتصرف دون أي مراقبة[٣٨].

ويرجع فرانسوا بيرجي جذور الدعارة بهذا الحي إلى العنصر الأجنبي الذي استعان به موحى أحمو الزياني لتأسيس بوادر المدينة، حيث استقدم آنذاك عمال وصناع وتجار من مناطق مختلفة، ومنهم أهل تافيلالت

الذين جاؤوا لمساعدة ابن بلدهم الزاكي محتكر السلع الذي كان يقرضها لصغار التجار أصحاب الحوانيت في السوق مقابل أداء شهري، عمل الزاكي لك يدم طويلا، فاجأته المنية تاركا أرملة وبنتا اشتهرتا بجمالهما، لن تتأخرا في نهج حياة فاسقة، ستبددان جميع ثروات المرحوم، لكن الطبيعة وضعت علاجا للداء، ادركتا أن الذي أفلسهما يستطيع أن يعيد لهما ثرواتهما، هكذا نهضتا أحيانا بمجهوداتهما بدل مجهودات النساء الأجنبيات اللواتي منحنا لهن نصف المال والضيافة واشعاع منزلهما وثرواتهما المتينة، إنها التجربة الأولى من هذا النوع جربت في خنيفرة، وكانت مشجعة[٣٩]. فتكاثرت الحرفة بمدينة خنيفرة التي وجد فيها موحى وحمو وأتباعه الربح الوفير. ومن أجل ضبط هذه الحرفة وجني الأرباح، وضع موحى أحمو الزياني على رأس هذه المهنة لمبارك الشقرني(نسبة إلى قبيلة اشقيرن)، ضابط الآداب بخنيفرة[٤٠]، ويتجلى دوره في إحصاء القادمات من المومسات وتسجيلهن وتجميعهن وحمايتهن مقابل مبالغ مالية عائدة من الدعارة. هكذا عرفت خنيفرة أول حرفة دعارة بالمنطقة، ارتبطت بالنساء القادمات من المناطق المجاورة قصد الاستقرار في خنيفرة حسب فرانسوا بيرجي. وانتشرت هذه الحرفة بشكل أكبر بمجيء الاستعمار، وبقيت بعد رحيل هذا الأخير. إذ اشتهرت مدن هامشية بأحياء خاصة بالعواهر كالحاجب وتغسالين وعين اللوح وبومية.....، ويندرج عزل العاهرات في أحياء خاصة خلال فترة الحماية بتسهيل ضبطهن ومراقبتهن وتتبعهن بالفحوص والعلاجات حتى يجعلهن في مأمن من أي مرض أو نشره[٤١]. ومن هذا المنطلق، نكتشف أن الاستعمار لم يكن يبحث فقط عن الاستفادة من خيرات البلد الاقتصادية فقط، بل سعى للاستفادة من مؤهلاتها البشرية أيضا ولو من خلال الدعارة التي أراد أن يوفرها لرعاياه في كل المناطق. ولذلك اختار أن يقوم بتقنينها ويجعل لها ضرائب تستخلص من لدن الممتهنات اللواتي يخضعن بين الفينة والأخرى للمراقبة الطبية لحماية الزبائن من الأمراض الجنسية. حيث ارتبطت أغلب الأمراض التناسلية التي كانت منتشرة بمختلف المدن المغربية وضواحيها بالدعارة.

وعلما منها (السلطات الفرنسية) بما يسببه تكاثر العواهر وخاصة المستترات منهن من إشعاع للزهري بين الجنود الأوربيين على الخصوص وبين المغاربة على العموم، فقد اتجهت سلطات الحماية إلى محاربة العهارة واستنفرت في ذلك كثيرا من آلياتها وطاقاتها[٤٢]. إذ أمرت بمنع تبرج النساء في الشوارع واختلاطهن بالرجال وبعقاب من يتعاطى البغاء، وأعطت تعاليمها الصارمة للسلطات المحلية بالسهر على تنفيذ هذه المقررات. وبذلك تكون السلطات الفرنسية قد حصرت البغاء في قضية العناية الصحية وعدوى الأمراض، وذلك عبر تنظيم وفتح المواخير الرسمية لها وإعداد وسائل الوقاية الصحية للذين يتعاطونها مدعين أن ذلك خير وسيلة للتخفيف من ضرره. والجدير بالذكر، أن أغلب المومسات السريات كم ينفلتن من هذه الإجراءات، ولأجل ذلك سنت السلطات المعنية عقوبات صارمة ومتشددة اتجاه كل من يتعاطى أو يساعد على البغاء السري[٤٣]، وفي هذا السياق تم استصدار ظهير 19 مارس 1914 الذي تضمن ما يلي:"يتعلق بالأشخاص الذين يتعاطون البغاء السري، أما الأشخاص الذين يتعاطون صناعة القيادة على النسوة فيعاقبون من ثلاثة أشهر إلى عامين سجنا وبدعيرة مالية قدرها من مئة فرنك إلى ألف فرنك ويمنعون من الإقامة بإيالتنا الشريفة مدة قدرها من خمس سنين إلى عشرة أعوام"[٤٤]. ونظرا لتزايد ظاهرة البغاء وانتشار أحياء الدعارة سواء الرسمية أو السرية، رغم محاولة المستعمر تنظيمها وضبطها، وجه لويس ماسينيون (Louis Massignon)، نائب رئيس لجنة فرنسا- المغرب (Comité France-Maghreb)، في 7 يوليوز 1953 رسالة إلى رئيس الجامعة الفرنسية لحقوق الإنسان ليوجهها بدوره إلى وزارة الشؤون الخارجية للجمهورية الفرنسية. وتضمنت هذه الرسالة اتهاما لتجار الرقيق بتوسيع هذه الظاهرة بالمغرب، ودعت إلى تطبيق قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر بتاريخ 2 دجنبر 1944م، والداعي لحماية الإنسان من كافة أشكال الاستغلال كالدعارة[٤٥].

إذا كانت الدعارة بوادي زم تشمل نساء متزوجات باتفاق مع الزوج أو دون اتفاق من أجل البحث عن لقمة العيش(٤٦). فالمرأة الزيانية حسب سعيد كنون تحب زوجها وتفتخر به خصوصا حين تكون هناك دواعي حقيقية للافتخار به. غير أن سعيد كنون يستطرد الحديث عن وضعية مختلفة بالنسبة للأرملة أو المطلقة(٤٧)، اللواتي يتمتعن وفق التقاليد بحق اتخاذ عشاق بمجرد الحصول على الحرية، إنها بداية حياة جديدة بالنسبة لهؤلاء النسوة سواء في الخيمة العائلية ذاتها أو خارجها، فإذا كان أحد كبار الأعيان في رحلة صيد بالمنطقة فإنهن يسامرنه ليلا حتى الفجر إن رغب في ذلك. ويذهبن بعد أن تدعو لهن أمهاتهن بحسن الطالع وبأن يقدر لهن الله لقاء أزواج. وفي حالة اضطر مسافر قضاء الليل في بيت الأسرة تكفيه إيماءة حدرة أو كلمة تنقلها إحدى الجارات لكي يزين فراشه الدافئ ليلا.

موجز القول إن تهجالت (المطلقة) يوجدن في الميدان العام ويبدو أنه بإمكان أي شخص أن يستعملهن شريطة أن يكون لبقا بالمفهوم الأمازيغي للكلمة بمراعاة بعض الشكليات والسخاء عند الفراق. إن هذه العادة مثيرة للدهشة بالتأكيد في بلاد تتباهى بتدينها بالإسلام وتربك جميع الأوربيين الذين عرفوا تقاليد مختلفة في بلدان أخرى مثل القبايل بالجزائر(٤٨). غير أن المتحدث (سعيد كنون) وقف عند إثارة المشكل من جانبه الأخلاقي، وغيب الظروف والعوامل المساهمة في بروز الظاهرة بالمنطقة، ولا سبيل إلى ضبط وفهم العهارة إلا بالرجوع إلى جذورها بالمنطقة، وما جذورها سوى السلطات الفرنسية، ذلك أن ما طرأ على المنطقة مع دخول الاستعمار من مستجدات لم يكن السكان قادرين على مسايرتها وتحمل أعبائها، قد عرض العلاقات الاجتماعية في تلك المنطقة إلى نوع من الاختلال كانت أهم أعراضه تكسير توازنات الأسرة، مما جعل الكثيرين ممن ضاقت بهم سبل العيش في البادية يولون وجوههم شطر المدن برغبة جامحة في البحث عن حياة أفضل هناك. وكانت تيارات المتسايلين إلى المدن تتقوى في زمان الأزمات والضيق الاقتصادي(٤٩)، فيزيد ذلك من عدد العاهرات، وهو أمر يجد ما يزكيه في رواية شفوية مفادها أن منطقة خنيفرة ظلت تستقبل النسوة من مختلف جهات المملكة ليقع التنوع الذي يراهن عليه الزبون(٥٠). وفي هذا السياق، وتحت تأثير عوامل الفقر والبؤس، وتفكك الروابط الأسرية الناجمة عن عواقب الاستعمار، نشطت الدعارة وخاصة كما قلنا بالمناطق التي كانت تتمركز فيها الثكنات العسكرية.

ظلت المرأة الزيانية منذ فترة الحماية محط اهتمام الفرنسيين نظرا لجمالها، ولذلك كلما وفدت شخصيات أجنبية إلى هذه المنطقة (خنيفرة) يتم الاحتفال عن طريق إحضار النساء ويتم تقديمهن كهدايا للأجانب للاستمتاع بهن. فقد أقام رئيس دائرة خنيفرة بمنزله احتفالاً على شرف بعض الضباط الفرنسيين الذين زاروا هذه المدينة وإظهارا لمزيد من الحفاوة والتكريم، أمر القائد هاته النساء بأن يحضرن لمنزل الحفل لابسات أفخر الثياب وويل لمن لم يجد عندها اللباس المطلوب(٥١).

لم تكن هذه الظاهرة موجودة بمنطقة خنيفرة قبل الاحتلال الفرنسي، نظرًا لما كان يحكم المنطقة من أعراف تجعل العاهرة أو الخائنة في وضعية صعبة، ولهذا الافتراض ما يزكيه في كون القائد الزياني موحا وحمو ذات يوم، وهو يعمل على تسوية قضية خيانة زوجية، قال: كل من لقي امرأته في حالة تلبس بالخيانة لا يسعه إلا أن يقتل عاشقها، هكذا تتحقق العدالة(٥٢). وهذا ما يعني أن العرف الأمازيغي يسمح للزوج بقتل زوجته وعاشقها إذا فاجأهما وهما متلبسين بالجريمة(٥٣). ومما يدل أيضا على محافظة المجتمع الزياني وعدم تعاطيه للدعارة، هو أن النساء الزيانيات كن يقمن مع اقتراب الجيوش الفرنسية من أي قبيلة بتلطيخ أجسادهن بروث وفضلات الحيوانات، لكي لا يتم اغتصابهن وعدم الاقتراب منهن بسبب الرائحة الكريهة، وفي حالات نادرة عندما ترغب الفتاة في امتهان الدعارة لأسباب مختلفة تغادر قبيلتها. وهذا ما يعني أن المرأة الزيانية على غرار المرأة الأمازيغية تحظى بمكانة مشرفة تليق بها، ومما يؤكد ذلك أن الأسرة الأمازيغية هي أسرة أميسية، وإلى المرأة ينتسب الأبناء، كما تتكلف بعد وفاة زوجها بتدبير الحياة وتزويج الأبناء.

إذا كان المستعمر الفرنسي وقف على فهم الظاهرة من جانبها الأخلاقي، فقد تبدو نظرة سطحية تتغافل عن مسؤولية الاستعمار كمظهر من مظاهر تشجيع الظاهرة بتقنينها. أما المنطقة فلم تعرف هذه الظاهرة فيما قبل الاحتلال، وهو الأمر الذي نلمسه في مجموعة من الأعراف ومنها: شرف النساء المتزوجات، إذ تعتبر الخيانة الزوجية جرما، كما أن الفتاة التي تفقد عذريتها قبل الزواج، تكون عرضة لتهكم صديقاتها، ويرددن هذه العبارة: أنت، يا من ذهب الرعاة بعذريتها[٥٤]، مما يجعل الزيانية حريصة على حماية شرفها حتى تهديه لزوجها. لأن ما يميز روح وفلسفة أزرف الأمازيغي بشكل عام والنظم الاجتماعية التي أفرزته هي قيم الحرية واحترام كرامة الإنسان[٥٥]. منذ زمن كان القائد موحى أوحمو الزياني يعمل على تسوية قضية خيانة زوجية، فأعطى الحق لمن لقي امرأته في حالة تلبس بالخيانة، أن يقتل عاشقها هكذا تتحقق العدالة[٥٦]. وهذا ما يعني أن العرف ضد الدعارة، وذلك من أجل الحفاظ على كينونة المجتمع وحمايته من الفساد. كما أن بعض الفتيات اللائي يتعرضن للاغتصاب وهي حالات جد نادرة، ينص العرف في حالة الاغتصاب وغياب الشهود أداء اليمين، أي على الفاعل المفترض أن يحلف عشر مرات تأكيدا لإنكاره. وفي حالة إثبات الاغتصاب يقوم المغتصب بجبر الضرر، بزواجه من الضحية. وإذا رفض الزواج بها، عليه منح تعويض لوالدي الضحية، تتناسب ومستواهم ووضعهم الاجتماعي[٥٧]. كما أنه إذا نتج عن الاغتصاب ولادة لقيط يكون مصيره الموت، وبالأخص لدى العائلات اللائي تجدر فيهن الإحساس بالشرف. ويولي الأب أمر هلاك اللقيط لابنته، أو في الغال الأعم لزوجته. ويؤكد الزايانيون مع ذلك أن هذا الوأد نادر الحدوث، وأنهم لم يشاهدوا أمثله عليه. كما يشار إلى اللقيط بعدة أسماء: أشني، أحظيظ، أو إيميس نحرام[٥٨]. وتجدر الإشارة إلى أن الفتيات الأمهات اللائي أنجبن دون زواج، لا يعار لهن أدنى اهتمام مقارنة مع الأخريات[٥٩].

إن عزل أي معطى خارج العلاقات القائمة لا يوقعنا إلا في وهم فهم الظاهرة، أقول ذلك للتأكيد على أن ظاهرة البغاء بالمنطقة تستدعي فهم الظروف الاقتصادية التي حكمت على سكانها بالانتجاع. والحركة الانتجاعية تعني عموماً نقل الماشية من مقراتها الجبلية إلى السهل عندما تغمر الثلوج مناطق سكناهم ويصعب عليهم إيجاد المأكل لمواشيهم، الأمر الذي يفرض على الزياني ترك حرمه بالجبل والانتقال بالأخرى إلى السهل، وربما هذه الظاهرة الاقتصادية المعقدة التي تبعد الزوج عن زوجته لمدة طويلة هي التي تدفع بالمرأة الزيانية للبحث عن عشيق يعيد الدفء لحياتها ويعتني بها.

خاتمة

يبدو من خلال ما سبق، أن الدعارة بخنيفرة لم تكن موجودة، بل ارتبط وجودها بالاستعمار الفرنسي، خاصة أن المنطقة شكلت حجرة عثراء أمام التدخل الفرنسي، الأمر الذي فرض على القوات الفرنسية إنشاء ثكنات عسكرية لمراقبة المقاومين وضبط تحركاتهم، إلا أن الأمر لم يكن ممكنا إلا عبر توفير مواخير المتعة الجنسية لجنودها. ومنذ ذلك الحين وما صاحب الاستعمار من تحولات اقتصادية واجتماعية غيرت من البنى الاقتصادية والاجتماعية بالمنطقة (القضاء على النشاط الاقتصادي التقليدي، تفكك روابط المجتمع والأسرة وتحولات في القيم والعادات....) نشطت الدعارة، وذلك عبر جلب النساء اللواتي يتعاطين للدعارة من المدن المجاورة، ليستمر ذلك بعد الاستقلال بشكل أصبح يمس بعفة وكرامة مجتمع كرس حياته للدفاع عن قيمه وخصوصياته، وأعرافه التي تحط من كرامة العاهرات. وبالتالي يتضح أن مشكل الدعارة عموما أشمل من أن يختزل في شقه الاقتصادي المادي المحض، بقدر ما هو سياسي يندرج ضمن مشروع استعماري، خاصة في المناطق الهامشية التي كانت تتطلب صمود الجنود الفرنسيين. وبناء عليه، يمكن القول إن نشأة مواخير الدعارة ما هو إلا استمرار لاستغلال واستعباد لفئة مهمشة من المجتمع، قذفت بها الظروف الاقتصادية والاجتماعية وتمردها على العادات والتقاليد نحو هذه الفضاءات.

على الرغم من أن موضوع الدراسة يعالج فترة الحماية الفرنسية، فإنه لا يزال يحظى بمكانة راهنية لكون المنطقة لازالت تنعت بالفساد والعهر. ولعل خطورة

الظاهرة تتجسد فيما ينجم عنها من ظواهر سلبية تؤثر على المجتمع، كتزايد نسب الطلاق، والانقطاع المبكر عن الدراسة، وارتفاع أبناء الشارع..... وفي بعض الحالات تثقل هذه العقدة كاهل ساكنة خنيفرة، مما يجعلهم أمام تأهب أقصى للهروب من كينونتهم الحقيقية. على الرغم من كون الدعارة ظاهرة عالمية لا تقتصر فقط على المغرب، بل إن غالبية الدول في العالم تعاني من تفشي الدعارة باعتبارها واحدة من أقدم المهن التي توجد في وجه الأرض.

التوصيات

- تغيير رؤية الباحث لمحتويات وسجلات الماضي التي تختزن عددًا من الوقائع والأحداث، ومن شأن ذلك تجاوز قراءات سطحية للإخباريين المغاربة، وكذا الكتابات الاستعمارية التي طبعتها أحكام غير سليمة ولا دقيقة ولا منصفة.
- الالمام بمبادئ علم الاجتماع والانتربولوجيا والذهنيات لفك الألغاز والرموز، وخاصةً بالمناطق الهامشية التي لم تحظ بنصيبها من الدراسة والبحث، بل وكانت في نظر البعض منهم وكرا للدعارة والفساد.
- ينبغي دراسة المناطق الأخرى لمعرفة التطور الذي عرفته الظاهرة، وكيف وصلت إلى مدينة خنيفرة، أو بعبارة أخرى البحث في روابط الظاهرة عبر التراب المغربي أو بالأحرى المناطق القريبة من خنيفرة.
- التشجيع على جمع وحفظ ما تبقى من العرف الأمازيغي باعتباره رأسمالاً لا ماديًا، ومن شأن ذلك أن يصحح العديد من القضايا التي شابتها العتمة والظلمة.
- ضرورة تطوير التدابير التي من شأنها أن تحمي الشغل في مجالات التشغيل بخنيفرة وضواحيها، والتي تستقطب اليد العاملة النسائية حتى لا تدفعها الحاجة والفقر إلى امتهان الدعارة.
- استنبات قيم إيجابية، وتحقيق العدالة المجالية سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي، وهذا لن يتحقق طبعا مع ذات تتعرض يوميا للقصف العشوائي والمنظم بهدف إنهاكها.
- قراءة الإنسان الخنيفري بوصفه كائنًا اجتماعيًا وثقافيا واقتصاديا، والوقوف عند ملامح هذا المجتمع باستحضار نماذج متعددة بما فيها الزواج، البغاء، المعتقدات..والتي تسمح بضبط المجتمع في شموليته، وفي سياقه الأصلي.

الإحالات المرجعية:

(١) علال الفاسي، **النقد الذاتي**، المطبعة العالمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1952، ص، 254.

(٢) نفسه.

(٣) محمد شفيق، **الدراجة مجال تَوارد بين الأمازيغية والعربية**، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩، ص، ١٠.

(٤) محمد شفيق، "في أن أسماء الأماكن في المغرب جلها أمازيغية"، **مجلة البحث العلمي**، العدد٢٧، ١٩٧٧، ص، ٣٢٩.

(٥) رواية شفهية من طرف مولاي علي الدرقاوي من آيت أومالو بخنيفرة، وهي رواية منتشرة بين السكان، ٩٤ سنة.

(٦) فرانسوا بيرجي، **موحى احمو الزياني (١٨٧٧-١٩٢١)**، ترجمة وتعليق محمد بوستة، مطبعة أنفوبرانت، فاس، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص،٢.

(٧) وهي أن الشيخ حسن الباقوري، وزير الأوقاف المصرية لما زار المغرب بعد الاستقلال سنة ١٩٥٦، زار في جولته إلى الأطلس هذه المدينة، فاحتفل البرابر الكرام بأخيهم المصري العزيز، وكان من جملة من زاره في الحفلة الفقيه العالم عبد الرحمان بن محمد الحاج، فأنس به الوزير المصري وبمذكراته العلمية، فألقى عليه أسئلة من جملتها أنه سأله عن سبب تسمية خنيفرة بهذا الاسم، فأجابه بأنها مشتقة من لفظة "خنفر" يقال أرياز بالبربرية، أي خذ الرجل بشدة وقوة، فذهب بها الوزير المصري في مذكراته حتى يخرجها لنا ناصعة في رحلته، أحمد المنصوري، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق محمد بن لحسن، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ ، ص، ٤٦-٤٧.

(٨) أحمد المنصوري، م.س، ص، ٤٦-٤٧.

(٩) رواية شفهية من طرف السيد زازولي مولاي إدريس من قبيلة آيت عمو عيسى، ٨٦ سنة.

(١٠) صالح شكاك، "خنيفرة"، **معلمة المغرب**، الجزء 11، ص، 3836.

(١١) محمد بن لحسن، "خنيفرة"، **معلمة المغرب**، الجزء 11، ص، 3835.

(١٢) الملكي المالكي، "أنماط العيش بالمجتمع القبلي نموذج تادلة والأطلس المتوسط"، **مجلة أمل**، العدد ١٨، السنة السادسة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ٢٦-٢٧-٢٨ أكتوبر ١٩٩٥، مطبعة المعارف الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص،٩٧.

(13) Lieutenant (p), «Notes Contributives à L'étude de la Confédération Zaian», **Archives Berbères**, V IV, Année 1919-1920, p, ٩٦.

(١٤) سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي وآيت أومالو وبلاد زيان**، ترجمة محمد بوكبوط، منشورات الزمن، مطبعة بني ازناسن، المغرب، 2014، ص، 104.

(١٥) فرانسوا بيرجي، م، س، ص، 40 -39 -30 -26 -25

(16) Le Révérend, **un lyautey inconnu**, édition Perrin, 1976, p, 367.

(١٧) محمد بن لحسن، م. س، ص، 3836.

(١٨) أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، منشورات عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2008، ص،229.

(١٩) ابن منظور محمد بن مكرم بن علي جمال الدين، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1414، الجزء 15، حرف الدال، ص،1379.

(20) Jean. Mathieu, P. H. Maury, Bousbir la prostitution dans le Maroc colonial : Ethnographie d'un quartier réservé, Paris, 2003, p, 14.

(٢١) نجية إسحاق عبد الله محمد، **سيكولوجية البغاء، دراسة نظرية وميدانية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1984، ص، 24.

(٢٢) المرجع نفسه، ص، 22.

(٢٣) عادل شهيب، "فعل الدعارة: قراءة نظرية تحليلية في مفهومه وأسبابه"، **المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية**، الرقم 1، العدد 8، 2016، ص، 225.

(٢٤) المرجع نفسه، ص، 224.

(٢٥) علال الفاسي، م. س، ص، 254.

(٢٦) نفسه.

(٢٧) نوال السعداوي، **الأنثى هي الأصل**، منشورات مؤسسة هذاوي سي آي سي، المملكة المتحدة، 2017، ص، 151.

(٢٨) نفسه.

(29) Jean. Mathieu, P. H. Maury, op, cit, p, 14.

(30) Ibid, p, 15.

(٣١) سورة النور، الآية، 33.

(٣٢) روبير أسبينيون، **أعراف قبائل زيان**، ترجمة محمد أوراغ، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د.ت، 23.

(33) Jean. Mathieu, P. H. Maury, Bousbir la prostitution dans le Maroc colonial : Ethnographie d'un quartier réservé.

(٣٤) الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الافريقي)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ج١، ص، ٢٤٧.

(٣٥) **الجريدة الرسمية**. ٢ ماي ١٩٢٤.

(٣٦) صالح شكاك، **المغرب العميق ورديغة الكبرى 1873-1956 مساهمة في دراسة تاريخ الجهات بالمغرب المعاصر**، تقديم محمد كنبيب، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى، 2010، ص، ٣٨٧.

(37) Nos grands ennemis, des zaian, **Bulletin mensuel comité de l'Afrique française et du comité du Maroc**, N°12, 1917, p, 238.

(38) Ibidem.

(٣٩) فرانسوا بيرجي، **موحى وحمو الزياني (1877-1921)**، ترجمة وتعليق محمد بوستة، مطبعة أنفو برانت، الطبعة الأولى، 1999، ص، 27.

(٤٠) المرجع نفسه، ص، 28.

(٤١) بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912- 1945**، مطابع الرباط نت، 2013، ص، 370.

(٤٢) المرجع نفسه، ص، ٣٦٦.

(٤٣) لبنى قهواجي، **الطب بمدينة فاس وضواحيها على عهد الحماية 1912- 1956**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، (مرقونة)، السنة الجامعية 2024 -2023، ص، 284.

(٤٤) ظهير شريف يتعلق بالأوباش الذين يتعاطون صناعة القيادة على النسوة، **الجريدة الرسمية**، عدد 47، 27 مارس 1914، ص، 105.

(٤٥) صالح شكاك، م. س، ص، 389. نقلا عن: Dr. Sicard, Pausoles de, L'exploitation de la prostitution au Maroc, **la revue abolitionniste**, n 141, Juillet- Aout, 1956, p.p, 56-57.

(٤٦) صالح شكاك، م. س، ص، ٣٨٧.

(٤٧) سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زيان**، ترجمة محمد بوكبوط، منشورات الزمن، مطبعة بني ازناسن، المغرب، 2014، ص، ٣٢.

(٤٨) المرجع نفسه، ص، ٣٣.

(٤٩) بوجمعة رويان، م. س، ص، ٣٧٢.

(٥٠) رواية شفهية من طرف محمد أوعلي من قبيلة آيت بوحدو، ٩٠ سنة.

(٥١) المتألم، "**خنيفرة**"، الرأي العام، العدد ١٦٦، السنة الرابعة، ١ شتنبر ١٩٥٠.

(٥٢) روبير أسبينيون، م. س، ص، ٢٣.

(٥٣) المرجع نفسه، ص، ٥٨.

(٥٤) المرجع نفسه، ص، ٦٠.

(٥٥) الحسين أسكان، "العلاقة بين أزرف والشرع خلال العصر الوسيط"، ضمن **القانون والمجتمع بالمغرب**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2005، ص، 27.

(٥٦) روبير أسبينيون، م. س، ص، 23.

(٥٧) المرجع نفسه، ص، 60.

(٥٨) المرجع نفسه، م. س، ص، 61.

(٥٩) نفسه.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

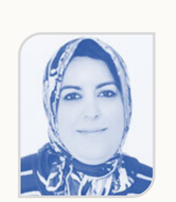
دور الإعلام في حفظ الصحة بالمغرب
من الحماية إلى الزمن الراهن

د. محمد بسباس

دكتوراه في تاريخ وتراث المغرب الحديث والمعاصر

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين مراكش

أسفي – المملكة المغربية



د. لبنى قهواجي

دكتوراه في تاريخ وتراث المغرب المعاصر

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة فاس

مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

مارس الإعلام دور مهم في حظ الصحة العامة وتوعية السكان المغاربة بمخاطر الأمراض والأوبئة المعدية التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى نزيفًا ديمغرافيًا هائلاً، ويأتي الاهتمام الإعلامي بالقضايا الصحية في الصحف زمن الحماية الفرنسية على المغرب في ٣٠ مارس ١٩١٢م إلى غاية حصوله على استقلاله سنة ١٩٥٦، لإبراز دور الخدمات الصحية الاستعمارية في الحفاظ على الوجود الاستعماري، باعتبارها أحد آليات التغلغل الاستعماري. وإبراز افضال فرنسا على المغرب في إطار "رسالة الرجل الأبيض والمركزية الاوربية"، ومن جهة أخرى كان لوسائل الاعلام المحلية دور في توعوي حول كيفية الوقاية من الأمراض، وكشف عدم التزام سلطات الحماية نحو المجتمع المغربي. واستمر هذا الدور بعد استقلال المغرب. واستمر الاهتمام الإعلامي بالقضايا الصحية الراهنة في زمن وباء كورونا، فكانت المواضيع التاريخية ذات الصلة بتاريخية الأوبئة مادة إعلامية رائجة، لتشكل وثائق غير مقصودة حول تاريخ التأريخ للأوبئة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠١	يوليو	٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر:	٠٣	أغسطس	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الإعلام؛ حفظ الصحة؛ الحماية؛ الزمن الراهن؛ الأمراض والأوبئة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.415057 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد بسباس, لبنى قهواجي. "دور الإعلام في حفظ الصحة بالمغرب من الحماية إلى الزمن الراهن".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٥٣ – ١٦٢.

Corresponding author: loubnakahouaji2015@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

لعب الإعلام دور مهم في توعية السكان المغاربة بمخاطر الأمراض والأوبئة المعدية التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى نزيفًا ديمغرافيًا هائلًا، ويأتي الاهتمام الإعلامي بالقضايا الصحية في الصحف منذ فرض الحماية الفرنسية على المغرب في ٣٠ مارس ١٩١٢م إلى غاية حصوله على استقلاله سنة ١٩٥٦، كدليل على مدى تقدم الخدمات الصحية المساهمة في نشر الوعي الصحي وتوعية الناس حول كيفية الوقاية من الأمراض وكيفية التعامل معها إذا ظهرت. واستمر الاهتمام الإعلامي بالقضايا الصحية الراهنة في زمن وباء كورونا، فكانت المواضيع التاريخية ذات الصلة بتاريخية الأوبئة مادة اعلامية رائجة، لتشكل وثائق غير مقصودة حول تاريخ التأريخ للأوبئة.

أولًا: الإعلام بالمغرب قبيل الحماية

لم يكن المغرب قبيل الحماية يتوفر على منابر إعلامية متقدمة، فأغلب الأخبار والأنباء كان يتم نقلها وتداولها حسب ما أورده جامع بيضا من خلال ما يلي:

المنادي: أو ما يعرف بالبراح، وهو الشخص الذي يتولى مهمة الاعلام، وذلك بإطلاق النداء بأعلى صوته في الأسواق وأمام المساجد وساحات المدينة ودروبها، وفي مختلف القرى والمداشر. وكان يعلن ما جد من الأحداث العامة منها والمحلية، وما يتخذه المخزن، كما يعلن أحيانًا عن حاجات الأسر والأفراد(١)، مما يفيد أن وظيفة البراح استقطبت المدن والقرى على حد سواء.

المساجد والزوايا والأضرحة: نظرًا لأدوارها الدينية والاجتماعية والإنسانية لعبت دور مهم نقل الأخبار والمعلومات، وجعلها متداولة.

الرقاص: أو ما يُعرف بساعي البريد حاليًا، وهي مهنة حظيت بعناية السلطان المغربي المولى الحسن الأول منذ سنة ١٨٩٢م، حيث حرص على تنظيمها، فقد كان الرقاص يسافر لعدة كيلومترات سيرًا على الأقدام، لتوصيل الرسائل والشحنات عبر عدة مدن كفاس والدار البيضاء مراكش وغيرها من المدن الكبرى(٢).

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بدأ المغرب يشهد تطور الإعلام وميلاد الصحافة من طرف الدول الإمبريالية التي كانت لها أطماع استعمارية في المغرب خاصةً فرنسا وإسبانيا وإنجلترا، وهكذا خلال الفترة المتراوحة ما بين ١٨٢٠ و١٩١٢ ظهرت بعض الصحف والجرائد اليومية والأسبوعية التي كانت معبرة وناطقة بلسان المستعمر(٣)، بهدف إظهار قوته وتأثيره الاقتصادي والاجتماعي والحضاري من جهة، وتسهيل عملية التغلغل الاستعماري بالطرق السلمية من جهة أخرى.

وفي الفترة المتراوحة بين ١٨٧٠ و١٩١٢، عرف المغرب صدور سبع عشرة جريدة ناطقة بالفرنسية، منها ثلاث عشرة جريدة في طنجة، وأربع في الدار البيضاء(٤)، أما فيما يخص الجرائد الصادرة باللغة العربية، فكانت أول صحيفة هي جريدة "المغرب" التي صدرت سنة ١٨٨٩. ثم جريدة "السعادة" وهي جريدة عربية أصدرتها السفارة الفرنسية في أربع صفحات سنة ١٩٠٤. طُبعت أول مرة في طنجة، عُرفت بولائها للاستعمار الفرنسي، وعاشرت مرحلتين في حياتها، المرحلة الأولى قبل سنة ١٩١٢ والثانية تبتدئ بتاريخ ١٩١٣(٥).

ثانيًا: مساهمة الإعلام في مكافحة الأمراض والأوبئة على عهد الحماية (١٩١٢ - ١٩٥٦)

عانت البلاد بين الفينة والأخرى من انتشار بعض الأمراض والأوبئة المعدية والفتاكة التي كانت متوطنة، مما أدى إلى تدهور الوضع الصحّي للسكان(٦). ومع تعرض المغرب للحماية سنة ١٩١٢م، بدأ المستعمر بمحاولة إرساء الخدمات الطبية الأوربية العصرية من مؤسسات علاجية ومختبرات وأدوية قصد حماية عساكره ومستوطنه، إلى جانب العمليات الوقائية والعلاجية، ركّزت مصلحة الصّحة العموميّة والنّظافة على تنظيم حملات تحسيسية توعوية للوقاية من مختلف العلل(٧) بواسطة الصّحافة التي أكدت ضمن بعض أعمدتها على التيقظ والانقياد(٨).

وسنحاول من خلال هذا المقال رصد أخطر الأمراض والأوبئة التي ضربت البلاد على عهد الحماية، وكيفية تعامل الصحف الاستعمارية معها. وقد تصدرت حمّى

المستنقعات، وداء السل، ومرض الزهري هذه القائمة بشهادة مجموعة من الأطباء الأوربيين، هذا فضلًا عن وباء التيفوس والجذري والطاعون.

١/٢-الإعلام وحمى المستنقعات(Le Paludisme)

حاولت الصحف توعية المجتمع المغربي بمخاطر حمى المستنقعات وتقديم تفسير لأسباب الإصابة بها، فبحسب جريدة "السعادة" فإن هذه الحمّى: «مرض خطير يظهر على الإنسان بارتفاع درجة حرارته الطبيعية مع الرّعدة واشتداد وجع الرأس، وتصبّب العرق، ووجود التعب في كل حركة. وهو عبارة عن تسلط بعض الميكروبات الأجنبية على دم الإنسان (....) أما الوقت الملائم لانتشار هذا الداء، وتمكنه من الجسم، فيبتدئ من شهر ماي إلى غاية شهر نونبر...»[٩].

وحاولت الصحف تحسيس السكان المغاربة بالمجهودات المبذولة من قبل الأطباء بشأن تطويق الباعوض المسبب لحمى المستنقعات، وأوضحت كيفية اهتداء إدارة الصحة العمومية إلى زرع نوع من الأسماك يعرف بغامبوزيا Gambusias أثبت فعاليته في مكافحة البعوض. وفي هذا الإطار كتبت جريدة السعادة ما نصه: «... كان استعمال نوع من الحوت يسمى غامبوزيا، أنفع وأحسن في مكافحة دود الناموس والقضاء عليه، لأنه يصطاده ويبتلع كميات وافرة في زمن قليل، ثم أنه لا يتطلب نفقات طائلة ولا يُفسد الماء وإنما يجب اختيار نوع خاص من هذا الحوت معروف ينمو ويتكاثر عدده في أقصر وقت ومشهور بشراهته وسهولة استئناسه بالأماكن التي يوجد بها دود الناموس... ومن خصائصه أن جميع أنواع المياه تلائمه سواء كانت مالحة أو عذبة أو كانت صافية ليست فيها أعشاب ونباتات أو راكدة .... وكذلك مياه الأودية الجارفة والمستنقعات والضايات والصهاريج»[١٠]. ويبدو أن هذه العملية مكنت الإقامة العامة من الحفاظ على المياه وحمايتها من التلوث.

إلى جانب العملية السالفة الذكر، أوضحت الجرائد أهمية الدواء المعرف بـ "الكينين" للمصابين بحمى المستنقعات ولغير المصابين، فحسب ما جاء في جريدة السعادة: «ولا يذهبن بعضهم إلى أن الكينا إنما يستعملها من أنشبت فيه الحمى مخالبها، فإن هذا الدواء صالح نافع ساعات المرض وفي أوقات السلامة، ففي الحالة الأولى يكون مقاومًا مكافحًا ، وفي الثانية يكون حاميًا وواقيًا ويفسر هذا أن قدر الكينا الذي يبتلعه الإنسان يوميًا يسري مفعوله في الأعضاء فيقضي على ما ربما بداخلها من الجراثيم ويحول بذلك دون حدوث الداء»[١١]، كما أكدت أن: «الحكومة جعلت منذ ١٩٢٧ رهن إشارة العموم كمية عظيمة من كينا الدولة، لأجل أن تباع لهم بأثمان زهيدة إعانة لهم على مكافحة حمّى المستنقعات. فكان من الواجب على كل واحد أن يعمل كل ما في وسعه لسلامته وسلامة أسرته وجميع أفراد حاشيته، وليس ذلك إلا باستعمال الوسائل المقررة واتباع الخطة المرسومة من مصلحة الصحة العموميةّ [١٢]». ويتضح أن الجريدة حاولت أن تبين للعموم بدايةً توزيع دواء الكينين بطريقة شبه مجانية على السكان، وهي وسيلة للتعريف به وبأهميته.

٢/٢-الإعلام وداء السُّل

يُعَدّ السل من الأمراض المعدية التي تؤثر غالبًا على الرئتين، ونظرا لخطورته فقد حظي باهتمام جريدة السعادة التي حاولت تقديم معلومات حوله وكيفية تجنب الإصابة به كما يلي: «مرض خطير على الحياة يفتك بالشبّان في ريعان الصبا كما يفتك بعدد عظيم من الأطفال، والسّل مرض مُعّد له ميكروب خاص يوجد في ألبان الأبقار المريضة بالتَّدَرُّن وفي المواد البلغمية يقدفها الأشخاص المصابون بهذا المرض (...) كما أنه يوجد في الأتربة المتطايرة، بسبب ما يعلق بها من جراثيم المرض بعد أن تجف المواد البلغمية التي يبصقها المريض على الأرض »[١٣].

وبالموازاة مع محاولة نشر التوعية بمخاطر داء السل، قدمت الصحف نصائح مجانية للأمهات المرضعات المصابات بالسل قصد تجنب إرضاع أطفالهن وبالتالي تجنب انتقال العدوى للرضع.[١٤] ويبدو أن هذه الإجراءات الإعلامية لعبت دورًا هامًا في تقليص عدد المسلولين. وفي إطار الوقاية ضد مرض السّل، أصدرت سلطات الحماية الفرنسية مجموعة من الظهائر التي تهدف إلى منع تفشّي العدوى بين السّكان عبر الجريدة الرسمية، ومنها ظهير ٧ أبريل ١٩٢٥ الذي يؤكّد على

إلزاميّة التصريح بالمرض والإبلاغ عنه[١٥]، وظهير٢ يناير ١٩٢٨ الذي تم بموجبه منح إجازة لفائدة الموظفين المصابين بالسّل مدفوعة الأجر مدة ستّة أشهر، قابلة للتّجديد لمدة ثلاث سنوات[١٦].

حاولت الصحف إقناع السكان المغاربة بالتبرع من أجل مكافحة داء السل وتطويقه، فاهتدت سنة ١٩٣٠ إلى القيام ببيع الطّوابع البريدية وتشجيع السّكان على اقتنائها، حسب ما أوردته جريدة السعادة فيما نصه: «قامت اللجنة المغربية لمقاومة داء السل..... بتنظيم بيع طوابع بريدية (تّنابر) لمكافحة داء السّل الفتاك وذلك بمناسبة انتهاء السنة، سيخصص من مدخوله ٩٠ ٪ لصندوق اللجنة.... وعليه من المستحسن، أن تعرف عامّة الناس بالمنافع التي تعود عليهم من مساعدة مثل هذه المؤسّسات والمشاريع الخيرية التي ليست غايتها معالجة المصابين فقط بل هي ساعيّة سعيًا حثيثًا، بصفة خاصة وقبل كل شيء، للمحافظة على سلامة الأصحاء وذلك بتكثير وسائل الوقاية حول المرض[١٧]».

٣/٢-الإعلام ومرض الزهري

يُعَدّ الزهري أو ما يعرف عند المغاربة بالمرض " الكبير" أو "النَّوَّار" [١٨] من الأمراض المعدية المنقولة جنسيًا، تسببه بيكتريا تدعى: "تريبونيم باليديم" Tréponème pallidum، وتنتقل العدوى أيضًا عن طريق استعمال بعض الأدوات الحادة الغير معقمة أثناء عملية الختان وخلع الأسنان أو الحلاقة والوشم وما إلى ذلك، إضافة إلى قلة النظافة ومخالطة المصابين دون وقاية[١٩]. تظهر على المصابين بهذا الداء عدة علامات وأعراض، يمكن اختزالها فيما أوردته جريدة السعادة: « ... تنتج عن الإصابة بداء الزهري قروح وجروح ظاهرة على الجلد وفي الحلق، وحبوب حمراء في البدن وآلام في الرأس، ووجع في العظام والمفاصل، وانتفاخ في الغُدد والغشاء المخاطي وبُثُور عميقة، وانسداد في الشريانات، وتتعطل حركة الأعضاء كلها أو بعضها وتُفَلّجُ، وتنتج عنه أمراض القلب والسَّقْط عند النساء المصابين بهذا المرض، أو المتزوجين بالمصابين من الرجال، وعوارضه شتى عند الأطفال...[٢٠]

ونظرًا لارتباط أغلب الأمراض التّناسلية التي كانت منتشرة في المغرب بالدّعارة، سنّت السّلطات المعنية عقوبات صارمة ومتشدّدة اتجاه كل من يتعاطى أو يساعد على البغاء السّري، وفي هذا السياق تم استصدار ظهير ١٩ مارس ١٩١٤ الّذي تضمن ما يلي: «يتعلق بالأشخاص الّذين يتعاطون البغاء السري، أما الأشخاص الّذين يتعاطون صناعة القيادة على النسوة فيعاقبون من ثلاثة أشهر إلى عامين سجنًا وبدعيرة مالية قدرها من مئة فرنك إلى ألف فرنك ويمنعون من الإقامة بإيالتنا الشريفة مدة قدرها من خمس سنين إلى عشرة أعوام»[٢١].

٤/٢-الإعلام ووباء التيفوس

التيفوس وباء شديد العدوى، ينتقل من الشخص المريض إلى الشخص السليم عادة عن طريق لسعات القمل[٢٢]، ونظرًا لخطورة وباء التيفوس، تبنت مجموعة من الصّحف العمليات التّحسيسية والتّوعوية ضد الوباء، كما هو الحال بالنسبة لجريدة التّرقي، التي نصحت قُرّاءَها بعدم مخالطة المصابين بالحمى، والتأكيد على مراعاة الشّروط الصحية في المأكولات والمشروبات[٢٣]. كذلك نصحت جريدة السعادة متتبعي صفحاتها بضرورة التّحلي بالنّظافة من أجل القضاء على القمل إذ جاء في بعض صفحاتها ما نصّه: «مرض التيفوس هو مرض الوساخة ومرض القمول ..... من هذا الاسم يتبين جليًا أول ما يجب علينا الحرص عليه فأول ما يلزمنا أن نسهر عليه هو منع الوساخة من ديّارنا وحومنا وطرقنا وبلادنا وكل موضع نسير فيه ونعيش به.... كما يلزمنا الحرص التام على الفتك بالحيوان الصغير... وهذا الحيوان هو القملة»[٢٤].

وقد حاولت جريدة السعادة تحسيس السكان بأعراضه التي تشمل: السعال والعصبية والغثيان، مؤكدة أن هذا الداء يصيب الذكور والإناث على حد سواء، وكذلك الصغار والكبار، والإصابة به غالبًا ما تكون مرة واحدة فقط[٢٥]. ومنذ ١٩١٢، استعانت الإقامة العامة بالجريدة الرسمية لتمرير مجموعة من المخططات الاستعجالية والفورية لمواجهة التّيفوس، وذلك من أجل توفير بيئة آمنة وسليمة لاستقرار الأوربيين، وتشجيعهم

على القدوم إلى المغرب، فاستصدرت لهذا الغرض قراراً وزيريًا في١٤ فبراير ١٩١٤، تضمن الخطوات اللازم اتّباعها للوقاية من هذا الوباء المميت، ومن أهم ما جاء فيها: "إن وجود الفنادق، والمساجد، ومختلف الأماكن المقدسة التي يقصدها العديد من الناس بقلب المدينة، ومعظمهم مرضى، يشكل خطرًا دائمًا على السّاكنة الأوربية المتزايدة باستمرار، والتي فرضت عليها الظروف ضرورة التعايش مع السّكان الأصليين".[٢٦]

وبناءً على ذلك، تم اتخاذ الخطوات التالية لحماية المدينة المغربية من هذا الوباء، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- ضرورة الابتعاد عن التجمعات البشرية تلافيًّا للعدوى.
- تخصيص حملات بوليسية لتطهير المدن بشكل صارم من الفقراء والمعوزين والمتشردين.
- ضرب مخيمات، على بعد مسافات تتراوح بين كيلومتر واحد إلى كيلومترين، لإيواء أولئك الذين تم انتشالهم أثناء الحملات البوليسية، والعمل على تحميمهم بالصابون والكريزيل، مع حلق شعرهم وتجريدهم من ملابسهم القذرة وحرقها ومنحهم جلابيب جديدة.
- حراسة أبواب المدن، وحظر دخول المهاجرين القرويين والجياع والمرضى.
- تشديد الرقابة الصحية على الملاجئ والسجون ومختلف المؤسسات الخيرية، وتنظيفها وتطهيرها بالفومالين والكريزيل المغلي.
- قيام الأطباء بزيارة المصحات مرتين يوميًا، وفرز المشتبه بهم، وتوجيههم فورًا نحو المحاجر الصحية، وإرسال الأصِحّاء منهم للعمل في أوراش البناء أو إرجاعهم إلى مواطنهم الأصلية مع مبلغ مالي هزيل.
- توفير الطعام للفقراء اللاجئين، والذي كان يتكون من خبز وشوربتين ساخنتين (حريرة) في اليوم.[٢٧]

وبتاريخ ١٠ يوليوز ١٩١٤، استصدرت الإقامة العامة بالجريدة الرسمية ظهيراً نبه الأوربيين إلى ضرورة الابتعاد عن حشود الأهالي، وتوخّي المزيد من الحيطة والحذر في اختيار الخدم من المسلمين، والاحتراز من الأماكن المزدحمة والابتعاد عن الحمّالين، وعدم الأكل في المطاعم المغربية إلا بعد التّأكّد من نظافتها، وأن يحذروا في اختيار خادمات البيوت، وأن يشترطوا عليهن نزع ملابسهن وتركها خارج بيوت مشغليهم وارتداء لباس خاص بالعمل.[٢٨]

وتلكم إجراءات تشير أن المستعمر في البدايات الأولى للحماية وفي ظل غياب الأدوية والتطعيمات المكافحة للتيفوس، ركّز على الجرائد لنشر أهم الإجراءات الوقائية والاحترازية لمنع تفشي الوباء في صفوف المستوطنين الفرنسيين، لذلك كان يحثهم على عدم الاقتراب من الأهالي

٥/٢-الإعلام والجذري

كان هذا الوباء معروفًا في البلاد المغربية؛ إذ يظهر في فترة زمنية ثم يختفي ليعود مرة أخرى بعد أربع سنوات أو تسعة. ومما جاء كذلك في "جريدة الترقي": «أن مرض الجذري معروف وشائع في البلاد المغربية، ومن لاحظ التشوهات الكائنة في أوجه القوم وأعضائهم عرف شدة وطأة هذا المرض ووخامة عافيته، والجدري يعتري الكبار والصغار على السواء[٢٩]». وفي سنة ١٩١٧م، أشارت جريدة السعادة إلى تواجد بعض الإصابات بمدينة فاس ضمن مقالها المعنون بـ "داء الجُذري"، بما نصّه: «كانت ظهرت بعض إصابات الجذري بمدينتنا، وقد اهتمت لذلك إدارة البلدية كل الاهتمام تحفظًا من الانتكاس وانتشار الداء المعدي المذكور بيننا، وقد أخذت كل الاحتياطات اللازمة لوقاية أولادنا شر أضراره الفتاكة لما ترك بين ظهراننا من ذكرى الحزن[٣٠]». وهذا قد يدل على أن سلطات الحماية الفرنسية اتخذت الاحتياطات العلاجية والوقائية اللازمة مخافة تفشي العدوى.

ونظرًا لأهمية التطعيم الجينيزي[٣١] Vaccination Jennérienne[٣٢] ضد الجُذري، سنت الإقامة العامة بالجريدة الرسمية سنة ١٩١٨ قانون يؤكد على إلزامية التلقيم، ويُحتّم تلقيح الأطفال في الشهر الأول من الولادة وإعادة تطعيم الكبار كل أربع سنوات، نستشف ذلك من خلال الظهير الشريف الذي استصدرته الإقامة العامة خلال نفس السنة، والذي تضمن ثمانية فصول نصت على ما يلي:

الفصل الأول: كل قادم للمنطقة الفرنساوية بالإيالة الشريفة من إحدى المراسي أو عن طريق البر لا يُدلي بشهادة قانونية مثبتة بأنه لُقِّح بالمادة الواقية من الجدري منذ أقل من ستة أشهر يجري تلقيحه حالًا، ولا يجرى ذلك على القادمين من العسكريين.

الفصل الثاني: يؤخذ عن كل تلقيح أداء قدره فرنك واحد.

الفصل الثالث: كل من أبى الاستظهار بالشهادة المشار إليها أن يُلَقَّح مرة أخرة زيادة على تعريضه للعقوبات.

الفصل الرابع: الشركات البحرية ملزمة بدفع الأداء المرتب على التلقيح.

الفصل الخامس: يُرقم في أوراق السفر أو يُعلن في محلات الشركات البحرية وسفنها أنه يتعين على كل راكب أن يكون مصحوبا بالشهادة المشار إليها.

الفصل السادس: يُكلف أعوان الإدارة البحرية والبرية على الحدود لإثبات المخالفات.

الفصل السابع: كل من خالف مقتضيات هذا الظهير، يحكم عليه بالسجن من يوم واحد إلى خمسة أيام، وبذعيرة تتراوح من فرنك إلى خمسة عشر فرنكًا[٣٣].

٦/٢-الإعلام والطاعون

يعتبر الطاعون من الأمراض المعدية، يصيب الفئران وينتقل إلى الإنسان، ويتميز بالتهاب الجهاز اللّمفاوي وحدوث نزيف في الأنسجة، وينتقل المرض عن طريق الفئران أو أنواع القوارض الأخرى، ذلك أنه عندما ينتشر الطاعون بين الفئران، فإنه يؤدي إلى نفوق كثير منها فتهجرها البراغث إلى الإنسان وتلدغه وتنقل إليه الطاعون[٣٤]. ونظرًا لخطورة هذا الوباء، انكبت سلطات الحماية الفرنسية على مكافحته بمختلف الوسائل، كما استعانت بالجرائد لتوعية السكان المغاربة بكيفية العدوى، وأكدت أن أنثى الفئران يمكنها أن تُنْجب ما بين ٦ و١٢ مرة في السنة، وصغارها تُصبح بالغة بعد ٦ أشهر فقط، وتنتشر غالبًا في المنازل ومجاري الصرف الصحي والبراري، وتتغذى بشكل خاص على الحبوب واللحوم ومخلفات الطعام بجميع أنواعها[٣٥].

ثالثًا: المؤرخ والصحفي في زمن كورونا

منذ أكثر من عقدين من الزمن تساءل أحد المؤرخين المغاربة قائلاً: هل يصح القول -بعد أن أصبحت العولمة قدرًا لا مفر منه- أن المؤرخ سيدخل حقبة تشكل طفرة نوعية على مستوى البحث التاريخي؟[٣٦] انطلاقًا من الكم الموضوعاتي والوثائقي والطفرات المنهجية، وفي نفس السياق وفي ظل عولمة الأوبئة وانتشارها على نطاق واسع ومنها المغرب، هل استطاع مؤرخ الزمن الراهن أن يلفت انتباه الصحفي لينشر له نتائج أبحاثه حول وباء كورونا؟

ثمة علاقة بين التاريخ والصحافة وثيقة، ويبدو أن مميزات في المؤرخ الصحفي واحدة، ويكاد يكون النهج الذي يسير عليه كل منهما في كتاباته وبحثه ونقده واحدة مع اختلاف يسير بينهما، وربما يكون الاختلاف بين الاثنين في الصفات والنهج إلى عامل الزمان.

ويتحكم عامل الزمان في عمل الاثنين، فالمؤرخ غير مرتبط في عمله بزمن محدد، فلديه ما يشاء من الوقت لإنجاز عمله ، أما الصحفي فإنه يتحكم فيه عنصر الزمان تحكمًا شديدًا، فأمامه ساعات فقط لإنجاز عمله، إذا كان يعمل في صحيفة يومية ورقية ورقمية، وأمامه وقت محدد وهذه السرعة التي تتسم بها أعمال الصحفي -خصوصًا الذي يعمل في الصحافة اليومية- قد تجعل إنتاجه فجًا أو ضحلًا أو ناقصًا في أغلب الأحوال، بينما يتصف التاريخ عادة بالنضوج والعُمق والاكتمال والتمام، والصحفي معذور لأنه مطالب بتقديم إنتاجه في ساعة معينة حتى يلحق الصحيفة في موعدها المحدد.

ورؤية العلاقة بينهما من خلال ما يسمى اليوم بالتاريخ الراهن[٣٧]، يشتركان في نفس المرحلة التاريخية التي يعالجانها، فيصبح كل منهما (شاهد عصر)، ويكاد يكون النهج الذي يسير عليه كل منهما في كتاباته وبحثه ونقده واحدة مع اختلاف يسير في الحالين، فالصحفي يبحث عن الخبر بينما المؤرخ يبحث عن صحة الخبر؛ فالخبر المسكوت عنه لدى الصحفي هو الخبر الأساسي الذي سيشكل أطروحة المؤرخ وهموم بحثه[٣٨]؛ لذلك نستطيع القول إن المؤرخ صحفي الماضي، وأن الصحفي

مؤرخ الحاضر وبالخبر ينتهي دور الصحفي في صناعة التاريخ ليبدأ دور المؤرخ.

نقلت الصحافة الوطنية قصاصات أنباء حول تسجيل أول حالة إصابة بالبلاد بوباء كرونا (كوفيد-١٩) في ٢ مارس ٢٠٢٠ بالدار البيضاء. رغم الاحترازات المتخذة للحيلولة دون انتشار هذا الوباء بالمغرب،[٣٩] تتعلق الحالة بمواطن مغربي عائد من مدينة بيرغامو، الإيطالية في ٢٧ فبراير. وسجلت ثاني حالة بعد أيام قليلة لمواطنة مغربية تبلغ من العمر ٨٩ سنة مقيمة بإيطاليا، وعادت من مدينة بولونيا إلى المغرب في ٢٥ فبراير بعد اتساع رقعة تفشي المرض في المغرب في منتصف مارس، أغلقت الحكومة المدارس وعلقت الرحلات الجوية.[٤٠]

في ظل هذه الوضعية التي أصبح يعرفها المغرب منذ عند الإعلان من أول حالة إصابة بكورونا وما نتج ذلك من إجراءات الحجر الصحي، بات من الواضح ارتفاع الطلب على خدمات الصحفي بكل أنواع تخصصه واهتمامه وأيضًا الرغبة في معرفة المزيد عن تاريخ الأوبئة والجوائح، فتم تأسيس جسر من التواصل بين الصحفي والمؤرخ لتقاسم هذا الاهتمام غير المسبوق ، ومن جهة أخرى زاد الطلب والشغف في الأوساط الأكاديمية المهتمة بالتاريخ على تاريخ الراهن، وكانت هذا التلازم اصدق تعبير على دور الصحافة في نقل الاهتمام التاريخي للحدث الوبائي، ومما يدل على ذلك حجم المنجز من الدراسات و الأبحاث حول وباء كوورنا.

١/٣-لمحة عن مساهمات المؤرخين في التعريف بتاريخ الأوبئة زمن كورونا

تنوعت مساهمات الباحثين في التاريخ في ظرفية جائحة كرونا، من خلال القنوات الأكاديمية المعروفة في مجال البحث التاريخي، وشكلت محط اهتمام إعلامي منقطع النظير لكم الاهتمام الواسع بمعرفة المزيد حول تاريخية الأوبئة ومنها وباء كرونا، ومن جهة أخرى وجد الباحثون في التاريخ نافذة ت قصد إيصال معرفتهم التاريخية الخاصة بالجوائح إلى أوسع شرائح المجتمع، والمقصود هنا هو شبكة الأنترنت ووسائل الإعلام بأشكالها المرئية والمكتوبة والإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي. والتي قربت المعلومة التاريخية من شرائح واسعة من المجتمع طيلة مدة الحجر الصحي والتي ناهزت أربعة أشهر.

٢/٣-الصحافة المرئية

ساهمت البرامج التلفزية والقنوات الإليكترونية في الاهتمام بالإنتاج العلمي التاريخي حول وباء كرونا، وهنا لا ندعي الإلمام بكل ما أنتج في هذا الصدد، وإنما الاقتصار على بعض البرامج قصد لفت الانتباه الى أهمية هذه القنوات في تقريب المعرفة التاريخية حول وباء كوفيد، وفي هذا الصدد نورد هذه النماذج كالتالي:

-عرضت القناة المغربية أربع حلقات من برنامج تاريخ الأوبئة بالمغرب (M24Maroc) للباحث محمد أبيهي، أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، حيث استضافته القناة في أربع حلقات، خصصت الأولى لموضوع "الكتابات التاريخية حول الجوائح والأوبئة بالمغرب "، والثانية لـ "تدبير المغاربة للجوائح والأوبئة في تاريخ المغرب " والثالثة لـ "أزمة فيروس كورونا من منظور تاريخ الزمن الراهن، والرابعة لـ "مستقبل العلاقات الدولية للمغرب في ظل أزمة كورونا.[٤١] 2020 يونيو 7 ليوم - في نشرة الأخبار الظهيرة على القناة التلفزيونية المغربية الثانية، ساهم الباحثين نور الدين بلحداد الأستاذ بمعهد الدراسات الأفريقية بالرباط ، وعلى بنطالب أستاذ بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية وعبد العزيز الطاهري أستاذ التاريخ بكلية الآداب بالرباط في التعريف بتاريخ الأوبئة في تاريخ المغرب.

٢-الصحافة الإلكترونية

اهتمت الصحافة الإليكترونية بحجم اهتمام المؤرخين بالحدث الوبائي خاصة كرونا، ومن ذلك ما نشرته، جريدة هيسبريس الإلكترونية[٤٢](heapers)، من مقالات، أولهما يغلب عليه الجانب البيداغوجي، ويحمل عنوان الدرس التاريخي بالجامعة المغربية نظرات بيداغوجية على ضوء تاريخ الأوبئة ونازلة كورونا، لأستاذ التاريخ بكلية آداب وجدة مصطفى نشاط الذي دعى فيه إلى إعادة النظر في الدرس التاريخي في الجامعة المغربية بالاهتمام أكثر بالتاريخ الاجتماعي، ومن قسمت

تاريخ الأولية والجوائح والثاني تاريخي، عنوانه "عندما انتشر الطاعون الأسود بالمغرب هلاك العمران والإنسان" ثم أجرت الجريدة نفسها، حوارا مع هذا الباحث"، أوضح فيه أهم الأوبئة التي عرفها تاريخ المغرب، ونتائجها وانعكاساتها ومواقف الفقهاء منها، ومواقف المغاربة منها وسلوكاتهم أثناء وقوعها، وعمل على لمقارنة بين هذه الأوبئة والوباء الحالي.

طرح المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش سؤال مفاده: أي دور للمؤرخ في فهم جائحة أزمة كورونا؟[٤٣] وقال أحسب أن السؤال المثار ذو طبيعة مركبة، فهو يروم إعادة التفكير في مسؤولية المؤرخ وانخراطه وتفاعله مع قضايا مجتمعه، وعدم بقائه في مقعد المتفرّج أو المراقب عن بعد، ومن ثمّ توسيع مساحات حضوره في الحراك المدني والنقاش المجتمعي، حتى يكون له دور ملحوظ وصوت مسموع في المجتمع، كما يسعى السؤال في الوقت ذاته إلى استكشاف آليات الاشتغال المنهجي التي تتيح للمؤرخ بناء رؤية لفهم أزمة جائحة كورونا، وحاول تقديم محاور الفهم لأزمة جائحة كورونا من خلال:

- فرضيات وترتيبات نظرية للوقوف على عتبة الفهم الأولي لأزمة جائحة كورونا:
- أن الفهم يصبح أكثر تعقيدا بالنسبة لحدث من طينة وباء كورونا الذي أحدث شرخًا في رتابة مسيرة التاريخ الراهن، وصار لغزًا محيّرًا.
- أن وباء كوفيد ١٩ حدث آني بامتياز، لا يزال يتسم بفورانه، ولا تزال لحظاته في طور التشكّل بإيقاع سريع لا يسمح بالمراقبة الدقيقة. لذلك فإن فهمنا لمستغلقاته لن يتجاوز عتبة الفهم الأولي، في انتظار أن ينقشع الضباب، وتتضح الرؤية. دون الزعم بإمكانية تقديم إجابات دقيقة.

لكن مع ذلك، ثمة وضع المؤرخ بوتشيش عن محددات فهم الأزمة، من خلال النقط التالية:

أولاً: إن هذا الوباء حدث معاش، لا يزال المؤرخ يعيش في قلب حركيته، ويحيا لحظات أهواله بالساعات والدقائق، لقد وجد المؤرخ نفسه فجأة لصيقا بالحدث، إنه حدث لحظي يطرح سؤالاً راهنيًا على لحظة تاريخية ساخنة، تجعل منه مؤرخا آنيا بامتياز، وكلما كان المؤرخ قريبا من الحدث، كانت مصادره وآليات اشتغاله أكثر وفرة وحظا للفهم.

ثانيًا: إن زمن كورونا زمن غير طبيعي، بل يمكن وصفه بأنه زمن غريب، زمن ما فوق المألوف، تغيّرت فيه المفاهيم والسلوكات الطبيعية، وانقلبت فيه المعادلات،

ثالثًا: إن الحجر الصحي الذي يعيشه المؤرخ وغيره من خدام المعرفة هذه الأيام، هو فرصة للتفكّر والتدبّر، فالانعزال والتأمل عادة ما يزيد من طاقة العمق الفكري،

رابعًا: إن مراحل الأزمات التي تسبّبها الأوبئة والمجاعات أو الحروب، تؤدي في الغالب الأعم إلى تكسير رتابة التفكير والقيّم الجاهزة، وتجنح نحو إبداع أسئلة جديدة،

خَاتِمَةٌ

من حصاد ما سبق، فإن دور الإعلام في حفظ الصحة بالمغرب من الحماية إلى الزمن الراهن، واضح من خلال تزايد حجم الاهتمام الإعلامي بقضايا حفظ الصحة، بالإضافة الى الإقبال الإعلامي على المادة التاريخية الخاصة بالأوبئة، وقد زاد مع اللحظة العصيبة التي عاشها المغرب والعالم في زمن كرونا. وهكذا خلصنا الى مجموعة من الاستنتاجات نوجزها كالتالي:

- استلزم حفظ الصحة العامة وتوعية السكان المغاربة بمخاطر الأمراض والأوبئة المعدية، تجييشًا إعلاميًا استعماريًا خاصةً الصحف، زمن الحماية الفرنسية على المغرب، لإبراز دور الخدمات الصحية الاستعمارية في تبرير الوجود الاستعماري، باعتبارها أحد آليات التغلغل الاستعماري. وإبراز اليد البيضاء لفرنسا على المغرب في تحضره.

- تدخل المادة الخبرية الخاصة بحفظ الصحة في المغرب زمن الحماية في إطار تبخيس دور الحركة الوطنية المغربية في سعيها لتحقيق الاستقلال. وقد كانت المناسبة لرصد ظهور وتطور أنواع المنابر الإعلامية المغربية زمن الحماية، ونوعية المواضيع المهتمة بها. كما كان لهذ الوسائل المحلية دور في توعية السكان حول كيفية الوقاية من الأمراض، وكشف عدم التزام سلطات الحماية نحو المجتمع المغربي.
- استمرار الاهتمام الإعلامي بالقضايا الصحية الراهنة وصولًا لزمن وباء كورونا، فكانت المواضيع التاريخية ذات الصلة بتاريخية الأوبئة مادة إعلامية دسمة ورائجة، وبالتالي وقفنا على كم اهتمام المجتمع بالمادة الإعلامية الخاصة بوباء كورونا، وحجم التعاطي الإداري والاجتماعي والاقتصادي مع هذا الوباء من قبل الدولة والمجتمع.
- تمثل الصحف والمحتويات الإعلامية الاستعمارية والمغربية، وثائق لا غنى عنها للمؤرخ في كتابة جانبًا من تاريخ الأوبئة والأمراض وأشكال حفظ الصحة العامة بالمغرب أثناء الحماية إلى زمن كورونا.

الإحالات المرجعية:

(١) أفا عمر، **البراح**، معلمة المغرب، ج ٤، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٤١١هـ/ ١٩٩١ م، ص.١١٥١.

(2) Jamaa Baida, **La presse Marocaine d'expression Française des origines à 1956**, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Rabat , Thèses n°31,1996,p.32.

(٣) اليوسفي المغاري حسن، لمحات من تاريخ الصحافة المغربية، ج ٤، انظر: https://elyousfi2.blogspot.com، اضطلعت عليه بتاريخ: ٢٠٢٤/٢/١٠.

(4) Jamaa Baida, **La presse Marocaine d'expression Française** ...., op.cit,p.3٢.

(٥) اليوسفي المغاري حسن، لمحات من تاريخ الصحافة المغربية، ج ٤، انظر: https://elyousfi2.blogspot.com، اضطلعت عليه بتاريخ: ٢٠٢٤/٢/١٠.

(٦) زكريا الإبراهيم، **الصحة والمجتمع دراسة سوسيولوجية للصحة والمرض بالمجتمع القروي**، فضاء أدام للنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، ٢٠١٦، ص.١٠٥-١٠٦.

(7) Alix Woytt-Gisclard (Dr), **L'assistance aux indigènes musulmans au Maroc**, Thèse pour le doctorat, Recueil Sirey, Paris,1936 .,p.107.

(٨) مكافحة حمة المستنقعات، **السعادة**، ٦ أكتوبر ١٩٢٨، ع ٣٣٠١.

(٩) الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، **جريدة السعادة**، ع ٣٥٤٦، ٢٩ ماي ١٩٣٠.

(١٠) مكافحة الناموس وحمى المستنقعات، **السعادة**، ع ٤١٢٤، ١٢ مايو ١٩٣٤.

(١١) حمى المستنقعات، **جريدة السعادة**، عدد ٣٠٩٦، الخميس ٥ ماي ١٩٢٧.

(١٢) مكافحة حمى المستنقعات، **جريدة السعادة**، عدد ٣٣٦٧، السنة ٢٥، ٦ مارس ١٩٢٩، ص. ١.

(١٣) التّدرن أو السّل، **جريدةالسعادة**، ع ٥٦٥٤، ١٠ يوليوز ١٩٤٢

(14) **Résidence générale de la République française au Maroc, Rapport sur l'activité des services du protectorat en 1928**, Imprimeries Officielle, Rabat,1929, p.295.

(15) Dahir du 7 Avril 1925 (13 ramadans 1343) modifiant la liste des maladies contagieuses ou épidémiques soumises à la déclaration prévue par le dahir du 28 janvier 1914 (1(er)rebia I 1332), **Bulletin Officiel**, n° 657, 26 mai 1925, p.884.

(16) Arrêté vizirial du 25 janvier 1928 (2chaabane 1346) relatif à la concession de congrès de longue durée aux fonctionnaires titulaires des cadres permanents des administrations publiques chérifiennes atteints de tuberculose ouverte, **Bulletin Officiel**, Dix-septième année, n°797 ,31 janvier 1928, p .304.

(١٧) لمكافحة داء السل، **جريدة السعادة**، ع ٣٦١٥، ٣٠ نونبر ١٩٣٠.

(18) Raynaud Lucien, **Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc**, Alger, 1902, p .143.

(19) Delanoë Eugénie, Trente **Années d'activité Médicale et Sociale au Maroc**, Librairie Maloine S.A, Paris,1949, p.113.

(٢٠) مرض الزهري أو النوار، **جريدة السعادة**، ع ١١٥٦، ٢٤ يناير ١٩١٦.

(٢١) ظهير شريف يتعلق بالأوباش الذين يتعاطون صناعة القيادة على النسوة، **الجريدة الرسمية**، عدد ٤٧، ٢٧ مارس ١٩١٤، ص١٠٥.

(٢٢) Rivet Daniel, **Le Maroc de Lyautey à Mohamed V, le double visage du protectorat**, Ed Porte d'Anfa, Paris,1999, p.236.

(٢٣) أسعد كرم، الصحة العمومية، **جريدة الترقي**، السنة التاسعة، عدد ٤٣٣، ١٢ ماي ١٩١٠، ص ١.

(٢٤) إدارة الصحة العمومية، مرض التيفوس، **جريدة السعادة**، عدد١٣٠٢، ٣١ يناير ١٩٢٨.

(٢٥) العدوى، **جريدة السعادة**، عدد ٢٧٩، ١٦ نوفمبر ١٩١٨.

(26) Service de la Santé et de L'assistance publique, **Bulletin Officiel**, Troisième Année, n°68,13 février 1914, p.102.

(27) Ibid.

(28) Service de la Santé et de L'assistance Publiques, Etat du Service de la Santé et de l'Assistance Publiques du Protectorat et Considérations sur l'Epidémiologie Marocaine à la fin de l'Année 1913, Epidémiologie, **Bulletin Officiel**, troisième année, n°89,10 juillet 1914, p.559

(٢٩) الجذري، **الترقي**، ع ١٦٦، السبت ٦ دو القعدة ١٣٣٥ الموافق ل غشت ١٩١٧، ص ٢.

(٣٠) داء الجذري، **جريدة السعادة**، ١٠ يوليوز ١٩١٧، ع ١٥٦٧

(٣١) التطعيم الجينيزي: لقاح ضد وباء الجذري، انظر:

Colombani Jules et Mauran (Drs), **Le Ministère de la Santé et l'Hygiène Publique au Maroc** , les Editions-Marocaines : Léon Guigues,Casablanca,1921. ,p.172

(٣٢) الفاسي عبد الإله، بلدية الرباط، تحولات الحياة الاقتصادية بمدينة الرباط بعد فرض الحماية١٩١٢ـ١٩١٨، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط**، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٧، ط ٢٠٠١، ص.٤٢٥.

(٣٣) ظهير شريف في وجوب التلقيح بالمادة الواقية من مرض الجدري لكل قادم للإيالة الشريفة برا وبحرا، **الجريدة الرسمية**، عدد ٢٩٢، ٢ ديسمبر ١٩١٨، ص.١١١٨ـ١١١٩.

(٣٤) رويان (بوجمعة)، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب ١٩١٢ ـ ١٩٤٥**، الطبعة الأولى، دار النشر المغرب، ٢٠١٣، ص. ١٣٠ـ١٣١.

(35) Instruction Résidentielle pour la destruction des rongeurs, Bulletin Officiel, n°78,24 avril 1914, p.279.

(٣٦) إبراهيم القادري بوتشيش، **مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والإنترنيت، منشورات الزمن، سلسلة قضايا تاريخية**، الكتاب الثاني، مطبعة النجاح الجديدة،2000، ص.7-6.

(٣٧) جامع بيضا، **فترة الحماية ونقط الظل، ضمن المغرب والزمن الراهن،** إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الدار البيضاء،2013، ص.17.

(٣٨) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، ج١، الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992، ط١١، ص.68.

(٣٩) ومن المعلوم أن هذه الجائحة العالمية نتجت لمرض فيروس كورونا ٢٠١٩ والذي يحدثُ بسبب فيروس كورونا ٢ ارتبطت بالمتلازمة التنفسية الحادة الشديدة.(SARS-CoV-2)

(40) منظمة الصحة العالمية www.who.int/covid-19 الأمم المتحدة، تاريخ الاطلاع ٢٢-٣-٢٠٢٤ www.un.org/ar/coronavirus-.

(٤١) نشر بتاريخ ١٣ يونيو ٢٠٢٠الرابط: spss bit ly/3454AN تاريخ التصفح:20 فبراير 2024.

(٤٢) نشر بتاريخ 13 يونيو ٢٠٢٠، الرابط: http://bit.ly/39ciDA، تاريخ التصفح 20 فبراير 2024.

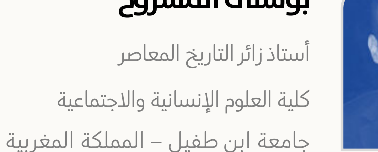
(٤٣) نشر بتاريخ ٣١ مارس ٢٠٢٠ الرابط: hnps://bit.ly/31pFtfe، تاريخ التصفح 20 فبراير 2024.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

ضبط المجتمع المغربي عبر السينما خلال الحماية الفرنسية
دراسة في وثائق من مركز الأرشيف الدبلوماسي لمدينة نانت





بوشتى المشروح

أستاذ زائر التاريخ المعاصر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

استخدمت سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب أساليب عديدة لإخضاع ومراقبة المغاربة، تنوعت ما بين الأساليب العسكرية والحربية، والأساليب السلمية غير المكلفة من الناحية البشرية. كانت السينما إحدى الوسائل الناعمة التي استخدمتها سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب، حيث نوعت وظيفتها من وسيلة للترفيه وتزجية الوقت، إلى دعاية لسياساتها الاستعمارية، ثم وسيلة لضبط المجتمع المغربي ومراقبته، علاوة على الرفع من الموارد المالية لميزانية الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب، وخصوصًا ضريبة حق الفقراء الموجهة لأنشطتها الخيرية لفائدة أبناء وأرامل جنودها الذين قضوا خلال الحرب العالمية الثانية. ركزت سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب على المنع والمراقبة لضبط المجتمع المغربي عبر السينما، وإخضاعه لقوانين التمييز الاجتماعي والنوعي والديني، بمبرر الحفاظ على الصحة العامة، أو حماية صحة الأجيال الناشئة، أو عدم الخروج عن الأعراف والتقاليد، لكن الهدف الحقيقي كان الإخضاع القسري للقوانين والسياسات التي كانت تسنها سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب، من خلال استغلال الدهشة والانبهار لدى مرتادي القاعات السينمائية، واستغلال رغبتهم في مشاهدة الأفلام السينمائية، وخصوصًا الأفلام المصرية التي تزايد الإقبال عليها مع تنامي الحس الوطني والقومي لدى فئات عديدة من المجتمع المغربي خلال الحماية الفرنسية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٥ يوليو ٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

المجتمع؛ المغرب؛ السينما؛ الحماية؛ أفلام؛ السينما التاريخية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.307219.1152 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بوشتى المشروح، "ضبط المجتمع المغربي عبر السينما خلال الحماية الفرنسية: دراسة في وثائق من مركز الأرشيف الدبلوماسي لمدينة نانت".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٦٣ – ١٧١.

Corresponding author: bouchta75@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةٌ

عملت سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب على نهج أساليب واستراتيجيات عديدة بغية السيطرة على الأراضي المغربية، وإخضاع المغاربة، تنوعت ما بين التدخل العسكري والمواجهات الحربية، وبين السياسات الاجتماعية والإدارية الهادفة إلى مراقبة وضبط المجتمع المغربي. وقد ركزت أغلب الدراسات التي تناولت موضوع ضبط المجتمع المغربي على الجوانب الإدارية والبنيات السياسية والدينية المرتبطة بهياكل الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب، بينما ركزنا في هذا المقال على موضوع جديد، يتجلى في استخدام سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب للسينما آلية لضبط المجتمع المغربي خلال الحماية الفرنسية.

ركزت إشكالية هذا المقال على رصد استراتيجيات الضبط والمنع والمراقبة عبر السينما التي نهجتها سلطات الحماية لضبط فئات من المجتمع المغربي، حيث تناولنا موضوع الضبط المجتمعي عبر المجال السينمائي، من خلال ضبط مجال القاعات السينمائية، واستخدام المنع من ولوجها آلية للميز الاجتماعي، وللتمييز الجندري على أساس ديني، بغية تكريس الهيمنة الذكورية، وترسيخ الأعراف الاجتماعية، علاوة على منع القاصرين من ولوج القاعات السينمائية بمبررات عديدة.

اعتمدنا في دراستنا للموضوع على المنهج التاريخي في تحليل وثائق من مركز الأرشيف الدبلوماسي لمدينة نانط الفرنسية[١]، وذلك بفحصنا للوثيقة ونقدها، والتأكد من مطابقة مضامينها مع سياق الأحداث والوقائع، بغية فهم جذور وأصول بعض الظواهر المجتمعية المرتبطة بالمجال السينمائي، ومعرفة جوانب من التاريخ الاجتماعي المغربي، وكذا تاريخ الذهنيات لدى فئات من المجتمع المغربي كانت تعمل على ترسيخ قوانين وأعراف مرتبطة بالتمييز النوعي، وانصياع بعض الفئات الى قوانين المنع والضبط والمراقبة.

أولاً: تشـييد القاعـات السـينمائية وضـبط أوقات ولوجها

أدى تزايد أعداد جماهير السينما، إلى اهتمام المستثمرين السينمائيين بإنشاء قاعات سينمائية داخل أو قرب الأحياء والتجمعات السكنية التي تقطنها أغلب الشرائح الاجتماعية المغربية، وقد شجعت مصالح الحماية الفرنسية بالمغرب هذا الأمر، لما له من فوائد اقتصادية واجتماعية، كالإسهام في خفض نفقات إدارة الأحباس التي كانت تخصص مبالغ مالية من ميزانيتها لبناء القاعات السينمائية[٢]، وتقريب فرجة سينمائية خاصة تستجيب لأذواق شرائح مهمة من المغاربة لم تكن تجد مبتغاها في العروض التي كانت تقدمها القاعات الموجودة في الأحياء الجديدة ذات الطابع الأوروبي[٣].

شهدت بعض القاعات اكتظاظًا كبيرًا، ما حذا بسلطات الحماية إلى التشجيع على بناء قاعات سينمائية قريبة من القاعات الموجودة، وتشييد أخرى جديدة داخل المناطق التي يفوق عدد سكانها ١٠٠٠٠٠ نسمة[٤]، لكن وتيرة تشييد القاعات السينمائية انخفضت خلال الحرب العالمية الثانية بسبب ظروف الحرب واحتلال الجيوش النازية لأراض فرنسية، وندرة مواد البناء[٥]. وعلى الرغم من ظروف الحرب، فإن المجال السينمائي ظل محط اهتمام لدى سلطات الحماية، وامتد ضبطه إلى تحديد أوقات إغلاق القاعات السينمائية، بنصف ساعة بعد نهاية الفيلم، وذلك في المدن والمناطق التي تشهد حظرًا للتجول، وفي الساعة الحادية عشر والنصف ليلا في باقي المدن والمناطق[٦]، مع مراعاة بعض الاستثناءات التي يتم فيها تمديد نهاية العرض إلى الواحدة والنصف ليلا، كحالة القاعات السينمائية بمدينة وجدة التي شهدت انقطاعًا يوميًا للتيار الكهربائي خلال شهر يونيو من سنة ١٩٤٢ من الصباح إلى غاية العاشرة والنصف ليلاً[٧].

ثانيًـا: مراقبـة المـوارد الماليـة للقاعـات السينمائية

أوكلت مصالح الحماية الفرنسية بالمغرب مهمة تحديد أسعار تذاكر ولوج القاعات السينمائية إلى مندوب الحكومة لدى مصلحة الصناعة

السينماتوغرافية[٨]، الذي كان يحدد السعر حسب موقع القاعة السينمائية وقربها من الأحياء السكنية الأوروبية أو الأحياء الفقيرة. كما كان يحدد أسعارًا مختلفة لمقاعد نفس القاعة، حسب مكان المشاهدة أو نوع الأثاث. شهدت أسعار تذاكر القاعات السينمائية بالمغرب خلال الحرب العالمية الثانية، مراجعات وزيادات عديدة، ومثال ذلك، أسعار تذاكر سينما كاميرا بمدينة سطات، التي شهدت زيادات متتالية في تذاكر ولوجها، كما هو مبين في الجدول التالي[٩]:

نوع المقاعد	الدرجة الأولى	الدرجة الثانية	الدرجة الثالثة
عدد المقاعد	١٦٨	٥٤	٢٠٠
سعر التذكرة ما بين ١ ماي ١٩٤١ إلى غاية ٣١ دجنبر ١٩٤١	٩ فرنكات	٧ فرنكات	٣ فرنكات
سعر التذكرة ما بين ١ يناير ١٩٤٢ إلى غاية ٢٥ يونيو ١٩٤٢	١٠ فرنكات	٨ فرنكات	٤ فرنكات
سعر التذكرة ابتداء من يوم ٢٦ يونيو ١٩٤٢	١٣ فرنكا	١٠ فرنكات	٥ فرنكات

جدول أسعار تذاكر قاعة سينما كاميرا بمدينة سطات من ١ ماي ١٩٤١ إلى غاية ٢٦ يونيو ١٩٤٢

أظهرت الزيادات المتتالية في أسعار تذاكر القاعات السينمائية حاجة سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب إلى موارد مالية إضافية، تستفيد منها على شكل رسوم وضرائب بهدف تنمية وتنويع مداخيلها المالية، حيث كانت تستخلص من مبلغ كل تذكرة، رسوما عن الفرجة (حوالي 5% من مبلغ التذكرة)، ورسومًا عن العائدات المالية (محددة في١٠% من المداخيل الإجمالية)[١٠]، ورسوم حق الفقراء[١١] (محددة في١٠% من المداخيل الإجمالية)[١٢].

أدى تزايد أعداد القتلى والمعطوبين من الجنود خلال الحرب العالمية الثانية، إلى الرفع من قيمة رسوم حق الفقراء، حيث أصبحت تستخلص بمقتضى ظهير ٣٠ نونبر ١٩٤٢، من مجموع المداخيل الأسبوعية، وفق الأشطر التالية[١٣]:

الشطر	النسبة المئوية لرسم حق الفقراء
إلى غاية ٥٠٠٠ فرنك	5%
من ٥٠٠١ فرنك إلى ١٠٠٠٠ فرنك	7%
من ١٠٠٠١ فرنك إلى ٢٥٠٠٠ فرنك	9%
من ٢٥٠٠١ فرنك إلى ٥٠٠٠٠ فرنك	11%
أكثر ٥٠٠٠٠ فرنك	12,50%

جدول يحدد النسب المئوية لرسوم حق الفقراء الواجب استخلاصها أسبوعيًا

صدر ظهير ٣٠ نونبر ١٩٤٢، لضبط عملية استخلاص ضريبة الفقراء المفروضة على القاعات السينمائية، نظرًا لاختلاف أسعار تذاكر مقاعد القاعة الواحدة ما بين الدرجة الأولى والدرجة الثالثة، ولظهور عمليات التدليس والتحايل من قبيل بيع تذاكر الدرجات الثانية والثالثة بثمن الدرجة الأولى، أو تأدية المبلغ وولوج القاعة دون التذكرة.

كثفت أجهزة المراقبة المالية التابعة لسلطات الحماية من زياراتها إلى القاعات السينمائية، من أجل مراقبة وتفتيش مداخيلها، وضبط الخروقات القانونية، وعمليات التزوير والتحايل خلال التصريح بالمداخيل من طرف أرباب القاعات السينمائية. ونورد حالة لواقعة تزوير وتحايل وقعت في قاعة سينما كاميرا بمدينة سطات، التي شهدت زيارات فجائية وعديدة لجابي الضرائب، سواء قبل أو خلال عرض الأفلام، ومقارنته لما توصل إليه، مع الأرقام التي صرح بها مالك القاعة

السيد شارل لوفي (Charles Louvet)، حيث سجل الجابي في تقريره التجاوزات القانونية التالية[١٤]:

- وجود جمهور كبير داخل القاعة أدى ثمن التذكرة، ويشاهد الفيلم في حالة وقوف، بسبب امتلاء القاعة وعدم وجود مقاعد شاغرة.
- عدم وجود أي دفتر للتذاكر من فئة ٥ فرنكات[١٥]، واستدراك مالك القاعة للأمر، بجلبه دفاتر من منزله.
- وجود ٤٨ متفرج من المغاربة بمقاعد الدرجة الثالثة بدون تذكرة، وتصريحهم بأداء مبلغ التذكرة دون تسلمها.
- وجود ٨ أشخاص بمقاعد الدرجة الثانية، بعضهم أدى ثمن التذكرة دون تسلمها، والبعض الأخر أدلى بتذكرته لمراقبتها، فتبين أنها مقتطعة من دفاتر منتهية الصلاحية[١٦]
- عدم استخلاص واجبات التنبر والتسجيل على تذاكر الدرجة الأولى.
- قيام مالك القاعة بجرائم خطيرة تخص تحايله على الظهائر والقررات الوزيرية الخاصة برسوم حق الفقراء، ورسوم الفرجة، والرسوم المستحقة للبلدية.

كما أرفق تقريره ببيانات مفصلة بالأرقام حول تحايل صاحب القاعة في التصريح بالأعداد الحقيقية للمتفرجين، والمبالغ الإجمالية للمداخيل، ومبالغ رسوم حق الفقراء الواجب استخلاصها، والتي جاءت كالتالي[١٧]:

	المصرح به	بعد التفتيش	الفرق
مجموع أعداد المتفرجين خلال أسبوع	868	1565	697
المبلغ الإجمالي للمداخيل (بالفرنك)	4882,71	11947,50	7064,79
مبلغ رسم حق الفقراء الواجب استخلاصه (بالفرنك)	1714,30	3713,10	1998,80

جدول يلخص أهم المعطيات المالية التي توصل إليها الجابي بعد تفتيشه لقاعة سينما كاميرا بسطات[١٨]

يتضح من خلال أرقام الجدول، أن مالك القاعة صرح فقط بـ (55%) من مجموع المتفرجين، وبنسبة (41%) من المبلغ الإجمالي للمداخيل، وبحوالي (46%) من المبالغ الواجب استخلاصها كضريبة للفقراء، ما يظهر حجم التحايل على القوانين المؤطرة للقاعات السينمائية. وعلى الرغم من أننا لم نعثر على طبيعة الإجراء المتخذ في حق مالك القاعة، إلا أننا وقفنا عند أهمية استخلاص رسوم حق الفقراء، التي جعلت مصالح الإقامة العامة الفرنسية تستغل الارتياد الكبير للمغاربة على القاعات السينمائية من أجل الرفع من قيمتها، واستغلال ذلك في عملية تقديم الدعم المالي لأطفال وأرامل جنودها الذين قضوا في الحرب العالمية الثانية.

ثالثًا: القاعات السينمائية والصحة العامة

أخضعت سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب كل شخص طلب ترخيصًا لفتح القاعات السينمائية، لأبحاث مكثفة كانت تقوم بها مصالح الإقامة العامة بمساعدة السلطات المحلية، تهم السيرة الذاتية لكل من صاحب الطلب وأعوانه، وكذا موقع القاعة السينمائية، ودرجتها، وطاقتها الاستيعابية، ومرافقها الصحية، ومدى توفرها على شروط السلامة. وبعد تسليمها للرخص، كانت تقوم بدوريات لمراقبة مدى احترام أصحاب القاعات السينمائية للقوانين التي بموجبها منحت لهم تراخيص فتح قاعاتهم.

أسهم ارتفاع أعداد المتفرجين، وزيادة حصص العرض خلال اليوم الواحد، في ظهور مشاكل أثرت على أجواء الفرجة السينمائية، وأثارت غضب بعض المتفرجين، الذين اشتكوا من غياب النظافة والشروط الصحية ببعض القاعات السينمائية، كما هو الشأن بالنسبة لقاعة سينما كوليزي بالرباط[١٩]، التي كانت موضوع شكايات، قدمها بعض رواد القاعة إلى الطبيب مدير مكتب الصحة والنظافة ببلدية الرباط، والتي رفعها بدوره إلى مدير الصحة العمومية والأسرة بالإقامة العامة الفرنسية بالمغرب، مخبرا إياه بما قام به، بمعية مستخدمي القاعة السينمائية من عمليات للحفاظ على نظافة قاعة سينما كوليزي، من قبيل رش كل المقاعد ببخاخات الكحول، واستعمال الصابون

الأسود والمواد المطهرة للقضاء على حشرات البق والقمل والبراغيث ويرقاتها داخل فضاء قاعة كوليزي[٢٠].

وأرجع طبيب البلدية سبب انتشار الحشرات داخل القاعة السينمائية، إلى فئة من الزبناء كانوا يلجون القاعة وهم حاملون لتلك الحشرات، التي وجدت في فضاءات القاعة السينمائية مرتعا خضبا للانتشار والتكاثر، ما استوجب القيام بعمليات تطهير وتعقيم لتلك القاعات السينمائية من طرف تقنيين مؤهلين[٢١]. كما أوصى طبيب البلدية بمنع كل الأشخاص غير المعتنين بنظافة أجسامهم وبمظهرهم وهندامهم من ولوج القاعات السينمائية، على أن تتولى الشرطة عملية منع هؤلاء وإجلائهم عند أبواب القاعة السينمائية[٢٢].

تنفيذًا لتوصيات طبيب بلدية الرباط، ونظرًا لغياب قوانين تشريعية تؤطر تلك التوصيات، بادر مدير الشؤون السياسية لدى الإقامة العامة، إلى مراسلة جميع رؤساء الجهات التابعة للإقامة العامة الفرنسية، لاتخاذ القرار البلدي الذي سبق أن أصدرته بلدية الدار البيضاء بتاريخ: ٢٩ غشت ١٩٤٢، الموجه إلى أفراد الشرطة بأماكن الفرجة، للعمل به داخل القاعات السينمائية، وقد نص هذا القرار على: عدم السماح لكل الأشخاص الذين تظهر عليهم القذارة في هيئتهم أو لباسهم، بالدخول إلى أماكن الفرجة، وأن تخضع جميع القاعات السينمائية يوميًا، لعمليات النظافة والتطهير بمبيدات الحشرات. كما ألزم القرار نفسه المتفرجين الذين اختاروا الجلوس في مقاعد الطابق العلوي وفي شرفات القاعات السينمائية المصنفة في الدرجة الأولى، بضرورة الاعتناء بهندامهم وارتدائهم ملابس تناسب المقام[٢٣].

أخذت مسألة الصحة العامة والنظافة العمومية حيزًا مهمًا من تدبير سلطات الحماية للقاعات السينمائية، وظهر ذلك من خلال الزيارات المكثفة لأطباء البلديات لدور العرض السينمائي، ومن خلال العمليات المواكبة لتحسين ظروف وشروط العرض السينمائي داخل القاعات السينمائية التي منح خلالها أفراد الشرطة سلطة قبول أو رفض الزبناء، بناء على ملاحظة الهندام ومدى العناية بالصحة والمظهر، وكذلك في سن قوانين وتشريعات خاصة.

بدت هذه الإجراءات في مظهرها، مهمة وسليمة، لكنها في مخبرها لم تخل من التمييز والإقصاء، إذ أن القاعات المشمولة بقرار ضرورة ارتداء ملابس مناسبة، همت فقط قاعات الدرجة الأولى المتمركزة في أحياء المدن الجديدة التي كان يقصدها الأوروبيون. كما أن منح أفراد الشرطة صلاحية قبول أو منع زبون من ولوج القاعة، تسبب في حرمان بعض الأفراد من ولوج القاعة السينمائية بسبب عدم توفرهم على لباس مناسب، على الرغم من اهتمامهم بمظهرهم، وذلك بدعوى تطبيق القوانين. ما يعني أن سن وتطبيق هذه القوانين لم يكن بهدف تثبيت المصلحة العامة، وإنما من أجل تعزيز إجراءات الضبط والإخضاع -بتعبير ميشيل فوكو- الموجهة تجاه شرائح من المجتمع[٢٤] المغربي.

استسلمت الفئات التي تضررت من هذا القانون، ولم تقم بأية ردة فعل لرفضه، ما يعني أن الجانب القسري في القانون —حسب ماكس فيبر- يقابله نوع من الاستعداد لدى المحكومين للطاعة وللانصياع، مادام صادرًا عن نظام يقرون له بحق الإلزام والإجبار[٢٥]، وفي المقابل فالجهة الحاكمة رأت أن فرض القانون أمر ضروري، لأن أشكال الضبط الذاتي تكون قاصرة في بعض الأحيان عن تنظيم التنظيمات الاجتماعية داخل المجتمع[٢٦]، فتصبح مثل هذه القرارات ضرورة للضبط الجماعي باعتباره عنصرا مهما في السياسة الأمنية لسلطات الحماية الفرنسية بالمغرب.

رابعًا: منع ولوج المغربيات المسلمات إلى القاعات السينمائية

استهوت الأفلام السينمائية شرائح اجتماعية وفئات عمرية مختلفة من المجتمع المغربي، ولم تميز القوانين المرتبطة بضبط المجال السينمائي بين الذكور والإناث، وظلت القاعات السينمائية في أحياء المدن الجديدة ذات الكثافة الأوروبية، تستقطب المتفرجين من الجنسين، ولم يطرح أي مشكل بخصوص ولوج المرأة المغربية اليهودية إلى القاعات السينمائية القريبة من الملاح، لكن المنع من ولوج القاعات السينمائية طال المرأة المغربية المسلمة، ولو كانت رفقة زوجها أو رفقة أسرتها، وكانت المراقبة شديدة في أبواب القاعات السينمائية من طرف أعوان

الباشوات الذين تشددوا في تطبيق قرارات المنع الصادرة عن رؤسائهم، مثلما فعل أعوان باشا مدينة فاس، الذين منعوا النساء المسلمات من ولوج قاعة سينما بوجلود على الرغم من مرافقتهن لأزواجهن المحسوبين على أعيان المدينة، مبررين المنع بالضوابط الشرعية الدينية، وبوقوع مشاكل وأحداث لنساء داخل قاعات سينمائية في بعض المدن المغربية[٢٧]، وبتزايد الدعارة نتيجة المجاعة والظروف الاجتماعية التي شهدها المغرب خلال الحرب العالمية الثانية.

لم نعثر على أية وثيقة تتضمن حديثا عن تكتل النساء المتضررات ضد قرار منعهن من ولوج القاعات السينمائية، أو عن مساندتهن من طرف نخبة المجتمع، لكننا عثرنا على وثائق تؤكد أن الدفاع عن حقهن في ولوج القاعة السينمائية، تبناه بعض مديري القاعات السينمائية، الذين رأوا في ولوج النساء المسلمات إلى القاعات السينمائية زيادة في أعداد زبنائهم، وزيادة في أرباحهم. ففي رسالته الاستعطافية الموجهة إلى الجنرال الفرنسي حاكم ورئيس جهة فاس، طلب مدير قاعة سينما بوجلود من الجنرال الفرنسي السماح للنساء المسلمات بولوج قاعته السينمائية[٢٨]، مبرزًا أن مرتكزات قرار المنع الذي طال قاعته لمدة ثلاث سنوات، قد انتفت، نتيجة الاستثمارات والإصلاحات والتغييرات الهائلة التي طالت قاعة سينما بوجلود، من قبيل تخصيص أبواب خاصة لولوج النساء والعائلات، وتخصيص الطابق العلوي للعائلات فقط، وإحداث مرحاض خاص بالنساء، والزيادة في عدد أعوان المراقبة، علاوة على المراقبة التي كان يقوم بها أعوان السلطة المحلية والشرطة عند أبواب القاعة.

وفيما يخص طبيعة الأفلام المعروضة، فقد أوضح المدير أن قاعته السينمائية، لا تعرض الأفلام الممنوعة عن الأشخاص دون سن الثامنة عشر، ولا تعرض الأفلام المخلة بالمروءة والأخلاق العامة، أو الأفلام التي يمكن أن تؤثر على نفسية وشخصية النساء، ولكنها تعرض الأفلام المصرية التي تناسب أذواق رواد القاعة، سواء الرجال أو النساء أو الأسر، بما فيها أسر الأعيان الذين يطرقون إدارة القاعة لإيجاد حل للوضعية التي تمنعهم من اصطحاب نسائهم إلى القاعة السينمائية، التي أصبحت قاعة عصرية ومريحة[٢٩].

حول الجنرال حاكم جهة فاس رسالة مدير قاعة سينما بوجلود إلى مدير الشؤون السياسية بالإقامة العامة الفرنسية، يستشيره في شأن مضمونها، موضحا أن الظهير الذي يمنع النساء المغربيات من ولوج القاعات السينمائية، ليس رسميا، ولم ينشر في الجريدة الرسمية، ولكنه موجود، لذلك، لذا وجب عدم إثارة مسألة إلغاء الظهير، حتى لا تثير محاولة الإلغاء ردود فعل عنيفة في الأوساط الإسلامية التقليدية. كما وجب التنويه بالمغاربة المسلمين المتنورين الذين كلنوا يصطحبون زوجاتهم إلى قاعات السينما المتمركزة في المدينة الجديدة[٣٠]. وقد أعجب مدير الشؤون السياسية بالإقامة العامة بكل الأفكار التي بسطها الجنرال، وطلب من هذا الأخير أن تكون هذه الأفكار هي الجواب الذي سيجيب به مدير القاعة السينمائية.

اتضح من خلال هذه الرسائل أن قرار منع النساء من ولوج القاعات السينمائية تم بموجب ظهير ملكي لم ينشر في الجريدة الرسمية، ما يعني أن المنع كان غير قانوني، ويطرح هذا الأمر تساؤلات حول عدم نشر الظهير بالجريدة الرسمية، وكذلك عدم سحبه أو التراجع عنه من قبل مديرية الشؤون الشريفية، وهل صدر هذا الظهير عن السلطان مولاي يوسف؟، أم عن السلطان سيدي محمد بن يوسف؟ علما أن كلا السلطانين كانا شغوفين بالسينما، أم أن إبقاء الوضع كان استجابة لرغبة جزء من المحيط المخزني المحافظ على التقاليد والعادات، الذي كان يقمع أية محاولة لتحرر المرأة خارج الضوابط المرسومة لها.

كان القمع يسير في هذه الحالة، وفق ثلاثية التحريم والتغييب والصمت، حيث تجاوز المنع إلى الإقصاء وطمس كل محاولات للظهور أو تسوية المشكل[٣١]، وتجلى ذلك في منع ولوج زوجات الأعيان رفقة أزواجهن، وفي الاتصالات العديدة الواردة على مدير قاعة سينما بوجلود[٣٢]، الذي حاول البحث عن حلول وسطى لولوج النساء إلى القاعة السينمائية. ما طرح تساؤلاً حول سبب منع نساء الأعيان من ولوج القاعات السينمائية الموجودة بالأحياء ذات الكثافة المسلمة، والسماح لهن

بولوج القاعات السينمائية الموجودة بالأحياء ذات الكثافة السكانية الأوروبية !؟ علما أن القاعات الأولى كانت تعرض أفلام عربية، فيما القاعات الثانية ظلت تعرض أفلاما أجنبية. إن المنع في هذه الحالة يمكن تفسيره بكونه استمرارًا للهيمنة(٣٣)، ووسيلة لإخضاع المرأة لقوانين وعادات المجتمع، ووأد كل محاولة لانعتاقها من الوضع الذي كانت تعيشه.

خامسًا: منع القاصرين من ولوج القاعات السينمائية

اختصت لجنة الرقابة بإبداء ملاحظاتها حول الأفلام المراد عرضها في القاعات السينمائية، وكانت تمنح تأشيرتها للأفلام التي كانت تراها مناسبة للعرض، كما كانت تطلب حذف بعض المشاهد كشرط لمنح تأشيرة العرض، أو منع الفيلم كليا من العرض. وعلى الرغم من التشدد الذي كانت تبديه اللجنة أثناء منحها لتأشيرة عرض الفيلم، إلا أن عملها لم يرق لفئات مجتمعية طلبت المزيد من التشدد في الرقابة أو المنع، والمزيد من حماية الأطفال والقاصرين، وضرورة تحديد الفئات العمرية المسموح لها بمشاهدة الأفلام المعروضة. وكان من بين هؤلاء، مدير التعليم العام بالإقامة العامة الذي وجه رسالة إلى الكاتب العام لسلطات الحماية، شرح له فيها أهمية المحافظة على الصحة النفسية والعقلية للمراهقين والقاصرين، وواجب حمايتهم من الحماقة والسخافة التي كانت تطرحها بعض الأفلام للعموم دون اعتبار للسن، ما استوجب تنبيه الآباء الذين يصطحبون أبناءهم لمشاهدة مثل تلك الأفلام، وتحميلهم عواقب ذلك، إضافة إلى حث الأساتذة والمديرين على توعية التلاميذ وآبائهم بمخاطر مشاهدة بعض الأنواع من الأفلام(٣٤). وشدد على رفض مبدأ تنمية الاقتصاد وجني الأرباح المالية، على حساب صحة الفرنسيين وخصوصًا الشباب والأطفال منهم(٣٥).

طرح مشكل تحديد السن المسموح به لولوج القاعات السينمائية إشكالا لدى مصالح الإقامة العامة، حيث أشار المستشار القانوني لسلطات الحماية الفرنسية بالمغرب في مراسلة موجهة إلى الكاتب العام لسلطات الحماية، إلى عدم موافقته على إصدار نص قانوني ينص على اعتماد بطاقة الهوية وثيقة أساسية لمعرفة السن القانوني المسموح به لولوج القاعة السينمائية، لأن هذا الأمر سيطبق على الفرنسيين فقط، نظرًا لعدم توفر أغلب المغاربة على سجل الحالة المدنية وعلى بطائق الهوية(٣٦). كما أن السماح بولوج الفرنسيين فقط إلى القاعات السينمائية اعتمادًا على بطائق الهوية، ومنع المغاربة غير المتوفرين على بطائق الهوية، فيه تمييز وإقصاء للمغاربة، وسيغصب المخزن، وسيخلق مشاكل لا يمكن توقعها(٣٧).

قرر المستشار القانوني لسلطات الحماية الفرنسية بالمغرب عدم إصدار أي نص قانوني مكتوب، والاكتفاء بمنح المراقبين وأفراد الشرطة سلطة تقديرية، لمنع أو قبول زبائن القاعات السينمائية(٣٨). ومن جهة أخرى، طلب رئيس اللجنة الجهوية للفيلق المغربي من الكاتب العام لسلطات الحماية ضرورة منع الشباب الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة من ولوج القاعات السينمائية، وضرورة اعتماد معايير ومقاييس لتحديد سن ١٨ سنة المسموح به(٣٩)، وضرورة توجيه مدير التربية العامة للحماية مراسلة إلى مديري وأساتذة المؤسسات التعليمية، يحثهم فيها على تلقين تلاميذهم أهمية احترام الضوابط المتعلقة بالسن القانوني لولوج القاعات السينمائية، وتذكير آبائهم بمسؤولياتهم الأخلاقية تجاه أبنائهم(٤٠).

راسل مدير التعليم العام رؤساء جمعيات آباء تلاميذ مدارس جهات: فاس ومكناس، والرباط، والدار البيضاء، ومراكش، حثهم فيها على الاهتمام والعناية بالصحة النفسية والعقلية لأبنائهم، وأخبرهم أن السن القانوني لولوج القاعات السينمائية محدد في ١٨ سنة، وطلب منهم أن ينقلوا فحوى مراسلته لعموم الآباء المنخرطين في جمعياتهم(٤١). لم تنجح كل الخطوات التي اعتمدت لحل المشكل، فاستقر رأي مصالح الحماية على إصدار ظهير بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٤٢، متعلق بضبط ولوج الأطفال إلى القاعات السينمائية، حيث منع الأطفال الذين يقل سنهم عن ١٠ سنوات من ولوج القاعات السينمائية، مع إمكانية رفع سن المنع إلى الأطفال والمراهقين الذين يتراوح سنهم ما بين ١٠ سنوات و١٨ سنة، إذا رأت لجنة مراقبة شرائط الأفلام السينمائية

ذلك. مع تغريم أولياء الأطفال ومديري ووكلاء القاعات السينمائية المخالفين لفصول الظهير، ذعيرة تتراوح ما بين ١٠٠ و٥٠٠ فرنك، مع مضاعفة قيمة الذعيرة في حالة تكرار الأمر(٤٢).

استمر النقاش بين إداري الحماية الفرنسية بالمغرب، بعد صدور الظهير، حول توحيد سن المنع بين المغرب والجزائر وتحديده في سن أقل من ١٦ سنة(٤٣)، لكن رئيس المصلحة الجهوية لمراقبة الإعلام اعترض على هذا المقترح، معللا رأيه بالتزوير الذي يمكن أن يلحق التصريح بالسن، وصعوبة التأكد من ذلك (٤٤). وحسم الموضوع بإصدار ظهير آخر مؤرخ في ٣ يوليوز ١٩٤٤، خاص بتنظيم الدخول إلى القاعات السينمائية، ونص على منع الأطفال الذين لم يبلغوا ١٠ سنوات من الدخول إلى القاعات السينمائية ليلاً، ومنع الأطفال الذين يقل سنهم عن ٦ أعوام خلال العروض النهارية(٤٥).

لم ينه صدور الظهير النقاش حول منع الأطفال من ولوج القاعات السينمائية، وتأثير ذلك على صحتهم النفسية والعقلية، فهل كان المتفرج المغربي واعيا بمرامي وغايات هذا النقاش؟ وهل كان بالإمكان إقناعه بتأثير تلك الأفلام على صحته أو صحة أبنائه؟، أم أنه عمل بمقولة: "كل ممنوع مرغوب"؟ لم نعثر على أية وثيقة تبين موقف رواد السينما المغاربة من مسألة المنع، ومدى تشدد أعوان السلطات المحلية والشرطة في منع ولوج القاصرين، وما إذا سجل تحايل على قرار منعهم، وهل كانوا واعيين بالغاية من المنع، أم أن انبهارهم بالصور السينمائية جعلهم يرغبون في مشاهدة الأفلام الممنوعة عنهم؟ ما يعني أن تلك الرغبة كانت بهدف تكسير المنع وتحدي القسر والإكراه(٤٦). لقد أسهم صدور الظهير في حل المشكل لدى أعداد كبيرة من المراهقين والشباب المغاربة، حيث حدد سن المنع في عشر سنوات، وهو ما سمح لفئات كثيرة بولوج القاعات السينمائية ومشاهدة الأفلام التي كانت تعرضها.

خاتِمَةٌ

عملت سلطات الحماية على ضبط مجال القاعات السينمائية ودور العرض، واستغلال الإقبال المتزايد للمغاربة على مشاهدة عروض الأفلام، من أجل تنظيم ومراقبة القاعات السينمائية، وتنمية مواردها المالية بالضرائب والرسوم المستخلصة من أثمان تذاكر ولوج القاعات السينمائية، وخصوصًا رسوم حق الفقراء التي كانت وسيلة لدعم الأعمال الخيرية والإعانات العمومية. كما كان المجال السينمائي خلال الحماية الفرنسية بالمغرب، آلية لضبط فئات من المجتمع المغربي، ومراقبتها، ومنعها، بغية الاستسلام للقوانين التي فرضتها الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب، واستغلال الصحة العامة لتكريس الفوارق الاجتماعية عبر السينما، وترسيخ العادات الهادفة إلى التمييز على أساس النوع والدين.

تميزت عملية ضبط المجتمع المغربي خلال الحماية الفرنسية عبر السينما، بنهج سلطات الحماية لآليات غير مكلفة من الناحية البشرية، لإخضاع فئات من المجتمع المغربي لقوانينها التمييزية القائمة على المنع والمراقبة، مستغلة الدهشة والانبهار اللذين أحدثتهما السينما لدى الجماهير المغربية التي كانت ترتاد القاعات السينمائية، وتزامنا مع التحولات الاجتماعية المرتبطة بنمو الحس الوطني والقومي لدى العديد من الأسر المغربية، التي كانت تقبل على مشاهدة الأفلام المصرية التي كانت تعرضها قاعات الأحياء السكنية ذات الكثافة السكانية المغربية.

الإحالات المرجعية:

(١) Centre des Archives diplomatiques de Nantes ، وسنرمز له في الوثائق التي اعتمدناها في هذا المقال برمز (CADN)، متبوعًا برقم المحفظة التي ضمت تلك الوثائق، ثم ذكر موضوع الوثيقة وتاريخها.

(2) C.A.D.N, 1MA/200/190, Lettre du chef de la région de Meknès au directeur des affaires politiques. Daté du : 28 février 1940.

حسب الوثيقة فقد شيدت إدارة الأحباس كل من سينما مونديال وأومبير بمدينة مكناس، وهذا يظهر نشاطا آخر لإدارة الأحباس، وهو الاستثمار في مجالات متعددة، من بينها تشييد القاعات السينمائية.

(3) Ibid.

(4) C.A.D.N, 1MA/200/190, Note du contrôleur civil chef de la région de Casablanca. Daté du : 23 juillet 1942.

(5) C.A.D.N, 1MA/200/190, Note du contrôleur civil chef de la région de Marrakech. Daté du : 23 juillet 1942.

(6) C.A.D.N,1MA/200/190, Circulaire résidentielle relative à l'heure de fermeture des établissements cinématographiques, daté du : 14 Mai 1943.

(7) 1MA/200/19, Note du contrôleur civil chef de la région d'Oujda, daté du : 25 juin 1942.

(٨) ظهير ٢٠ أبريل١٩٤٢، ج ر د م ش م، العدد ١٥٤٢، ص ٦٨.

(9) C.A.D.N, 11MA/900/1230, Rapport du contrôle et de surveillance de l'établissement: cinéma Caméra à Settat, daté du 13 février 1943.

(10) Ibid.

(١١) لجأت سلطات الحماية إلى إحداث رسوم ضريبية خصصتها لمعطوبي الحرب، أرامل وأبناء الجنود من جيشها النظامي، وأطلقت عليها: حق الفقراء. وقد أحدثت رسوم حق الفقراء بمقتضى ظهير ٢٥ ماي ١٩١٦، الذي نص على استخلاصها من ثمن تذاكر الدخول إلى أماكن الفرجة، والفضاءات التي تعرض مسرحيات أو أفلاما سينمائية، أو حفلات موسيقية، وحدد مقدارها في 10% كأقصى نسبة، أو استخلاص مبلغ جزافي عن مجموع المداخيل، وأوكل الظهير للبلديات أمر تنظيم وتحديد المبالغ. **ظهير شريف بتاريخ ٢٥ ماي ١٩١٦**، الجريدة الرسمية للدولة المغربية الشريفة المحمية، العدد ١٦١، ص ٤٢٢-٤٢٣.

(12) C.A.D.N, 11MA/900/1230, Rapport du contrôle ..., op, cit.

(١٣) **ظهير ٣٠ نونبر ١٩٤٢**، ج ر د م ش م، العدد ١٥٨١، ص ١٥٨-١٥٩

(14) R C.A.D.N, 11MA/900/1230, Rapport du contrôle ..., op, cit.

(١٥) سعر تذكرة مقاعد الدرجة الثالثة، حسب جدول أسعار تذاكر قاعة سينما كاميرا بمدينة سطات، الذي تقدم ذكره

(١٦) دفاتر تذاكر الولوج إلى القاعات السينمائية تحمل أرقامًا تسلسلية مسجلة لدى مصلحة الجمارك، وبعد المراقبة تلغى التذاكر القديمة، وتسحب الجديدة.

(١٧) يتضمن التقرير أرقاما تهم نشاط القاعة السينمائية خلال ستة وخمسون أسبوعا، اكتفينا بمقارنة معدل الأرقام الخاصة بفترة الأسابيع السبعة الأخيرة الممتدة من ١١ دجنبر ١٩٤٢ إلى غاية ٢٨ يناير ١٩٤٣، نظرًا لوجود معدل الأرقام التي صرح بها صاحب القاعة، ومعدل الأرقام التي تم التوصل إليها بعد عملية التفتيش التي قام بها جابي الضرائب.

(18) C.A.D.N, 11MA/900/1230, Rapport du contrôle ..., op, cit.

(19) C.A.D.N, 1 MA/200/190, lettre du médecin directeur du bureau d'hygiène au directeur de la santé publique et de famille. Daté du: 15 Décembre 1943.

(20) Ibid.

(21) Ibid.

(22) Ibid.

(23) Ibid.

(٢٤) فوكو ميشيل، **يجب الدفاع عن المجتمع – دروس ألقيت في "الكوليج دي فرانس" لسنة ١٩٦٧**-، ترجمة بغورة الزواوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص ٥٢.

(٢٥) الكشو منير وآخرون، **العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة**، ج١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١الدوحة، ٢٠١٧، ص ٤٧.

(٢٦) نفسه، ص ٤٤.

(27) C.A.D.N, 1 MA/200/190, Lettre du président de la société cinéma Boujloud au général chef de la région de Fès. Daté du : 8 Octobre 1943.

(28) Ibid.

(29) Ibid.

(30) C.A.D.N, 1MA/200/190, Lettre du général chef de la région de fès, au directeur des affaires politiques, daté du :18 Novembre 1943.

(٣١) العيادي عبد العزيز، **ميشال فوكو، المعرفة والسلطة**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، ص ٢٢.

(32) C.A.D.N, 1 MA/200/190, Lettre du président de la société cinéma..., op.cit

(٣٣) فوكو ميشيل، **يجب الدفاع عن المجتمع...**، م س، ص ٤٤.

(34) C.A.D.N, 1MA/200/190, Lettre du directeur de l'instruction publique au Maroc, au secretaire general du protectorat. Daté du :17 Décembre 1941.

(35) Ibid

(36) C.A.D.N, 1MA/200/188, Message du conseiller juridique du protectorat au secrétaire général du protectorat. daté du : 4 Octobre 1941.

(37) Ibid

(38) Ibid

(39) C.A.D.N, 1MA/200/188, Lettre du président du comité provincial de la légion du Maroc, au secrétaire général du protectorat, daté du : 20 Novembre 1941.

(40) Ibid

(41) C.A.D.N, 1MA/200/188, Lettre du directeur de l'instruction publique aux présidents des associations de parents..., op.cit.

(٤٢) ظهير ١٦ أكتوبر ١٩٤٢، ج ر د م ش م، العدد ١٥٦٩، بتاريخ ٢٠ نونبر ١٩٤٢، ص ١٥٥٢.

(43) C.A.D.N, 1MA/200/190, Note du chef du service régional du contrôle des informations. Daté du: 13Janvier 1944.

(44) C.A.D.N, 1MA/200/190, Note de directeur de la section administrative. Daté du : 4 Février 1941.

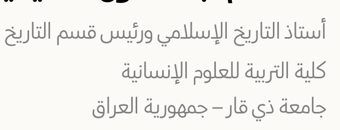
(٤٥) **ظهير ٣ يوليوز ١٩٤٤**، ج ر د م ش م، العدد ١٦٥٦، بتاريخ ٢١ يوليوز ١٩٤٤، ص ٧٤٧.

(٤٦) الحمد تركي، **من هنا يبدأ التغيير**، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٤٦.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

المستشرق الإسباني خوسيه أنطونيو كوندى
بين جدلية الرأي واختلاف الحقائق





أ.د. قاسم عبد سعدون الحسيني
أستاذ التاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة ذي قار – جمهورية العراق

مُلَخّص

لم تخضع بدايات الاستشراق الإسباني وروافده إلى دراسات علمية وافية، ولعلَّ ذلك يعود إلى قلة الدراسات التي تناولت هذا الاستشراق، إذ لم تُدرج هذه القضية ضمن أولوياتها الأساسية، كما أنها لم تكن لتتصور بأن لهذه المسألة أهمية بالغة لمعالجة تصورات هذا الاستشراق علمًا أنَّ الاستشراق الإسباني يُعَدّ أقدم المحاولات الاستشراقية التي عرفتها أوربا، إذ يرجع تأريخه إلى بداية الوجود الإسلامي في بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحديدًا منذ أنّ وطأت أقدام الفاتحين أراضي هذه البلاد سنة (٩٢هـ/٧١١م). يُعَدّ المستشرق خوسيه أنطونيو كوندى (José Antonio Conde) واحدًا من أبرز المستشرقين الإسبان الذين كرسوا جهدهم لدراسة تاريخ المسلمين في الأندلس، مُحققًا تراثًا علميًا في وقت لم تكن العربية منتشرة في إسبانيا بشكل كبير والناس تجهل أسرار هذه اللغة، ولم تكن هناك قواميس يمكن الاستعانة بها رغم ذلك ابدع كوندي بتأليف كتابه الموسوم "تاريخ حكم العرب في إسبانيا" معتمدًا على وثائق ومخطوطات عربية، فأنصف الحضارة الإسلامية في الأندلس، الأمر الذي جعله أنَّ يكون عرضة لآراء بعض المستشرقين المتعصبين الذي لم يتوانوا في القدح به والنيل منه. ولضرورة تقتضيها طبيعة البحث انتظمت الدراسة بمقدمة ومبحثين وخاتمة، حمل المبحث الأول عنوانًا الجذور التاريخية للاستشراق الإسباني، أما المبحث الثاني فانتظم بعنوان المستشرق خوسيه أنطونيو كوندي وجهوده العلمية في دراسة تاريخ الأندلس. أما الخاتمة تجسدت فيها أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث معتمدًا على المنهج التاريخي القائم على التحليل والنقد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ سبتمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٣ ديسمبر ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الاستشراق؛ إسبانيا؛ كوندي؛ المستعربون؛ الأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.415260



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

قاسم عبد سعدون الحسيني، "المستشرق الإسباني خوسيه أنطونيو كوندى بين جدلية الرأي واختلاف الحقائق".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٧٢ – ١٨٧.

Corresponding author: ukm_2012@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

لم تخضع بدايات الاستشراق الإسباني وروافده إلى دراسات علمية وافية، ولعلَّ ذلك يعود إلى قلة الدراسات التي تناولت هذا الاستشراق، إذ لم تُدرج هذه القضية ضمن أولوياتها الأساسية، كما أنها لم تكن لتتصور بأن لهذه المسألة أهمية بالغة لمعالجة تصورات هذا الاستشراق علماً أنَّ الأستشراق الإسباني يُعد أقدم المحاولات الاستشراقية التي عرفتها أوربا، إذ يرجع تأريخه إلى بداية الوجود الإسلامي في بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحديدًا منذ أنّ وطأت أقدام الفاتحين أراضي هذه البلاد سنة (٩٢هـ/٧١١م).

ويُعد المستشرق خوسيه انطونيو كوندى واحدًا من أبرز المستشرقين الاسبان الذين كرسوا جهدهم لدراسة تاريخ المسلمين في الاندلس، مُحققًا تراثًا علميًا في وقت لم تكن العربية منتشرة في إسبانيا بشكل كبير والناس تجهل أسرار هذه اللغة، ولم تكن هناك قواميس يمكن الاستعانة بها رغم ذلك أبدع كوندى بتأليف كتابه الموسوم تاريخ حكم العرب في إسبانيا معتمدًا على وثائق ومخطوطات عربية، فأنصف الحضارة الإسلامية في الاندلس، الأمر الذي جعله أنَّ يكون عرضة لآراء بعض المستشرقين المتعصبين الذي لم يتوانوا في القدح به والنيل منه.

وما يؤسف له أنَّ أقلام الباحثين والمهتمين في دراسة الأستشراق الإسباني لم تتناول جهود هذا المستشرق، وإسهاماته البحثية في الحفاظ على تأريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس، ومن هنا تنبع أهمية هذا الموضوع ومكانته في ميدان البحث الاستشراقي. محاولين الإجابة عن ماهية جهود المستشرق كوندى في توثيق تأريخ المسلمين وحضارتهم في بلاد الأندلس؟

ولضرورة تقتضيها طبيعة البحث انتظمت الدراسة بمقدمة ومبحثين وخاتمة، حمل المبحث الأول عنوانًا الجذور التاريخية للاستشراق الإسباني، أما المبحث الثاني فأنتظم بعنوان المستشرق خوسيه انطونيو كوندى وجهوده العلمية في دراسة تاريخ الاندلس. أما الخاتمة، تجسدت فيها أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث معتمدًا على المنهج التاريخي القائم على التحليل والنقد.

أولاً: الجذور التاريخية للاستشراق الإسباني

يُعَدّ الاستشراق الإسباني علمًا لــه خصائصه ومدارسه وفلسفته تميز بها عن العلوم الأخرى، لذا حريٌ على الباحث في شأن الأندلس أنَّ يهتم به ويبذل ما بوسعه لمعرفة مفهومه ومقاصده وغاياته، لا سيما أنَّ الاستشراق الإسباني يكاد يختلف تمامًا عن بقية أنواع الاستشراق إذ أنَّ عموم العاملين في الاستشراق وخصوص الدارسين للاستعراب لم يحققوا بعد دعوى عبد الرحمن بدوي حول قلة شأن الاستشراق الإسباني ضمن الاستشراق الغربي والتي أطلقها بدوي في ظل غياب النصوص والوثائق. ولضرورة تقتضيها الدراسة لا بد لنا أنَّ نعُرف الاستشراق ونقف على جذوره التأريخية ومعرفة الفرق بين الاستشراق والاستعراب لا سيما في إسبانيا.

١/١-الاستشراق لغة

الاستشراق مصطلح مُنشق من كلمة شرق، يُقال شرقت الشمس شرقًا وشروقًا أي طلعت[1]، وهي كلمة مؤلفة من مقطعين الأول أست ويقصد بها إبراز ما كان مخفيًا وإظهاره. والثانية شرق ومعناها طلب الشرق وعند دمج الكلمتين يكون المصطلح استشراق ومعناها طلب علوم الشرق وآدابه وأديانه ولغاته[2].

٢/١-الاستشراق اصطلاحًا

إذا أُريد أنَّ نفهم مصطلح الاستشراق لا بد من الرجوع إلى رأي علماء الغرب والعرب في تحديد ماهية هذا المصطلح وقد وضعت تعاريف عدة له منها: قال ألمستشرق بارت[3] أنَّ الاستشراق علم يختص بفقة اللغة خاصة، لذلك لا بد إذًا أنَّ نفكر بالمعنى الذي أُطلق عليه كلمة استشراق المنشقة من كلمة شرق والتي تعني مشرق الشمس، لذا تبعًا لذلك يكون الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي. علمًا أنَّ هناك اختلاف في مفهوم الشرق من الناحية الجغرافية. أما العالم جويدي[4] عرف الاستشراق قائلاً: (أنَّ الوسيلة لمعرفة النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو علم الشرق، بل نستطيع أنَّ نقول أنَّ غرض هذا العلم الأساسي ليس مقصورًا على مجرد دراسة اللغات، أو اللهجات وتقلبات

تاريخ الشعوب، بل يمكننا أنَّ نقول: أنَّهُ بناء الارتباط المتين بين التمدن الغربي والتمدن الشرقي).

أما المستشرق ديتريش،[٥] يرى أنَّ المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق.

أما المستشرق رودنسون[٦] في دراسته لتأريخ الاستشراق عرفه قائلاً: (ولد الاستشراق وظهرت كلمته في اللغة الانكليزية حوالي عام ١٧٧٩م، كما دخلت كلمة الاستشراق في المعاجم الفرنسية عام ١٨٣٨م).

أما علماء العرب كان لهم رأي في مصطلح الاستشراق لذلك وضعوا تعاريف لهذا المصطلح ومنها: الاستشراق هو جهود الغربيين ودراساتهم لتأريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته وتقاليده ومعتقداته وأساطيره، ثم تطور هذا المفهوم وأخذ يشمل دراسة العبرية لصلتها بالدين والعربية لصلتها بالعلم[٧]. أما أحمد الإسكندراني وأحمد أمين[٨] عرفا المستشرق بأنهُ كل من تجرد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية وتقصي آدابها طلبًا لتعرف شأن أمة، أو أمم شرقية ومعرفة عاداتها وتقاليدها وتأريخها ودياناتها وكل ما يتعلق بها.

كذلك عُرف الاستشراق بأنهُ كلمة يُعرف خلالها أنَّ المستشرق هو المشتغل بالعقليات الشرقية سواء أكانت سامية أم غير سامية، ولكن هذهِ الكلمة في اصطلاح العلماء والأدباء تطلق على المشتغل بالعقليات السامية خاصة[٩]. كذلك عُرف الاستشراق بأنَّهُ قوم من المستشرقين الأوربيين نسبوا أنفسهم إلى العلم والبحث وشغلوها في أغلب الأحيان بالبحث في التأريخ والدين والاجتماع ولكل منهم لغته الأصلية التي تزود بها وتربى عليها، لذا فُهم ينحازون إلى لغاتهم ويدافعون عنها ويفتخرون بها، لكن مع ذلك تعلموا اللغة العربية بجوار لغتهم الأصلية بغية دراسة حضارة الشرق وعلومه وآدابه[١٠].

إلى جانب هذهِ التعاريف وضعت تعاريف أخـــــرى أبــــرزها تـــعريف مالك بن نبي[١١] حيث قال: (يجب أولاً أنَّ نحدد مصطلح الاستشراق ونعني به، الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، ثم علينا أنَّ نُصنف أسمائهم على شكل طبقات وعلى صنفين هما أولاً من حيث الزمن، وثانيًا من حيث نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين ومعرفة رؤى وأفكار هؤلاء فهناك المادحين للإسلام وحضارته، وهناك القادحين بالإسلام، ولكل ما يمت بصلة له).

أما إسحاق موسى الحسيني[١٢]، عرفَ الاستشراق قائلاً: (أنَّ لفظة استشراق ومشتقاتها مولدة أستعملها الكتاب المحدثون من ترجمة كلمة Orientalism، ثم اشتقوا من الاسم فعلاً فقالوا أستشرق ولا يوجد ما يقابله في اللغات الأجنبية فعل مرادف للفعل العربي، ثم أشتهر هذا المصطلح وأصبح معروفًا لدى الغرب.

لم تكن هذهِ التعاريف وحدها هي التي حددت، أو فسرت مصطلح الاستشراق، بل أنَّ هناك تعاريف كثيرة وضحت هذا المفهوم إلا أننا نكتفي بما ذُكر. لأنَّ جميع هذهِ التعاريف تصب في اتجاه واحد هدفها تفسير مصطلح الاستشراق وتحديد مفهومه. ولعلَّ هناك تداخل بين مصطلح الاستشراق ومصطلح الاستعراب، لذا تقتضي طبيعة الدراسة أن نُعرف مفهوم الاستعراب ومعرفة خصائصه.

حينما فتح المسلمون بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية سنة ٩٢هـ /٧١١م، وجدوا غالبية السكان يدينون بالديانة المسيحية ويتكلمون اللغة الإسبانية القديمة (الرومانس أو الرومانث) المتولدة من اللاتينية، التي عُرفت فيما بعد بالأعجمية أو اللاتينية[١٣]، وقد تعرب هؤلاء السكان نتيجة لتعايشهم مع الفاتحين المسلمين فحاكوهم لسانًا وزيـــًا، وأعتنق بعضهم الإسلام بينما بقيَّ البعض الآخر على مسيحيته مكونًا طائفة ضمن المجتمع الأندلسي مسيحية الدين والعقيدة، عربية اللسان والمظهر وهذهِ الطائفة هي التي أطلق عليها مصطلح المستعربون Los Mozarabes، باللغة الإسبانية[١٤] .وقد اطلق على هذهِ الفئة أسماءً ونعوتًا منها: العجم أي الذين لا ينحدرون من أصل عربي، النصارى، أهل الذمة، المعاهدون لأنهم عاهدوا مسلمي الأندلس على الطاعة والولاء ودفع الجزية والخراج وعدم حمل السلاح[١٥]. كذلك نُعتوا بنعوت مركبة مثل: المعاهدون من النصارى، نصارى الذمة[١٦]. ونعتوا بألفاظ لا يفضل المستعربون

سماعها مثل: الروم، الكفرة والمشركين فكانوا يقصدون بها نصارى الشمال[١٧].

٣/١-الاستعراب لغة

الاستعراب مصطلح مشتق من عربَ أي استعرب الشخص وجعل نفسه من العرب وصار دخيلاً بينهم، وجعل نفسه منهم إذًا فهو مستعرب، والمستعربة من العرب هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، إما العاربة فهم العرب الخلص. ويقال أنَّ المستعربون هم قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وتشبهوا بهم[١٨]. وجذورهم التأريخية تعود إلى أيوب بن القرية[١٩]، إذ هو أول من أستعمل الاستعراب، ويبدو أنّ هذا المصطلح أخذ بالتطور حتى استعمله المؤرخون المشارقة للإشارة إلى القبائل العربية التي كانت مستقرة بالشام أيام الفتوحات الإسلامية.

٤/١-الاستعراب اصطلاحًا

أطلق مصطلح المستعربون على احدى الفئات المكونة للمجتمع الأندلسي، إذ عاشت هذهِ الفئة في كنف الإسلام والمسلمين في بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية لا سيما العناصر المسيحية التي أستعربت في لغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وظلت محتفظة بلغتها المحلية (الأعجمية)، ومحافظة على ديانتها المسيحية أو اليهودية[٢٠]. وقد كفلت لهم الحكومات الإسلامية التي حكمت بلاد الأندلس حرية المعتقد وأبقت نظامهم الإداري المتمثل بوجود رئيس لهم يُعرف بالقومس يختارونه من بينهم ليكون ممثلاً عنهم في الأمور الإدارية، إضافة إلى تعيين قاضٍ لهم يعرف بقاضي العجم يفصل في منازعاتهم ومشاكلهم الإدارية الحاصلة فيما بينهم، إضافة إلى حريتهم في التردد على الكنائس والأديرة، حيث تمتع المستعربون بحرية كاملة فاحتفظوا بهويتهم الثقافية التي عرفوا بها.[٢١]

تمتع المستعربون في بلاد الأندلس بحرية كاملة ومارسوا نشاطاتهم، وسرت إليهم العادات والتقاليد الإسلامية وتعلموا اللغة العربية وكتبوا بها، وألف بعضهم كُتبًا وأقتنوا مكتبات عربية حيث مكنتهم معرفتهم باللغة العربية وإتقانها إلى ترجمة العديد من الكتب العربية إلى لغاتهم الأمر الذي ساعدهم لأن يكونوا حلقة وصل بين المسلمين والنصارى في الأندلس[٢٢].

٥/١-الاستعراب الإسباني وانبعاث الاستشراق

أحتلَّ الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية مكانة بارزة عند المستشرقين الإسبان، وشغل حيزًا كبيرًا في مخيلتهم وباتَ حدثًا مركزيًا شد انتباه الناس لما كتبه هؤلاء المستشرقين لا سيما المتعصبون منهم الذين اخذوا ينظرون إلى الإسلام بأنَّهُ قوة طارئة غزت بلادهم ودمرت أرثهم وتاريخهم الحضاري، وأنهُ فرض نفسهُ عليهم بواقعية لا يمكنهم التنصل منها، وأخذوا يقارنون بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا الإسلامية، وباتوا ينظرون إلى ذلك على أنَّهُ صراع قومي وديني، ولابد للقومية والدين أنَّ ينتصرا. ويتجسد ذلك بقول المستشرق دانيال: (منذُ الغزو العربي والحياة الإسبانية تخضع لمقابلة المسيحي المورو[٢٣] فكل ما ليس لنا هو مسلمٌ وأجنبي في آنٍ واحد وكل ما لنا هو مسيحي وإسباني في الوقت نفسه.

أنَّ التأكيد على ما هو لنا يتسع ليشمل على نحو متزامن المسيحية والإسبانية، أما التأكيد على ما ليس لنا فيستوعب على النحو ذاته قومية الآخر المتطفل ودينه))[٢٤]، لذا فقد ارتبطت صورة الإسلام وحضارته في الأندلس في المتخيل الذهني للمستشرقين الإسبان (المتعصبين) بألفاظ وعبارات قدحية مثل : التعصب، الغزو، الاستعمار، الاحتلال...الخ، فمعاينة أفكارهم المبثوثة بدراساتهم تبرهن على حتمية الكره والعداء الشاخص في خطابهم الاستشراقي، إذ أنَّ كل مستشرق كتب عن الوجود الإسلامي في الأندلس ملزم بضرورة اتخاذ موقف إزاء حضارة الإسلام في هذا البلد، ليتجسد للقارئ طبيعة المرتكز الذي استند عليه المستشرق في التعامل مع الإرث الحضاري الإسلامي في الأندلس، وقلما تجردت أقلام هؤلاء المستشرقين عن أهوائهم الشخصية وانتماءاتهم الفكرية والعقدية في صياغة الخطاب الاستشراقي، وأنَّ جل هؤلاء المستشرقين أنَّ لم نقل جميعهم قد ركزوا اهتماماتهم على دراسة تاريخ الإسلام والمسلمين في الأندلس فقط دون أنَّ يكون لهم اهتمامًا بحضارة وثقافة الشرق

وتاريخه، ولأجل تحقيق أهدافهم عكف هؤلاء المستشرقون على استعراب ثقافتهم فدرسوا اللغة العربية وأتقنوها.

لذا فلا غرابة أنّ نقول أنَّ ثمة علاقة وثيقة بين الاستعراب والاستشراق في إسبانيا وأنَّهُ أي (الاستشراق) امتداد لجهود المستعربين الذين عاشوا في كنف الحكم الإسلامي في الأندلس، إذ أهتم هؤلاء المستعربون بدراسة اللغة والثقافة والتراث العربي الإسلامي حتى تطورت أعمالهم إلى ترجمة الإعمال الجدلية ضد الإسلام والتبشير[٢٥]، وشهدت هذهِ الإعمال تطورًا كبيرًا لا سيما بعد استرداد مدينة طليطلة[٢٦] وسقوطها بيد الإسبان سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، فعمل هؤلاء المستعربون على إنشاء مدارس للترجمة تزامنت مع توافد عدد من رجال الدين النصارى من أوربا إلى الأندلس لا سيما طبقة الرهبان الفرنسيين الذين دخلوا الأندلس وشكلوا حركات لغرض الإصلاح الديني كالحركة الكولونية Clunisienne[٢٧] والحركة الديرية السترشيانية Cisterciens[٢٨] وهؤلاء كان لهم دورًا كبيرًا في تغير الموقف الإسباني تجاه الإسلام وانطلاق مرحلة الاستشراق الإسباني[٢٩] التي جاءت متزامنة مع تزايد الحركة الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ووقوع الكنيسة الإسبانية تحت سلطة بابا روما[٣٠].

٦/١-الجذور التأريخية للاستشراق الإسباني

تميزت إسبانيا عن غيرها من الدول الأوربية بأنها سباقة في التعامل مع العرب والاستفادة من الحضارة الإسلامية، لذلك كان اهتمام الإسبان يسير باتجاه دراسة ما أنتجه المسلمين في إسبانيا والاستفادة من هذا الإرث الحضاري الكبير، لذا فأنَّ الجذور التأريخية للاستشراق الإسباني قديمة قدم الحضارة الإسلامية في الأندلس، ولهذا الاستشراق خصوصية تختلف عن بقية أنواع الاستشراق الأخرى إذ أن الاستشراق الإسباني ولدَ مع وصول المسلمين إلى بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية، وأنَّهُ أنطلق من داخل إسبانيا وتعود بدايات تدشينه الأولى إلى المستشرق الإسباني خوسيه أنطونيو كوندى Jose Antonio Conde (١٧٦٥-١٨٢٠م)، الذي كان له الفضل في التعريف بتاريخ الأندلس وأدب المورسيكيين[٣١]، وأنَّهُ فتح طريق الاستشراق الإسباني لمن أتى من بعده وسار على خطاه ومنهم : باسكوال دي غايانغوس (١٨٠٩-١٨٩٧م)[٣٢]، الذي تخرج على يديه عدد من المستشرقين الإسبان أمثال إدواردو سافيدرا[٣٣]، فرانسيسكو خافير سيمونيت[٣٤] وإيميل لا فويتي الكنترا[٣٥]، وفرانسيسكو غونثالث[٣٦]، على أنّ ابرز هؤلاء المستشرقين حسب رأي المؤرخ محمود علي مكي، كان فرانسيسكو كوديرا (١٨٣٦-١٩١٧م) حيث أعطى الاستشراق الإسباني دفعة قوية إلى الأمام، إذ يعد كوديرا مؤسس الاستشراق الإسباني الحديث، وقد تخرج على يديه عدد كبير من المستشرقين ممن واصلوا مسيرته الاستشراقية[٣٧].

مما لا شك فيهِ أنَّ إسبانيا ما كانَ لها أنَّ تطرق أبواب الحضارة والتقدم لولا القرون الثمانية التي عاشتها في كنف الإسلام والمسلمين، لذلك اتجهت أنظار المستشرقين الإسبان إلى البحث والتقيب في متحف الأسكوريال بحثًا عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ الأندلس الإسلامية ومعرفة سياسة الحكومات الإسلامية التي حكمت بلاد الأندلس، إذ أهتم هؤلاء المستشرقين في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي في تاريخ المسلمين ومعرفة الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس، وكان من نتائج هذا الاهتمام ظهور مؤلفات عُنيت بتاريخ المسلمين في بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية[٣٨]. وقد تفانى عدد من المستشرقين الإسبان في محاولة منهم نشر إسبانية الأندلس، والإشارة للحضارة الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، رغم ذلك إلا أنَّ البعض لم يُغادر نزعته القومية والاستشراقية وظلَ يطرح رؤىً وأفكارًا برزت من خلالها أسبنة الأندلس دمًا وعرقًا وحضارة كخطوة منهم لإيهام القارئ بأنَّ الحضارة الإسلامية في الأندلس ما كان يُكتب النجاح لها، لولا جهود الإسبان في تلك الحضارة. ولعلَّ في ذلك مغالطة كبرى وإيهام للقارئ وابتعاد عن الحقيقة التي مفادها أنَّ المسلمين استطاعوا بناء حضارة عريقة بجهود يشهد الجميع لها، ولا ننكر التراث المشترك بين

العرب والإسبان الذي فرضه التزامن التأريخي والجوار الجغرافي.

حظيَّت رؤى وأفكار هؤلاء المستشرقين لا سيما المتعصبين منهم بمكانة مهمة في أوساط إسبانيا تجسدت في الغياب المتعمد لمصطلح الأندلس، وبروز بدائل ذات سبغة قومية كلفظ: اندلوثيا، إسبانيا، إسبانيا الإسلامية، لذلك ليس من قبيل الصدفة أنَّ يبرز وصف أندلوث ويتأخر وصف أندلسي عند بعض المستشرقين الإسبان في تناولهم للثقافة الأندلسية رغم الاختلاف الصريح بين المصطلحين[٣٩]. ولعلّ في ذلك نزعة قومية إسبانية لم يستطلع الإسبان مغادرتها لا، بل احتفظوا بها إلى يومنا هذا.

كذلك أكدت الدراسات والأبحاث التأريخية أنَّ لقب المستعربين ظهر أولاً في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي في الكتابات اللاتينية، ثم انتقل إلى إسبانيا فيما بعد إذ سابقًا كانوا يقولون قشتاليون أو افرنج[٤٠]. وأنَّ أول من أطلق لقب مستعرب هو الملك الفونسو السادس Alfonso VI [٤١]، ولكن بصيغة Muztarabes، سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، كما أطلقه عليهم حفيده الملك الفونسو السابع (السليطين) Alfonso VII [٤٢]، في قانونه سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ودعاهم بنفس الاسم الملك الفونسو المحارب Alfonso el Batallador [٤٣] في قانونه سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م[٤٤].

تطورت حركة الاستعراب الإسباني وأخذت تزداد يومًا بعد آخر حتى أصبحت نواة لحركة الاستعراب الإسباني الحديث مع اختلاف بسيط متمثل باستعراب الإسبان في عهد المسلمين كان عبارة عن استعراب في نمط الحياة والحضارة والأسلوب في التعايش ، أما الاستعراب الإسباني الحديث فأنه عبارة عن دراسة للحضارة واللـــــغة والتـــــراث والتأريخ الإسلامي، وبصفة خاصة استعرابًا لتأريخ المسلمين في الأندلس[٤٥] .علمًا أنَّ جل المستشرقين الإسبان يفضلون لقب مستعرب على لقب مستشرق وهذا ما نلمسه في كتاباتهم التي جسدوا فيها تاريخ المسلمين في الأندلس لذلك أنتجوا تراثًا إسبانيا خالصًا، وقد حفلت المكتبة الإسلامية بهذا النتاج العلمي، ولعلَّ ذلك يعود لأنَّ المستعربون الذين عاشوا في كنف الإسلام تبنوا الحياة العربية لغة وعادات وتقاليدًا، لذلك اتخذوا أسماء عربية إلى جانب أسمائهم اللاتينية، أما المستعربون الإسبان المحدثين فأن استعرابهم لم يتجاوز إتقان اللغة العربية إذ كان هدفهم الحصول على العلم والمعرفة. وبناءً على تلك المعطيات يتضح أنَّ الاستعراب من وجهة نظرنا هو المرتكز الأساس الذي اعتمد عليه الاستشراق الإسباني وانطلق منهُ في بث الخطاب ورؤى الاستشراق الإسباني.

ثانيًا: المستشرق خوسيه أنطونيو كوندى Jose Antonio Conde (١٧٦٥-١٨٢٠م) وجهوده العلمية في دراسة تاريخ الأندلس

١/٢-حياته ومسيرته العلمية

خوسيه أنطونيو كوندى Jose Antonio Conde، مستشرق إسباني ولد في ٢٨/ أكتوبر سنة ١٧٦٥م، في مدينة برليخا Peraleja، في احدى نواحي كونكة الواقعة شمال إسبانيا[٤٦]، وتلقى تعليمه في مدرسة سان جوليان San Jolean، اعتبارًا من يونيو ١٧٨١م، حتى ١٥ يونيو ١٧٨٢ وقام بدراسة القواعد النحوية والجدلية، ثم اهتم بدراسة الأمور الدينية، بعدها التحق بجامعة القلعة وكان متفوقًا بدراسته وحصل على جوائز كثيرة ذلك لتفوقه في ميدان الفلسفة ونال شهادة البكالوريوس في ٢٢يونيو ١٧٨٨م[٤٧].

بدأ كوندى مسيرته العلمية مهتماُ بدراسة النصوص اليونانية الكلاسيكية، وحصل على منصب في المكتبة الملكية عام ١٧٩٥م، ثم واصل مشواره العلمي معتمدًا على نصوص أغريقية[٤٨]. في عام ١٨٠٢م صار كوندى عضوًا في الأكاديمية الإسبانية خلفًا لتوماس أنطونيو Tomas Antonio Sanshet، في كرسيه، كما كان عضوًا في أكاديمية العلوم والآداب في برلين[٤٩].

في عام ١٨٠٤م تم قبول كوندى عضواَ في الأكاديمية الملكية للتأريخ، وعُين مترجمًا لجوزيف بونابرت، وهرب إلى فرنسا عام ١٨١٣م، ثم عاد إلى إسبانيا بعد عام واحد وبسبب تعاطفه مع الفرنسيين وميوله لهم، طُرد كوندى من أكاديمية التأريخ والأكاديمية الإسبانية عام ١٨١٤م، كما لم يُسمح له بالإقامة في مدريد حتى عام ١٨١٦م، لكن بعد عامين أُعيد كوندى إلى منصبه في الأكاديميتين المذكورتين. وكان سبب طرده من هذهِ

الأكاديميات يعود لآرائهِ السياسية الموالية إلى فرنسا، لذلك أمر الملك فرناندو السابع بنفيه خارج إسبانيا، فلجأ إلى فرنسا وعاش فيها في حالة من الفقر والعوز والحرمان[٥٠].

تعرض المستشرق كوندى لمشاكل سياسية لا سيما مع محكمة التفتيش الإسبانية بسبب شكوى قُدمت ضده أُتهم فيها بأنهُ صرحَ بأشياء، وافصح عن آراء تُسيء للسيد المسيح عليه السلام وقال: (أنَّ كل مزامير داوود ليس فيها ما يدعو للأعجاب إلا أنها كُتبت شعرًا)، وأنَّهُ ألف كتابًا يتغنى بالجنس لكن هذهِ الاتهامات لم تُثبت على كوندى، ولم تنل منه أو تؤثر في مسيرته العلمية[٥١].علمًا أنَّهُ تأثر بجهود ميخائيل الغزيرى في الاهتمام بالتراث الإسلامي في إسبانيا ووجه اهتماماته لدراسة تاريخ المسلمين في الأندلس[٥٢].

توفي المستشرق الإسباني كوندى في عام ١٨٢٠م، بعد أنَّ عاش فقيرًا معوزًا، ونظرًا لذلك تكفل بعض أصدقائه بدفنه وتحملوا تكاليف جنازته ومراسيم دفنه، ومنهم: تكنور، موراتين ومرنينث، ورثاه صديقه المقرب له موراتين بقصيدة شعرية تجسد فيها الرثاء بأبهى صوره فخلدَ ذكراه بين الإسبان[٥٣].

٢/٢-نتاجه العلمي

ترك المستشرق الإسباني خوسيه انطونيو كوندى تراثاً علمياً عُنيَّ بدراسة تاريخ الأندلس وأهم مؤلفاته هي:

١- كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا.
٢- كتاب أشعار شرقية طبع في مدريد سنة ١٨١٩م.
٣- كتاب خلفاء قرطبة، أنتهى كوندى من تأليفه سنة ١٨٢٠م.
٤- Elevanteo قصيدة مترجمة سنة ١٧٨٧م.
٥- كتاب نزهة الشوق في تقسيم الأقاليم، هذا الكتاب عبارة عن ترجمة لأبي عبد الله بن محمد الشريف الإدريسي، وصفَ فيها المؤلف إسبانيا مع ترجمة إسبانية وتعليقات طبع في مدريد سنة ١٧٩٩م[٥٤]. وقد تعرض كوندى لانتقادات كبيرة تخص ترجمته لهذا الكتاب[٥٥].
٦- بحث بعنوان رسالة حول العملات العربية خاصة تلك التي سكها المسلمون في إسبانيا، نُشر هذا البحث سنة ١٨٠٤م، وقد أثارت هذهِ الدراسة (البحث) الجدل بين الأوساط الأكاديمية، الأمر الذي جعل الاكاديميون يطلقون عليه (أثري أو عتيق)، وقد أدلى كوندى في هذه الدراسة بمعلومات جديدة تخص العملات الإسلامية في الأندلس وحدد أسماء المدن التي اتخذها حكام الأندلس مقرًا لسك العملة، فضلاً عن محاولته في تحديد قيمة هذهِ العملات بالعملة الإسبانية[٥٦].
٧- كتاب في النقود العربية، طبع في مدريد سنة ١٨١٧م، وهو ضمن منشورات أكاديمية التاريخ.

٣/٢-قراءة في كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا

أنَّ المتمعن في الحضارة الإسلامية في الأندلس يجد ثمة تراث مشترك بين العرب وإسبانيا فرضه التزامن التاريخي والجوار الجغرافي، كون أنَّ التراث الإسلامي في الأندلس جزءًا لا يتجزأ من تاريخ إسبانيا. الأمر الذي أشار إليه كوندى في كتاباته حول تاريخ المسلمين في إسبانيا حيث أنصف كوندى التراث الإسلامي الأندلسي وبينَّ دوره الإيجابي في نهضة أوربا وتطورها.

يُعد كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا أول مؤلف أوربي جامع ألفه مستشرق إسباني عن تاريخ الأندلس، أعتمد فيه كوندى، على مصادر عربية محفوظة في مكتبة الأسكوريال، وهي سابقة أولى في تاريخ الاستشراق الإسباني، وما يؤسف له أن كوندى لم يشر إلى هذهِ المصادر، أو المخطوطات الأمر الذي يُعد سُبة على كتاباته، اللهمَّ إلا ما أشار لهم كوندى في بعض معلوماته وهم : ابن الأبار، ابن الخطيب، وإشارة إلى اسمين لم يكن مشهورين في المؤلفات الأندلسية وهم أبن خشيب والمطروق[٥٧].وقد أفصح كوندى عن رغبته في إضافة بعض الملاحق عن مملكة غرناطة لكن المصادر العربية ليست كثيرة لأنَّ الكاردينال زمنيز (خمنيس)، ومحاكم التفتيش الإسبانية قد حرمته من هذهِ المذكرات التأريخية[٥٨].

لعلَّ الوقت لم يسعف كوندى في معالجة بعض الهفوات والأخطاء التي وردت في كتابه (تاريخ حكم العرب في إسبانيا)، إذ لم يتوفر الوقت لديه لمراجعة الكتاب وإتمام دراسته، لا سيما أنَّ الكتاب نُشر بعد وفاته، وأُستند إلى بيانات وأوراق تركها كوندى دون ترتيب لذلك ليس من المستغرب ثمة أخطاء تُصيب هذا المنجز العلمي الكبير رغم ذلك يتمتع هذا الكتاب بقيمة علمية كبيرة أفصح فيه كوندى بمعلومات مهمة عن تاريخ حكم المسلمين في الأندلس.

قدمَ كوندى في كتابه هذا عرضًا متكاملاً لتاريخ المسلمين في الأندلس الإسلامية، وقد أُلف هذا الكتاب، بظروفٍ استثنائية كانت تمر بها إسبانيا لا سيما مشكلة العنصريةِ القومية التي عصفت بالبلاد وما آلت إليه من نتائج أثرت سلبًا على المجتمع الإسباني[٥٩].

أنَّ القارئ الحصيف لكتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا يلتمس التقدير الكبير الذي حمله كوندى للحضارة الإسلامية في الأندلس، والصورة المشرقة التي قدمها للوجود العربي في إسبانيا إلى حد الإلحاح على المقارنة بين ما بلغته إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي من تقدم وتطور وازدهار، وما آلت إليهِ في أيامه من تخلف حضاري وثقافي عصف بإسبانيا وشمل جميع مفاصل الحياة[٦٠]. وفي ظل تلك المؤثرات ابدى كوندى حماسة كبيرة في الدفاع عن العرب في إسبانيا وأشاد بفضائلهم ومواقفهم وتغنى بالحضارة الإسلامية التي خلفها المسلمون في إسبانيا.

أنتظم كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا بثلاثة مجلدات وأربعة أجزاء وحمل عنوان باللغة الإسبانية (Historia de La Dominacion de los Arabes en Espana)، أبتدأ كوندى كتابه بمقدمة طويلة جدًا تحدث فيها عن الدراسات العربية في إسبانيا في عصره، وبينَّ حالة المكتبات وعدم اهتمام الحكومة الإسبانية بهذه الدراسات، بعد ذلك وصف كوندى الطريقة التي أنتهجها في تأليف الكتاب وهي على النحو التالي:

الجزء الأول: يبدأ من دخول المسلمين إلى الأندلس ويستمر إلى قيام الحرب بين زعماء القيسية واليمانية واصفًا الصراع بينهما بأنهُ صراع عصبي وقبلي.

الجزء الثاني: يبدأ منذ زمن الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨- ١٧١ه/ ٧٥٥-٧٨٧م)[٦١]، ويستمر إلى حكم الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦-٣٩٩ه / ٩٧٦-١٠٠٨م)[٦٢].

الجزء الثالث: يبدأ من اختيار جوهر الصقلي[٦٣]، والصراع بين المسلمين المتمثل في الفتنة القرطبية.

الجزء الرابع: يبدأ من حروب حكام الطوائف إلى حصار مملكة غرناطة وتسليمها بيد الإسبان سنة ٨٩٧ه/١٤٩٢م. أردف كوندى الكتاب بقائمة تحتوي على أسماء حكام المسلمين الذين حكموا الأندلس مبتدءًا بالأمير عبد الرحمن الداخل إلى آخر حكام الطوائف، ولم يكتفِ بذلك بل زود الكتاب بقائمة تتكون من ٦٦ كلمة عربية أستخدمها في الكتاب مع ما يقابلها باللغة الإسبانية محافظًا على أسلوبه الأدبي والبلاغي في تأليف الكتاب[٦٤]، ولكي يُشعر كوندى قارئ الكتاب بأنَّ مؤلفه يغلب عليه الطابع العربي، قام بأدراج بعض القصائد الشعرية في كتاباته التأريخية.

نُشر الكتاب لأول مرة في مجلده الأول والثاني عام ١٨٢٠م، أما المجلد الثالث فأنهُ نُشر عام ١٨٢١م بعنوان (تاريخ السيطرة العربية في إسبانيا من واقع مخطوطات ووسائل عربية)، بعد ذلك بأربع سنوات وتحديدًا عام ١٨٢٥م نُشر الكتاب في فرنسا بعنوان (سيطرة العرب والمسلمين في إسبانيا والبرتغال منذُ غزو شعوبها وحتى طردهم النهائي)[٦٥].

أن المتمعن في هذا العنوان يجد ثمة نعرة طائفية وقومية واضحة المعالم حينما يوصف الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، بالغزو، الاحتلال والسيطرة...، ويُسموا بالطرد. نظرًا لأهمية الكتاب ومكانته في الأوساط الثقافية تُرجم الكتاب إلى اللغة الألمانية عام ١٨٢٤م، بعدها طُبع الكتاب طبعة ثانية ونُشر عام ١٨٤٠م في باريس كون مؤلفه يُعد أفضل مؤلف إسباني، بعدها أُعيد نشر الكتاب في عام ١٨٤٤م في برشلونة وأُعيدت طباعته في العام نفسه، أما في عام ١٨٥٤م تُرجم الكتاب إلى اللغة الإنكليزية وأنتظم بعنوان (سيطرة العرب في إسبانيا). بالعودة إلى عام ١٨٢١م طُبع الجزء الثالث من الكتاب بعد وفاة كوندى، وبالتالي لم يقم هو ذاته بمراجعته أو تدقيقه، لذا فأن

نسبة أخطاء الترجمة، وقراءة الأسماء العربية للأشخاص والأماكن طبيعي أن تزداد[٦٦].

على الرغم من اهتمام كوندى بكتابه هذا إلا أنَّهُ لم يراه مطبوعًا في حياته واضعًا آمالاً كثيرة على هذا العمل، فعندما مات كوندى كان الكتاب في مرحلة الطبع وقد تولى صديقه خوان تينيو راميرث مراجعة الكتاب وتصويب أخطائه[٦٧]، ولعلَّ من انعكاسات ذلك وردت أخطاء كثيرة في الكتاب لان خوان تينيو لم يكن يعرف العربية ولا يتقنها الأمر الذي يُبرر هذه الأخطاء التي أستثمرها بعض المناوئين لكوندى وجعلها سُبة عليه وعلى نتاجه العلمي. أنَّ النص الأصلي للكتاب موجود في مكتبة مدريد الوطنية، وأنَّ عمل ضخم وكبير بهذا الحجم لا بد من الإشادة به، وتمجيده لذا فلا غرابة أنَّ يكون كوندى قد أنفق سنوات من عمره في تأليف هذا الكتاب وإنجازه معتمدًا على مصادر ومخطوطات إسلامية وعربية خالصة عُنيت بتاريخ المسلمين في بلاد الأندلس، لذلك رغم الانتقادات التي طالت كوندى ومؤلفه الشهير إلا أنَّهُ يبقى هذا الكتاب حسب وجهة نظري نقطة انطلاق مهدت الطريق لدراسات استشراقية إسبانية أخرى عُنيت بدراسة تاريخ المسلمين في إسبانيا.

أنَّ معظم المخطوطات التي أستخدمها المستشرق كوندى في تأليف كتابه المذكور، فُقدت ولم تُعرف أين ذهبت إلا في الآونة الأخيرة حيث بيعت كُتب كوندى ومخطوطاته في مزادٍ علني بلندن، وتم التعرف على كثير من المخطوطات التي استخدمها كوندى، وبذلك يمكن نفي التهمة التي ألصقها به البعض ومن بينهم المستشرق الهولندي دوزي والتي تنص على أنَّـــهُ أخترع بعض هذهِ الأكاذيب من بنات أفكاره، وزور الحقائق التأريخية[٦٨].

حظيَّ كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا بمكانة مهمة لدى الأوساط الأكاديمية الإسبانية، أو عامة الناس علمًا أنَّ كوندى كان يُعلن عن كتابه قبل أنَّ يبدأ هو في تأليفه، ففي أبحاث قدمها أكاديميون إسبان إلى أكاديمية التأريخ كانوا يعلنون عن الكتاب بحماسٍ كبير ووصف بأنهُ دراسة غير عادية، لذلك نشرت أكاديمية التأريخ في المجلد الرابع الذي تضمن أبحاث الأكاديمية تقريضًا للكتاب قبل أنَّ يُنشر وجاء فيهِ: (أن الأكاديمية يسرها أنَّ يشتغل بعض أعضائها في أبحاث تُسهم في نشر الثقافة العامة بين الشعب، وتؤكد تميز مؤلفيها ومن هذهِ الأبحاث كتاب تاريخ المسلمين في إسبانيا لخوسيه انطونيو كوندى...، سيؤدي إلى ثورة في مجال الأدب والبحث)[٦٩].

كذلك أُثنيَّ على الكتاب من قبل أكاديمية التأريخ إذ جاء في المجلد السادس الذي تضمن أبحاث عام ١٩١٨م: (يــالفرحة الأكاديمية عندما ترى ثمرة علم كثير من أعضائها الذي يعلون قدرها بكتاباتهم المتميزة خلال هذا العام بدأ نشر كتاب تاريخ إسبانيا العربية، الذي ألفه خوسيه أنطونيو كوندى والذي تحدث في مقدمة هذا الكتاب عن صعوبة المهمة، وقدم نقدًا موضوعيًا للمؤلفين الذين سبقوه في هذا المجال وعرض خطة البحث والمراجع التي أستند عليها لكي يقدم كتابًا عن موضوع غير معروف في أوربا). أضافة لذلك كانت هناك دعاية كبيرة للكتاب في وسائل الأعلام الإسبانية مركزة على أهمية الكتاب ومساهمته في تقديم معلومات جديدة عن حكم العرب في إسبانيا[٧٠].

على الرغم من الشهرة الكبيرة التي نالها كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا، إلا أنَّهُ لم يكن خاليًا من الهفوات والإخطاء، وهذهِ الإخطاء لم تكن عن قصد، بل تُعد حسب وجهة نظرنا أخطاء طبيعية يقع فيها أي مؤلف يكتب عن تاريخ أمة غير أمته معتمدًا على وثائق ومخطوطات كُتبت بلغة تختلف عن لغة المؤلف.

حددَ أحد الباحثين الأخطاء التي وردت في كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا، إذ تمثلت هذهِ الإخطاء في تسمية عدد من الأعلام والمواقع الجغرافية التي وردَ ذكرها على لسان كوندى، إلا أنَّ مترجم الكتاب عمل على تصحيحها أمثال شاطبة، شريش، شلبطرة، البشرات، شقر وطركونة، الأمر الذي يُحسب للمترجم إذ عالج في ترجمته هذهِ الأخطاء وتداركها[٧١]. وقد يعود السبب في تلك الأخطاء إلى:

١- أنَّ كوندى كان متسرعًا في كتاباته، حيث ألفَ كتابه سابق الذكر دون أنّ تتوفر لديه أدوات النقد، واكتفى بترجمة ما وقع في يــــده إلى اللـــغة الإسبانية دون السعي للتأكد من صحة ترجـــمته، محاولاً أنَّ تكون التــــرجمة أقرب شكلاً ومضمونًا إلى

النـــص الأصلي الأمر الذي سبب له بعض الإشكاليات العلمية.

٢- أن أخطاء كوندى كانت ناجمة عن كونه أول من كرس جهده للدراسات العربية، بل أنَّهُ الوحيد الذي تبنى العمل في الدراسات العربية في عصره، وأنَّ أخطائه في الترجمة لم تكن أخطاء ناتجة عن عدم أمانته، أو أهوائه وميوله المذهبية والقومية.

٤/٢-المستشرق خوسيه أنطونيو كوندى بين جدلية الرأي واختلاف الحقائق

أهتم المستشرق الإسباني كوندى بدراسة تاريخ الأندلس الإسلامية، وأنفرد بكون كتاباته كانت مصدرًا مهمًا في توثيق الكثير من الأحداث والوقائع التأريخية التي عصفت بتاريخ الأندلس، وتجلى ذلك واضحًا في تدوينه لأحداث رافقت حكم بني الأحمر، وانتهاء الحكم الإسلامي لمملكة غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، كون كتاباته كانت دقيقة في ذكر الأحداث الأمر الذي أكده لارا نيكولا فاليه مترجم كتاب تاريخ حكم العرب في إسبانيا وتجسد ذلك في قوله: (أنَّ مصدرنا الأول في تاريخ تلك المرحلة إنما هو كتاب كوندى نعم الأول صحيح أنَّهُ ناقل والناقل لا يُقاس بمثابة الأصل، ولكنه ناقلٌ عن شاهد وهذا ما لدينا الآن والميسور لا يُترك بالمعسور، وما لا يُدرك كله لا يُترك جله)[٧٢].

كان لأنتاج كوندى الفكري أثرًا واضحًا في آراء المستشرقين الإسبان اتجاهه سلبًا وإيجابًا، وكان تأثيره كبيرًا في داخل إسبانيا وخارجها، لذلك انقسم معاصروه، أو من جاء بعده الى فريقين: فريق أعتبر آراء كوندى لا تقبل النقاش، وفريق هاجمه بلا هوادة أو تريث وأتهمهُ بتزييف الحقائق وتشويهها[٧٣]. ولعلَّ ذلك يعود لآراءه المنصفة للحضارة الإسلامية في الأندلس التي أصبحت فيما بعد وبالاً عليه فتعرضَّ لانتقادات شديدة، بحيث هاجمه بعض المستشرقين المتعصبين أمثال: باسكوال دي غايانغوس، رينهارت دوزي، رينان، أميل لافويتي الكانترا، ادواردو سافيدرا، وكذلك المستشرق الهولندي دوزي، ولضرورة تقتضيها طبيعة الدراسة لأبد لنا أنَّ نتطرق لآراء هؤلاء المستشرقين للتعرف على موقفهم من نتاج كوندى الفكري وماخلفه من دراسات أفادت المكتبة الأندلسية.

أنَّ أول من أبدى تحفظًا على نتاج كوندى العلمي هو المستشرق الإسباني باسكوال دي غايانغوس، إذ صرح في مقالٍ له حمل عنوان (لغة وأدب الموريسيكيين) قال فيه: (لقد نشر هذا العالم [كوندى]، كتابًا يُعتبر نموذجًا، أو بالأحرى أصل كل الكتب التي ظهرت عن تاريخ إسبانيا العربية في فرنسا وألمانيا وإنكلترا، ورغم أنَّ هذا الكتاب عمل غير عادي إلا أنَّهُ لا يفي بالغرض كلية،... من المؤكد أنَّ من يتصفح الكتاب سيجد أنَّهُ أشتمل على أخطاءٍ فادحة وتناقضات تنُم عن عدم توخي الدقة)[٧٤].

أن المتمعن في هذا النص يجد ثمة تحامل من قبل المستشرق غايانغوس على كوندى ونتاجه العلمي، ولعلَّ ذلك يعود للإنصاف والحيادية التي عُرف بها كوندى، تجاه الحضارة الإسلامية وما حققه المسلمين من تراثٍ حضاري كبير في بلاد الأندلس، وما يتصف به غايانغوس من تعصب وحقد كبير إتجاه كل ما هو إسلامي أو عربي في إسبانيا.

واصل غايانغوس رأيه في كتاب كوندى قائلاً: (أنَّ الدراسة فيها بعض الأخطاء التي تؤخذ على المؤلف منها: سوء ترتيب المادة العلمية، عدم وجود هوامش توضيحية أو نقدية، التكرار في المعلومات). لعلَّ هذهِ الأخطاء أمر وارد في عملٍ ضخم أعتمد المؤلف فيه على مخطوطات قد تكون غير مفهومة المعنى، أو غير واضحة الخط كونها كُتبت بلغة تختلف عن لغة المؤلف.

كذلك تعرض المستشرق كوندى لهجومٍ كبير يُعد هو الأعنف لأنَّهُ أثر في سمعته العلمية هو ذلك الاتهام الذي وجهه المستشرق الهولندي دوزي، إذ في عام ١٨٤٠م، نشر دوزي كتابه الموسوم دراسات عن تاريخ وأدب إسبانيا في العصور الوسطى، أفصح في مقدمة الكتاب قائلاً: (أنَّهُ حتى تلك اللحظة لم تُنشر بعد دراسة ذات قيمة عن تاريخ إسبانيا الإسلامية،... أما كوندى فأنَّ كتابه تاريخ المسلمين فكأنهُ لم يُكتب). لم يكتفِ بذلك بل واصل هجومه قائلاً: (لقد أشتغل كوندى في وثائق عربية دون أنَّ يعرف عن العربية أكثر من مجرد الحروف التي تُكتب بها، ثم أنَّهُ أستعاضَ عن نقص المعارف

الجوهرية بخيال غاية في الخصوبة فهو قد أختلق تواريخ بالمئات، وأخترع وقائع بالآلاف وزعمَ أنَّ كل ذلك ترجمة أمينة للمصادر العربية،...، أنَّهُ لم يرى ضرورة لدراسة الكتاب بتأنٍ، ولم يُقارن مصادره بالمصادر التي يقول كوندى أنَّهُ أعتمد عليها لأنَّ الكتاب مليء بالأخطاء لدرجة أنك لو فتحت صفحة ما بالمصادفة فستجد أخطاءً، يجب أنَّ نعترف أنَّ كوندى قد أحتاط لكيلا يُكتشف دجله بسهولة أنَّهُ يُخفيه تحت مظهر مُخادع،...)[٧٥].

لم يكتفِ المستشرق دوزي بذلك، بل شنَّ هجومًا آخر على كوندى أمتهنَّ فيهِ من شخصية كوندى ومكانته العلمية حينما قال: (أنَّ تنظيف أسطبل لأسهل من تصحيح جميع الأخطاء التي أرتكبها كوندى)[٧٦]. لم يصمد المستشرق دوزي ويتمسك بهذهِ الآراء إذ بمرور الوقت خفف دوزي هجومه على المستشرق الإسباني كوندى وأخذ يحذف بعض العبارات ذات اللهجة الحادة، وغيرَ موقفه تجاه كوندى لاحقًا واخذ يتقبل آراءه في بعض الأحيان[٧٧]. وهذا التغير في المواقف لعلَّ سببه يعود للشهرة الكبيرة التي نالها المستشرق الإسباني كوندى، وأدراك دوزي أهمية العمل الكبير الذي قام به كوندى وتقديره مؤخرًا لهذا العمل.

أما المستشرق رينان أنضم هو الآخر إلى ركب المهاجمين للمستشرق كوندى والمنتقدين له ويتضح ذلك من خلال قوله: (أنَّ كتاب كوندى عبارة عن خليط من الأخطاء فمن شخص واحد يصنع كوندى شخصين، أو ثلاثة وهناك شخص يموت مرتين، وهناك شخص يموت قبل أنَّ يولد، وهناك أشخاص تلعب أدوارًا خيالية)[٧٨].

لعلَّ المستشرق رينان ليس لديه دلائل واضحة لأثبات ما ذكره، لأنَّ رأيه لم يختلف عن رأي دوزي وأنه يُشاطره الحقد والكراهية التي يحمله دوزي لكوندى، لذا فلا غرابة أنَّ يكون رأيه بهذهِ الحدة.

كذلك لم يكن المستشرق أميل لافويتي الكانترا بعيدًا عن حالة الكره والحقد التي حملها ضد كوندى حيث قال: (أنَّهُ أطلقَ العنان لخياله)[٧٩]، ولعلهُ يقصد في هذا الراي أنَّ كوندى لم يكن دقيقًا في ذكر الأحداث والوقائع التأريخية التي ذكرها في كتاباته التاريخية لاسيما كتابه تاريخ حكم العرب في إسبانيا، وأنَّهُ عمل على تزييف الحقائق وتشويهها.

أما المستشرق ادواردو سافيدرا هاجم هو الآخر كوندى وذكر في كتابه الموسوم دراسات عن غزو العرب لإسبانيا، قال في مقدمة الكتاب: (أنَّهُ مجرد جمع بيانات غير منقحة معظمها نشرها أصدقاء المؤلف بعد وفاته وهي بيانات تُسيء للمعرفة التأريخية)[٨٠].

لم تقتصر أنتقادات بعض المستشرقين لكوندى كونه ذكرَ بعض الحقائق التأريخية التي قد يعتريها الخطأ، بل تطاولوا وأنتقدوا المنهج الذي أتبعه كوندى متهمينه بأنَّهُ أراد أنَّ يقوم بدراسة تُجمل التأريخ في الوقت الذي لم تكن تتوافر بيانات كافية لذلك، وأنَّ منهجه خاطئ، وأعتقدَ أنَّ عُمر شخص واحد يكفي للقيام بتلك المهمة، من ناحية أخرى أنَّ كوندى أستسلم لاتجاه عام في كل عصر بين المشتغلين في مجال غير مطروق بشكلٍ كافٍ إلا وهو استخراج نتائج من واقع بيانات غير مكتملة، كذلك أستند معاصروه في أنتقادهم لكوندى، أنَّهُ لم تكُن هناك دراسات عربية تفي بالغرض، وبالتالي فأنَّ جمهور القراء كان يتقبل بيانات وأفكار أي مستعرب دون أنَّ تتوافر للقارئ إمكانية مضاهاة هذه المعلومات بمعلومات أخرى لمعرفة قيمتها الحقيقية، وهكذا انتقلت بعض أخطاء كوندى مختلطة بالصواب[٨١].

لو أسلمنا وخضعنا لهذه الآراء واعتقدنا أنَّ المستشرق كوندى أبتعد عن المنهج العلمي في تعامله مع قضايا تاريخ الأندلس، وتراث المسلمين في إسبانيا إلا أنَّ ثمة حقيقة لا يمكن الابتعاد عنها أنَّ كوندى يُعد أول مستشرق إسباني وضع لبنة التأليف والكتابة عن تأريخ المسلمين في الأندلس، وأنَّ كره هؤلاء المستشرقين لكوندى وتحاملهم عليه كونه أنصف الحضارة الإسلامية في الأندلس وأطلق أحكامه عليها في كل حيادية متجردًا من نزعته الدينية والقومية الأمر الذي لم يُرق لهؤلاء المستشرقين كونهم ينتمون لمدرسة الاستشراق الإسباني المتعصب والمتحامل لكل ما يمت بصلة للإسلام في شبه الجزيرة الايبيرية، ولعلَّ هذا الكره نابع من قناعة هؤلاء المستشرقين إلى أنَّ تأريخ الأندلس وحضارتها جزء لا يتجزأ من تأريخ إسبانيا النصرانية فماذا يتبقى للأسبان من ألق حضاري إذا جُردت إسبانيا من حضارة المسلمين،

أللهمَّ إلا تأريخ أسود خلفته محاكم التفتيش الإسبانية[٨٢] تلك اللعنة التي كانت ولا زالت تُلاحق إسبانيا الى يومنا هذا.

بعد هذا العرض لآراء المستشرقين المتعصبين، صار لزامًا علينا أنَّ نطلع على ما كتبته أقلام الاستشراق المنصف بعد أنَّ ادركوا أهمية تراث كوندى العلمي لا سيما كتابه الموسوم تاريخ حكم العرب في إسبانيا، ومكانته في حقل الدراسات الاستشراقية، فبعد طبع الكتاب ونشره سرعان ما تلاقفت آيادي هؤلاء المستشرقين، الكتاب وقرأوه بتمعنٍ ودقة كبيرين فأنصفوا كوندى واعترفوا بأنَّ المستشرق الهولندي دوزي كان متحاملاً على كوندى وحادًا في أحكامه، وتبينَّ أنَّ أخطاء كوندى لم تكن فادحة كالتي صورها دوزي وغيره، وأنَّ الكثير من آرائه كانت صائبة لذلك ظهرت طائفة من المستشرقين أكثر تـعـقلاً وموضوعية حاولوا الدفاع عن كوندى، أو على الأقل الالتماس لأخطائه، ولضرورة تقتضيها طبيعة الأنصاف والحيادية صار لزامًا علينا أنَّ نستعرض هذهِ الآراء ومنها:

يقول المستشرق م. رومي في كتابه الموسوم تاريخ إسبانيا: (من آلان فصاعداً سيكون كوندى على وجه الخصوص هو مرجعنا، كان هو العالم بتاريخ الوجود العربي أنَّهُ أستاذ يجب أنّ نعترف)[٨٣].

أما المستشرق فياردوت ذكر في كتابه الموسوم "تاريخ العرب" أنَّ التهم التي وجهت إلى كوندى لا سيما تلك التي صدرت من المستشرق الهولندي دوزي ما هي إلا تهم مفزعة وسخرية مهينة وإشارات إلى أخطاء لا تتعلق بالأحداث التأريخية العظيمة ولا بالشخصيات الشهيرة،...، حينئذ كنت أتسائل ما إذا كان من اللائق بذل كل هذا الوقت والجهد لعرض أخطاء كان يمكن تصحيحها بكلمة واحدة[٨٤].

أما المستشرق أغستين دوران فأنَّهُ لم يبتعد عن الحيادية والأنصاف في كتاباته التأريخية لذلك أنصف كوندى حيث أشاد في مقدمة كتابه الموسوم الأغنيات الشعبية بجهود كوندى قائلاً: (أُريد أنّ أُنبه إلى نوع من الدراسة بدأها كوندى وأستمر فيها الأجانب فيما بعد يُريد القدر دائمًا أنّ نأخذ نحن الخطوة الأولى في طريق العلم، ثم نُهمل فيسبقنا الآخرون، ونظل في الظلام تلوح لي هذهِ الفكرة الحزينة وانا أرى رجلاً عظيمًا مثل دوزي يعامل كوندى بشيء من الظلم ناسيًا أنهُ لولا دراسات كوندى لما تمكن هو دون شك من الوصول إلى ما وصل إليه،...، وعمومًا فأنَّ كوندى – رغم أخطائه- قد فتح طريقًا سار عليه بنجاح كل من دوزي وغيره من المستشرقين)[٨٥].

أما المستشرق مالـودى مولينا مـدح كوندى في مقدمة كتـابه الموسوم رودريغو البطل، قائلاً: (أنَّ الانتقادات التي وجهها دوزي وغيره من المستشرقين إلى كوندى ليست كلها صائبة، وأنَّهُ لا يتفق مع من يصف كوندى بأنَّهُ مخترع أكاذيب ومزيف وجاهل بالتاريخ واللغة التي يقرأ عنها، أنَّ اخطاء كوندى ناجمة عن التسرع وعن عدم وجود معيار للاختيار عنده...، علينا أن نعترف بالخدمة العظيمة التي قدمها كوندى لتأريخ إسبانيا وبالقيمة العظيمة التي يتصف بها كتابه)[٨٦].

أما المستشرق روكا ألتحق هو الآخر بركب المادحين، ومدح كوندى في كتابه الموسوم حياة كوندى وأشاد بجهوده في معرفة أدب الالخميادو قائلاً: (أنَّ فضل معرفة هذا الأدب يعود إلى كوندى الذي عكف على دراسته قبل ساسى وبمعزل عنه)[٨٧]. علمًا أنَّهُ ليس من السهل أكتشاف هذا النوع الأدبي، ذلك لأنه مكتوب بلُغة ليس من السهل فهمها أو قرائتها لأنها خليط بين الإسبانية والعربية.

خَاتِمَةٌ

توصلت الدراسة الى النتائج الآتية:

يُعَدّ التراث العلمي الذي خلفه كوندى أول مجهود غربي من نوعه يعرض للغرب الوجود الإسلامي في إسبانيا، وفيه وقفَ الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية، وخواص النظم والسياسة الإسلامية.

أبدى كوندى حماسة كبيرة في الدفاع عن المسلمين في الأندلس، والإشادة بخلالهم ومواقفهم وحضاراتهم في إسبانيا الإسلامية، وأصدر أحكامًا قاسية على إسبانيا النصرانية.

يبدو أن المستشرق كوندى وقع في بعض الأخطاء التأريخية الأمر الذي عده البعض مثلبة عليه وأخذَ ينتقده بشكلٍ صريح وعلني ووصل إلى حد اتهامه بالكذب والتزوير وتشويه الحقائق... إلخ. إلا أنَّ هذا الأمر يُعتبر أمرًا طبيعيًا لأنَّ كوندى اعتمد في تأليف كتابه تاريخ حكم العرب في إسبانيا على مصادر عربية فالوقوع بالخطأ أمر وارد يُرافق الترجمة من لغة إلى أخرى.

ما يميز منهج كوندى في تدوين الأحداث والوقائع التأريخية أنه لم يُذكر المصادر التي أخذ منها معلوماته وكتاباته خاليه من الهوامش الأمر الذي قد يُضعف كتاباته ويجعلها عرضة للشك والطعن بها .

خلط كوندى في الكثير من الأسماء والتواريخ التي تخص الأحداث والوقائع الأمر الذي استغله بعض المناوئين له وأخذوا ينتقدونه بشده، لا سيما هؤلاء المستشرقين الذين يمثلون مدرسة الاستشراق المتعصب الإسباني.

اهتم كوندى بتدوين تاريخ الموريسيكيين وأرخَ لأدب الألخميادو الأمر الذي يشهد به الجميع، لا سيما المناوئين له.

تُعَدّ كتابات كوندى نقطة انطلاق أولى للاستشراق الإسباني، إذ فتحت كتاباته الطريق أمام الكثير من المستشرقين الإسبان ومهدت لهم البدء في دراساتٍ استشراقية إسبانية.

الإحالات المرجعية:

(١) ابن منظور، **أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري**، (ت٧١١هـ /١٣١١م). لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٢٢٤٤.

(٢) **الشاهد، محمد**، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين في الاجتهاد، بحث منشور في مجلة الاجتهاد، العدد٢٢، بيروت، ١٩٦٤، ص١٩٩.

(٣) **بارت، ر**، الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧، ص١١-١٢.

(٤) **جويدي، م.أ**، علم الشرق وتاريخ العمران، مطبعة الزهراء، ١٣٤٧هـ، ص١١-١٤.

(٥) **ديتريش، أ** ، الدراسات العربية في ألمانيا، درا النشر فرانز شتاينر، ألمانيا، ١٩٦٢، ص٧.

(٦) **رودنسون، م**، صورة العالم الإسلامي في أوربا، مؤسسة الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠، ص٧٤.

(٧) **مراد، يحيى، افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها**، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤، ص١٢.

(٨) **الإسكندراني وآخرون، المفصل في تاريخ الأدب العربي**، دار العصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢، ٢/٤٠٨.

(٩) **العناني، علي**، المستشرقون والآداب العربية، مطبعة الهلال، ١٩٣٢، ١/٤٠.

(١٠) **الشرباصي، أحمد**، التصوف عند المستشرقين، سلسلة الثقافة الإسلامية، مطبعة نور الأمل، ١٩٦٦، ص٦.

(١١) **مالك بن نبي**،أنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩، ص٥-٦.

(١٢) **الحسيني، أسحق موسى**، الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه، الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية، الدورة التدريبية لمبعوث الأزهر، مطبعة الأزهري، ١٩٦٧، ص٩.

(١٣) **الطويل، مريم قاسم**، غرناطة في عهد بني زيري (٤٠٣-٤٨٣هـ/٧٥٥-١٠٩٠م)، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، ص٢٤٩ ؛ **صفي الدين، محي الدين**، المستعربون ودورهم في تاريخ الأندلس ١٣٨-٤٨٣هـ/٧٥٥-١٠٩٠م، رسالة ماجستير نوقشت في كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ٢٠٠٨، ص١٩.

(١٤) **Arenal ,Mercedes García** , Los Mozarabes o el problema de las minorías en el Islam , Publicación mensual. Director: Emilio Galindo Aguilar , N° 6 , Islam Espanol , Julio , 1972. **, وات، مونتغمري**، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، ط٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٨، ١/٦٥ ؛ العبادي، **أحمد مختار**، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص١٤٥.

(١٥) **ابن حيان القرطبي، أبي مروان حيان بن خلف، (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)**، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥، ص٦٤ ؛ **مؤنس، حسين**، فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية

٧١١-٧٥٦م) العصر الحديث للنشر والتوزيع، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢،ص٤٦٣-٤٦٤.

(١٦) **ابن حيان**، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، نشر ب.شالميتا بالتعاون لضبطهِ وتحقيقه مع ف.كورنيطي و م. صبح وغيرهما، المعهد الأسباني العربي للثقافة العربية، كلية الآداب، مدريد، ١٩٧٩، ص٥١ ؛ **ابن الخطيب،لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب السلماني، (ت٧٧٦ه/١٣٧٤م)**

تاريخ اسبانيا النصرانية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٥-١٨ ؛ **إيبالزا، ميكيل دي**، المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس، بحث منشور ضمن كتاب الحضارة العربية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ٢٣٥/١.

(١٧) **ابن عذاري، أبي العباس أحمد بن محمد المراكشي ، (ت بعد سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م)**، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق ج.س كولان وإ ليفي بروفنسال، ط٢. بيروت، دار الثقافة. ١٩٨٠م، ٢١٧/٢-٢١٨.

(١٨) **الأزهري، محمد بن أحمد بن الازهري الهروي، (ت.٣٧٠ه/٩٨٠م)**، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مراجعة محمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للابناء والنشر، الدار المصرية للتأليف والنشر، مصر، د.ت، ٣٦٢/٢.

(١٩) أيوب بن القرية: أيوب بن يزيد بن قيس بن زرارة النمري الهلالي الأعرابي، كان بارعًا في البلاغة واللغة، ثار على الحجاج بن يوسف الثقفي مع ابن الاشعث، لأنَّ الحجاج بعثه إلى ابن الاشعث، فأمره ابن الاشعث أنَّ يقوم ويسب ابن الحجاج ويخلعه، أو يقتله، ففعل ذلك مكرهًا، ثم أُسر ايوب والقيَّ القبض عليه فضرب الحجاج عنقه وندم على قتله، وكان ذلك سنة ٨٤هـــ. **الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (ت٧٤٨ه/١٣٤٧م)**، سير أعلام النبلاء، ط٩،تحقيق شعيب الأرنوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ٣٤٦/٤.

(٢٠) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٤٥ ؛ **غوميز، مارغريتا لوبيز**، المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، بحث منشور ضمن كتاب الحضارة العربية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ٢٦٩/١.

(٢١) مؤنس، فجر الأندلس، ص٤٧٩-٤٨٠ ٢٤٢ ؛ **هشام، نمر بومدين**، التراث الفكري الأندلسي في نظر المستشرقين الإسبان، أطروحة دكتوراه نوقشت في جامعة وهران، كلية العلوم الانسانية والعلوم الإسلامية، ٢٠١٩، ص٤١.

(٢٢) Arenal , Los Mozarabes , p2؛ **القاضي، محمد عبد الرحمن**، ميغيل آسين بلاثيوس رائد الاستعراب الإسباني، سلسلة كتاب المجلة العربية، الرياض، ١٤٣١ه، ص١٦٧؛ هشام، التراث الفكري،ص٤٢.

(٢٣) الموريسيكيون (المورو): هو المصطلح الذي أطلقه الإسبان على العرب المسلمين الذين بقوا في مملكتي قشتالة وغرناطة اثر صدور مرسوم التنصير الشهير الذي أصدرته الملكة إيزابيلا عام ٩٠٨ ه / ١٥٠٢م، وكلمة الموريسيكيين مأخوذة من الكلمة القشتالية *Moriscos* والتي تعني النصارى الجدد أو النصارى الصغار وقد أطلق هذا المصطلح على هؤلاء المسلمين كتحقيراً لهم. ينظر. **بشتاوي، عادل سعيد**، الأندلسيون المواركة دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، (مطابع أنتر ناشيونال برس، القاهرة، ١٩٨٣)، ص٦.

(٢٤) **غويتسولو، خوان**. في الاستشراق الإسباني، تعريب كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت، ص١٥.

(٢٥) **عنان، محمد عبد الله**. دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح إلى بداية عهد الناصر العصر الأول، القسم الأول، ط٤، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧، ص٢٦٩.

(٢٦) طليطلة: مدينة بالأندلس بينها وبين البرج المعروف بوادي الحجارة خمسة وستون ميلاً، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، ومنها إلى بلنسية تسع مراحل أيضًا ومنها إلى المرية في البحر الشامي تسع مراحل أيضًا. ينظر **الحميري، محمد بن عبد المنعم، (ت حوالي ٧١٠ه/ ١٣١٠م)**، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٩٣.

(٢٧) **الحركة الكولونية**: حركة دينية أسسها وليم الاكيتاني في دير الرهبان المركزي بمدينة كلوني سنة ٩١٠م، هدفها إحياء الرهبنة الأصيلة الملتزمة بشكل صارم بأصول الرهبنة البندكتية، كما دعت إلى ضرورة تعلم الرهبان للكتاب المقدس وتطوير احتفالات المراسم الكنسية، وقد شجعت هذهِ الحركة الشباب على الانخراط في صفوف الحملات الصليبية ضد مسلمي الأندلس. يُنظر.**كانتور، نورمان ف**، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبدة قاسم، الناشر عين للدراسات والبحوث الإنسانية، د.ت،٣٥١/١-٣٥٢.

(٢٨) الحركة الديرية السترشيانية: حركة دينية أسسها راهب يدعى القديس روبرت ديرموليم سنة ٤٩٢ه/١٠٩٨م، وان أعضاءها كانوا متحمسين لشن الحروب الصليبية في الأندلس، إذ أنشأت هذه الحركة مركزا لها في إسبانيا سنة ٥٤٤ه/١١٤٩م، وأوكلت لهذهِ الحركة مهمة نشر تعاليمها داخل إسبانيا، وقد امتد نشاطها على البرتغال فأنشأت لها أديرة عديدة في منطقة الحدود بين المسلمين والنصارى. يُنظر: **عاشور، سعيد عبد الفتاح**، أوربا في العصور الوسطى التاريخ السياسي، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٥٣.

(٢٩) **هشام**، التراث الفكري، ص٧٧-٧٨.

(٣٠) **العلياوي، حسين جبار**، العلاقة بين الكنيسة الغربية والكنيسة الإسبانية، بحث منشور في مجلة آداب البصرة، العدد٥٣، ٢٠١٠، ص١٠٩.

(٣١) **الزهراني، صالح عيظة**. الأندلس والأدب الأندلسي في الدراسات الإسبانية الحديثة أثر الأيديولوجيا في توجيه القراءة، مركز البحوث، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، د.ت، ص١٧.

(٣٢) باسكوال دي غايانغوس: ميتشرق وعلامة إسباني يُعد أحد رواد الاستشراق الإسباني ولد سنة ١٨٠٩، يعُد المؤسس الحقيقي للاستشراق الإسباني الحديث وباعث الدراسات العربية والإسلامية في إسبانيا، أمضي طفولته في باريس ودرس على يد المستشرق دي ساسي مدة ثلاث سنوات أنتقل بعده الى لندن، توفي سنة ١٨٩٧م. **دبور، محمد علي**، ملامح من مدرسة الاستشراق الإسبانية الحديثة وجهودها في دراسة التراث التاريخي الأندلسي أمبروسيو أويثي ميراندا (١٨٨٠-١٩٧٣م) أنموذجًا، ص١٠.

(٣٣) **إدوارد سافيدرا**: مستشرق إسباني ولد سنة ١٨٢٩، تعلم العربية وأتقنها، انخرط في جامعة مدريد وتخرج منها سنة ١٨٤٨، وحصل على شهادات عدة في الهندسة المعمارية، وتولى مهام ومناصب

أكاديمية وإدارية، اهتم بتاريخ الموريسيكيين وركز اهتمامه بدراسة أدب الالخميادو، وقد تجاوزت مؤلفاته المائتين. ينظر. **بدوي، عبد الرحمن.**

موسوعة المستشرقين، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٣٢-٣٣٣.

(٣٤) للمزيد من المعلومات حول فرانسيسكو خافير سيمونيت. ينظر **الحسيني، قاسم عبد سعدون**، الأندلس في رؤى الاستشراق الإسباني المستشرق فرانسيسكو خافير سيمونيت أنموذجًا، مجلة آداب ذي قار، العدد ٣٤، القسم الثاني، ٢٠٢١، ص٣١١-٣٣٦.

(٣٥) **أميل لافويتي الكانترا**: مستشرق إسباني ولد سنة ١٨٢٥، صار عضوًا في جمعية التأريخ وابدع في دراسة تاريخ الأندلس وترك أرثًا تاريخيًا مهمًا تجسد في مؤلفاته الموسومة : الكتابات العربية في غرناطة، أخبار مجموعة، فهرسة المخطوطات العربية. ينظر. بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٠١-٥٠٢.

(٣٦) **فرانسيسكو غونثالث**: مستشرق إسباني ولد سنة ١٨٣٣، درس الفلسفة والآداب والقانون ثم أصبح أستاذًا للأدب الإسباني واللغة العربية في جامعة غرناطة، ثم عضوًا في أكاديمية التاريخ سنة ١٨٦٧م، وتقلد مناصب إدارية عدة، ومن أعماله الشهيرة توسيع فهرس الغزيري، وترجمة مخطوط قصة زياد بن عامر الكناني إلى الإسبانية، ناهيك عن مؤلفه الشهير حول المدجنين في إسبانيا المعنون الأحوال السياسية والاجتماعية للمدجنين بقشتالة، وترجمته لكتاب البيان المغرب لأبن عذاري المراكشي. ينظر. بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٩٦-٣٩٧.

(٣٧) **كونده، خوسيه أنطونيو**، تاريخ حكم العرب في إسبانيا، ترجمة نيكولا فاليه، مراجعة أحمد أيش، إصدارات دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣، ص١٠.

(٣٨) عنان، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين العصر الرابع**، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٨٤؛ **أحمامو، عبد العالي**، الاستعراب الإسباني في المغرب خوسيه ماريا لورشندي أنموذجًا، بحث منشور في مجلة دراسات استشراقية، العدد ١٦، ٢٠١٨، ص٢٠.

(٣٩) الزهراني، الأندلس والأدب الأندلسي، ص٢٨-٢٩.

(٤٠) مؤنس، فجر الأندلس، ص٤٦١؛ **عبد الحليم، رجب محمد**، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، الناشرون دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت، ص٦٨؛ هشام، التراث الفكري، ص٦٧.

(٤١) **ألفونسو السادس**: ويطلق عليه في المصادر العربية الفنش أو الفونش بن فردلند أو الأذفونش، وهو ملك قشتالة وليون وجليقية، وصل إلى الحكم بعد أن قتل أخيه دون سانشو وكان فارًا لاجئًا عند المأمون بن ذنون في طليطلة التي استولى عليها سنة ٤٧٨هـ، وأصبح يلقب بالإمبراطور ذي الملتين الإسلامية والمسيحية. يُنظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية، ص٩٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٣٣؛ **الحسيني، قاسم عبد سعدون**، حركة الاسترداد الاسبانية ثنائية الصراع بين المسلمين والنصارى في الاندلس، مركز الكتاب الاكاديمي، عمان، ٢٠٢٠، ٢/ ٧٥-٧٧.

(٤٢) الفونسو السابع (السليطين) : حفيد الفونسو السادس ابن الملكة أوروكا والكونت ريموند البرجوني، حكم قشتالة وليون. **اشباخ، يوسف**، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه ووضع حواشيه محمد عبد الله عنان، ط٢،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨، ص١٦٢.

(٤٣) الفونسو المحارب : ملك اسبانيا وزعيمها وهو الملك الفونسو بن شانجه بن ردمير الملقب بالفونسو المحارب أو الفونسو الأول بلغت مدة حكمه ثلاثين سنة، وكانت مدة حكمه من أهم الحقب التي مرت بها الممالك النصرانية في اسبانيا لا سيما مملكة أرغون *Aragon*، فقد قضى معظم حياتهِ يحارب المسلمين فأطلقَ عليه لقب المحارب، وجعل من مملكة أرغون *Aragon* مملكة واسعة الأرجاء لا سيما بعد توسعه واستردادهِ الكثير من الأراضي الإسلامية، وسيطرتِهِ على بعض الممالك النصرانية. ينظر : شباخ، تاريخ الأندلس، ص١٦٦؛ الحسيني، حركة الاسترداد، ٢/ ١٩-٢١.

(٤٤) هشام، التراث الفكري، ص٦٧-٦٨ ؛ **داوود، عصام كاطع**، موقف المسلمين من أهلالبلاد الاصليين في الاندلس، بحث منشور في مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، كلية التربية للبنات، العدد ١٦،حزيران، ٢٠١٤، ص١١٦.

(٤٥) هشام، التراث الفكري، ص٦٨.

(٤٦) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٩١.

(٤٧) Prats,B Dominguez. ,Jose Antonio Conde Espacio y .tiempo en La percepcion de la ntigueda, 2006.P890

(٤٨) كونده، تاريخ حكم العرب، ص٧.

(٤٩) ..Prats, Jose Antonio,P891

(٥٠) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٩١.

(٥١) Gorbea , Martin ALmargo https://dbe.rah.es/biografias مقال منشور في الشبكة الدولية للانترنيت

(٥٢) دبور، ملامح من مدرسة الاستشراق، ص٩.

(٥٣) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٩١.

(٥٤) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٤٩١.

(٥٥) **مانثاناريس، مانويلا**، المستعربون الأسبان في القرن التاسع عشر، ترجمة جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٥٩-٦٠.

(٥٦) مانثاناريس، المستعربون الاسبان، ص٦١.

(٥٧) كوندى، تاريخ حكم العرب في اسبانيا (مقدمة الكتاب)، ص١٢-١٣

(٥٨) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٥٦.

(٥٩) .Prats, Antonio conde , p884

(٦٠) كوندى، تاريخ حكم العرب في اسبانيا (مقدمة الكتاب)، ص٨.

(٦١) **عبد الرحمن الداخل**: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، اول من دخل الأندلس من بني أمية بعد أن هرب من جيوش بن العباس إلى المغرب وتردد بنواحي افريقية وأقام دهرًا في أخواله بني نفزة، ثم عبر إلى الأندلس في ربيع الأول سنة ١٣٨ه، وهزم أميرها يوسف الفهري، وأقام الإمارة الأموية في الأندلس، لقب بألقاب منها : الداخل، صقر قريش، أبو زيد وقيل أبو سليمان وكنيته الأشهر أبو المطرف، توفي سنة ١٧١ه. ينظر، **ابن الأبار، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي،(ت ٦٥٨ه/ ١٢٦٠م)**،الحلة السيراء، حققه وضبط حواشيه، حسين مؤنس،

ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ٣٥/١-٤٢ ؛ **المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني، (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م)**، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ٢٨٢/١.

(٦٢) **هشام المؤيد:** هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر كنيته أبو الوليد ولقبه المؤيد بالله أمه صبح البشكنشية، أم ولد، بويع له يوم الاثنين لأربع خلون من صفر سنة ٣٦٦ بعهد من أبيه، وهو ابن إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر؛ نقش خاتمه هشام بن الحكم بالله يعتصم، وخلع يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، سنة ٣٩٩؛ فكانت خلافته الأولى، إلى أن قامت الفتنة، ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام. وفي الخلافة الثانية سنتين وعشرة أشهر. ينظر ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٥٣/٢.

(٦٣) **جوهر الصقلي:** ابو الحسن جوهر بن عبد الله مولى مملوك رومي ولد في جزيرة صقلية أحدى الجزر الرومانية، نشأ في حجر الدولة الفاطمية، لم تذكر المصادر التأريخية سنة ولادته إلا أنَّهُ من المرجح أنه ولد سنة ٣٠٥هـ أو ٣٠٧هـ، قربه الخليفة المعز لدين الله لما توسمه فيه من الاخلاص للدين والمذهب والمواهب الفذة والثقافة الواسعة التي أخذ منها بأوفى نصيب. توفي سنة ٣٨١هـ. **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)**، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة، مطبعة بولاق، د.ت، ١٤/٢-١٥.

(٦٤) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٦٤-٦٥.

(٦٥) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٦٣.

(٦٦) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٦٣.

(٦٧) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٦٣

(٦٨) نقلاً عن ما نثاناريس، المستعربون الاسبان، ص٦٥.

(٦٩) نقلاً عن مانثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٦١.

(٧٠) مانثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٦٢.

(٧١) كوندى، تاريخ حكم العرب في اسبانيا (مقدمة الكتاب)، ص١٤.

(٧٢) كوندى، تاريخ حكم العرب في اسبانيا (مقدمة الكتاب)، ص١٣.

(٧٣) مانثاناريس، المستعربون الاسبان، ص٥٣.

(٧٤) مانثاناريس، المستعربون الاسبان، ص٧٢.

(٧٥) ما نثاناريس، المستعربون الاسبان، ص٧٢-٧٣.

(٧٦) **شيخة، جمعة.**القيم الخصال في شجرة الاستشراق الاسباني الوارفة بالضلال، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود للأبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤، ص٦٢، هشام، التراث الفكري، ص٩٦.

(٧٧) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٧٦.

(٧٨) ما نثاناريس، المستعربون الاسبان، ص٧٣.

(٧٩) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٧٤.

(٨٠) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٧٤.

(٨١) ما نثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٥٣ ؛ دبور، ملامح من مدرسة الاستشراق، ص١٠.

(٨٢) محاكم التفتيش الاسبانية : كان إنشاء هذه المحاكم كان جزءًا من الحركة الإصلاحية التي قادها البابا كريكوري التاسع، إذ أمر هذا البابا خادمته الملكة إيزابيلا بتأسيس محكمة تفتيش تأتمر بإمرته، ولكن تعصب هذه الملكة وكرهها للدين الإسلامي قد دفعها إلى رفض هذا الأمر،لأنها كانت تريد تأسيس محكمة تفتيش تأتمر بإمرتها لا بإمرة البابا، لذلك لم يجد البابا سيكستوس الرابع، مفرًا من الموافقة على طلب الملكة إيزابيلا بإقامة محكمة تفتيش قشتالية في شهر ذي الحجة عام ٨٨٣ ه الموافق تشرين الثاني / ١٤٧٨م، وبتشكيل هذه المحكمة على ارض قشتالة بدأت معاناة الموريسكيين على يد عمال هذه المحاكم. ينظر : رائف، وتذكروا من الأندلس، ص٢٥٤.

(٨٣) نقلاً عن مانثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٧٧.

(٨٤) نقلاً عن مانثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٧٧.

(٨٥) نقلاً عن مانثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٧٨.

(٨٦) نقلاً عن مانثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٧٨.

(٨٧) نقلاً عن مانثاناريس، المستعربون الأسبان، ص٨٢.

الأملاك المخـزنية ومسار التحديث في المغرب
١٨٨٠ – ١٩٧٣م



د. جواد محمد
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة ابن طفيل
القنيطرة - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه ضمن تكوين "التاريخ والمجتمع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط حتى الفترة المعاصرة" بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة (المغرب). نوقشت بتاريخ ٠٢ نونبر ٢٠٢٣.

الباحث:	جواد محمد
إشراف:	الأستاذ الدكتور محمد الغرايب
إشراف:	الأستاذ الدكتور الطيب بياض
التخصص:	التاريخ الحديث والمعاصر
لجنة المناقشة:	عبد العزيز بل الفايدة وآخرون.

ترنو الدراسة الموسومة بـ "الأملاك المخزنية ومسار التحديث في المغرب ١٨٨٠م - ١٩٧٣م"، إلى تتبع تطور الإطار التنظيمي والقانوني لهذه الأملاك في المغرب المعاصر، تساوقا والإشكالية التي تدور في فلكها محاور البحث؛ بالارتكاز على التراكم المعرفي والانضباط المنهجي الذين أتاحتهما التجربة المهمة لمدرسة الحوليات في تعاطيها مع التاريخ الاقتصادي ومباحث العقار والتملك. مثلما تغيّت دراستنا الكشف عن آليات اشتغال البنية العقارية في المغرب على امتداد مراحل تاريخية تميزت باختلاف ظرفياتها وتباين مرامي السُلط الضابطة لها (قبل وخلال وبعد الحماية)، فيما يمكن أن نصطلح عليه "محاولات التحديث"، -الذي شكل التوظيف الكولونيالي إحدى حلقاته، ثم استرجاع أراضي المعمرين التي كانت في الغالب موضوعًا للخوصصة والشراكة- إلى جانب ذلك ركّزت فصول الأطروحة على ضبط طبيعة الحدود والتمايز بين الأملاك المخزنية وباقي الأملاك، وعلاقتها بثنائية "بلاد المخزن" و"بلاد السيبة".

معرِّف الوثيقة الرقمي: doi 10.21608/kan.2025.415538

كلمات مفتاحية:
الأملاك المخزنية؛ مسار التحديث؛ الملك الخاص للدولة؛ الملك العام للدولة؛ المصادرة؛ نزع الملكية؛ الأنظمة العقارية؛ استرجاع الأراضي.

مُقدِّمة

ترنو الدراسة الموسومة بالأملاك المخزنية ومسار التحديث في المغرب ١٨٨٠-١٩٧٣م، إلى تتبع تطور الإطار التنظيمي والقانوني لهذه الأملاك في المغرب المعاصر، تساوقا والإشكالية التي تدور في فلكها محاور البحث؛ بالارتكاز على التراكم المعرفي والانضباط المنهجي الذين أتاحتهما التجربة المهمة لمدرسة الحوليات في تعاطيها مع التاريخ الاقتصادي ومباحث العقار والتملك. في سياق محاولة تأطير موضوع الدراسة مفاهيميًا وتاريخيًا، وجب التأكيد على أن مفهوم "الأملاك المخزنية" هو الأكثر تركيزًا وتدليلاً على النظام العقاري الذي نودّ الحديث عنه بالتفصيل، وأنه ليس وليد فترة الحماية، بل ضاربا بعمق جذوره في تاريخ المغرب.

عُرِفت الأملاك المخزنية في المغرب بهذا الوسم، ارتباطا بلفظ المخزن الشريف الذي كان يطلق على الدولة بجميع مكوناتها السياسية والإدارية قبل الحماية، وحيث كان المخزن يتولى الإشراف على هذا النوع من الأملاك ويسيره من خلال أمناء الأملاك. في نفس السياق، نُعت مفهوم الأملاك المخزنية بعدة

تسميات اختلفت حسب الحقب التاريخية، إذ تـم التخلي عن اسم "الـمخزن" في عهد الحماية لصالح مفهوم الدولة، ليصبح الأملاك الخاصة للدولة "الدومين الخاص"، وبذلك فإنه أصبح يعبر عن مشروع جديد لازم التغييرات (الإصلاحات) التي جاءت بها فرنسا في المجتمع الـمغربي، ويطبعها بالخصائص التي تـميز الدولة الحديثة.

قبل فرض الحماية الفرنسية، لـم يكن من الممكن الحديث عن ملك خاص للدولة بالـمفهوم الأوروبي، لأن ذلك سيكون نوعا من المفارقة التاريخية (Anachronisme). ولهذا، فإنه من الصعب، وجود تلك الأملاك بالمفهوم الترابي قبيل هذه الفترة. وإن كان يطابق الواقع في فرنسا، فإن الأمر ليس كذلك في المغرب، لأن طبيعة الأملاك فيه متنوعة، تشمل أملاك المخزن والوقف وأراضي الجماعات السلالية وأراضي الكَيش، نظرا للرصيد التاريخي والتراث العقاري الذي تستند إليه.

أما الإطار الزماني لحيز الدراسة فقد ضبط من ١٨٨٠م إلى حدود ١٩٧٣م، استناداً إلى مقتضيات منهجية، مع أنني لم ألتزم حرفيا بهذا الإطار؛ لأن الـموضوع معقد ومتشعب وله امتدادات، قبلا وبعداً، فلا يفهم ولا يفسر إلا عبر تاريخ الأمد الطويل بتعبير فرناند بروديل، لأن البنية في الواقع التاريخي متواصلة ومتداخلة. وهذا ما أكد عليه مارك بلوك، مؤسِّس مدرسة الحوليات، كون أن فهم الـماضي لا يتأتىَّ إلا بإدراك القضايا التي يطرحها الزمن الراهن، في إطار جدلية زمنية منتجة.

اعتبرت مسألة الأرض ركيزة أساسية في توطيد دعائـم الاستيطان في المغرب، لكن اصطدم بالبنى العقارية التي كانت سائدة آنذاك بتعددها وتعقدها، بالإضافة إلى مسألة امتلاك الأراضي في بلاد الإسلام. لهذا حظيت هذه المسألة بالاهتمام خاصة الـمادة ١١ من معاهدة مدريد في ٠٣ يوليوز ١٨٨٠م، التي سمحت للأجانب من الأوروبيين وغيرهم تـملك وحيازة الملكيات العقارية حضرية كانت أو قروية، شريطة موافقة المخزن التي كانت ممنوعة إلى حدود القرن التاسع عشر.

أما الحد الثاني فيرمز إلى عمليات استرجاع أراضي الـمعمرين بعد الاستقلال، خاصة الظهير الشريف رقم: ١,٧٣,٢١٣ الـمؤرخ في ٠٢ مارس ١٩٧٣م الذي تنقل بموجبه إلى الدولة ملكية العقارات الفلاحية أو القابلة للفلاحة التي يملكها أشخاص أجانب ذاتيون أو معنويون. وكما هو معلوم فالاسترجاع تدبير ذو طبيعة يدخل في إطار السياسة العامة المتبعة من طرف دول حديثة العهد بالاستقلال؛ والتي ترمي إلى التحرر الاقتصادي ليتم للاستقلال السياسي معناه الكامل. وهكذا أشَّرت سنة ١٩٧٣م على محطة مهمة في مسار إصلاح الاقتصاد المغربي من الداخل، وبنفس يحمل إشارات رغبة الذات في استعادة المبادرة مجدداً، فقد استعادت الدولة في السنة نفسها ما تبقى من أراضي المعمرين وأعلنت مخططاً للمغربة.

على الرغم من ضرورات الانضباط الكرونولوجي التي تفرضها مسألة تحديد وضعية العقارات في فترات زمنية بعينها، سواء تعلق الأمر بفترة ما قبل الحماية، أو فترة ما قبل صدور الظهير الـمتعلق بالتحفيظ العقاري، إلا أن الواقع العملي والتسلسل المستمر لهذا النظام، فرض على مسار البحث مرونة أكبر بخصوص الفترة الزمنية. كما حرصت الدراسة على تفهم الـمقاربة القانونية في معالجة الإشكالية الـمحورية، وذلك بالاستحضار الدائم للمقاربة التاريخية خاصةً وأن الـموضوع ذو طبيعة قانونية. صحيح أن فقيه القانون أو الباحث في حقل القانون يركز على تحليل بنية النص القانوني وعلى مواده وفصوله، على خلاف الـمؤرخ أو الباحث في حقل التاريخ يولي عناية كبرى لسياق إنتاج النص القانوني فعبره يتحول النص القانوني إلى حدث تاريخي يستوجب ذكر سياقه والظروف التي أنتجته وربطه بالعوامل الأخرى التي أسهمت في إصداره وفيما بعد نتائجه. وعلى هذا فالتاريخ يصبح مفسرا للقانون حينما يتحول القانون إلى عامل مفسر للتاريخ.

انصبت الدراسة مكانيًا على الـمغرب، خصوصًا المنطقة السلطانية ذات النفوذ الفرنسي، ولـم تقتصر دراستنا على جزء معين من منطقة، بل أدرجنا ما أمكن من نماذج لمناطق المغرب، واستقينا بعض الأمثلة من منطقة الغرب ومدينة القنيطرة، ليس بحكم انتمائي الجغرافي لها، بقدر ما شكلت المدينة منذ سنة ١٩١٣م، مختبرا لأهم تجارب الاستعمار والاستيطان، حيث مثلت نـموذج الحواضر المغربية العصرية الأولى التي تم التخطيط لها عبر مجموعة من الدراسات والتصاميم جعلت منها "المدينة الأوربية بامتياز"، إلى جانب تأسيس أول لجنة بلدية، وكذا تأسيس ميناء بور ليوطي (ميناء القنيطرة حاليا)، بالإضافة إلى مد خطوط السكك الحديدية وبناء محطة القنيطرة، كما اعتبرت بلاد الشراردة "مختبراً للاستعمار الرسمي" وبالتالي ميدانا لتجريب الصيغ الأولى للاستعمار، قبل تعميمها على

المناطق والـمدن الـمغربية الأخرى، وذلك من أجل مساعدتنا على معالجة الإشكالية الـمحورية.

انطلاقاً من هذا الفرش التاريخي، ترنو هذه الدراسة البحث في التطور التاريخي لـلملك الـمخزني على امتداد ثلاث منعطفات رئيسة: (ما قبل كولونيالي / كولونيالي / ما بعد كولونيالي). ومن شأن هذه المساءلة التاريخية وفق التقطيع المنهجي المعتمد أن تسمح ببناء منظور تعاقبي وتسلسلي للمراحل الثلاث، وخصوصا إظهار بعض الاستمراريات، حيث لـم يكن يُرى من قبل إلا القطائع. وهو التصور الذي ساد بسبب تقطيع التاريخ شرائح سميت عصوراً وحقبًا ومراحل، وهذا التقطيع جزأ التاريخ ورسم حدوداً زمنية أصبحت بمثابة الحواجز بين الأزمنة.

دوافع اختيار الموضوع

إضافة إلى المبررات الإشكالية التي يُحفّز موضوع البحث على خوضها، فقد نبعت الرغبة في طرق موضوع الأملاك الـمخزنية في فترات حساسة وظروف حاسمة في تاريخ الـمغرب، إلى تجربة عايشتها شخصيا بالعديد من الإدارات المغربية، ولقد شكلت هذه التجارب الميدانية حافزاً لاقتحام وسبر أغوار هذا الموضوع. أما الـمبرر الثاني فيرجع إلى الـمشروع الـمهني الذي أنجزته في إطار تكوين سلك الإجازة الـمهنية الـموسومة بالسياحة والتراث، والمعنون بـ: "تصنيف وتثمين الـموروث الـمعماري الكولونيالي لمدينة القنيطرة"، الذي يُعَدّ رصيداً حضاريًا وسجلاً تاريخيًا لفترة سيطرة فرنسا على المغرب واستقرار الـمعمرين بالقنيطرة. أما الـمبرر الثالث فيتمثل في احتكاكي الـمباشر بالدراسات الكولونيالية من خلال التكوين في سلك ماستر التاريخ الـمغاربي المقارن، والذي ختمته ببحث في موضوع "سياسة ألمانيا في دول الـمغارب"، الأمر الذي مكنني من الوقوف على حجم مطامع الأوروبيين بالمغرب، وهم الذين خبروا بنياته الاقتصادية والمجتمعية والثقافية عبر دراسات استكشافية كولونيالية مهدت لاحتلاله.

أولاً: إشكالية الدراسة

لا شك أن الصدمة الاستعمارية قد أحدثت هزّة عميقة زعزعت البنية العقارية الـمتعددة والـمعقدة، وضمنها الأملاك الـمخزنية بالـمغرب إبان فترة الحماية الفرنسية، خاصة إذا سلـمنا بأن تـملك الحماية للأملاك الـمخزنية ليس غاية في حد ذاته، بل مجرد وسيلة من وسائل التحكم في الـمجال وفي الآليات لأجل تسخيرها في اتجاه يخدم تصورها لـلمصالح الكولونيالية. وبناءً على الـمعطيات الـمساقة أعلاه فإن دراستنا تندرج ضمن الإشكالية الـمركزية التالية:

ما الثابت وما المتحول في تكوين وتدبير الأملاك المخزنية قبل الحماية الفرنسية وخلالها وبعد الحصول على الاستقلال بالـمغرب؟

انطلاقًا من هذا الواقع، كان مسار الدراسة موجها بعديد من التساؤلات الفرعية والرؤى الإشكالية التي تناسلت من الإشكال الرئيس لـلموضوع، على غرار:

- ما هي معايير التمييز بين أملاك المخزن وأملاك السلطان وباقي الأملاك الأخرى؟
- كيف وُزعت الأملاك المخزنية بين ثنائية "بلاد الـمخزن" و"بلاد السيبة"؟
- ما وضعية الأملاك المخزنية في ظل نظام الحماية الفرنسية؟
- إلى أي مدى وُفّق الـمشرّع المغربي بعد الاستقلال في استرجاع الأملاك الـمخزنية وتدبيرها؟

ثانيًا: رصيد الدراسات السابقة والـمصادر الـموظفة في الدراسة

تناولت بعض الدراسات جوانب من موضوع بحثنا من زوايا معينة، وقد تضمنت القائـمة البيبليوغرافية في آخر هذه الأطروحة العديد من الدراسات التي تعد أبحاثا مرجعية لا غنى عنها لكل دارس لـلموضوع، وهي تتوزع بين حقول معرفية وعلـمية متنوعة منها: السياسية والاقتصادية والسوسيولوجية والقانونية، كما لن نذكر كل الـمصادر التي اعتمدناها، بل سنركز على أكثرها إفادة. ويـمكن تصنيفها إلى قسمين:

١. الدراسات الأجنبية

كان للدراسات الأجنبية، خاصة الفرنسية منها، قصب السبق في التطرق لـموضوع الأملاك المخزنية زمن الحماية الفرنسية، ومن الأعمال المهمة التي انتفعنا منها تلك التقارير التي أنجزها الضباط والمراقبون العسكريون والمدنيون، خاصة تلك المنشورة بـمركز الدراسات العليا حول إفريقيا وآسيا الحديثتين (C.H.E.A.M.)، وبالـمثل، توسلنا بأعداد من "جريدة السعادة" وكذا بعض أعداد الدوريات والصحف، المتخصصة وغير المتخصصة، التي أتاحت إمكانية تتبع التحديث الذي لازم الأملاك المخزنية، وفي طليعة هذه المنشورات "النشرة الاقتصادية والاجتماعية" (B.É.S.M.)، و"نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية" (B.C.A.F.)، و"الدليل الاقتصادي والـمالي" (A.É.F.)، كل هذه الدراسات أسهمت في إغناء هذا العمل؛ لوفرة

مادتها وتنوع معطياتها التي غطت بعض جوانب البحث.

والمتتبع لأغلب الدراسات التي تخصصت في موضوع الأملاك المخزنية؛ يستجلي بوضوح أن أغلب مؤلفيها كانوا يشغلون مناصب عليا داخل إدارات الحماية الفرنسية، خاصة إدارة المالية وضمنها مصلحة الأملاك المخزنية، وقيمة هذه الأعمال تكمن في المزاوجة بين التأطير التشريعي والاشتغال الميداني، ويتعلق الأمر بـ:

دراسة (M. FAVEREAU)[١]، ركزت عن البحث عن الأصول التاريخية للأملاك المخزنية، بالإضافة إلى تقديم وصف للهيكلة الإدارية لمصلحة الأملاك المخزنية وتنظيمها الإداري مركزيا وجهويا، وتناول أيضا طرق تكوين الملك المخزني وتدبيره.

دراسة (J. GRIGUER)[٢]، التي تعد الحجر الأساس لكل راغب في دراسة الأملاك المخزنية، لأنها أعطت وصفا دقيقا لكل المساطر التي تهم طرق تكوين وتدبير الملك المخزني، سواء تعلق الأمر بما هو إداري، تقني أو قانوني.

بالإضافة إلى مجموعة من المقالات[٣] صدرت زمن الحماية الفرنسية تبرز طرق بيع الملك المخزني عن طريق المزايدة (المزاد العلني / السمسرة العمومية) وفق مساطر قانونية. وكذا أثمان بيع الأراضي المخزنية، وتطور مبيعاتها زمن الحماية الفرنسية.

وبالفعل، قام أصحاب هذه الدراسات الأجنبية بمجهود علمي في دراسة الأملاك المخزنية، وجاءت دراساتهم بإضافة نوعية في هذا المجال، فهي تزخر بمعطيات مهمة، وخاصة الإحصائية منها، وتتوفر على تفاصيل دقيقة تخص الأملاك المخزنية: أنواعها، وتوزيعها وأثمانها، وهي معلومات نادرة الوجود في غيرها من الدراسات. غير أنها كانت موجهة منذ البداية نحو هدف معين، بغية تبرير الإصلاح العقاري الذي أقدمت عليه فرنسا. وهو ما يتنافى مع مفهوم التاريخ، النظري على الأقل، ويتنافى مع البحث العلمي.

٢. الدراسات المغربية

لم يتم التعرض لها من لدن باحثين مغاربة -حسب علمنا- ضمن دراسة أكاديمية مستقلة، واقتصر الحال على بعض الإشارات المتفرقة في المراجع التي تهتم بتاريخ المغرب، والتي لم تتجاوز الاقتضاب إلى الإسهاب.

اطلعنا على العديد من الكنانيش المتعلقة بأملاك المخزن الموجودة بالخزانة الحسنية، وفي مقدمتها كناش رقم ٨٢ الذي يعد أول تقييد يحصي أملاك المخزن عام ١٢٩٢هـ الموافق لسنة ١٨٧٥م[٤]، الذي كان بأمر من المولى الحسن الأول، وهذا الإحصاء أو التقييد قام بجرد جميع الأملاك المخزنية بالإيالة الشريفة، ووضع ملفات وقوائم بها حسب كل منطقة، وبذلك كانت هذه أول عملية لتحديد وضبط وضعية أملاك المخزن في تاريخ المغرب. كما اعتمدنا على رصيد متنوع من الوثائق المخزنية المنشورة ضمن دورية **الوثائق** التي تصدرها مديرية الوثائق الملكية. والتي مكنتنا من الإجابة عن الإشكاليات التي خصت الادعاء الأجنبي حول الخلط بين أملاك المخزن وأملاك السلطان.

تستند الدراسة إضافة للمظان والدراسات الأجنبية والكنانيش والوثائق المخزنية إلى كتب، ومن أمثلة هذه الكتب التي تطرقت الموضوع في فترات قبل الحماية سأكتفي بعرض بعضها كالآتي: كتاب **الأمناء بالمغرب**[٥]، لنعيمة هراج التوزاني، والذي تناولت فيه مؤسسة الأمناء قبل الحماية الفرنسية، ويعد مرجعا مهما، لاعتماده على وثائق مخزنية، وتركيزه على الجهاز المالي. في حين، كشف عبد الرحمان المودن، من خلال دراسته **لقبائل إيناون**[٦]، عن محددات العلاقة بين التجمعات البشرية في البوادي المغربية قبل الاستعمار، وبين المؤسسات المخزنية، وقدم خارطة طريق علمية لفهم الثابت والمتغير في البوادي المغربية. أما الطيب بياض، من خلال دراسته **ضريبة الترتيب**[٧] في مغرب ما قبل الحماية، فيسلط الضوء على مالية النظام المغربي المخزني. أما فيما يخص المقالات التي ركزت على أملاك المخزن قبل الحماية فنجد مقالة نجيدي[٨] التي أشار فيها إلى طرق تكوين أملاك المخزن وتدبيرها بشكل عام، في حين نجد مقالات اقتصرت على دراسة أملاك المخزن بشكل خاص داخل جهات من المغرب كمدينة الرباط[٩] ومدينة أكادير[١٠].

كما استعنا بالجريدة الرسمية وكذا وثائق مؤسسة أرشيف المغرب، بالإضافة إلى البحوث التي نوقشت في بعض الجامعات المغربية، والمعاهد العليا كمعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة، والمعهد الوطني للتهيئة والتعمير، والمدرسة الوطنية للإدارة بالرباط.

علاوة على ما سبق، استفاد عملنا مما نشر من مستجدات حول مختلف جوانب الموضوع، ويتعلق الأمر بالتقارير الرسمية التي تصدرها سنويا مجموعة من مؤسسات الدولة، ومن بينها: وزارة الاقتصاد والمالية،

ومديرية أملاك الدولة، والمجلس الأعلى للحسابات، التي رصدت بعض الاختلالات للوضعية الراهنة لتدبير العقار بصفة عامة، وأملاك الدولة بصفة خاصة، واقترحت بعض التوصيات التي ينبغي اتباعها من أجل تطوير دور أملاك الدولة في تنمية البلاد. واستأثر موضوع الأملاك المخزنية في المغرب خلال السنوات الأخيرة باهتمام بعض الباحثين المغاربة[11] من تخصصات مختلفة، فأنجزت في هذا الإطار دراسات ركزت على إشكالية مفهوم ملك الدولة الخاص وتمييزه ووظائفه في ظل التطور التشريعي والعمل القضائي.

في الأخير، نسجل أنه على الرغم من قلة الدراسات المتخصصة في هذا الموضوع، فإن المصادر التي يمكن الاستفادة منها في كتابة تاريخ الأملاك المخزنية عديدة ومتنوعة بالنسبة لمختلف المراحل التاريخية، هذه الدراسات أتاحت إمكانية مقارنة تحول الأملاك المخزنية قبل الحماية وخلالها، وبعد الحصول على الاستقلال.

ثالثًا: أقسام الأطروحة

انطلاقًا من الرصيد البحثي، وتساوقا والإشكالية التي طرحها موضوع البحث، بوبنا الموضوع من خلال تقسيمه إلى مقدمة وقسمين وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: اشتملت فرشا تاريخيا لموضوع الدراسة، مع بيان أسباب اختياره وأهميته وأهدافه وضبط إشكالياته، وجرد الدراسات السابقة، فضلاً عن إعطاء لمحة موجزة عن طبيعة المادة المصدرية التي اعتمدتها الدراسة.

القسم الأول: العقار في المغرب بين الواقع والإصلاح

يروم هذا القسم وضع الدارس في صورة التطور التاريخي للملك المخزني خلال الفترة ما قبل الكولونيالية، لذلك جاء مقسما إلى ثلاث فصول رئيسية: إذ يعتبر **الفصل الأول** مدخلاً نظريًا لدراسة مقارنة لمختلف الأنظمة العقارية التي عرفها المغرب، من خلال التفاعل مع إشكاليتي الأرض ومعايير تمييز الأملاك المخزنية عن باقي الأنظمة العقارية الأخر. أما بخصوص **الفصل الثاني** فهو بمثابة إحاطة تاريخية تهتم بدراسة البدايات الأولى لاهتمام الأوروبيين بمسألة الأرض. في حين خصص **الفصل الثالث** لرصد وضعية أملاك المخزن ما قبل الاستعمار، استنادا إلى ثلاثة مداخل توطينها بين "قبائل الطاعة" و"قبائل السيبة"، وتمييزها عن أملاك السلطان، ناهيك عن آليات تكوينها وتدبيرها.

القسم الثاني: انتقال من الأملاك المخزنية إلى أملاك الدولة الخاصة

يشكل هذا القسم عصب الأطروحة، باعتباره دارسة متخصصة للملك المخزني الذي تطور في عهد الحماية الفرنسية، والذي أصبح يطلق عليه الملك الدولة الخاص "الدومين الخاص"، وقد قسم هذا القسم إلى ثلاثة فصول رئيسة؛ حيث كُرّس **الفصل الأول** لدراسة أملاك الدولة في ظل الحماية الفرنسية، وتم التطرق إلى نوعين من أملاك الدولة العامة والخاصة. أما **الفصل الثاني** فتطرق لآليات تكوين وتدبير الملك الدولة الخاص في عهد الحماية. وأخيرا **الفصل الثالث** الذي تناول كيفية تدبير المغرب المستقل للتركة الاستعمارية وضمنها الأملاك المخزنية.

خاتمة

تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

الاستنتاجات

أسفر تتبعنا لمسار التحديث الذي لازم الأملاك المخزنية على فترات تاريخية، استنتاجات جوهرية، مكنتنا من ضبط طفرات تاريخية محددة في التحول الذي لامس الأملاك المخزنية.

حيث اعترضت مسألة تدبير الأملاك المخزنية بالمغرب قبيل الحماية عدة صعوبات، الشيء الذي يؤدي إلى ضياع كثير من هذه الأراضي، لفائدة بعض الخواص من ذوي النفوذ والسلطة، إما عن طريق الانتفاع الذي يتحول إلى ملكية مع مرور الزمن، وإما عن طريق الاستيلاء. ويمكن التمييز بين الأملاك الموجودة بالبادية والأملاك الموجودة بالمدينة، فمثلا حين الحديث عن الأملاك في البادية يتضح عدم وجدود إحصاء دقيق بالإضافة أن التقاييد الخاصة بها في كل منطقة لم تكن متوفرة لدى المسؤولين المحليين، وفي بعض الأحيان يصعب العثور عليها حتى على المستوى المركزي. أما تدبير الأملاك المخزنية بالمدن، فقد عمل بعض الموظفون بتفويت مجموعة من الأملاك المخزنية لصالحهم بإذن السلطان أو بدونه، وهناك من ترامى على أملاك المخزن، هذا ما حدا بالمولى الحسن الأول إلى سياسة زجرية ضد المخالفين وضد المترامين على أملاك المخزن، كما أمر بإجراء إحصاء لأملاك المخزن (سنة ١٨٧٥م) في سجلات وقوائم بحسب المناطق، بعدما تم التمييز بين ما هو من قبيل الأملاك المخزنية، وبين ما هو من ملك السلطان، وكانت هذه

العملية ذات أهمية كبيرة لمعرفة وضعية هذه الأملاك، لأول مرة في تاريخ المغرب.

وأمام تزايد المشاكل الداخلية والخارجية، لم يعد المخزن يتابع تطور موضوع أملاكه بالمغرب، وبقيت هذه الوضعية معلقة وبدون حل نهائي نظرًا لعدم استقرار الوضع السياسي الداخلي بالمغرب، بسبب أحداث العقد الأول من القرن العشرين. ولن يفتح هذا الملف من جديد إلا على يد سلطات الحماية.

استند الباحثون في تقديمهم لثنائية "بلاد المخزن" و"بلاد السيبة" إلى عدة معايير، أفرزت نوعا من التعارض والتضارب، الأمر الذي انعكس على الأطاريح التي قدمت حولها، غير أن ما ينبغي التنبيه إليه أن تلك المعايير والضوابط تبقى غير دقيقة في تحديد الفوارق ورسم الحدود بين "قبائل الطاعة" و"قبائل السيبة"، خصوصًا خلال ضعف السلطة المركزية تندلع الفتن في القبائل لهذا نعتتها سلطات الحماية بـ "قبائل السيبة" غير أنها في تاريخ المغرب تبقى ظرفية. ولهذا فإن الأملاك المخزنية كانت توجد بشكل كبير "بقبائل الطاعة"، وتقل وتزداد في "قبائل السيبة" نظرًا لطابعها ووضعها الخاص.

على المستوى التنظيمي، حدث خلط بين أملاك المخزن وباقي الأملاك الأخرى قبيل فرض نظام الحماية، خاصة مع أملاك المخزن وأملاك السلطان كما ذهبت إليه السوسيولوجيا الاستعمارية، غير أن بحثنا خلص إلى أن أملاك المخزن كانت تدبر وتسير بشكل منفصل ومنعزل عن أملاك السلاطين، كما يدل على ذلك وجود كنانيش خاصة بها في الخزانة الحسنية بالرباط.

غدت مسألة رهن الأملاك المخزنية وسيلة وظفها المخزن للحصول على القروض منذ ١٩٠٢م، بعد المتاعب المالية والنقدية التي تفاقمت على عهد السلطان مولاي عبد العزيز، بينما استخدمتها سلطات الحماية الفرنسية كآلية سياسية مكنتها من الاستحواذ والاستيلاء على تلك الأملاك قبل فرض الحماية. ومع الاختلاف في السياق والحيثيات، انتقلت مسألة رهن الأملاك المخزنية قبل الحماية إلى مسألة رهن البلاد في الزمن الراهن لدى المؤسسات المالية الدولية من أجل الحصول على القروض، حيث تم تدشين فترة المغرب المستقل بطلب القروض. وبالفعل، فإن مسلسل القروض الخارجية -وهو مسلسل قديم- ما انفك يتسع ويتضخم. ففي بداية القرن العشرين أدى إلى وضع الاقتصاد والمالية المغربيين تحت وصاية بنك باريس والدول المنخفضة، واليوم وبطريقة خادعة يبسط صندوق النقد الدولي سلطة مراقبته ومتابعته على كل الدول الواقعة تحت تأثيره، باستعمال ما يمكن تسميته بقاعدة الشرطية. لقد تبين لنا أن أية مساعدة مالية يقدمها الصندوق مرهونة بتبني هذه الدول للإجراءات المقدمة على أساس أنها إجراءات للتقويم.

أولت سلطات الحماية الفرنسية أهمية قصوى للحد من الترامي على أملاك المخزن، لأن هاجسها هو الأرض واتخذت ذريعة ضياع أملاك المخزن واعتبرتها أملاك الدولة الخاصة ذات حق غير قابل للتصرف، والتي وجب ضبطها لأنها القاعدة الجديدة التي تضمن الاستعمار بشقيه الرسمي والخاص. لهذا الغرض، استعملت الإدارة الاستعمارية بحذاقة آليتين: نزع الملكية، والمصادرة اللتين مونتا دومين الدولة بملكيات جديدة. لقد حدث أن المغاربة، من خلال الإهمال أو الجهل بالإجراءات القانونية، لم يقدموا بالتعرض داخل الآجال والمواعيد النهائية التنظيمية لعمليات ترسيم حدود الأملاك على الرغم من امتلاكهم سندات الملكية الحقيقية والمقنعة تمامًا. وهذا ما أدى إلى ضياع حقوقهم باعتبارهم مالكين حقيقين.

تفرض علينا الأمانة التاريخية أن نحافظ على كل الوضوح بخصوص هذا الماضي ومستقبله، وسواء اتفق القارئ مع الأطروحة الكولونيالية أم اختلف معها، فما يظل ماثلاً أمامنا هو أن سلطات الحماية الفرنسية عملت على وضع الدعامات المطلوبة لإخراج بلد "قابع في عتاقته" إلى العالم الحديث؛ وبعض هذه الدعامات اعتنت بالإطار القانوني للأملاك المخزنية. وحرصت على تحديد نوعية وطبيعة أملاك الدولة العامة والخاصة بدقة. ما أقدمت عليه سلطات الحماية من تحديث يُعَدّ امتدادًا وتصحيحًا لمسار التحديث، الذي دشنه السلطان المولى الحسن الأول، وليس تجاوزا وقطيعة كما ادعى بعض منظري الحماية.

بعد حصول المغرب على استقلاله، ورث تركة عقارية حاول تدبيرها، حيث سارع إلى سن إجراءات كان أهمها المصادرات التي شملت أملاك القياد، بالإضافة إلى إصدار ظهائر استرجاع أراضي المعمرين وتوزيعها على المغاربة، وقد أثار ذلك التوزيع ردود فعل لضآلة حجم الأراضي الموزعة مقارنة مع الأراضي المسترجعة. وزامن هذا انطلاق المشاريع الإصلاحية، أبرزها الإصلاح الزراعي، وتوالت طيلة مرحلة الستينيات والسبعينيات الأفكار والمبادرات الإصلاحية التي همت

مختلف الميادين، واختلفت التقييمات بشأن نتائج هذه الإصلاحات والمستفيدين الفعلين منها.

كما عمدت الدولة في إطار مبدأ السيادة وتكريسا للسياسة الحكومية في المجال الفلاحي، إلى وضع حد لتملك الأجانب للأراضي الفلاحية، وذلك عن طريق استرجاع الأراضي التي تم توزيعها على المعمرين وكذا الأراضي التي تملكها الأجانب بطرق مختلفة. وتم استرجاع أراضي المعمرين على مراحل طيلة سبعة عشر سنة تميزت بـ"الارتجال وبالمرحلية البطيئة". وقد تمت عملية الاسترجاع عبر مرحلتين وفي إطار ظهيرين شريفين أساسيين (ظهير ٢٦ شتنبر ١٩٦٣م، وظهير ٠٢ مارس ١٩٧٣م).

نود العودة في الأخير إلى التأكيد أن الموضوع الذي تطرقنا له راهني بامتياز، لأنه سعى إلى تتبع تطور الإطار التنظيمي والقانوني للأملاك المخزنية في المغرب المعاصر على امتداد مراحل تاريخية تميزت باختلاف ظرفياتها وتباين مرامي السُّلط الضابطة لها (قبل وخلال وبعد الحماية)، فيما يمكن أن نصطلح عليه "محاولات التحديث"، الذي شكل التوظيف الكولونيالي إحدى حلقاته، ثم استرجاع أراضي المعمرين التي كانت في الغالب موضوعا للخوصصة والشراكة بين القطاعين العام والخاص. ولازال الموضوع يطرح بعض الإشكالات التي ماتزال عالقة كغياب التعرف الدقيق على العقارات التابعة لأملاك الدولة وعدم ضبط محفظة عقاراتها وكذا العقار القابل للتعبئة حاجزًا كبيرًا يحول دون القيام بتثمين أمثل لعقارات الدولة.

ختامًا، هذه الدراسة ليست مشروعًا مرحليًا، ولا عملاً ظرفيًا عابرًا، وإنما هي ورش مفتوح باستمرار أمام الباحثين الراغبين في كتابة التاريخ الاقتصادي للمغرب من خلال مباحث العقار والتملك.

الإحالات المرجعية:

(1) **FAVEREAU, M. (1928):** *Le service des domaines au Maroc: son organisation administrative et ses attributions, son rôle immobilier,* Éditions Imp., Réunies, Casablanca.

(2) **GRIGUER, J. (1939):** *Traité théorique et pratique de législation, doctrine administrative et jurisprudence marocaines en matière domaniale,* Imp., Réunies, Casablanca.

(3) **ANONYME, (1918):** «Une grande adjudication domaniale». Dans: *B.C.A.F.,* Paris; **ANONYME, (1919):** «La propriété foncière au Maroc, les propriétés domaniales». Dans: *Revue des questions économiques et financières au Maroc,* 1(re) année, n° 4, Paris.

(٤) إن المتصفح لمعظم الدراسات سواء الأجنبية أو المغربية، التي درست البنية العقارية اختلفت في تحديد أول إحصاء لأملاك المخزن، فإذا كانت بعضها ترجح سنوات: ١٨٦٥م، ١٨٧٥م، و١٨٨٥م، و١٨٩٥م، فإن كنانيش الخزانة الحسنية نجد أن أول إحصاء حدث سنة ١٨٧٥م، ينظر: تاريخ أول تقييد لأملاك المخزن في عهد السلطان مولاي الحسن، حسب ما جاء في كناش رقم ٨٢ بالخزانة الحسنية المؤرخ بسنة ١٢٩٢ هجرية الموافق لسنة ١٨٧٥م.

(٥) نعيمة هراج التوزاني، **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان الحسن الأول**، جامعة محمد الخامس -أكْدال- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم ٦٨، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٣.

(٦) عبد الرحمان المودن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم ٢٥، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٥.

(٧) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب ١٨٨٠-١٩١٥**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١.

(٨) محمد نجيدي، "أملاك المخزن بالبادية في عهد السلطان مولاي الحسن"، ورد ضمن **البادية المغربية عبر التاريخ**، تنسيق إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم ٧٧، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

(٩) عبد العزيز الخمليشي، "أملاك المخزن في مدينة الرباط في العهدين العزيزي والحفيظي (١٨٩٤-١٩١٢)"، ورد ضمن **أعمال الدورة التاسعة (السلطان مولاي عبد الحفيظ) جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، مطبعة دار المناهل، ٢٠٠١.

(١٠) محمد اللحية، "مسألة الأملاك المخزنية بأكادير في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"، ورد ضمن **أعمال ندوة مدينة أكادير الكبرى المحور التاريخي**، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٩٩٠.

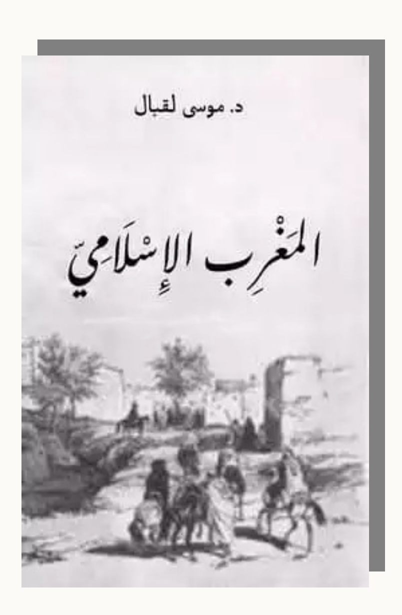
(11) **EL YAÂGOUBI, M. (2016):** «Le domaine privé de l'administration au Maroc». Dans: *R.E.M.A.L.D.,* n° double 129/ ١٣٠, Imp., El Maârif Al Jadida, Rabat.

- **NACEUR, K. (2005):** *Le domaine privé de l'État Marocain,* Thèse pour le Doctorat d'État en droit public, Université Mohammed V, Faculté des Sciences Juridiques Économiques et Sociales -Agdal- Rabat.

- **EDDAHBI, A. (2000):** «Le domaine privé de l'État au Maroc». Dans: *R.E.M.A.L.D.,* n° 34, Imp., El Maârif Al Jadida, Rabat.

- حسن خشين، **ملك الدولة الخاص تمييزه نظامه وظائفه**، منشورات مجلة الحقوق، سلسلة المعارف القانونية والقضائية، الإصدار ٢٨، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١٥.

المغرب الإسلامي للمؤرخ الجزائري موسى لقبال
السّيادة العربيَّة على بلاد المغرب وتوسيع آفاق الفتح





د. حسن بربورة
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور
جامعة يحي فارس المدية
الجمهورية الجزائرية

بيانات الكتاب

الكتاب: المغرب الإسلامي.
المؤلف: موسى لقبال
عدد الصفحات: (٢٢٩) ص، رقم النشر: ٧٦٧/٧٩
الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة)
الناشر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
مكان النشر: الجزائر، ١٩٨١.

كلمات مفتاحية:
موسى بن نصير؛ السيادة العربية؛ موسى لقبال؛ المغرب الإسلامي؛ الفتح الإسلامي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.309643.1155



مقدمة

يقول المؤرخ محمد الأمين بلغيث، واصفًا واقع البحث التَّاريخي في الجزائر: "الأبحاث الجادَّة قام بها جيل التَّأسيس، منهم الأستاذ أبو القاسم سعد الله، مولاي بلحميسي، موسى لقبال، جمال قنان، نصر الدين سعيدوني، هم أساتذةٌ من الصَّف الأوَّل، رغم أنَّه لم يكن متاحٌ لهم الأرشيف والشَّهادات مثلما هو متاحٌ الآن"[1]. وتكتسي دراسة تاريخ المغرب الإسلامي أهميَّةً كبيرةً، وخاصَّةً فترة الفتح، الذي لم يكن موجةً عابرةً طافت بهذا الإقليم ثم انحسرت عنه، وإنَّما كانت فتحًا تميَّز بطول المدَّة -استغرق قُرابة سبعين سنة ونيف- وصعوبة الإنجاز، فضلاً عن تَعدُّد الاستراتيجيات السّياسيَّة والعسكريَّة التي اتبعها القادة العرب الفاتحين في حملاتهم، وأساليب معاملتهم لهاته البلاد، حتى أصبح أهلها من أشهر جُند الإسلام إخلاصًا، وخدمةً لهذا الدين.

لكن من يُؤرِّخُ لهاته الفترة من تاريخ المغرب الإسلامي، يتلقَّى صُعُوباتٍ عديدةٍ، يرجع أهمُّها إلى نُدرة المصادر، أو وجودها مع فقرها الواضح للنُّصوص الكاملة، وقد حاول المؤرِّخ والمحقِّق الجزائري الكبير موسى لقبال الإسهام في إلقاء بعض الأضواء على هاته الفترة الهامَّة تاريخ المغرب الإسلامي، وهي المرحلة التي اتَّسَمَت بكثرة الأخبار والحروب والدُّول، منذ بدايات الفتح الإسلامي ٢٧-

٨٦هـ/٦٤٧-٧٠٥م وإلى غاية الاستقرار وكسب الأمازيغ، الذين تحمَّلوا مسؤولية الفتح بوجهيه الثَّقافي والسِّياسي، سواءً في منطقة المغرب أو خارجها. فكيف جرى تأكيد السّيادة العربيَّة على المناطق المفتوحة ببلاد المغرب الاسلامي عهد موسى بن نصير ٨٦-٩٢هـ؟ وكيف كان توسيع آفاق الفتح إلى بلاد الأندلس وفقًا لما جاء في كتاب المغرب الإسلامي للمؤرخ موسى لقبال؟

أولاً: تقديم المصدر

المؤرخ والمحقق الجزائري موسى لقبال من مواليد سنة ١٩٣٤م بمدينة بريكة "طبنة التَّاريخية" ولاية باتنة شرق الجزائر[٢]، درس اللُّغة العربيَّة والقرآن بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى زاوية سيدي علي بن عمر بطُولقَة (بسكرة) لدراسة العلوم الشرعيَّة، ليلتحق بعدها بجامع الزيتونة في تونس، حيث تحصَّل على الشهادة الأهليَّة سنة ١٩٥٤م، وشهادة التحصيل سنة ١٩٥٧م[٣]، بعدها سافر إلى القاهرة لمواصلة دراساته العليا، فنال شهادة الليسانس سنة ١٩٦١م، ثم تحصَّل على شهادة الماجستير في التَّاريخ الإسلامي سنة ١٩٦٨م، ودكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس بمصر سنة ١٩٧٢م[٤]، كما شغل منصب أستاذ للتَّاريخ الإسلامي بجامعة قسنطينة ثم جامعة الجزائر منذ سنة ١٩٦٦م، وتدرَّج في مناصب إدارية وعلميَّة كثيرة.

حضر ونشَّط الدكتور لقبال ملتقيات تاريخيَّة عديدة داخل الوطن وخارجه، وخلَّف عدَّة مؤلفاتٍ أهمُّها: التَّيسير في أحكام التَّسعير، الحسبة المذهبيَّة، كتامة وتاريخ الخلافة الفاطميَّة، عقبة بن نافع الفهري، ملحمة أبي عبد الله الأكجاني، ملحمة أبي الفضل جعفر بن فلاح، الجزائر في التَّاريخ الإسلامي[٥]، ولم تنقطع لقاءاته ومنشوراته العلميَّة إلى غاية وفاته يوم الثلاثاء ٢٠ جانفي ٢٠٠٩م عن عمر ناهز ٧٥ سنةً، حافلةً بالعطاء العلمي والجهد الأكاديمي.

أما كتابه (المغرب الإسلامي) فهدف من خلاله التَّعريف بتاريخ المنطقة، حيث عالج الجهود السياسيَّة والعسكريَّة التي بذلها المسلمون في فتح البلاد المغاربية إلى غاية الاستقرار، ونشر الإسلام بين أهلها الذين كانوا دعمًا قويًّا في فتح باقي مناطق المغرب، وحتى خارجه في بلاد الأندلس، كما تناول التَّنظيمات الإداريَّة التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي في هذه الفترة، وتعرَّض للتَّيارات والمذاهب الفكريَّة التي انتشرت فيه فيما بعد.

وقد اعتمدنا في دراستنا على الطَّبعة الثَّانية من الكتاب، الذي قَسَّمَهُ مؤلفه إلى مقدّمة وخمسة أبواب، حيث تناول في المقدّمة وضمن تسع صفحاتٍ، مدلول وتطوُّر المصطلحات القديمة التي أطلقت على بلاد المغرب بحسب تسلسلها التَّاريخي، ومداها الزَّمني وإطارها الجغرافي، ومن بين المصطلحات التي أوردها المؤلف: ليبيا، بلاد الافري[٦]، افريقيَّة، المغرب، بلاد الأطلس، واعتمد في شرح هذه المصطلحات على مؤرِّخين عدَّة كابن أبي دينار، الناصري السَّلاوي وغيرهم، كما تناول أيضًا سُكَّان المنطقة القدماء والجدد، أُصُولُهُم وفروعهم وأنماط حياتهم، ليختم مقدمته بذكر صِلَةِ العرب بمنطقة المغرب وسكَّانها، منذ فتح مصر على يد عمرو بن العاص وإلى ما بعد وفاته[٧].

ويستعرض الباب الأوَّل (قاعدة القيروان) في خمسة عناصر (ضمن ٢١صفحة)، الاستراتيجية الجديدة التي بدت في أعمال معاوية بن خديج قائد جند مصر، والذي أرسل السَّرايا والبعوث إلى سائر جهاتٍ افريقيَّة، بعد أن بنى مُعسكرًا في مكانٍ استراتيجي (بجوار مرتفع القرن) في إقليم قمُونيَّة، وهو الذي بُنيت فيه فيما بعد مدينة القَيرَوَان[٨] سنة ٥٠هـ على يد عقبة ابن نافع الفهري، فكان عَمَلُهُ رائدًا وإرهاصًا بذلك لِخَلَفِه، وكانت نقطة ارتكازٍ وتَجَمُّعٍ وانطلاقٍ، ومنارةً للعلم والثَّقافة، ورِبَاطًا للجهاد، لتصبح فيما بعد قاعدة الفتح المنظَّم، ونواة الولاية الجديدة التي انطلقت منها مُعظم الفُتُوحات ضد الرُّوم والأفارقة حتى أرض المغرب الأقصى بقيادة أبو المهاجر دينار، وبعده عقبة ابن نافع (في ولايته الثَّانية)، وهذا إلى غاية مقتلهما في معركة (كارثة) تهوذة سنة ٦٣هـ في إقليم الزَّاب على أيدي الروم وحلفائهم (كُسَيلَة)، الذي حَنَقَ على عقبة، وكَرِهَ معاملته اتجاه أبي المهاجر دينار، لِيَحدُثَ الجلاءُ عن قاعدة الفتح لخمس سنواتٍ نحو برقة (زهير بن قيس البلوي وفريق معه) والفُسطاط، كما تناول الباب الأوَّل أيضًا الحياة السياسيَّة بعد إخلاء القيروان، ووقوعها تحت نفوذ كُسيلة وأنصاره التي أشرفُوا منها على سائر افريقيَّة[٩].

أمَّا الباب الثَّاني (استكمال عملية الفتح ودور حسان بن النعمان ٧٤–٨٥هـ)، فاستعرض من خلاله المؤلف عودة الأوضاع المضطربة في إفريقيَّة إلى وضعها الطَّبيعي سنة ٦٩هـ على يد زهير بن قيس البلوي، الذي تحرَّك بجيشه وهزم حِلفَ البرانس والأفارقة والرُّوم وشَتَّتَ شملهم، حين التقى مع كسيلة في "ممس" في إقليم قمونية، لكنه وبعد تنظيم أمور المسلمين في افريقيَّة وأثناء عودته إلى الفُسطاط، رَاحَ هو وأغلب رجاله ضحيَّة تَحَدٍّ سَافِرٍ من طرف الرُّوم في ساحل دَرنَة، فكانت مصيبة المسلمين فيه مثل مصيبتهم من قبل في عقبة ورِجَاله، ولكن الايجابي في هذه المحنة أنَّها نَبَّهت الخلافة الأمويَّة إلى عنصرٍ خطيرٍ من عناصر المقاومة في افريقيَّة، هو عنصر الرُّوم المحليِّين والأفارقة الذين يتحرَّكون في ظرُوفٍ مُعيَّنةٍ بإيحَاءٍ من أباطرة الدَّولة البيزنطيَّة، ليُوَجِّهَ بعدها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، حسَّان بن النعمان الغسَّاني لتأديبهم وتصفية سائر جيوب المقاومة المحليَّة.

وشمل الباب الثَّالث الاستراتيجية العربيَّة الجديدة بعد كارثة "درنة"، والتَّعريف بحسَّان بن النعمان، وشَرحًا وافيًا لجهود هذا الفاتح العربي الكبير ضدَّ الروم والأفارقة في كُبرى قواعدهم البحريَّة، ثم ضدَّ فَرعِ البُتر الذين تزعَّمتهم قبيلة "جراوة" ممثلةً في زعامة الكاهنة[١٠]، حتى مقتلها واحتضان ابنيها وسائر أفراد قبيلتها من طرف حسان بن النُّعمان، ومن ثمَّ نجاحه في احتلال قرطاجنة وصبغها بصبغةٍ إسلاميَّةٍ، ليكون ذلك إعلان ميلاد (ولاية افريقيَّة الإسلاميَّة)، وانتهاء المقاومة الجدِّيَّة ضدَّ العرب المسلمين في هذه البلاد، وبذلك يُعتبر حسَّان بن النعمان الفاتح الحقيقي لولاية افريقيَّة، ممّا جعل والي مصر عبد العزيز بن مروان -كما تشير بعض الروايات- يغتاظ منه ويُزيحُهُ، ويُقدِّمُ موسى بن نصير، وفي آخر هذا الباب تناول المؤلف صدى نشاط حسان ببلاد بلاد المغرب في مصادر الفتح المختلفة: كابن عبد الحكم، البلاذري، أبو بكر المالكي، الدباغ، ابن عذاري ابن أبي دينار، وابن الأثير[١١].

أمَّا الباب الرَّابع (الوضعيَّة الإداريَّة للمغرب بعد انتهاء الفتوح) فهو أطول أبواب الكتاب، سواءً من حيث العناصر المتناولة (أربعة عشر عنصرًا)، أو من حيث عدد الصفحات المخصَّصة (٣٩ صفحة)، وتضمَّن خصائص كل من ولايتي افريقيَّة والأندلس (هيكل الإدارة المدنيَّة، نظام القضاء، التَّقسيمات الإداريَّة، أثَرُ العصبيَّة القبليَّة، النَّشاط الثَّغري...)، وطابع علاقات هاتين الولايتين بولاة مصر وبالخلفاء في دمشق، إضافةً لمظاهر النُّظم الإداريَّة، المالية والعسكريَّة فيهما[١٢].

وأخيرًا يتناول الفصل الخامس حركة الخوارج الصِّفرية والإباضيَّة في بلاد المغرب وافريقية خلال الفترة ١٢٢–١٧٢هـ، وضمّ اثنتا عشر عنصرا ضمن (ثلاثون صفحة)، تحدَّث فيها الكاتب عن قاعدة الخلاف السّياسي بين المسلمين وهي الإمامة أو الخلافة[١٣]، وعن نواة الحزبيَّات السياسيَّة، ونشاط رجال المذاهب من أجل نشر أفكارهم وآرائهم والتوسُّع على حساب غيرهم في افريقيَّة قبيل منتصف القرن الثاني للهجرة، كالمذهب الشِّيعي، الخوارج الإباضيَّة وطوائفها، وغيرها من المذاهب[١٤]، والتي كانت من الأسباب المباشرة لانتشار الفوضى والاضطراب في سائر بلاد المغرب، وبالتالي ظهور خمسُ وحداتٍ منفصلةٍ، لم تُعمِّر طويلاً بسبب خِلافها المذهبي[١٥].

ثانيًا: أسباب تأليف الكتاب، مصادر الدّراسة، الإطار والمنهج

ترجع أهمّ أسباب تأليف الكتاب إلى محاولة إعادة دراسة تاريخ المغرب الإسلامي، دراسةً زمنيَّةً موضوعيَّةً (أي على أساس الفترات الكبرى) والتي تعتبر أجدَى من الموسوعات أو الملخَّصات التي لا تُلبِّي حاجة الدَّارس والباحث في تفسير الأحداث، حيث أنَّ من يُؤرخ لفترةٍ ما من فترات تاريخ المغرب العربي الإسلامي، خصوصًا إذا تعلَّق الأمر بالنُّظم، الأجهزة الإداريَّة، مظاهر الحضارة، وبالحزبيات والطَّوائف المذهبيَّة، يتلقى صُعوبات عديدة، يرجع أهمُّها إلى عدم وجود المصادر أصلاً، أو وجودها مع فقرها الواضح في النُّصوص الكاملة، وهذا ما لمسه المؤلف من خلال مطالعاته وتحقيقاته.

فقد مرَّ المغرب الإسلامي بمراحل تاريخيَّةٍ هامَّةٍ رسمت هويّته وأوضحت موقعه على الخريطة السياسيَّة، وتمتّع بموقعه الاستراتيجي الحربي الهام في مواجهة العدو الغربي والأجنبي المتربِّص بالأمَّة الإسلاميَّة آنذاك، وبذلك يتناول الكتاب الجُهود السياسيَّة والعسكريَّة التي قام بها المسلمون ليدخلوا منطقة المغرب، أي منذ بدايات الفتح الإسلامي (٢٧-٨٦هـ/٦٤٧-٧٠٥م) والذي سبقته عديد الحَمَلَات (حملات معاوية ابن خديج سنوات: ٣٤هـ، ٤٠هـ، ٥٠هـ)، إلى غاية الاستقرار وتأسيس وكسب

جماعات كبرى (الأمازيغ) لها ماضيها المجيد في الفروسيَّة والنِّضال ضدَّ من هو أجنبيٌّ دخيل، ومن ثَمَّ تحمّلت مع المسلمين الفاتحين مسؤوليَّة الفتح بوجهيه الثَّقافي والسّياسي، سواءً في منطقة المغرب أوفي غيرها، فكان للمغاربة الفضل الكبير بعون الله في انتصار المسير الإسلامي عبر الشَّمال الإفريقي وحتى أرض الأندلس ٩٢هـ، والتي شهدت أزهى مراحل ازدهارها بعد دخول الإسلام إليها فاتحًا ومُحرِّرًا من القُوط وغيرهم.

وقد اعتمد الكاتب في مؤلفه المنهج التَّاريخي، الذي يستند على تحليل مختلف الأحداث التي شهدها تاريخ المغرب الإسلامي منذ بداية الفتح، وحتى الاستقرار حيث أصبح للمسلمين مِصرٌ جامعٌ، كما وقف على مضامين هذه الأحداث وتفسيرها بصورةٍ علميَّةٍ، وتحديد تأثيراتها على بلاد المغرب واستخلاص العِبرَ منها، معتمدًا عديد المصادر والمراجع، ومع ذلك فقد أشار المؤلف إلى قلّتها وفقرها الشَّديد، لكنه أشار إلى أهميَّة بعض المصادر الخطيَّة التي تتناول بعضًا من تاريخ المنطقة، والتي توجد في المكتبات العامَّة في المغرب وتونس، أو المكتبات الخاصَّة بواحة ميزاب، والتي اعتبرها فريدةً في بابها من حيث رُقيّ المستوى العلمي والفني، وأيضًا كونها الوحيدة التي تتحدث بإفاضةٍ عن سير الحركة الخارجيَّة المغربيَّة، ونضالها السّياسي والمذهبي، وهي الفترة التي اعتبرها الكاتب من أغمض فترات المغرب.

وقد تنوعَّت مصادر الكتاب بين: المصادر المغربيَّة (١٥مصدرًا)، المصادر الإباضيَّة (٦)، والمصادر المشرقيَّة القديمة (١٢)، أمَّا المراجع: فمنها (٤) مراجع مغربيَّةٍ حديثةٍ، (١٦) مرجعًا عربيًا حديثًا، (٧) مراجع مُعرّبةٍ، و(١٠) مراجع عامَّةٍ، أمَّا المراجع الأجنبيَّة فغير مذكورة.

وبالتَّفصيل في هاته المصادر فقد ضمَّت المصادر المغربيَّة: كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقيَّة والأندلس والمغرب للونشريسي (أبو العبَّاس أحمد بن يحي التلمساني)، رياض النُّفوس للمالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله)، المغرب في ذكر بلاد افريقيَّة والمغرب للبكري (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز)، وصف افريقيا الشَّماليَّة والصَّحراوية للإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد)، البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عُذَارى (أبوعبد الله محمد)، كتاب العِبرَ وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (عبد الرحمان بن بكر)، المؤنس في أخبار افريقيَّة وتونس لابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسّلاوي (أحمد بن خالد الناصري)، وكتاب تاريخ افريقيَّة والمغرب للرقيق (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم).

ومن المصادر الإباضية[١٦] نذكر: طبقات الإباضية للدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، كتاب السِّيَر للشماخي (أبو العباس أحمد)، الجواهر المنتقاة فيما أَخَلَّ به كتاب الطَّبقات للبرادي (ابو القاسم إبراهيم)، الأزهار الرياضيَّة في أئمة وملوك الإباضيَّة للباروني (سليمان). أمَّا المصادر المشرقيَّة القديمة[١٧] التي اعتمدها المؤلف فنذكر منها: فتح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (أحمد بن يحي بن جابر)، فُتُوحُ البُلدان للبلاذري (أحمد بن يحي بن جابر)، فُتُوحُ افريقيَّة للواقدي (محمد بن عامر)، تاريخ الأُمم والملوك للطَّبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، الكامل في التَّاريخ لابن الأثير (عزُّ الدين أبو الحسن علي بن محمد). ومن المراجع المعرَّبة نذكر: تاريخ العرب لفليب حتى، الحضارة الاسلاميَّة في القرن الرابع لآدم ميتز، تاريخ الشُّعوب الاسلاميَّة لكارل بروكلمان، حضارة العرب لغوستاف لوبون وغيرها.

ومن خلال هذا التِّعداد لبعض المصادر والمراجع (حوالي سبعون مُؤلَّفًا)، يَتَّضِحُ مدى التَّنوُّع فيها من جهةٍ، والتَّركيز على مصادر ليست بالبعيدة عن الأحداث، كما يظهر أيضًا مدى الجهد الكبير والمضني الذي قام به المؤلف في سبيل جمع مادته العلميَّة الخاصَّة بكتابه، سعيًا للوصول إلى أكبر قدرٍ من الحقائق والأحداث ومقارنتها ببعضها، وكذا الدِّقة والأمانة العلميَّة والتاريخيَّة.

ثالثًا: السِّيادة العربيَّة على بلاد المغرب وتوسيع آفاق الفتح (دور موسى بن نصير ٨٦-٩٢هـ)

تناول الكاتب في هذا الباب تاريخ المغرب الإسلامي في ولاية موسى بن نصير ٨٦-٩٢هـ، بدايةً بتقديم نبذةٍ مختصرةٍ عن حياته وتقديمه للولاية، ثم دوره الذي تلخَّص في تأكيد السِّيادة العربيَّة الإسلاميَّة على المناطق المفتوحة من قبل، وتوسيع آفاق الفتح إلى ما وراء المغرب الأوسط، كما تناول أهمَّ سياساته وأعماله، خاصةً في فتح بلاد الأندلس وميلاد (ولاية الأندلس الإسلاميَّة)، وُصولاً إلى رجوعه إلى المشرق ونكبته.

لقد اختلفت المصادر اختلافا شديدًا في نسب موسى بن نصير، من قائلٍ أنَّه من لَخمٍ من عرب الجنوب، أو مولىً لهم[١٨]، وقائلٍ أنَّ نسبته إلى بكر بن وائل من عرب الشَّمال، كان أبوه قائدًا للحرس الخاصّ بمعاوية رضي الله عنه أثناء ولايته على الشَّام، واشتهر بقوة شَّخصيته ومحافظته على الحياد (في معركة صِفِّين)، أمَّا ابنه موسى فقد بدأ حياته خصمًا للأمويِّين ومُشَايعًا لابن الزُّبير، حتى هزيمته في معركة مرج راهط سنة ٦٥هـ، فَفَرَّ موسى إلى مصر واستجار بابن الخليفة عبد العزيز وتمَّ له ذلك، وأُتيحت له الفرصة هناك لخوض غمار السّياسة والإدارة، حتى عيَّنه عبد الملك بن مروان مستشار ومُتَوَلّي خُرَاجَ البصرة لمساعدة ابنه بِشر، لكن سياسة التَّرف أوقَعَت ماليَّة البصرة في عجزٍ، فغضب عليه الخليفة وتوعَّده، وأرسل الحجَّاج بن يوسف واليًا على البصرة بعد وفاة أخيه بِشر، فلمَّا سمع بذلك فرَّ إلى مصر مرَّةً ثانيةً واصطحبه عبد العزيز إلى دمشق وتدخَّل للعفو عنه، فَقَبِلَ الخليفة ذلك شريطة الالتزام بغرامةٍ ماليةٍ قدرها مائة ألف دينار، غَرِمَ عنه عبد العزيز نصفها، وبعد براءة ذمَّته سافر إلى مصر، وبقي عشرة أعوامٍ مُلازما لصديقه في انتظار فرصة الظُّهور مُجددًا على المسرح السياسي[١٩].

أمَّا عن وصوله إلى مركز الولاية، فإنه بعد رجوع حسان بن النعمان إلى المشرق بعد تأديبه للروم والأفارقة وتصفيته لسائر جيوب المقاومة المحليَّة، قدَّم تقريرا للخليفة عبد الملك بن مروان ووضع بين يديه الأموال والغنائم، فَأَجزَلَ له العطاء، وعيَّنه واليًا على افريقية بما في ذلك إقليم بَرقَة، الأمر الذي لم يُعجب وَالِيَهَا عبد العزيز بن مروان، حتى أنَّه قام بتصرُّفٍ غير كريمٍ اتجاه أكبر قادة الفتح بتمزيقه عَقْدَ التَّولية، وعَيَّنَ موسى بن نصير خَلَفًا له، وعلى هذه الصورة تمَّت ولاية افريقية لموسى بن نصير سنة ٨٦هـ[٢٠].

وبعد تعيينه واليًا على افريقية، سعى موسى بن نصير لتهيئة الجو لِتَسَلُّم المسؤولية، فَسَارَ إلى جيشه وخطب في الجنود، وبرَّر لهم إبعاد حسَّان الذي بحسبه كان بسبب تطاوله على أُولي الأمر والنَّهي، وقد اصطحب منذ البدء أبناءه وأبناء الشَّهيد عقبة بن نافع، واختار أركان حَربِهِ، كما عزل نائب حسَّان ومساعديه، وغَرَّمَهُم وصَفَّدَهُم في الحديد ورَحَّلَهُم إلى الشَّرق، وهذه كما يرى المؤلف إحدى نقاط الضُّعف البارزة في تصرُّفات بعض قادة الفتح[٢١].

أمَّا عن أهمِّ أعمال موسى بن نصير في ولايته[٢٢]، فقد اتَّسمت سياسته بتصفية جيوب المقاومة، وتَتَبُّعِ فُلُولَ المخالفين، لكن يُعَدُّ من نقط الضعف البارزة فيه – كما يشير المؤلف- غروره واعتداده بنفسه وتعريضه الجائر بأسلافه[٢٣]، فبمجرد وصوله بدأ بتطبيق سياسته الجديدة، حيث وجَّه كتيبةً إلى قبيلة زَغوَان (مسيرة يومٍ من القيروان) لتأديب أهلها، وفي المغرب الأوسط شمل نشاطه قبائل هُوارة وزَنَاتَة وكُتَامَة وصَنهَاجَة حيث أكثر السَّبي والفساد[٢٤].

أمَّا عن خطَّة الفتح، فاتّسم نشاط موسى بن نصير بالشُّمول من أقصى جنوب البلاد إلى أقصى شمالها، ولم تمتنع عليه سوى "سبتة" الحصينة بسبب مقاومة حاكمها يُوليان، وتمّكن من فتح "طنجة"، وترك فيها حاميةً عسكريةً تحت إمرة ابنه مروان، وبمساعدة مولاه طارق بن زياد، لينسحب مروان فيما بعد إلى القيروان لعدم تَحَمُّلِه مَشَاقَّ الرِّباط ومسؤوليَّة المرابطين، ويُبقِي طارق على الحامية وعلى المدينة، حيث ضمَّ إليه رهائن البربر وجعلهم تحت مراقبته، واهتمَّ بتعليمهم، حيث وضع لهم سبعة عشر من فقهاء العرب وقُرَّائِهم، وباستيلاء المسلمين على طنجة اكتمل فتح المغرب[٢٥].

ولما انتشر الإسلام بين البربر واشتدت حركة الانضمام للمرابطين، كان لا بد من البحث عن ميدانٍ جديدٍ، فبعد استقرار طارق في طَنجَة كانت هناك اتِّصَالاتٌ بينه وبين يوليان حاكم سبتة، تطوَّرت فيما بعد لصداقةٍ، ولكي يصرف يوليان أنظار المسلمين عنه، رَغَّبَهُم في دخول الأندلس وأَبدَى استعداده لتقديم خدماتٍ حربيَّةٍ ضدَّ نظام (لذريق) في اسبانيا، وأن يكون عينًا للعرب عليه، ولمَّا كان مشروع نقل النَّشاط العسكري لأوربا خطيرٌ يتطلَّب مشاوراتٍ، أرسل طارق لموسى بن نصير في القيروان، الذي اتَّصل بدوره بالخليفة للاستئناس برأيه في عرض حاكم سبتة على المسلمين، فكانت الموافقة شريطة الحَذَرِ، فَأُرسِلَت حملاتٌ استكشافيَّةٌ بقيادة أبا زرعة طريف ابن مالك المعافري سنة ٩١هـ، في أربع سُفُنٍ يمتلكها حاكم سبتة إلى ساحل اسبانيا (جزيرة طريف)، وقاموا هناك بسلسلة من الإغارات الموفَّقة التي امتدَّت حتى الجزيرة الخضراء، وقد

كان هذا التَّوفيق دافعًا لتبدأ عملية الفتح الحقيقي بقيادة والي طنجة طارق بن زياد[٢٦].

ومن المؤكَّد أنَّ فتح الأندلس كان نتيجةً طبيعيَّةً لإتمام فتح المغرب، وكثرة عدد مُرابطي طنجة من مسلمي البربر، ووجود قائدٍ بحجم طارق بن زياد، وكذا توفر عوامل وظروف أُخرى مساعدةٍ، ومن أهمِّ ما لفت انتباه المؤلف ونال إعجابه في قصة الفتح، هي السُّرعة الخاطفة التي تمَّ بها، وامتداد الحركة الإسلاميَّة ومظاهر الثَّقافة لأوَّل مرَّةٍ إلى أرضٍ كبيرةٍ (أوربا)، ونُشُوءَ حضارة راقيةٍ، امتزج فيها العرب والبربر والأيبيريون في أُمَّةٍ واحدةٍ بفضل الإسلام.

وبانتهاء فتح الأندلس، ألَحَّ الخليفة في خروج موسى بن نصير، حيث خرج منها رفقة طارق، تاركًا ابنه عبد العزيز واليًا على قرطبة، أمَّا الغنائم فَشُحِنَت في مركبٍ إلى طنجة - أين ترك أحد أبنائه (عبد الملك) عاملا على إقليمها- ومنها حُمِلَت إلى القيروان، وفي طريقه إلى دمشق وصل موسى كتابان مُتناقضان، أحدهما من الوليد بن عبد الملك يحثُّه على الإسراع، والآخر من أخيه وولي عهده سليمان يأمره بالتَّبَاطُؤ، وهدف الرَّجلين معًا الغنائم والسَّبايا والتُّحَف، فلم يلتفت إلى سليمان[٢٧]، وأخذ في السير حتى أدرك الوليد قبل وفاته بثلاثة أيام[٢٨]، وربما لهذا استهل سليمان عهده بنكبة موسى بن نصير فعذَّبه وقاضاه، واستصفى أمواله، وسَلَبَهُ مَوَالِيه، ثم أمر واليه على افريقيَّة بِتَتَبُّعِ عبد العزيز، واستأصل جانبًا كبيرا من مَوَالِيه، وكل من ثَبَتَت عليه صِلَةٌ بآل موسى[٢٩]، وقد أشار ابن عذارى إلى صَنِيعِ سليمان بموسى وبَنِيه، واعتبرها من هفوات سليمان التي لم تَزَلْ تَنقِمُ عليه.

رابعًا: نقدٌ وتقييمٌ

تكمن أهميَّة كتاب (المغرب الإسلامي) في تسليطه بعض الأضواء على فترةٍ هامَّةٍ من تاريخ المغرب الإسلامي -بشيءٍ من التَّفصيل أحيانًا- حيث استطاع مؤلفه جمع مادةٍ علميَّةٍ من مصادر مختلفةٍ، وجعلها بِشَكلٍ مُرتَّبٍ، سهل القراءة والدراسة على الباحثين والقُرَّاء، وهذا في فترة كانت فيه الجامعة الجزائرية بحاجةٍ إلى أعمالٍ تركيبيَّةٍ (ديداكتيكيَّةٍ) لتعميم الأبحاث المتخصّصة الجادَّة لدى الطلبة وعموم جمهور قُرَّاء اللُّغة العربيَّة، والأهمُّ من ذلك كله الاستنتاجات والملاحظات التي استطاع الكاتب صياغتها في نهاية بحثه والتي لخَّصها في:

- طبيعة ونيَّة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، والتي لم تكن عشوائيَّةً ولا من أجل السَّلبِ والنَّهبِ، بل من أجل نشر رسالة الإسلام الخالدة ثقافةً وحضارةً.
- تأكيد طبيعة لقب (الأمازيغ) لسكَّان البلاد الأصليين (الرجال الأحرار)، رغم بعض ما كان يحدث من حين لآخر من فتنٍ ومؤامراتٍ بتدبير من الرُّوم وغيرهم، وأهميَّة التَّحالف بين العرب الفاتحين والأمازيغ في إتمام الفتح بوجهيه الثَّقافي والسياسي حتى خارج بلاد المغرب، وهي النُّقطة التي ينبغي أن يُركِّز عليها مؤرِّخ اليوم، من خلال البحث وتثمين ما يجمع لا ما يُفرِّق، إضافة للتَّنظيم والاستراتيجية الشَّاملة المحكمة لدى المسلمين في فتح وإدارة افريقية.
- ظهور الحركات المذهبية في المغرب، التي وإن ساهمت في ضعف الأنظمة السياسيَّة من جَرَّاءِ الفتن التي أحدثتها، إلَّا أنَّها كانت دليلاً على خصوبة نصوص الإسلام وحيويَّة المسلمين، واستعدادهم للتَّطوُّر، حيث اغتنت الحضارة الإسلاميَّة بإنتاج الفرق المختلفة في ميادين الآداب والعلوم والشَّريعة، وبالتالي يمكن أن نستنتج اليوم أنَّ اختلاف المذهبيَّات والرؤى -ما لم تمس العقائد والأصول- يمكن أن يكون عامل قوةٍ وإضافة، بدل أن يكون معول هدمٍ وضُعفٍ وتَشَرذُمٍ في الأمَّة.
- كما يعتبر من مميزات الكتاب وجود ثلاثة عشر ملحقًا[٣٠] لجوانب من الحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة للمسلمين في بيئة المغرب، وأكثرها من مصادر خطيَّةٍ مغمورةٍ لم تُحَقَّق وقت صدور الكتاب سنة ١٩٨١.

خاتمة

ممَّا سبق يُعتبر كتاب المغرب الإسلامي من المراجع المهمَّة والقيّمة في تاريخ المنطقة، فهو من جهةٍ عملٌ تاريخيٌّ متسلسلٌ لأعمال الفتح وحتى الاستقرار، ومن جهةٍ ثانيةٍ رَصدٌ للواقع الفكري ونُشُوءَ التَّيارات الحزبيَّة والمذهبيَّة في المنطقة، لكن يبقى من بين الملاحظات على الكتاب وطبعته الثَّانية تحديدًا: أنه ليس دراسةً فريدةً من نوعها، بل نجد أنَّ تاريخ المغرب الإسلامي قد تناولته

أقلامٌ عديدةٌ، سواءً بإصدار كُتُبٍ أو حتى موسوعاتٍ نذكر منها: عبد الحميد حسن حمودة (تاريخ المغرب في العصر الإسلامي)، حسين مؤنس (معالم تاريخ المغرب والأندلس)، حسن خضيري أحمد (صفحات من تاريخ المغرب الإسلامي)، عبد الفتاح الغنيمي (موسوعة المغرب العربي) وغيرها، وإن كان مؤلفنا قد تميَّز ربما عن هذه الأقلام بذكر المذاهب والتَّيارات الفكريَّة. ومن النَّاحيَّة الشَّكليَّة لاحظنا غياب صُورٍ أثَرِيةٍ أشَارَ لها المؤلف (ص١٩٧) في الملاحق، وهي: مسجد القيروان ومنارته، آثار طبنة (بريكة)، جامع الزيتونة، حيث لا يوجد سوى صور مسجد سيدي عقبة (بيت الصَّلاة، المئذنة والضريح)، كما أنها غير واضحةٍ لرداءة الطَّبعة، هذا على الأقل في النسخة المدروسة.[٣١]

الإحالات المرجعية:

(١) سهام بوعموشة، "محمد الأمين بلغيث: الأبحاث التاريخية الجادة قام بها جيل التأسيس"، **ذكرة الشعب، ٢٣ ماي ٢٠٢٤، الرابط على النت:** https://dhakira.echaab.dz تاريخ الزيارة: ٣٠ أوت ٢٠٢٤، ٨:٠٠... محمد الأمين بلغيث: الأبحاث التاريخية الجادة قام بها جيل التأسيس - الذاكرةechaab.dz)

(٢) عبد الجليل ملاخ، "موسى لقبال وجهوده في تأسيس مدرسة تاريخية جزائرية وسيطة"، **مجلة الدراسات التاريخية، مج٢٣، ع١، الجزائر، ٢٠٢٢، ص٢٧٧.**

(٣) بشار قويدر، "تأبينية الأستاذ الدكتور موسى لقبال"، **حوليات التاريخ والجغرافيا، الجزائر، مج٣، ع٦، الجزائر، ٢٠١٢، ص٢٤٥.**

(٤) أسامة الطيب جعيل، **"الأستاذ الدكتور موسى لقبال وجهوده في تدوين تاريخ المغرب الإسلامي"**، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج٦، ع١٦، الجزائر، ديسمبر ٢٠١٨، ص١٠٨.

(٥) بوزياني الدراجي، **"أستاذ الأساتذة الدكتور موسى لقبال"**، في: دراسات وبحوث مغربية أعمال مهداة إلى الأستاذ الدكتور موسى لقبال، إعداد وتنسيق إسماعيل سامعي وعلاوة عمارة، إشراف: بوبة مجاني، ط١، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ٢٠٠٨، ص٣٧.

(٦) **الإفري:** إفرن بالأمازيغيَّة تعني الكهف، وبالتالي يُراد بالافري الذين يسكنون الكهوف والمغارات، وقد أطلق المؤرخ الاغريقي هيرودوت النِّطاق الجغرافي الممتد من غرب مصر حتى البحر الكبير باسم ليبيا، وأطلق على سكانه اسم اللِّيبيين، كما كان القرطاجيون قد عرفوا سكان البلاد الأصليين بالافري. **يُنظر:** موسى لقبال، **المغرب الإسلامي**، ط٢ مزيدة ومنقحة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص١٣؛ حسين مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، د.د.ن، د.ت، ص١.

(٧) لقبال، المرجع السابق، ص ص١٣-٢٢.

(٨) **القيروان:** لفظٌ فارسيٌّ دخيلٌ على العربيَّة ومعناه: (مَحَطُّ الجيش ومَنَاخَ القافلة وموضع اجتماع النَّاس في الحرب، وقد شرع عقبة في ابتداء بناء القيروان وأجابه العرب إلى ذلك، وقد ازدهرت عُصُورُها أربعة قرونٍ كاملةٍ، انتهت بانهيارها السّياسي والعلمي والاجتماعي على أيدي القبائل التي أرسلها الخليفة الفاطمي لتنتقم من الصَّنهاجيين. **يُنظر:** محمد الصادق عبد اللطيف، **"القيروان عاصمة المغرب العربي ومركز الإشعاع الفكري في شمال افريقية"**، مجلة التاريخ العربي، تونس، د.ص.

(٩) لقبال، المرجع السابق، ص ص٢٣-٤٤.

(١٠) **الكاهنة:** اختلف المؤرّخون في ضبط اسمها، فهي دهيا بنت ماتيه بن تيفان عند ابن خلدون، ودامية بنت نيفاق عند أبن أبي دينار ودماميا أو دحيا عند المستشرق الفرنسي شارل أندري جوليان، ولُقِّبَت بالكاهنة لخبرتها بالسِّحر، كما أُختُلِفَ في نسبها وديانتها: هل هي بربرية الأصل أم من المولدين؟ وهل هي وثنيَّةٌ أم يهوديَّةٌ أم مسيحيَّةٌ؟ ورغم كل هاته الازدواجيَّة الرُّوحية والعقديَّة، فقد كانت مسموعة الكلام في قومها. **يُنظر:** نبيلة عبد الشكور، **"ملاحظات حول كتاب المغرب الاسلامي منذ بناء القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة ونظم للأستاذ موسى لقبال"**، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج٧، ع٢، الجزائر، ٢٠١٩ ص ص١١٣-١١٤.

(١١) لقبال، المرجع السابق، ص ص٥٥-٧٥.

(١٢) نفسه، ص٩٩ وما بعدها.

(١٣) لم يوجد عند الأمة الإسلاميَّة أمرٌ من أمورها اختلفت فيه الكلمة وتشعَّبت بشأنه الآراء، بمقدار ما كان منها في شأن الخلافة، حيث أن القرآن لم يُعيِّن بيتًا للخلافة يُنتخب الخلفاء من أهله ولا شعبًا من شعوبهم ولا قبيلةً من قبائلهم، أمَّا رسول الله ﷺ فقد روى البخاري حديثًا يسنده إلى معاوية ﷺ يقول فيه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ هَذَا اَلْأَمْرَ فيْ قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إلَّا كَبَّهُ الله عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُواْ اَلدِّيْنَ»، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ هَذَا اَلْأَمْرُ في قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اِثْنَانِ»، وفي مقابل ذلك روى عنه أنس بن مالك ﷺ قوله: «وَاسْمَعُواْ وَأَطِيْعُواْ وَإِنْ اُسْتُعْمِلَ عَلَيكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيْبَةٌ»، وهي أدلَّة متعادلةٌ. **يُنظر:** عبد الوهاب النجار، **الخلفاء الراشدون**، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦، ص ص٩-١٢.

(١٤) للتَّوسُّع في موضوع تاريخ المغرب في ظِلِّ التعايش والصِّراع المذهبي، وتناوله من طرف المؤرخ موسى لقبال **يُنظر:** رامي بلعيد و عبد الرزاق خضور، **"قضايا من التاريخ المذهبي في المغرب الأوسط في كتابات الباحث موسى لقبال قراءة في المنهج والرؤية"**، مجلة الإبراهيمي للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع٥، ديسمبر ٢٠١٩، ص٥٦-٦٦؛ وفي مقاربة فلسفية للموضوع **يُنظر أيضًا:** حسين بوبيدي، **"بلاد المغرب الإسلامي بين الصراع والتعايش المذهبي قراءة في الاستغلال السياسي والتأثير العقدي والفقهي"**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج١٧، ع١، الجزائر، ٢٠١٣، ص ص٢٠١-٢٢٨.

(١٥) لقبال، المرجع السابق، ص ص١٤٥-١٧٥.

(١٦) ترى المؤرِّخة نبيلة عبد الشكور في ملاحظاتها على الكتاب، أنَّ إشارة المؤلف إلى المصادر والمراجع الإباضية بشكلٍ مُنفصلٍ طريقةٌ تعتمدها المدرسة المشرقيَّة، وغير معهودة في المدرسة المغاربيَّة، وعند ذكر المؤلف للمراجع المغربيَّة كان ينبغي له عدم الفصل بين المراجع الإباضية والسُّنية. لكن يبدو أنَّه كان للمؤلف وُجهَةَ نَظَرٍ مختلفةٍ، ربما يدخل ضمن اطارها دراسته بالمشرق من جهةٍ، ومحاولته توضيح الاختلاف بين هاته المصادر أثناء جمعه لمادته العلميَّة لاختلاف منطلقاتها ومرجعيَّاتها، والتي لا شكَّ أنها تختلف وتتباين في تناولها وعرضها للأحداث التَّاريخيَّة. **يُنظر:** عبد الشكور، المرجع السابق، ص١١٢.

(١٧) لا نفهم إشارة المؤلف للمصادر المشرقيَّة بالقديمة، وعدم استعمال نفس المصطلح مع المصادر المغربيَّة، بالرَّغم من أنَّ أصحاب بعض هاته المصادر المشرقيَّة قد عاشوا تقريبًا في نفس الفترة مع أصحاب المصادر المغربيَّة، ونذكر على سبيل المثال: ابن تغري بردي المشرقي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م، وابن عذارى المغربي (٧١٢هـ/١٣١٢م، الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني (ت٩١٤هـ/١٥٠٨م. **يُنظر:** عبد الشكور، المرجع السابق، ص ص١١١-١١٢.

(١٨) لم يُرجِّح المؤلف نَسَبَ موسى بن نصير للاختلاف الواضح بين المؤرِّخين، لكن المشهور أنَّ أبوه نُصير سَبَاهُ خالد بن الوليد في رَهنٍ بعين التَّمر القريبة من الأنبار غربي الكُوفة، فهو عربيٌّ عريقٌ في أصالته كما يقول البلاذري. **يُنظر:** بسَّام العسلي: **مشاهير قادة الإسلام (موسى بن نصير**، ط٧، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧، ص.١٠.

(١٩) لقبال، المرجع السابق، ص ص٨٢-٨٤.

(٢٠) تختلف المصادر اختلافًا كبيرًا في أسباب عزل حسَّان بن النعمان وتاريخه، فيُعزي بعضها السَّبب إلى النِّزاع الذي كان يدور على السُّلطة بين الخليفة عبد الملك بن مروان، وأخيه والي مصر عبد العزيز، وأنَّ الأخير قد عزل حسَّان حيث كان المغرب تابعا لمصر وأراد تولية أحد أتباعه، أو أن السَّبب يعود إلى النِّزاع بين عبد العزيز بن مروان وحسَّان نفسه، بينما تذكر مصادر أخرى أنَّه بوصول حسَّان إلى الشَّام كان الوليد بن عبد الملك قد وُلِّيَ الخلافة ٨٦هـ/٧٠٥م، واستعظم ما قدَّم حسَّان من الأموال والنَّفائس، ويُفهم من تلك النُّصوص أنَّ خلافًا قد حدث حول تقديم الغنائم والأموال. **يُنظر:** أبو محمد عبد الله المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم**، تح: حسين مؤنس، ج١، القاهرة، ١٩٥٤ص٣٦؛ عبد الرحمن ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تح: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥، ص٢٣١، أبو العباس أحمد بن محمد ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تح: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، مج١، ط١، دار الغرب الاسلامي، تونس، ٢٠١٣، ص ص٦٥-٦٦. نقلاً عن: حسن خضيري أحمد، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ط١، مكتبة المتنبي، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٥، ص٥٨-٥٩.

(٢١) لقبال، المرجع السابق، ص٨٤-٨٥.

(٢٢) رواها المؤلف نقلاً عن ابن قتيبة في مؤلَّفه الإمامة والسياسة، وأوضح لقبال أنَّ ابن قتيبة قد سيطرت عليه النَّزعة القصصيَّة، وكان من المعجبين بشخصيَّة موسى ونهجه في العمل، وبَالَغَ كثيرًا في وصف الوضع في إفريقية عند قُدُومِ موسى، كونها وما حولها كانت مناطق خوفٍ وأوكارُ أعداءٍ، وأنَّ عامَّة الجبال والسُّهول كانت حُصُونًا ومراكز حربيَّةً، وهو نفس الرأي الذي نقله حسين مؤنس حيث يقول أن حسان حين دخل البلاد (يقصد المغرب سنة ٨١هـ وجدها مضطربة ثائرة، ووجد أمر الإسلام مشفيا على الزوال، وغادرها سنة ٨٦هـ ولاية إسلامية هادئة، بل تركها وأهلها مقبلون على الإسلام إقبالا عظيما، ويكفي أن نلاحظ أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر حتى تتضح لنا هذه الناحية. **يُنظر:** لقبال، المرجع السابق، ص ص٨٥-٨٧؛ حسين مؤنس، **فجر الأندلس**، ط٣، دار الرشاد، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٤٨.

(٢٣) أشار في إحدى خُطَبِه إلى من سبقه بالعمل في أفريقية "أيُّها النَّاس إنَّما من كان قبلي على أفريقيَّة أحد رَجُلَين: مُسَالِمٌ يُحِبُّ العافية ويرضى بالدُّونِ من العطيَّةَ، ويَكرَهُ أن يُكلَم، ويُحِبُّ أن يَسلَمَ، أو رَجُلٌ ضعيفُ العقيدة، قليل المعرفة راضٍ بالهُوَينَى، وليس أخُو الحربِ إلاَّ من اِكتَحَلَ السَّهرَ، وأحسَنَ النَّظَرَ، ولم يَرضَ بالدُّونِ من المَغنَم..". **يُنظر:** أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء**، تح: علي شيري، ج٢، ط١ محققة ومفهرسة، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠، ص٧٣.

(٢٤) لقبال، المرجع السابق، ص٨٥-٨٧.

(٢٥) نفسه، ص٨٨-٩٠.

(٢٦) هناك اختلافٌ في نَسَبِه، لكنَّ الرَّاجح أنَّه من طبقة الموالي الجُدُد، ويؤكِّد ابن عذارى نسبته إلى قبيلة نفزة البترية، وقد أسلم أباه منذ زمن طويل واندمج مع العرب، استهلَّ طارق حياته السياسيَّة واليًا على منطقة بَرقَة لفترةٍ قصيرةٍ، بعد استشهاد زهير بن قيس على ساحل (درنة، لينضمَّ بعدها إلى جيش موسى بن نصير، ونظرًا لبراعته وشجاعته جعله موسى واليًا على طنجة بعد فتحها. **يُنظر:** لقبال، المرجع السابق، ص٩٢-٩٣.

(٢٧) الأصلُ أنَّ موسى لم يلتف للاثنان، ووجد الحُجَّة أن يسير سَيرَهُ العادي، فإن وَصَلَ والوليد حيٌّ كانت الغنائم له، وإلاَّ فهي لمن يخلفه بالحق والعدل. حسين مؤنس: **فجر الأندلس**، المرجع السابق، ص٩٨.

(٢٨) الأمر فيه اختلافٌ، فحسين مؤنس يقول أنَّ موسى وصل دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يومًا. مؤنس، **فجر الأندلس**، المرجع السابق، ص٩٨.

(٢٩) نفس هذا الكلام وأكثر ذَهَبَ إليه كثيرٌ من المؤرِّخين منهم المقرِّي أيضًا الذي قال: إن سليمان كان يقيم موسى في الشَّمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التَّعب والجُهد، وأنَّه ألزَمَهُ أن يطوف بالقبائل محروسًا يستجديها مالاً يفتدي به نفسه، وهناك من المؤرخين أيضًا من يرى أنَّ سليمان أمَرَ واليه بِتَتَبُّع عبد العزيز وقتله في الأندلس! لكن حسين مؤنس يستبعد صِحَّة ما يُبالغ فيه المؤرِّخون من أفاعيل سليمان، وكل ما يمكن قبوله أنَّ سليمان أهمَلَ موسى وتركه في زوايا النسيان، وما نظن أنَّ رجلاً كهذا يمكن عقابه بأقسى من ذلك، ولا يُستبعد أن يكون سليمان قد لاحظ سِنَّهُ العالية (قارب الثمانين حين عاد من الأندلس فاستحسن أن يُخلِيهِ من العمل، وأن يُبقِيَ ابنيه مكانه في افريقية والأندلس، ولوكان قد أنزل بموسى ما سبق من إساءات لما ترك ولديه واليين على افريقية والأندلس. **يُنظر:** أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، مج١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ص.٢٨٠-٢٨٢؛ مؤنس، **فجر الأندلس**، المرجع السابق، ص٩٨، ٩٩.

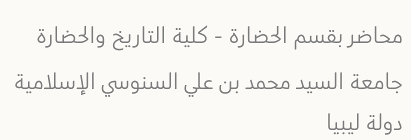
(٣٠) ملاحق الكتاب هي كالتالي: الملاحق من (١-١٠: مقاطع من مصادر ومخطوطات قديمة خاصة بتاريخ المغرب الإسلامي، الملحق١١: قائمة بقضاة ولاة أفريقية (القيروان وتاريخ توليهم منذ عصر موسى بن نصير إلى قيام الدولة الأغلبية (٨٠-١٩٠هـ ص١٩١، ملحق١٢: ولاة أفريقية والأندلس في العصر الأموي ص١٩٣–١٩٥، ملحق١٣ ويتضمن: ثبت ببعض المعالم الأثرية في عصر الفتح ص١٩٦، صور أثرية لمسجد سيدي عقبة (بسكرة ص٢٠٣، خريطة لأهم قبائل فرع البرانس ص٢٠٤، خريطة حواضر المغرب الإسلامي ص٢٠٥، ملحق١٤: مقطع من تاريخ ابن الصغير المالكي (ق٣هـ حول ولاية عبد الرحمان بن رستم، ص١٩٨–٢٠٢.

(٣١) والتي تم تحميلها عبر الرابط الإلكتروني:

https://down.ketabpedia.com/files/bkb/bkb-hi08686-ketabpedia.com.pdf

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

إدخال العلوم العربية إلى إقليم اللورين
في القرن العاشر الميلادي



حسين حمد حسين الفقيه
محاضر بقسم الحضارة - كلية التاريخ والحضارة
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية
دولة ليبيا

المقال

James Westfall Thompson, "The introduction of Arabic science into Lorraine in the tenth century".- ISIS International Review devoted to the History of Science and Civilization. Quarterly Organ of the History of Science Society. No. 38 (Vol. XII,2) 1929. Pp. 184 - 193.

*إن هذا البحث مستل من مجلة إيزيس (**ISIS**) المجلد (١٢). العدد (٢) الصادر في عام ١٩٢٩م. وهي مجلة أكاديمية دولية مخصصة لتاريخ العلوم والحضارة، وهي مجلة فصلية ربع سنوية تابعة لجمعية تاريخ العلوم الأمريكية، وتصدر عن مطبعة جامعة شيكاغو، الولايات المتحدة الأمريكية. وتحتوي المجلة في مواضيعها على بحوث متخصصة في تاريخ العلوم عامة، وتاريخ العلوم عند المسلمين خاصة. وكان يتولى الإشراف على هذه المجلة وتحريرها المستشرق الشهير الدكتور: جورج سارتون. دكتوراه في العلوم وزميل مؤسسة كارنيجي بواشنطن. ويناقش هذا البحث دراسة عن إحدى الطرق التي انتقلت بها العلوم العربية الإسلامية من الأندلس والمشرق الإسلامي إلى إقليم اللورين الفرنسي، حيث كان هذا الانتقال هو المهد الرئيس لظهور حركة النهضة العلمية في أوروبا وازدهارها. واعتمد المستشرق في بحثه على منهجية البحث السردي النقلي التحليلي المقارن، حيث استخدم في دراسته المصادر التاريخية لعدة مؤرخين من الأوروبيين، بالإضافة إلى اعتماده على عدة مؤلفات لمستشرقين سابقين ناقشوا هذا الموضوع.*

بيانات المقال:

تاريخ استلام الترجمة:	١٠	سبتمبر	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٣١	أكتوبر	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:
العلوم العربية؛ الأندلس؛ المشرق الإسلامي؛ إقليم اللورين؛ النهضة العلمية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.415760

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:
جيمس ويستفول تومسون."إدخال العلوم العربية إلى إقليم اللورين في القرن العاشر الميلادي"، ترجمة: حسين حمد حسين الفقيه.- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ٢٠٣ – ٢٠٩.

Corresponding author h.alfageeh.s@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

"حتى القرن الثاني عشر، يبدو أن نصيب إسبانيا المسيحية في نشر المعرفة العربية كان ضئيلًا. وبشكل عام، لم يبدأ إغراء إسبانيا في العمل إلا في القرن الثاني عشر. [ولكن] اكتشاف الأدلة من القرن العاشر الميلادي (٩٨٤م) يتطلب إعادة فتح السؤال".(١)

إن الغرض من هذه المقالة القصيرة هو إظهار أن الطريق الفكري بين إسبانيا وأوروبا خارج جبال البرانس، والذي يعود تاريخه إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، لم يُغلق بالكامل؛ فقد تم إدخال العلوم العربية إلى مدارس اللورين وتم تربيتها هناك قبل جيربرت. وبقدر علمي، لم يتم حتى الآن تفسير متى وكيف وجد العلم العربي طريقه لأول مرة إلى إقليم اللورين، على الرغم من أن علماء آخرين قبل الأستاذ هاسكينز اعترفوا بتفوق رجال الكنيسة اللوثارينغيين في القرن الحادي عشر في علم الرياضيات وعلم الفلك.(٢)

إن الرابطة الفكرية بين إسبانيا وبلاد الغال، والتي كانت وثيقة في العصر الإمبراطوري، لم تتكسر بسبب الغزوات البربرية. بل على العكس من ذلك، فإن حقيقة أن هيمنة القوط الغربيين سادت لمدة قرن تقريبًا على جانبي جبال البرانس عززت هذه العلاقة بشكل أكبر، واستمرت العلاقة الفكرية بين البلدين طوال القرون السادس والسابع والثامن الميلادية.

إن تاريخ أقدم ثلاث مخطوطات من الفولجاتا يلقي بعض الضوء على هذه المسألة. فقد أظهر الأستاذ إي. كيه. راند، في نقده الرائع لمذكرات دوم كوينتين عن نص الفولجاتا(٣)، أن "التراث بأكمله يعتمد على ثلاثة كتب قديمة": الأوتوبونيانوس (saec. vil)، والتورونينسيس (saec. vil)، والأمياتينوس (saec. vil). وهناك مجموعة إسبانية ومجموعة كاسينية ومجموعة إيطالية من مخطوطات الفولجاتا مستمدة من هذه النصوص الأصلية. ولكن بما أن المجموعة الكاسينية مستمدة من نص إسباني، و"زعيمة المجموعة الإسبانية هي التورونينسيس"(٤)، فمن الواضح أن التراث الإسباني فيما يتعلق بمخطوطات الفولجاتا هو السائد(٥). وقد استمدت طبعة السيد ألكوين الخاصة من الفولجاتا من أمياتينوس، المخطوطة الشهيرة التي جُلبت من إيطاليا إلى نورثمبريا وأُعيدت مرة أخرى إلى إيطاليا. كان السيد ألكوين يعرف فن القواعد النحوية لجوليانوس الطليطلي (حوالي ٦٨٠-٦٨٧م)، والتي كانت معروفة أيضًا في وقت سابق لكل من بيدا وألدهلم(٦).

ونشأ النفوذ الإسباني شمال جبال البرانس نتيجة لغزو شارلمان للمنطقة الواقعة شمال نهر إيبرو، واتحادها مع الإمبراطورية الفرنجية. وكان رجال الدين الإسبان مثل ثيودولف من أورليانز وكلاوديوس من تورينو ممثلين أقل بروزًا لنهضة الكارولينجيين من السيد ألكوين(٧). ولا يوجد أثر لأي عالم إسباني في بلاط الملك شارل الأصلع (٨٤٠-٧٧)، ولكن "مذكرات المحاضرات" لمارتن الطليطلي تمتعت بنفوذ كبير وشعبية كبيرة في مدارس بلاد الغال في القرن التاسع. وقد عُثر على أجزاء منها في مخطوطة من القرن العاشر الميلادي كتبت في إسبانيا، وفي مخطوطة بودليانية تعود إلى نفس التاريخ تقريبًا(٨).

وقد وجدنا دليلًا إضافيًا على العلاقة الفكرية الوثيقة بين الفرانكيين الغال وإسبانيا في تاريخ مخطوطة ليون.(٩) وهناك عدد غير عادي من هذه المخطوطات في ليون من أصل إسباني، ويبدو أن مجموعة من الرهبان أو رجال الدين الإسبان كانوا يقيمون في ليون في القرن التاسع.(١٠) والرمز التمهيدي لكلمة: (per)، وهو شائع في مواثيق الفرانكيين في القرن الثامن، "يشكل سمة دائمة للخط" في المخطوطات القوطية الغربية.(١١) وهناك أيضًا دليل على بقاء خصائص الكتابة القديمة القوطية الغربية.(١٢) وفي اللوحة الحادية والعشرين (القرن التاسع) "كانت الكتابة معاصرة للخط القوطي الغربي، ويبدو أنها كانت تعمل تحت تأثيره مباشرة. وربما كان النموذج قوطيًا غربيًا".(١٣) اللوحة الرابعة والعشرون مأخوذة من المخطوطة الشهيرة لقانون القوط الغربيين (Lex Romana Visigothorum) على الرغم من أن المخطوطة نفسها من تنفيذ فرانك.

علاوة على ذلك، يجب ألا ننسى أن برودنتيوس، أسقف تروا وأول مؤلفي الحوليات الثلاثة سانت بيرتينياني (٨٣٥-٨٦١م) كان أسبانيًا. ويخبرنا أنه في عام ٨٥٨م، جاء راهب معين من دير القديس فنسنت الشهيد في قرطبة إلى بلاد الغال حاملًا معه رفات ثلاثة شهداء أسبان.(١٤) في عام ٨٦٤م، أرسل شارل الأصلع سفيرين إلى خليفة قرطبة، الذي عاد إلى كومبيين في العام التالي مع هدايا كثيرة، أي جمال تحمل سلالًا وفرشًا بأنواع مختلفة من القماش وعطور كثيرة.(١٥)

لقد استمرت هذه العلاقة التقليدية بين الكارولينجيين وإسبانيا حتى القرن العاشر الميلادي. وتحتوي أرشيفات برشلونة على ٤٥ ميثاقًا كارولينجيًا بين عامي ٩٣٠م و٩٦١م، وتحتوي أرشيفات فيش على ١٣ ميثاقًا آخر.[١٦] وفيما تبقى من القرن العاشر، تضاءل اتصال فرنسا بإسبانيا الإسلامية، ولم يُستأنف إلا مع بداية الحروب الصليبية الإسبانية.

من المسلم به أن هذا الدليل ليس كبيرًا فيما يتعلق بالعلاقات الفكرية بين فرنسا وإسبانيا المسيحية أو الإسلامية في القرنين التاسع والعاشر. ومع ذلك، تتبعت الأفكار طرق التجارة والبريد.

نحن على أرضية أكثر صلابة عندما نستقصي العلاقة بين ألمانيا الساكسونية، أي ألمانيا في عهد أوتو الكبير (٩٣٦-٩٧٣م) وإسبانيا الإسلامية. يسرد ويدوكيند المؤرخ الساكسوني في ذلك الوقت قائمة طويلة من الواردات الشرقية التي جُلبت إلى ألمانيا من الأراضي المسلمة. إنه لا يذكر على وجه التحديد أنها من إسبانيا الإسلامية؛ ولكننا نعلم من أدلة أخرى أن بعض هذه السلع جاءت من الخلافة الغربية.[١٧] وقد كتب ليوتبراند كتابه "Antapodosis" بناء على طلب ريسيموندوس، أسقف إلفيرا، الذي أرسله الخليفة عبد الرحمن الثالث سفيرًا إلى أوترو الأول في عام ٩٥٦م، والذي التقى به ليوتبراند عندما كان البلاط الألماني في فرانكفورت.[١٨] ولا شك أن ليوتبراند علم من الأسقف بانتصار راميرو الثاني ملك ليون على المسلمين في عام ٩٣٩م،[١٩] وتلك الغارة المذهلة التي شنها المجريون على شبه الجزيرة في أوائل القرن العاشر، والتي ذكرها المؤرخ العربي المسعودي.[٢٠]

كانت هذه الزيارة الدبلوماسية التي قام بها أسقف إلفيرا إلى ألمانيا بمثابة رد الخليفة الإسباني على السفارة التي أرسلها أوتو الأول إلى إسبانيا الإسلامية قبل ثلاث سنوات. في تلك الأوقات لم يكن المسلمون يحتلون إسبانيا كلها تقريبًا وصقلية بالكامل فحسب، بل كانوا أيضًا قد وسعوا سيطرتهم على بروفانس من مرسيليا إلى غرونوبل. والواقع أنهم كانوا يسيطرون على معظم الممرات الألبية، بل وحتى بييمونتي وسويسرا الألمانية التي دمروها. بالإضافة إلى ذلك، أرعب قراصنتهم غرب البحر الأبيض المتوسط، وهاجموا مرارًا وتكرارًا مدن ساحل الريفييرا.[٢١]

ورغم أن أوتو الأول لم يكن قد وسع بعد السيطرة الألمانية جنوب جبال الألب، إلا أنه كان مهتمًا بشدة بالشؤون الإيطالية، وبالتالي قرر في عام ٩٥٣م إرسال سفير إلى قرطبة بهدف الحد من هذا الشر. ووقع اختياره على الراهب جون من دير غورز بالقرب من ميتز في اللورين.[٢٢]

إن جون الغورزي - الذي لم يعين رئيسًا للدير حتى عام ٩٦٠م - هو شخصية مهملة في الحركة الفكرية في القرن العاشر. فقد أسس الدير في منتصف القرن الثامن شرودوغانج أسقف ميتز، ولكنه سقط في الاضمحلال كما حدث مع كل الرهبنة، خلال القرن التاسع. وفي عام ٩١٩م، ولأن الدير كان بلا أسوار، فقد نهبه المجريون. وبدأ تعافي دير جورز مع حركة الإصلاح الرهباني التي بدأها جيرارد البوروني في برابانت في الربع الأول من القرن العاشر الميلادي، والتي انتشرت من هناك إلى منطقة الراينلاند وروَّج لها دير برونو أو كولوني. وأصبح دير جورز المقر الرئيس لهذا النشاط، لدرجة أنه يُعرف أحيانًا باسم الإصلاح الجورزي.[٢٣]

وقد أدى هذا الإصلاح الأخلاقي في اللورين سريعًا إلى نهضة فكرية في الأديرة، التي أصبح دير جورز منارة رائدة لها. ففي جدرانه المضيافة اجتمع الرهبان العلماء من ميتز، وتول، وفردان، وبورغوندي، مع زائرين من إنجلترا، وأيرلندا، وأسكتلندا، وكالابريا من حين إلى آخر.[٢٤] وفي منتصف القرن العاشر، كانت هناك مجموعة متجانسة من الرهبان ورجال الدين العلماء المهتمين بالرياضيات والفلك والموسيقى في ميتز وما حولها. ومن بينهم ساليشو، كاتب دير القديس مارتن "وراء نهر موسيل"، وباندينكوس، كاهن القديس سيمفوريان "خارج البوابة الجنوبية للمدينة"، وبرناسير، "الماهر في الحساب والموسيقى"، الذي كان شَمَّاسًا في دير القديس ستيفن، وروتلاندوس، راعي كاتدرائية ميتز، وواريمبيرتوس، أحد قساوسة نفس الكنيسة، والأكثر إثارة للإعجاب، بعض الراهبات من دير محلي من بينهن الأخت جيسا.[٢٥]

لا بد أنه كان يومًا عظيمًا لهذه المجموعة عندما عاد فيه جون الغورزي من رحلة طويلة قام بها هو وصديقه بيرناسير إلى إيطاليا، حيث زارا روما ومونتي كاسينو ونابولي - حيث شاهدا المخروط الدخاني لبركان فيزوف بدهشة - ومونتي جارجانو وبينيفينتو وبوليا.[٢٦] ومن

إيطاليا السفلى، التي كانت في ذلك الوقت غنية بالتقاليد والثقافة اليونانية كما يعلم كل باحث، أحضر جون معه مخطوطات ثمينة إلى دير جورز، من بينها كتاب "المقولات" لأرسطو، وكتاب "إيساغوجيا" لبورفيري.[٢٧] ولم يكن الفضل في إحياء الحضارة اليونانية في ألمانيا السكسونية يرجع بالكامل إلى زوجة أوتو الثاني البيزنطية وتلميذها جون من كالابريا.

ولا نعلم ما إذا كان جون الجورزي قد اكتسب بعض المعرفة باللغة العربية أثناء رحلته إلى إيطاليا. ولكن من المؤكد أن خبرته كرحالة وثقافته الواسعة جعلته الشخص الأكثر تأهيلًا ليوظفه أوتو الأول عندما أراد إرسال سفير إلى قرطبة في عام ٩٥٣م. ومن المؤسف أن السيرة الذاتية ليست مليئة بالمعلومات عن رحلة جون إلى إسبانيا كما هي الحال بالنسبة لرحلاته في إيطاليا السفلى، ولا يوجد سجل إسباني يكملها مثل سجل فولتورنو. ولكن هناك معلومتان ثمينتان. في إسبانيا الإسلامية التقى جون الجورزي بيهودي إسباني يدعى هاسبيف، الذي كان يفهم اللاتينية، وكان بالطبع على دراية باللغة العربية،[٢٨] والأسقف ريسوموندوس الذي كان مرشدًا وصديقًا لجون في المفاوضات الصعبة مع الخليفة، كما قيل لنا، كان «متعلمًا جيدًا في أدبنا وأدبه، وكان منهم من يتقن اللغة العربية».[٢٩]

أقام جون في قرطبة صداقة حميمة مع هذين الرجلين لمدة ثلاث سنوات تقريبًا. ولم يُسجل ذلك صراحة، ولكن من المستحيل ألا نصدق أن رجلًا ذا ذكاء وثقافة كبيرين، واهتمام عميق بالرياضيات والفلك، قد أحضر معه إلى جورز من قرطبة بعض المخطوطات العربية ذات الطبيعة العلمية، كما أحضر في السابق مخطوطات مماثلة من إيطاليا السفلى.[٣٠] وعلاوة على ذلك، فإننا محقون في استنتاج أن جون الجورزي اكتسب بعض المعرفة باللغة العربية أثناء وجوده في إسبانيا من اليهود الإسبان الذين يفهمون اللاتينية.

"في حين أننا نفتقر إلى أدلة إيجابية على متابعة العلوم العربية في مدارس لورين في السنوات التي أعقبت عودة جون من جورز من إسبانيا مباشرة، فإن الأدلة البناءة تشير إلى ذلك، ويؤكدها المنطق العكسي. كيف يمكننا تفسير حقيقة أن "اللورين... في القرن الحادي عشر كانت المركز الرئيس لدراسة المعداد، وأنتجت علماء رياضيات بارزين مثل هيريجر من لوبس، وأدلبولد من أوتريخت، وريجينالد من كولونيا، ورالف وفرانكو من لييج"؟.[٣١] أو كيف يمكننا تفسير انتقال المعرفة العربية عبر القناة إلى إنجلترا في أشخاص مثل روبرت دي لوسينجا، الذي أصبح أسقف هيريفورد، ووالشر من مالفرن، ووالتشر من دورهام، وتوماس من يورك، وسامسون من ورسيستر؟.[٣٢]

إنني على قناعة بأن مدارس اللورين في النصف الأخير من القرن العاشر كانت بمثابة البذرة التي نبتت فيها بذور العلم العربي لأول مرة في أوروبا اللاتينية، والتي انطلقت منها المعرفة إلى أجزاء أخرى من ألمانيا - ويشهد على ذلك هيرمان كونتراكتوس في رايشناو - إلى فرنسا، وخاصة إلى إنجلترا، بسبب تفضيل الملك كنوت العظيم لرجال الكنيسة اللوثارينجية.

ومع ذلك، فحتى عهد أديلارد من باث، كانت المعرفة العربية لا تزال قليلة الانتشار في المسيحية الغربية إلى الحد الذي جعل غيبير دي نوجنت يكتب: «إن العلوم الفلكية لا تزال نادرة وأقل شيوعًا بين الغربيين، والتي تعود إلى أصولها المشرقية ومعروفة بأنها أشد حماسة عند المشرقيين، حيث نشأت من المعرفة المستمرة والحفظ المتكرر».[٣٣] - وهو إعلان جدير بالملاحظة سواء من حيث اعترافه بقيمة المعرفة الجديدة أو من حيث تقديره للعرب.

إن كل ما نعرفه عن العلوم العربية قد ازداد بشكل كبير خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر. ولعل دير كلوني العظيم كان له دور لم يلق التقدير الذي يستحقه. فقد كتب أودون رئيس دير كلوني كتابه: (Compotus) والعديد من المؤلفات عن الموسيقى، وربما استقى بعض المعلومات الواردة فيه من مصادر عربية أتيحت له في ترجمة لاتينية عندما كان في ساليرنو.[٣٤] ولكن بصرف النظر عن هذا، فإن دير كلوني كان المروج الأعظم للحروب الصليبية الإسبانية في القرن الحادي عشر،[٣٥] ولابد أن مكتبته، على الرغم من أن الكتالوج لا يقدم لنا أي معلومات واضحة بهذا الشأن، قد استفادت من اقتناء المخطوطات الإسبانية والعربية.[٣٦] والحقيقة أن رعاية بطرس المبجل، حوالي عام ١١٥٠م، لترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية تشكل دليلًا آخر على اهتمام كلوني بالمعرفة العربية. وكان عدد الرهبان الإسبان في كلوني في القرن الحادي عشر كبيرًا إلى الحد الذي جعل الطقوس الإسبانية تُقام هناك بانتظام.[٣٧]

ملاحظة:

كانت المجتمعات اليهودية في ليون ومرسيليا وبوردو في القرن التاسع، وما بعده، على علاقة تجارية مع إسبانيا وإيطاليا والمشرق الإسلامي. وهذا ينطبق بشكل خاص على يهود ليون. احتج أغوبارد من ليون (توفي عام ٨٤٠م) في رسالته الجدلية بعنوان: "في وقاحة اليهود De insolentia Judacorum"[*] على ذهاب وإياب اليهود الإسبان بين إسبانيا ومملكة الفرنجة؛ وتدعم مصادر أخرى هذا الدليل.[**] ويساهم كتاب: "تاريخ الفن في العصور الوسطى The history of art in the Middle Ages" أيضًا في هذه المعلومات. ففي عمله الأخير الرائع "الفن وفناني العصور الوسطى L'Art et les artistes du moyen âge 1927" المنشور سنة (١٩٢٧م)، وأجرى السيد إميل مالي في فصلين بعنوان: "مسجد قرطبة وإسبانيا العربية، والفن الروماني Mosquée de Cordoue and L'Espagne arabe et l'art roman"، دراسة مقارنة للآثار الواقعة شمال وجنوب جبال البرانس، وهو ما فتح أفقًا جديدًا. كما أظهر أن العلاقات بين فرنسا المسيحية وإسبانيا الإسلامية كانت أكثر تواترًا وأكثر حميمية مما كنا نعتقد حتى الآن. كما استشهد بالعديد من الأدلة على وجود الرهبان في قرطبة في القرن التاسع؛ والأديرة الكلونية في أراغون وقشتالة وليون؛ وحي فرنسي في طليطلة؛ والأكثر إثارة للدهشة، أولئك العرب الإسبان الذين أرسلوا الهدايا إلى العذراء في بوي. وكانت كاتدرائيات ميدي تقع على طرق يتبعها الآلاف من الحجاج، وكانت الزخارف المعمارية مستعارة من مساجد شبه الجزيرة.

جيمس ويستفول تومسون

قد يكون اليهودي هاسدي المذكور في النص هو نفسه العظيم "حسداي بن شبروط"، الذي توفي في عام ٩٧٠م أو ٩٩٠م في قرطبة. انظر مقدمتي (المجلد ١، ٦٨٠). والصحيح أن اسم حسداي لم يكن غير شائع في إسبانيا اليهودية.

جي إس.

الإحالات المرجعية:

(1) Haskins, Studies in the history of medieval science, 8-g and note 20.

(٢) ويرى الأستاذ هاسكينز، على خلاف السيد ريجينالد لين بول، أن إدخال أداة المعداد إلى إنجلترا يرتبط بالحركة التي ربطت إنجلترا بمدارس اللورين، المرجع السابق، ص ٣٣٣. وفي موضع آخر، أثناء كتابته أطروحة عن الإسطرلاب، المنسوبة إلى جيربرت أو هيرمانوس كونتراكتوس، والتي تحتوي على العديد من الكلمات العربية، يلاحظ الأستاذ هاسكينز أنه من الواضح أن «معرفة هذه الأداة انتقلت بطريقة غير معروفة إلى أوروبا اللاتينية خلال القرن الحادي عشر الميلادي»، المرجع السابق، ص ١١٥. وأعتقد أن المقالة الحالية تظهر احتمالية أن تكون هذه المعرفة قد ترسخت في اللورين في منتصف القرن العاشر الميلادي.

(3) Harvard Theological Quarterly, XVII, 212.

(4) op. cit. 212.

(٥) في عهد شارلمان، أعد ثيودولف، أسقف أورليانز ومواطن إسباني، نسخة خاصة به من الفولجاتا. ووفقًا لبرغر، كان لدى ثيودولف نص إسباني مفقود قبل الآن (ثيتا)؛ ووفقًا لدوم كوينتين، كان هذا النص هو أوتوبونيانوس؛ ووفقًا للأستاذ راند، لا يمكن دعم النظرية القائلة بأن نص أوتوبونيانوس هو السلف المباشر لثيتا. ويعتقد أن ثيودولف كان يمتلك "نسخة من شكل إسباني من النص غير مشتق مباشرة من أوتوبونيانوس ولكن مرتبط به"، المرجع السابق. ٢٣٦.

(6) Berson, Miscellanea Franz Ehrie, Rome, 1924.

(٧) لقد أوضحت في مقالتين في مكان آخر الاهتمام الكبير الذي أبدته إمبراطورية الفرنجة بإسبانيا في عهد الملك لويس الورع (٨١٤-٨٤٠م) عن "أصل كلمة جوليارديا"، (Studies in philology XX, 83-98; "The manuscripts of EINHARD's Vita Karoli", Mélanges Henri Pirenne, 519-32). وللتعرف على العلاقات التجارية بين إمبراطورية الفرنجة وإسبانيا الإسلامية، انظر مقالتي: (Economic and social history of the middle ages, 236-37, 258-59).

(8) Letstner, «The revival of Greek in western Europe in the Carolingian age», History, October 1924, 184.

(9) See Taret, «The scriptorium of Lyons» in Linpsay, Paleographica Latina, II, 66 f. and especially E. A. Lowe, Codices Lugdunenses antiquissimi, Lyons 1924.

(10) Lowe, op. cit. 16.

(11) Lows, op. cit. 33.

(١٢) Lows, op. cit. Plate xx1, p. 39. "إنها كتابة قوطية غريبة من القرن التاسع. "ربما لدينا هنا عمل رجل دين تلقى تعليمه في إسبانيا وقد تم محو خصائصه الفطرية من خلال إقامته في ليون".

(13) Lowe, op. cit. 39.

(١٤) كان آرمون أو القديس جيرمان دي بري (توفي عام ٨٩٦م) مؤلف عملين لإحياء ذكرى هذا الحدث: Historia translationis S. Vincentii ex Hispania in Castrense Gallia monasterium (855))، مكتوبًا بالنثر والشعر. ونشر وينترفيلت، الشاعر اللاتيني الرابع، ١٣٨-١٤٠، طبعة جيدة من النص. ولكن لا يوجد أي نص جيد

لعمله الآخر: De translatione SS. witnessum Georgii monachi, Aurelii et Nathalie ex urbe Corduba, Micne, Pat. Lat. CXIV, 939-60. ولم تتم دراسة أي من هذين العملين بعناية للحصول على معلومات حول العلاقات الفكرية بين إسبانيا وفرنسا قبل زمن جيربرت.

(١٥) Annal. Bertin, 865. يمكننا استكمال هذا الدليل بميثاق تشارلز الأصلع لعام ٨٥٩ لأوريولوس، والذي تم حفظ أصله في أرشيفات دوق ميديناسيلي، caja 3A. See Catmette, La diplomatie Carolingienne, 63, note 3.

(16) Lauer, Le régne de Louis d'outremer, 305-11.

(١٧) الهدايا بمختلف أنواعها، أواني الذهب والفضة، والنحاس أيضًا، وتشكيلة رائعة من الأعمال المتميزة، والأواني الزجاجية، والعاج أيضًا، وجميع أنواع القش المعدل، والبلسم، وجميع أنواع الأصباغ، والحيوانات لم تكن معروفة من قبل للساكسونيين والأسود والجمال والقرود والنعام. راجع: widukind, Rerum gestarum saxonicarum, III, 57. Cf. G. Jacos, « Arabische Berichte von Gesandten an German. Fiirstenhéfe », Quellen z. deutsch. Volkskunde (1927), Heft 1.

(18) J. Becker, Die Werke Liutprands von Cremona, Einleitung, viit-1x (1915). On ABDERRAHMAN III see A. Mutier, Der Islam im Morgen- und Abendland (Berlin, 1887). II, 96 f; G. Drercxs Geschichte Spaniens, I, 259, f. (Berlin 1894).

(19) Scuarer, Gesch. von Spanien, 11, 183 f.; Muuer, op. cit. II, 522; Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, I, 39.

(20) ed. MARQUART, 150, 159.

(21) See Sackur, Die Cluniacenser, 1, 222-30; PoupARDIN, Le royaume de Provence sous les Carolingiens, 243-73; KELLER, « Der Einfluss der Sarrazen in die Schweitz », Mittheil. der antiq. Gesellschaft in Ziirich, X1, 14.

(22) The Life of Joun or Gorze, De vita Yoannis abbatis Gorziensis, was written soon after his death in 974 by his friend Jouhn, abbot of St. Arnulf in Metz. It may be found in MGH. SS. IV, 337-47 and in Micne, Patrologia Latina, CXXXVII, 421-310. The best account of John or Gorze is in Sackur, op. cit. I, 146-56; II, 358-61. See also Streber, « Abt Johannes Von Goorze » in Wetzer's Kirchenlexicon, 2d ed. VII, 1684-86, and Scuuuze, « War Johannes von Gorze historischer Schrifsteller? », Neues Archiv, IX (1884), 497-512. I have not seen Maruieu, Johannis abbatis Gorziensis vita (Nancy, 1878). The history of Gorze has been written by Lacer: « Die Abtei Gorze in Lothringen.» Studien und Mittheilungen aus dem Benedict- und Cisterc. Orden, VIII (1887), 32-56, 181-92, 328-47, 540-74. The Ms. cartulary, still unpublished, is in Bibliothéque Nationale, No. 5436, of which a description may be read in Champollion-Figeac, Documents inédits II, cx1v Cf. Sackur, op. cit. II, 127.

(٢٣) لمزيد من التفاصيل انظر: Feudal Germany, 57-62; Sackurr, op. cit. I, 150 f.

(24) Istuc congregavit de Graecia videlicet, Burgundia ac de penitus toto divisis orbe, Britannia, Mettensibus, Tullensibus, Verdunensibus — Miracula S. Gorgonii, c. 26 SS. IV, 246. Coetum quoque Grecorum ac Scottorum agglomerans non modicum propriis alebat stipendiis commixtum diversis lingue populum — Vita Gerardi episcopi Tullensis (963-94), SS. IV, 486, c. 19; Nam Scotti et reliqui sancti peregrini semper sibi dulcissimi habebantur, Vita Adalberonis I] episcopi Mettensis (984-1005), SS. 1V, 659 f., c. 26; Cf. Sackur, op. cit. I, 146-49; II, 358-62.

(25) Vita foannis Gorz. caps. 17, 33, 41, 43, 52.

(٢٦) هناك تلميحات إلى هذه الرحلة في: Vita, caps. 24, 33, 38, 52. وربما زار جون وصديقه أيضًا ساليرنو، حيث أقام أودون أو كلوني في عام ٩٤٠م، وحيث كتب فيتا – (Sackur, op. cit. 1, 337, 344, and in: Neues Archiv XIV, 105). هنا كان الدوق الرئيس، الذي كان اسمه جون، معروفًا باهتماماته العلمية – (Vita Odonis, prolog; Backur, op. cit. I, 112, 359). ملاحظة ٢. حول المدرسة في ساليرنو، انظر: (C. and D. Srncer, « The school of Salerno », History, Oct, 1925, 242 f).

(27) Vita caps, 24, 33; Chron. Vulturn, Muratori, SS. I, b, 422; Cf. Sackur, op. cit. II, 358; Hauck, Kirchengeschichte Deutschlands, III, 351; Gisebrecht, Kaiserzeit, 11, 745, 779, 785 (sth. ed.); Abbo or Fleury, a little later than this — he died in 1004 — had an example of Aristotle's Categories, Sackur, op. cit. II, 345. The Categories and Isogogia were both in the library of Montier-en-Der when Adso was abbot there (died 992). Sackur, op. cit. II, 362. The catalogus which he compiled has been published by Omont, Bib. de l'Ecole des chartes, 1882, p. 157 f.

(28) Vita, c. 121. On Spanish Jews who understood Latin see Dozy, Recherches, I, 87; Lager, op. cit. 189-92.

(29) Vita, c. 128.

(٣٠) يتساءل المرء في هذا الصدد عما إذا كان جيربرت قد حصل فيما بعد على بعض المخطوطات العلمية العربية من جورز. فقد اضطر إلى الفرار من فرنسا في ربيع عام ٩٩٧م، ومنحه أوتو الثالث إقليم ساسباخ بالقرب من ستراسبورغ، حيث كتب رسالة نيابة عن الكونت هيرماندوس، وربما كان هيرمان شقيق أداليبرون، أسقف فردان، الذي كان يتعرض للحرب من قبل تييري كونت ميتز ودوق لورين العليا - انظر: Lot، Hugues Capet 290، 291، 294؛ Lettres de Gerbert، ed. Haver، No. 182. ويتضح أن جيربرت كان مهتمًا بالرياضيات في هذا الوقت من خلال رسالته رقم ١٨٦ إلى أوتو الثالث حيث كتب أنه يرسل له نسخة من كتاب حساب بورتويوس. فهل تكون هذه المخطوطة مطابقة لتلك الموجودة الآن في مكتبة بامبرج، HJ. IV، 12، والمكتوبة على ما يبدو في القرن العاشر، قد نشأت في جورز؟

(31) Haskins, op. cit. 334.

(٣٢) حول كل هذه المخطوطات، انظر: (Haskins, op. cit. 334). لم يكن الأخيران من مواطني اللورين ولكنهما تلقيا جزءًا من تعليمهما في المدارس اللوثارينجية.

(33) Recueil des croisades, Hist. Occident, IV, 246. Cf. III, 814; IV, 193.

(34) Mr. HENRY G. FARMER, The Arabian influence on musical theory, Journal Royal Asiatic Society, Part I (1925) makes no mention of ODO OF CLUNY as a writer upon music, yet his writings on this subject are voluminous. They are to be found in MIGNE, Pat. Lat. CXXXIII.

(35) See SACKUR, op. cit. II, 101-13; BOISSONADE, Du nouveau de chanson de Roland.

(36) See DELISLE, Catalogue des manuscrits, II, 499 f. For Cluny's share in the loot of the Saracens in Spain see RODOLFUS GLABER, Historiarum Libri, ed. PROU, bk. rv, cap. 7. p. 101. Cf. SACKUR, Neues Archiv, XIV, 405 and his Die Cluniacenser, II, 112.

(37) ROD. GLABER, op. cit. III, 3, p. 62.

(*) MIGNE, Pat. Lat. CIV. Cf. AGOBARDI, Epist. 4, 6, 7, 8, 9, 10: MGH. Epist. Merov. et Karol. avi, III.

(**) MGH. Formula, ed. ZEUMER, 309, 325. Cf. ARONIUS, Die Regesten zur Geschichte der Juden... bis zum 1273, 81, 82.

Articles
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

The Presence of Riffian Mines in the Amazigh Oral Heritage and its Socio-Historical Dimensions



Dr. Jamal Dine Essarraje
Professor of higher education
Mohammed first University
Oujda - Kingdom of Morocco



Dr. Mounir Kalkha
Regional Academy of Education and Training for the eastern region
Nador - Kingdom of Morocco

ABSTRACT

The eastern countryside was officially incorporated into the Caliphate region in 1912 A.D. Subsequently, the Spanish administration-initiated settlement projects to exploit the countryside's resources and wealth, particularly the minerals that the region had accumulated. Spain's pursuit of mineral wealth was pivotal in colonial intervention and settlement near mining areas. This led to the formation of numerous representations among the tribe's people about the colonial exploitation of their wealth and the ensuing social, cultural, and historical changes. These transformations can be traced through the region's oral heritage, especially lyric poetry, folk tales, and inherited oral narratives. The Qaliya tribe's oral heritage offers a unique perspective on the socio-economic impact of colonial intervention, revealing the community's representations and experiences of mineral exploitation. It is crucial to emphasize that the oral heritage of the Qaliya tribe is not just a supplement to historical documents but a fundamental tool for comprehending the region's history. It is a testament to the tribe's remarkable resilience and cultural richness, a living narrative that has withstood the test of time. The oral transmission of events and facts provides a unique perspective on the tribe's history, offering a starting point for reinterpretation. Therefore, oral heritage plays a pivotal role in the historiography of periods that constituted historical turning points, the impacts of which are still present in the collective mind-set of the Rifian tribes, particularly the Qaliya tribe, whose mountains harboured abundant mineral resources, with iron being the most significant. From this standpoint, this paper aims to reveal aspects of the representations of the Qaliya tribe community regarding mineral exploitation and the areas of its presence based on the oral heritage in the region. The lyrical heritage, which serves as a signalling factor, leads to the identification of this tribal Amazigh community socially and culturally. This is done through a socio-historical approach, which enables monitoring the transformations of this society, its representations, and its socio-cultural characteristics. The Qaliya tribe relied primarily on oral memory to preserve its identity and cultural specificity; as such, it offers a unique and intriguing insight into these transformations through their oral heritage. We will try to prove this by focusing on using lyric poems (Izran) inherited within the tribe to monitor aspects of the history of the Qaliya community, the traces of which are still engraved in the memory of the region.

Keywords:

oral heritage; Izran; mines; countryside; Qaliya

Article info:

Received: 07 July 2024
Accepted: 09 Augusts 2024
DOI: 10.21608/kan.2024.291105.1166

Citation:

Mounir kalkha, Jamal Dine Essarraje, "The Presence of Riffian Mines in the Amazigh Oral Heritage and its Socio-Historical Dimensions".- Historical kan Periodical. - Vol. (18) Issue (67); March 2025. Pp. 210 – 217.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mounir.kalkha@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

"We hide ourselves in music in order to reveal ourselves"

Jim Morrison

Introduction

The chronological trace of the Spanish colonial exploitation of castle mines, as vital as it is, only constitutes a time frame for us because what we seek is to identify the socio-historical dimensions of the presence of mines in the countryside in connection with colonial exploitation, by bringing to mind three essential elements, which are the central issues of Mark Block's concern[1]; namely intellectual such as questioning, synthesis, and comparison. Questioning by interrogating the oral heritage available to us and providing temporary explanations and answers to the questions raised[2]. The composition aims to overcome the confusing details and combine the threads of human action related to the mining areas of the countryside in general and the Qaliya tribe in particular. The comparison goes beyond description as it relates to dual colonialism between Spain and France. The Sultaniyya region was also known for the emergence of mining areas.

Therefore, it is necessary to first understand the forms of colonial mining exploitation and then subject the results of this exploitation to a socio-historical examination. This examination is linked to the transformations of the tribe's characteristics, which are based on both oral heritage and historical documents. By combining these sources, we can construct a comprehensive picture of the Rifian community in Qaliya, including its structures and productive functions during and until the end of the protection period.

1. The importance of singing heritage in Rifian society

The Rifian person's connection with "Izran"[3] goes beyond the relationship of enjoyment and recreation or the sharing of time. Instead, it accompanies him whenever he comes and goes. While practising most of his activities in the field and at home, it became: "It falls within the ceremonial rituals of man in his struggle for existence."[4] This Riffian singing heritage remained more comprehensive regarding the diversity of its topics and its interest in detailed events, both ordinary and exceptional, and there is no more explicit evidence of this than the details of the heroic liberation battles[5]. Ezran's spontaneous singing became famous in the region with the phrase "Ezran n lala boya,"[6] in which women found a platform to express psychological, emotional, and social needs. Many sources report that women blamed Muhammad bin Abdul Karim Al-Khattabi for preventing them from singing "Ezran" at parties and public events during the period of the Rif Liberation War. They were affected by the cancellation of the spectacle, as it was a poetic forum par excellence[7]. They could not bear this measure and considered it an unbearable shock, so they sang protest poetry, satirizing this decision and, through it, demanding that it be retracted[8], which indicates the immense value of singing for the Riffian person and his freedom from any authority that tries to cancel it[9].

mulay muḥənd ma wa ḏ rḥkam n š
umi ṯqqim ralla buya wa ṯğı ḏi ṯmwaṯ n š
Hi Moulay Mohand, is this your ruling?
Banning the song of "Lala Boya" from your land?

Arbi a thḏiḏ a nġ yuš tasriḥ
a nġ yuš tasriḥ ẖ lala buya ḏ šḍiḥ
May God, guide him
To Bless the singing of Lala Boya and dancing.

2. Toponymy of mining areas

Toponymy plays an essential role in studying local history due to the relationship of geographical place names and human names to historical facts and to the anthropological and linguistic characteristics of any tribe. We will focus on interpreting the meanings of site names and the features of change in their linguistic patterns—more than paying attention to defining and describing them. Within the framework of this approach, we will limit ourselves to listing the most important sites of mining areas in the Qaliya tribe. It is as follows:

Qaliya:

Several researchers link the name "Qaliya" to "Qaliya Kart", basing this on what Al-Bakri reported. If we accept this proposition, the name Qaliya is taken from the castles or citadels with which the region was known, and therefore the name Qaliya "does not have a human connotation, i.e. "Thing,"[10] in terms of ethnicity, one researcher points out that "Beni U rtada, or at least a faction of them, is the one who later became known as Qaliya."[11] Many oral narratives, through field research, indicate that the name relates to the nature of the agricultural activities for which the Qaliyaites were famous and are mainly related to the operations of "uprooting" crops that grow underground. The expressions are still in circulation until now. It is "anqrəɛ" aḏ neqrəɛ, especially crops of potatoes, turnips, etc. From this, it may be concluded that the matter could be related

to a name given by other tribes to the people of the tribe in reference to the usual agricultural activities in the region.

Beni Bouyafrur

"Bu" means the owner of the property, and "Afrur" may be derived from "Afrur", which among the people of the region means red soil. One of the most important rivers in this fifth of the tribe is "Igzar Azkag", meaning the Red River, about the colour of the soil spread in Iksan. Moreover, Ahwaz contains several minerals, the most important of which is iron, and we find this present in Izran Qaliyah regarding the conditions of the resistance against colonialism:

ɛamayən i kiġ saḏu šar azggwaġ
anzar ẖafi yššaṯ uššən ẖafi ytzu

If you want to know what you want, then.
I spent two years under the red dirt between the rain and the howling of wolves.

The word "afrur" can also mean crumbled If it is derived from the verb "yevruri", meaning fragmentation, which is observed in the soil and rocks of several areas of Beni Bouyafrur, which are exposed to erosion and fragmentation, especially on the slopes, and among what was considered a kind of satire in the lyrical heritage of Beni Bouyafrur, and this description was used for the soil and rocks of the region. ":

limbayɛəṯ n mğara ḏ uzru ẖ tnfrara

A seagull landed on a rock that was crumbling beneath.

As for Spanish writings, they indicated, in one of the articles published in 1909 A.D., that the name "Beni Bouyafrur" means the shepherd's sons, "Hijos del pastor."[12]

Afra:

The word's meaning may not differ from the type of soil mentioned previously. However, we found that the word has another meaning: a low and concave place suitable for collecting or preserving water[13], and its diminutive is "Tafraout", which means, in the local language, The place where water is poured to feed livestock. Also, another definition holds that "Afra" is close in pronunciation and meaning to "Afri," meaning the cave[14]. There are many caves in the area.

Iksan:

It is also said: "Isan" is the plural of "Is", which means horses, and some believe that the origin of the word is "Ouxan" and the Spaniards wrote it Ouxan because the letter "Shin" is written as "X" in Spanish, and when read in French the word is pronounced "Ouxan", and according to this trend; The origin of the site is "Adhra n Washin", meaning Wolf Mountain. We think that this is incorrect, given that all of the elderly people we met from the region did not mention that "Adrar-n-Wushin" had been traded in the past, except around the "Ushan" valley extending to Azghangan, and that Isan, "Wesan," or Iksan (According to the method of pronunciation), it is the name by which the mountain was known, and it remains prevalent to this day. However, Hassan Al-Wazzan, Marmul Karbakhal[15], and Ibn Battuta should have mentioned the mountain with this name. Otherwise known as "Jabal Zaghngen" [16], Moleras attributed the site to "Sidi Bou Sabr" [17], which is one of the most famous shrines in the region.

3. The historical context of the beginning of the exploitation of Riffian minerals

The belief in Morocco's richness in underground resources contributed to it, especially in its northern part. In stimulating European financial and political circles to carry out relevant exploration operations, competition increased between the powers to obtain adequate facilities and guarantees for their exploitative projects, opening the door to colonial penetration. "At the beginning of the twentieth century, the countryside was an unexploited area, not yet discovered by Europeans, surrounded by legends and stories, as was the case with its imaginary wealth and its diverse and widespread mines, especially at the end of the nineteenth century, as the French traveller Mollieras tried to highlight, who considered the countryside like Peru." Or "the new Eldorado."[18]

Although the Rif region is geographically mountainous, it contains layers of lead in the form of sulfur carbon and carbonate. It can be considered that Spain's rush for mineral resources was among the most critical factors of colonial intervention in the Qaliya tribe. Colonial studies and research reported the abundance of iron and lead minerals in Beni Bouyafrur. Foreigners have conducted mineral research, and foreign companies are competing to win the exploitation of the Beni Bouyafrur mines in Iksane. It is a representation among the population that the exploitation of the region's minerals will be a source of conflict between the European powers, and this poetic stanza indicates this representation.

a yaḏrar n uksan yffġḏ ḏayek rməɛḏn
Oh Mount Iksan, Mothering metals
yffġ ḏayek nnuqaṯ rgnus ẖak mnġən
silver will bring countries to arms

The word "silver" in this poem refers to the importance and value of iron metal. It seems that the Riffian people of the Qaliya tribe were previously aware of this, especially after the repeated visits of foreigners interested in prospecting for minerals in the Mount Iksan region since the beginning of the twentieth century, especially engineers and investors—Spaniards in the field of mining and mine-exploitation.

It is worth noting that the position of Spanish capital from the beginning was cautious and did not undertake direct investment in the exploitation of mines, except after providing cash liquidity and benefiting from the occupied sites along the Mediterranean coast of Morocco. Spain began to exploit minerals in northern Morocco before imposing protection based on what was decided at the Al-Khazirat Conference. In the year 1906 A.D., the preparation of maps to determine the locations of minerals began, and the Spaniards took advantage of Al-Jilali Al-Zarhouni in Qaliya, who facilitated mining operations for European companies[19]. The Jewish investor David Charbet played an essential role by bringing Spanish capitalists to The Figueroa Company[20], sending engineers to analyze the samples, and several interested parties emerged in the mineral sector. In 1908, the Spanish group founded the Spanish Company Rif Mines[21] (Compaña et al.), and this company obtained mining exploitation rights. Moreover, the right to build a railway extending over thirty kilometres links the mines of Beni Bouyafrur to the city of Melilla[22]. Other companies were also established in the same period, and the list of the names of settlement companies to exploit the minerals of the region after the imposition of Spanish protection became as follows:

- Europran North African Ltd Mines
- Minera Setolazar S.A
- Alicantina
- North Africa

These companies benefited from the terms of the agreement of November 16, 1910, which the Spanish government concluded with Sultan Abdel Hafiz, in the context of seeking to solve the problems resulting from the conflict between Qaliya and the Spaniards, as it stipulated the concession in favour of Spain of 55% of tax collections on mines, and the appointment of a Spanish employee to oversee the Monitoring the implementation of the agreement. However, the entry of Morocco into the protection system and the tribe's submission to the Caliphate region made Spain accelerate time to legalize its exploitation of minerals by issuing the mines decree issued in 1914 A.D., and the law regulating mines issued in the official protection bulletin on January 20, 1915, A.D., which specified the legal conditions for the quarries, and the locations of the materials used in them. Fuel, mines, springs, salt water, and every other virtual resource are underground. The people of Qaliya considered that their land and natural resources had been sold to the Spaniards, and they expressed this with great pain and anguish in their lyrical poems, including:

sriġ ijn war ur inu inhəz
ami ḏa innan aḏra(r) n uksan imənz
The tidings I heard school my heart
for the sale of Mount Iksan
a yaḏrar n uksan a ya sus n yẖsan
yəwyi šak arumi ybna ḏayək asnyan
O Mount Iksan, you rotted my bones
But the Christian stole you to build pillars

4. Exploitation of Riffian mines and transformations in the socio-economic structure

Oral narratives from respondents who worked in mines during the Protectorate[23] indicate that the first beginnings of exploitation were carried out in traditional ways, through the captain digging in the upper layers, where the iron metal was raw and without impurities. It was carried from Mount Iksan on the backs of animals and then transported to trucks and railway train cars from Azgangan towards Melilla, and most of the workers were minors between the ages of 12 and 18 years. In the second stage, companies moved towards settlement and building mineral production means. Establishing furnaces because the matter required the removal of impurities (especially sulfur) and condensation processes; older workers began to join the work after the protection system was officially established and the exploration, transportation and export operations were organized.

Until 1918 A.D., workers' wages were at most two simple for 10 to 12 hours of work per day. During the same period, workers employed by the Rif Mining Company were paid 5 Pesetas per day[24], and the magazine "Africa" indicates that the daily wage ranged between 3.25 and 6.25 Pesetas, depending on each worker's productivity.

Spain did not have a project to convert metals into manufactured materials, as it dealt with iron metal, a raw material exported purely to manufacturing centres in Germany, France, England, the Netherlands, and other European countries. Minerals were being extracted at a rapid pace,

especially in Beni Bouyafrur in the mines of Iksan and Ahvaz (along with other minerals, the most important of which is lead in the Afra mines), which formed a production pattern based on direct export and continuous and escalating exploitation, from 1912 A.D. to 1921 A.D., before the outbreak of the Muhammad bin Abdul Karim movement. Al-Khattabi against Spain, so production and exports doubled during the period of World War II, as about 30 million tons of iron metal were extracted from Mount Iksan between the years 1941 A.D. and 1958 A.D.

Table No. 1: Statistics related to the quantities of metals destined for export from the port of Melilla (1914 AD - 1925 AD) in tons.

Years	Zinc	Lead	Iron	Mining Companies
1914	-	-	6.061	Rif Mines
1915			65.687	Rif Mines
	700	4.128		North Africa
			13.602	Alicantina
			3.850	Setlolazar
1916			125.660	Rif Mines
	1.915	2.313		North Africa
			51.641	Alicantina
			22.325	Setozar
1917			120.980	Rif Mines
		1.009	5.124	North Africa
			28.045	Alicantina
			45.128	Setolazar
1917			201.719	Rif Mines
	1.779	2.076		North Africa
			5460	Alicantina
			61.606	Setozar
1919			174.018	Rif Mines
		1.149	2.850	NortAfrica
			41.090	Alicantia
			51.349	Setolzar
1920			294.499	Rif Mines
		687	14.900	North Africa
			13.150	Alicantina
			51.211	Setozar
1921			65.863	Rif Mines
		93	17.700	Norte Africa
			229.973	Rif Mines
1922		160	13.094	Norte Africa
			8.910	Alicantina
			48.108	Setozar
1923			358.009	Rif Mines
		65	7.000	Norte Africa
			35.759	Setolazar
1924			314.690	Rif Mines
	1.053	220	3.830	Norte Africa
			75.693	Setolazar
1925			275.916	Rif Mines
		23	10.950	Norte Africa
			88.763	Setolazar
Total	5.447	11.923	2.992.504	

It is clear from the table that the "Spanish Company for Rif Mines" had a monopoly on the exploitation of iron ore in the Beni Bouyafrur mines, with about 80% of production, and it exported it as a raw material to foreign markets. This company equipped the production area with a 30 km railway linking the mines to the port of Melilla and employing 1,503 workers. The "Sitolozar Company" equipped the region with another 27.7 km long railway through which 105 locomotives pass, indicating the strength of colonial exploitation of the underground wealth of Qaliya.

Based on statistical data relating to the pace of production and export, and concerning the pattern of production based on raw and direct export, it can be said that Spain, through its colonial policy, The Beni Bouyafrur region missed the opportunity to turn into a manufacturing hotspot, but what prevented this was the nature of Spanish colonialism itself, which did not have the conditions and investment capabilities to move the region towards industrialization. The region was subject to management that relied on military force and the presence of observers in all regions. There was no opportunity to open the way for European capitalist investment. Spain lacked an industrial bourgeois class qualified to launch major industrial projects, similar to European countries that could develop and prosper the capitalist system. It is also possible to add an internal factor related to the nature of the region, as the latter was formed by the warehouse in The former, and to Spain throughout protection; An area of resistance, conflicts and armed clashes, and therefore it was not easy to venture with colossal capital to transform Qaliya from an area of mining exploitation, into an area of interconnected

capitalist relations between the mining and industrial sectors. Despite this, Spanish settlement brought about several changes in the quarry field that were linked to facilitating colonial exploitation through the forced possession of property, the opening of quarries, and the establishment of workers' residential neighbourhoods, the first of which was in San Juan, then Sitolazar, Ixan, and Azgangan, metal condensation processing workshops, construction of transportation routes, and paving of roads. And construction of railways. Moreover, all these facilities and others changed the nature of the Riffian landscape and turned it into a mining area par excellence.

Working in the mines provided stable incomes, which forced the population to work regularly and continuously. Daily work in these mines gradually contributed to the workers' disengagement from their agricultural exploitation, which led to a shift in the economic behaviours of the village families[25].

It is worth noting that, despite the importance of mining revenues, the region has yet to benefit from the development of mining exploitation to establish industrial equipment there. The number of miners who own agricultural land has remained high, and the workers collectively are prompted to speak with reservations about "petrification." As for the natural and human levels, the nature of the social reality, and the natural and human geography of the Rif areas in the area of Qaliya in general, and Beni Bouyafrur in particular, It represented a tribal social system based on the practice of agricultural and pastoral activities, and some commercial activities, within an area in which movement was almost permanent, and in many directions, especially towards Oran.

These general features constituted a stumbling block due to the conditions for the transformation of the socio-economic structure of the region. Capitalist companies in the mining sector only constituted a platform for the emergence of socio-economic transformations, but they moved towards integration to become enormous capitalist structures. They found themselves, at first, in a state of almost complete loss of the simple labour force, supposedly the first agent to reveal the bowels of what Mount Iksan contained in terms of Iron. This will accelerate the attraction of a large number of Spanish labor force, to the point that the presence of foreign colonizers in Qaliya will cause socio-demographic changes within the tribe.

However, more than a century after the beginning of the exploitation of the countryside mines, the oral tradition still echoes the suffering of the tribe's people. It expresses an epic tragedy with a burning that has not been erased by time. Among the songs that evoke collective memory about the operations of prospecting, shipping, unloading and exporting iron ore from Iksan abroad are the following:

uʷssan nnəš i sbḥan arbunt
ẖ mi žarwan siwḍənt irumyən
ṯarwan nnəš i ṯi ẖbchən ṯarwan nnəš
i ṯi siḍfən qqimn ḍaysən ifqqusən[26]

Your days bygone carried away on Christian Locomotives

Your progeny's digging up left a burning in their heart

A picture of miners from the people of Qaliya working in the mines



© Hispanus, *La esfera*, Año III, 9 December 1919, №154, P.3

Conclusion

Social processes, with their inherent diversity and temporal dimension, allow individuals to adapt time to their goals and aspirations, leading to either transformations or a steadfastness against change. Karl Marx noted that individuals create their history within circumstances shaped by the past. This paradox, explored by contemporary sociologists like Anthony Giddens and Norbert Elias, is particularly relevant when examining culture's role in social organizational change. This is evident in the study of how the memory of mines influences the rural populace, considering its historical and socio-cultural implications, as well as the lyrical cultural heritage that reflects these transformations.

This context emerged in the early twentieth century, particularly following the establishment of the Protectorate in 1912 and the beginning of colonial rule in Morocco. Throughout this period, tribal societies in rural areas did not fully transition to "proletarianization" as mining complemented traditional activities like agriculture, trade,

smuggling, and work on French estates in western Algeria.

Over a century later, collective memory retains the feelings of exploitation by Spain, viewing the extraction of minerals as a “theft” that drained their community’s vitality. Consequently, the enduring presence of mines in collective memory has shaped the cultural framework of rural society, influencing the development of social institutions and cultural organizations that transcend individual lifetimes, thereby ensuring their stability and continuity.

Notes:

[1] Muhammad Habida, *Historical Schools*, Dar Al-Aman, Rabat, 1st edition, 2019, p. 81.

[2] Lucien Febvre made the question the beginning and end of history, and historical science was a study completed in a scientific manner, that is, in which historical research is subject to asking questions and formulating hypotheses. Looking at:
Lucien Febvre, *Combat pour l’histoire*, Paris, Armand Colin, 1956. P.54

[3] Ezran: It is a plural form, its singular is: “Ezri”, and its equivalent in the Arabic language is: “poetic verse”, which is a style that depends on an improvised assembly of multiple verses, with no organic links between them. Rather, it may exceed two or more verses on contradictory topics, without embarrassment. The poet or vocalist repeats or improvises, so much so that in most cases it is impossible for him to repeat the same "text", with the same verses, and in the same order. It is divided into two parts. The first is produced and performed by “The Sheikhs” or “Imdhiazin” and is distinguished by its disciplined rhythm and artistic value. The second is created by women and is the most sincere and spontaneous. See:
Fouad Azrawal, “The Poem in Amazigh Poetry,” *Moroccan Excavations*, No. 4, Al-Jasso Press, Oujda, 2006, p. 120.
Samuel Binary Leonard, “Notes on popular songs in the Rif, Berber archives, 1915-1916”, *Fasic*, 2nd Edition, AL KALAM, Rabat.1987. pp. 26 - 27.

[4] Al-Hussein Al-Idrissi, “Rural Lyrical Poetry in Morocco,” *Popular Culture Magazine*, No. 4, 2009, p. 93.

[5] Ibid. p. 92

[6] American researcher David Montgomery Hart believes that “Ayara Labuya” as a lyrical phrase is more than just a cultural trait. Rather, it is a social tradition that carries an institutional character, and therefore we can say without exaggeration that any tribe that does not sing “Ayara la Boya” is not considered a truly rural tribe. David Montgomery Hart, T*he Aith U Riagel Tribe - A Tribe from the Moroccan Rif, An Ethnographic and Historical Stud*y, MS, p. 247.

[7] Previously, Thamgra (wedding) consisted of 15 days. Then it reduced to a week and then to two days due to the wars and conspiracies that were besetting the region. Muhammad bin Abdul Karim Al-Khattabi had to issue his decision on this last matter. Regarding two days without using ammunition. To keep it during confrontation with the enemy. Even the poetic spectacle that used to culminate in every wedding or parallel gathering was also cancelled, in order to avoid any surprise and to be cautious. Look:
Abdel Samad Majouki. *Rural resistance through rural Amazigh poetry, “Dahar Oubran,” as an example, High Commission,* Dar Bouregreg, Rabat, 2014, p. 24.

[8] Moumen Chicar, “Songs of Rif women: An image, an identity”, In: *Songs of women: from production to reception, Conference proceedings organized* by FLSH on April 30, 2009, Cheikh Hasan bookstore, Oujda, 2009.

[9] Al-Hussein Al-Idrisi, M.S., p. 92.

[10] Hassan Al-Fikaiki, *Moroccan Resistance to the Spanish Presence in Melilla* (1697-1859 AD), M.S., p. 121.

[11] Ahmed Al-Tahiri, *The Emirate of Beni Salih in the Land of Nakur*, Al-Najah New Press, Al-Dar Al-Badha, 1st edition, 1998, p. 201.

[12] El impartial, Diario De La Mañana, Mexico, Saturday 02-10-1909. Q.2.

[13] Drouin Jeannine. “Elements of Berber toponymy in the Moroccan Atlas”. In: *Nouvelle revue d’onomastique*, N°41-42, 2003. P.199.

[14] Malika Boussahel, Toponymy of Sétiviens: Morphological and semantic approach, Master Monograph, Bejaia, 2001, P. 117

[15] Hassan Al-Wazzan, *Description of Africa*, *Part 1*, translated by Muhammad Hajji and Muhammad Al-Akhdar, Dar Al-Gharb Al-Islami, 2nd edition, Beirut, 1983 AD. pp. 265-270.

[16] Marmol Carbajal, *Africa, Part 1*, translated by Muhammad Hajji et al., New Knowledge Library, Rabat, 1984, pp. 267 and 297.

[17] Auguste Molleras, M.S., pp. 75 and 163.

[18] Maria Rosa de Madariaga, In the Trench of the Wolf, ed., p. 43.

[19] Al-Jilali Al-Zarhouni ceded the minerals of the Qaliya tribe, pursuant to the “Firman” decree, after several negotiations. To review the stages of negotiations and the cession agreements. Looking at:
Rachid Yashouti, Spain, the Rif and Sharif Mohamed Amezian, M.S., pp. 70-71-72.

[20] David Charbet; A French Jew, born in Tlemcen, began his life as a trader in livestock and their hides. He had monopolistic partnerships with merchants in the eastern countryside, including Jacob Salama. Looking at:

[21] This company is called C.. E.M.R.

[22] About the context of the construction of the railway and the events associated with it; Looking at:
Hassan Al-Fikaiki, Sharif Muhammad Amzian, Martyr of National Awareness (1908-1912), Ruba Net, Al-Yat, 2008, pp. 56-60.
Rachid Yashouti, Spain, the countryside and Sharif Mohamed Amezian, M.S.

[23] We relied on their oral accounts about their work in the mines, and their fathers' work prior to the protection period. The list of respondents and dates of interviews can be seen in the list of references and sources.

[24] Víctor Ruiz Albénis, El Rif: Retrato de un Español en el Norte de Africa, Juan Fueyo, Madrid, 1912. P.84.

[25] Maimoun Aziza, The Countryside during the Spanish Protectorate, ed., p. 345

[26] A clip from the song “Azghangan” by Aynath.

حضور مناجم الريف في التراث الشفهي الأمازيغي وأبعاده السوسيوتاريخية

د. جمال الدين السراج
أستاذ التعليم العالي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الأول – المملكة المغربية

د. منير كلخة
أستاذ الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
الناظور -المملكة المغربية

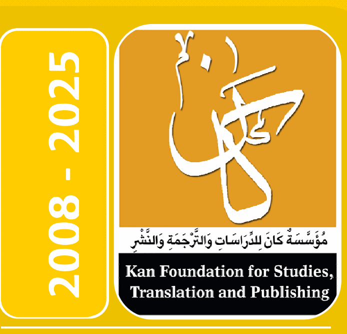
مُلَخّصْ

أصبح الريف الشرقي خاضعا بشكل رسمي للمنطقة الخليفية سنة 1912م، وعملت الإدارة الإسبانية على استكمال المشاريع الاستيطانية لاستغلال موارد الريف وثرواته، خاصة المعادن التي اكتنزتها المنطقة. وكان تهافت إسبانيا على الثروات المعدنية، من بين أهم عوامل التدخل الاستعماري والاستيطان في قرب مناطق المناجم. وهو ما خلف تمثلات عدة لدى أهل القبيلة حول الاستغلال الاستعماري لثرواتهم، وتحولات اجتماعية وثقافية وتاريخية، يمكن رصدها من خلال التراث الشفهي خاصة الأشعار الغنائية، والحكايات الشعبية، والروايات الشفهية المتوارثة. وجدير بالذكر، أن الإنتاجات التراثية الشفهية، تعد متممة للوثائق التاريخية، بل يمكن أن تشكل في غياب الوثيقة، أداة أساسية لفهم تاريخ المنطقة، ومنطلقا لإعادة قراءة تاريخ القبيلة، من خلال التوارث الشفهي للأحداث والوقائع. وبذلك يساهم التراث الشفهي في التأريخ لفترات شكلت منعطفات تاريخية، ما زالت رواسبها وآثارها كامنة في الذهنية الجماعية لقبائل الريف، خاصة قبيلة قلعية، التي اكتنزت أحشاء جبالها ثروات معدنية غنية أهمها الحديد.

من هذا المنطلق، يأتي هذا المقال، ليحاول الكشف عن جوانب من تمثلات مجتمع قبيلة قلعية، حول الاستغلال المعدني ومناطق وجوده، بالاستناد إلى التراث الشفهي بالمنطقة، خاصة التراث الغنائي، الذي يُعَدّ بمثابة علامات تشوير، يقود إلى التعرف على هذا المجتمع الأمازيغي القبلي اجتماعيا وثقافيا. وذلك من خلال مقاربة سوسيوتاريخية، تُمكن من رصد تحولات المجتمع القلعي وتمثلاته، وخصائصه السوسيوثقافية. وهو مجتمع اعتمد على بالأساس الذاكرة الشفهية في الحفاظ على هويته وخصوصيته الثقافية. وهو ما سنحاول إثباته من خلال التركيز على استثمار أشعار غنائية (إيزران) متوارثة داخل القبيلة، قصد رصد جوانب من تاريخ مجتمع قلعية، مازالت آثارها محفورة في ذاكرة المنطقة.

كلمات مفتاحية: التراث الشفهي؛ إيزران؛ المناجم؛ الريف؛ قلعية





https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449
https://www.facebook.com/historicalkan